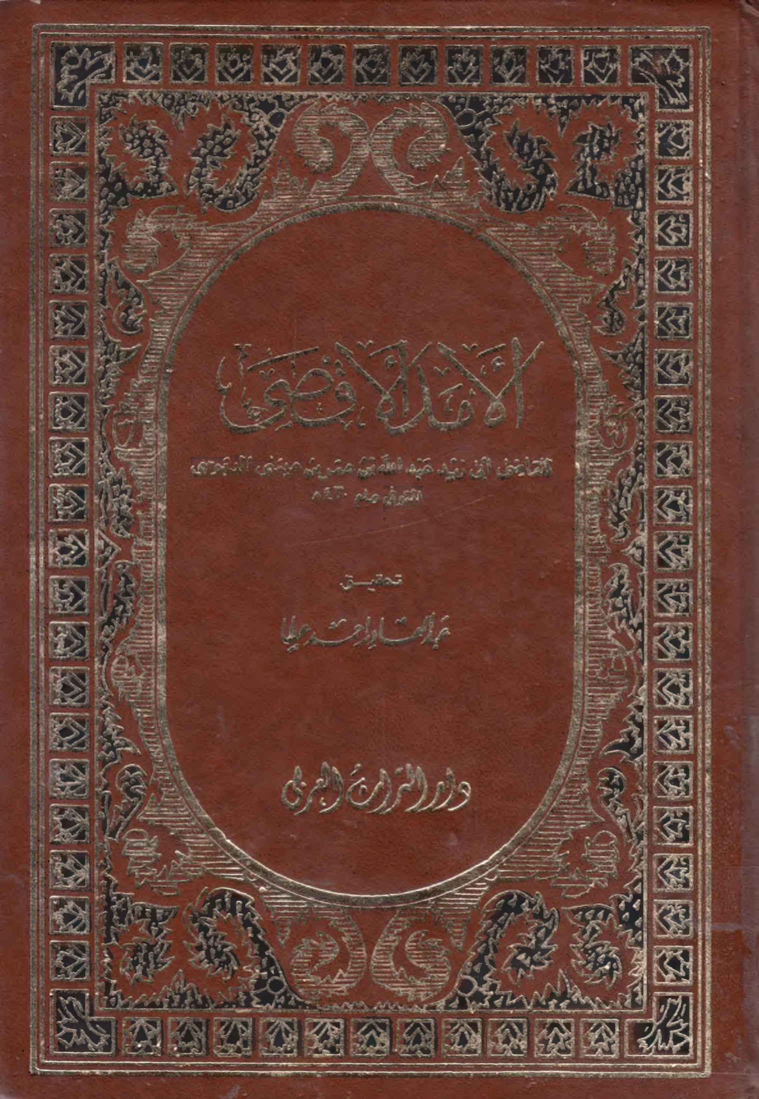

الأمد الأقصى
للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي
المتوفى عام ٤٣٠ هـ
تحقيق
عبد القادر احمد عطا
دار التراث العربي

بدائع التراث



للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي
المتوفى عام ٤٣٠ هـ

تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

ملتزم الطبع والنشر
دار التراث العربي للطباعة والنشر
ميدان المشهد الحسيني ت ٩٣٦١٤٥

الطبعـة الأولى

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

مطابع دار التراث العربي
ت ٩٢٦١١٤٥ - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

*** بين يدى الكتاب :**

ان قلت : ان هـذا الكتاب قد بلغ به صاحبه الأمد الأقصى بين شوامخ التراث الاسلامى فما عدوت الحقيقة .

وان قلت : انه من غرائب العـلم والفكر الذى لم يسبق اليه فى كثير من فقراته وموضوعاته فقد أنصفت وعدلت .

وان قلت : انه انتفاضة حرة نباءة فى عالم التأليف ، وثورة على النقول وعلى السطحية والتكرار فهذا هو الواقع الذى لا مراء فيه .

وان قلت : هو فقه جديد للسلوك الاسلامى الصحيح الخالى من البدع والأوهام ، سحيق الغور ، شامل النظرة ، متحرك الآفاق ، فهو ناطق بكل ذلك ، وبغير ذلك من وجوه التفوق والابداع .

هـذا الكتاب فكرة محددة مركزة سبرها مؤلفه ، ودار فى داخلها وحولها فى منهج متكامل منظم كاف وشاف بحيث لم يدع فرصة لمنتقص ولا مجالا لمعترض .

ولم يلجأ مؤلفه الى النقول عن غيره من العلماء وترجيح مذهب على مذهب ، بل كان كتابه صورة لعقلـه وحده ، ولانعكاس الفكرة الاسلاميـة فى مرآة قلبه هو ، وهـذا ما كنا نريده ، ولا زلنا نريده من كل فكر مسلم .

وعقل مؤلفه كما يبدو من كتابه لون من الهندسة العقليـة ان صح هـذا التعبير ، يحكم الفكرة ، ولا تحكمه الاستطرادات والتفريعات ولا العواطف التى تنتهى الى البكاء والعواء على ماض مجيد دون أن يرسم الطريق ، ويضع على جادتـه الأعلام والأضواء .

هو كتاب فى فرائد المعرفة وشوارد العلم وغرائبه .
أو كتاب فى علم قبول الأعمال .
أو هو الأمد الأقصى لمعرفة الانسان نفسه وربه ، والوصـــول بالنفس البشرية الى حقيقة الحرية .
وأخيرا يمكن أن نقول : انه تحد ناجح مبارك لمن كانوا يميلون على فقهاء مذهب أبى حنيفة بالتجريح والجهل بالسلوك ، وبكل ما يتصل بالآخرة من المعرفة ، وقد آتى هــذا التحدى ثمارا كنا نرجو أن تكثر من أجلها التحديات .

* * *

* من بركات الحكيم الترمذى :

مال الحكيم الترمذى رحمه الله فى كتابه « المسائل المكنونة »[1] على فقهاء مذهب أبى حنيفة ، واتهمهم بالغطرسة والكبر ، والغرور بالفقه وبمجالس العــلم وحلقاتــه ، والنأى عن كل ما يرق به القلب من علوم المعاملات وشئون الآخرة .
والحكيم الترمذى كما هو معروف كان حنفيا ثم أصبح شافعيا ثائرا ضد الأحناف ، وهو على جلالة قدره لا يريد الا الخير على كل حال ، ولا نستطيع رميه بالتعصب لأنه رجل شهدت له سيرته بالزهد والعلم والنصح لكل المسلمين .
ونستطيع أن نرجح أن هــذا التحدى قد بلغ أبا زيد الدبوسى على صورة من الصور ، لأن فكرة كتابه وعمق أفكاره ، وانفراده بالكثير منها ، واعتماده على الفهم الذاتى للكتاب والسنة دون أقوال النظراء ؛ وحتى تبويب الكتاب ، كل ذلك يوحى بأنه كان رغبة فى اثبات منزل رفيع على القدر من المعرفة لعلماء مذهب أبى حنيفة ، حتى ولو لم يكن الدبوسى متعصبا هو الآخر لمذهب بعينه ، اذ أنه ثار على كل من يتعصب لواحد من الأئمة دون كتاب الله وسنة رسوله ، وفقه الصحابة ، فهــذا مجال نور النبوة ، وما بعده من العصور كان نور العــلم ، ونور النبوة أعظم توفيقا من نور العقل ، والأئمة أنفسهم لم يتعصبوا لواحد من الصحابة بعينه ، بل اختار كل منهم رأى واحد فى نازلة ، ورأى آخر

---

(1) حقق هــذا الكتاب الدكتور محمد ابراهيم الجيوشى ، وقامت دار التراث العربى بنشره عام ١٩٨٠ م

فى نازلة أخرى حسبما شهدت له به الحجة ، وقد أفاض القول فى هــذا المضمار فى الباب الأخير من كتابه حينما تحدث عن الأنوار الأربعة : النبوة ، والخلافة ، والعلم والحجة ، والعقل ، وصلتها بسياسة دولة الاسلام حتى بلغ القرن الرابع الذى ساد فيه القول بالرأى واستحر التغالب أو كاد •

لهذا كان هــذا الكتاب بحق من بركات الحكيم الترمذى الذى استطاع بكلمة نقد بناء أن يمس عبقرية نادرة بين علمــاء المسلمين فأبرزت لنا مثل هــذا الكتاب •

* * *

*** الدبوسى والمحاسبى :**

ويمكن القول كذلك بأن الدبوسى قد اطلع على ما كتبه الحارث ابن أسد المحاسبى المتوفى عام ٢٤٣ من الهجرة ، والذى كان فتحا جديدا فى عصره فى عالم التأليف الرفيع •

وحجتنا فى ترجيح اطلاع الدبوسى على ما كتب المحاسبى : أن الدبوسى اتبع طريقة المحاسبى فى التأليف على أساس أن سائلا يسأل وهو يجيب •

والحجة الأخرى : أن كليهما اتجه نحو تحليل النفس البشرية ، وتتبع خداعها ، وحاول الوصول بها الى لون مرضى من التكامل والطهر والمعاملة السويــة للحق والخلق على السواء ، مع تكامل فى الفكرة والمنهج ، واعتماد على النظر الذاتى ، والفقه الشخصى للكتاب والسنة ذوقا لا رأيا •

فلقد كان علمــاء السلوك قبل المحاسبى يبدون ملاحظاتهم على صورة أقوال محكمة مركزة تشبه الحكمة ، نقدا لسلوك ملتو ، أو توجيها نحو سلوك قويم ، أو تنبيها على خدعة من خدع النفس ، أما وحدة الموضوع ، أو وحدة الفكرة فى الكتاب الواحد فلم تكن قد طرقت مواهب السابقين بعد •

وجاء المحاسبى بفطرته الصافيــة ، ومزاجه السليم ، وروحه الشفافة الواعية ، فاتضحت عنده وحدة الموضوع ، وبرزت لديــه الفكرة الذاتيــة التى لا تعتمد على قول الغير الا فى مجال الاستئناس والتأييد ، واختلفت بحوثه من التفصيل كما فى الرعاية لحقوق الله ، الى الاختصار كما فى القصد الى الله ، ثم أمكن أن نقول بولادة الفكرة الواحدة للكتاب

عنده فى آداب النفوس اذا استثنينا الرسائل الصغيرة التى تبحث فى موضوع واحد عنده ، كالمراقبة وبدء من أناب الى إلله ، وفهم الصلاة والتوهم فلم تستعص أن تكون موضوعا واحدا يجمعها وعناوينها •

أما الدراسة النفسية والعناية بالتحليل النفسى فقد كان المحاسبى رائد المضمار بلا منازع •

أما عند الدبوسى فلا نعرف له كتابا فى السلوك الا الأمد الأقصى ، وفيه نضجت الفكرة الواحدة للكتاب على مستواها الرفيع الذى لا يقل فى دقته عن منهج الدراسات الجديثة فى عصرنا الحاضر • أما كتابه : الأسرار ، الذى نرجح أنه هو الآخر فى السلوك فلم نعثر عليه بعد •

ويمكن أن نقول : انه تأثر بالمحاسبى فى الوصايا وآداب النفوس وبدء من أناب الى الله ، فهناك تشابه فى طريقة البحث بين هـذه الكتب والأمد الأقصى ، وان كان الدبوسى كالنحلة تمثل الزهر فى داخلهـا ، فيستحيل الرحيق الى شىء آخر لا يمكن كشفه الا بعملية تحليـل معقدة •

واذا كان الدبوسى قد تحدث فى أثناء كتابه فى كل الموضوعات التى طرقها سابقوه وأخصهم المحاسبى الذى يمكن اعتباره أول مؤلف فى هـذا المضمار ، فانه امتاز بأنه صنع هيكلا من فكرة معينة محددة سنوضحها قريبا ، ثم جعل الحديث عن الموضوعات السلوكية المعروفة بمثابة الكساء الجميل لهذا الهيكل تبرز به مفاتن جماله وسحره وروعته •

واذا كان المحاسبى رائدا لمدرسة التحليل النفسى الاسلامى ، ومدرسة الموضوع المتكامل ، ومدرسة الطهر والنقاء والصفاء ، فان الدبوسى خير من سار على الدرب ، وارتاد مجاهل الطريق ، وغاص فى أعماق اللجة ، وربط بين أصول الفقه وأصول السلوك ، كما ربط بين مظاهر الطبيعة ومظاهر النشاط الانسانى ، أو بعبارة أوضح بين العالم الكبير والعالم الصغير •

* * *

*** الدبوسى ولاحقوه :**

أبرز من كتب عن الانسـان وسـلوكه وأسراره بعد المحاسبى والدبوسى ممن نعرف : الراغب الأصفهانى والشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى ، والوزير لسان الدين بن الخطيب •

أما الراغب ففى كتابيه : الذريعة الى مكارم الشريعة ، وتفصيل النشأتين • وأما الشيخ الأكبر ففى : التدبيرات الالهية فى المملكة الانسانية ، وأما لسان الدين بن الخطيب ففى : روضة التعريف بالحب الشريف •

أما كتابا الراغب فهما أقرب الى فلسفة الأخلاق منهما الى السلوك الصوفى ، أو السلوك الاسلامى فى المعاملات القلبية بين الانسان والحق والخلق • وأقرب الكتابين شبها بالأمد الأقصى على تقصير عن بلوغ شأوه هو تفصيل النشأتين •

وأما التدبيرات الالهية فهو وثيق الصلة بالأمد الأقصى ، غير أن الشيخ الأكبر هو خير من تمثل الفلسفة وطوعها للفكرة الاسلامية من جهة ، وخير مرتاد جرىء للمجهول الذى لا يرتاده غيره ، وهو فى نظرى بمثابة الرحالة الجرىء من هواة الأدغال والكهوف والمسابع ، يركب طائرة ثم يسقط بها فى أى واد من وديان المجهول ، وبعد ذلك يتأقلم بسرعة بين سكانه ، وينسجم معهم دارسا ومعايشا على مستوى عظيم من اللباقة والفهم •

لقد كان فتح ابن عربى سابقا على سلوكه ، ولذلك كان جريئا فى البحث ومنازلة المقامات لا يشق له غبار •

أما الدبوسى فهو رائد من رواد المجهول هو الآخر ، ولكنه يعرف أين يضع قدميه أولا قبل أن يستقر به المقام •

وعلى أى حال فمن المرجح أن الشيخ الأكبر قرأ للترمذى وللدبوسى ، فهناك تشابه بين حديث الشيخ الأكبر عن الزمان وعن الفصول الأربعة وصلتها بالعبادة ، وبين حديث الدبوسى عنها من ناحية صلتها بأصل الانسان •

وأقرب الثلاثة اتصالا بالدبوسى : الوزير ابن الخطيب فى روضة التعريف • الذى قال عنه : انه كتبه معارضا به ديوان الصبابة لابن حجلة ، لكن من وجهة الحب الالهى ، لا من وجهة حب العذارى والغانيات •

وابن الخطيب كغريمه ابن خلدون خير من يخفى ما فى نفسه ويحكم الاخفاء • فكتاب ابن حجلة هذا لا يستحق المعارضة بهذا الجهد المضنى الذى بذله لسان الدين فى روضة التعريف •

وعلى أى حال فهناك فكرة واحدة رسمها لسان الدين وبنى حولها كتابه هى : أن النفس أرض ، والحب الالهى بذر ، والانسان فلاح •

فكيف يقوم على زراعة الحب الالهى فى أرض نفسه • ومن هنا تطرق حديثه حول تطهير النفس ، وما ينشأ فيها بعد التطهير من أنوار ، ثم عن الحب كعنصر أساسى يقوم عليــه بنــاء الكون كله ، وتعرض للحب بين ألحان الموسيقى وبين الكواكب • الى آخر ما أفاض فى الحديث عنه من موضوعات لها من الجدة والعمق نصيب كبير ، كما أنه ابتكر عناوين لموضوعات ليست مألوفة من قبله ، وبالغ فى الأناقة حتى أصبح كتابه منسجما مع موضوعه من كل الجهات[٢] •

والدبوسى هو الآخر : فكرة تدور حولها الموضوعات ، وتجديد فى التبويب ، وتأنق فى العرض ، حتى بلغ فى بعضها الأمد الأقصى من أدب المحاريب •

الا أن ابن الخطيب أكثر من النقول وان كانت شخصيته واضحة تماما ، بعكس الدبوسى الذى لم ينقل بعد الكتاب والسنة الا قولا لابن أدهم غير منسوب ، وقولا للصديق رضى الله عنه ، وقولا لعمر ابن الخطاب رضوان الله عليــه ، وحكمة واحدة غير منسوبة ، وثلاثة أبيات من الشعر • ولم ينقل غير ذلك شيئا عن عالم أو زاهد أو ناسك •

* * *

*** الأمد الأقصى والتصوف :**

حينما تقع أبصارنا فى عصرنا الحاضر وما قبله على دولة المجاذيب وما يتردد فيها من شطحات نابية يبدو فى ثناياها التصنع لحاجات فى نفس ابليس ، وعلى ما اخترعه بعض الشيوخ منذ القرن الرابع الهجرى من وسائل تهدف الى حماية ذواتهم ، وتنأى عن حمايــة الانسان بوجه عام مما لم يقل به كبير من الشيوخ ، حينما نرى ذلك فانا نعذر الذين يعارضون التصوف كمذهب فى السلوك على هــذه الصفة من التدهور والانحلال •

وحينما تقع أبصارنا على تلك النماذج المنيرة التى تمثل بحق طهر الفطرة ، وجمال الانسانية ، والايمان قولا وعملا بالحق ، والحب الذى يشيع من كل جوانبها ، ورقة القلب بالرحمة ، وفناء الذات فى سبيل اسعاد الآخرين ، والايثار بما فى اليد على خصاصة ، ونور الايمان

---

(٢) الكتاب طبع لأول مرة من تحقيقنــا . نشر دار الفــكر العربى بالقاهرة .

والذكر يذكر المشاهدين له بالله ، والفزع من الشر والخطيئة ، وانفساح الأفق ، والدوام على التدبر والتذكر والزهد والورع ، حينما نلمس ذلك فى نادر من الأفراد فى العصر الحاضر ، أو بين أعيان السالكين فى تاريخنا الغابر ، فاننا نرفض الغلو الذى يأتى على القيم كلها لخلل واقع فى بعض بنائها ، كما نرفض الافراط فى التعصب لمذهب على ما فيه من عورات وقبائح ، ونقف فى الوسط ننادى بسيادة القيــم الروحية ، ونبذ ما يشوه جمالها من مطامع الانسان الرخيصة •

فالتصوف كقيمة خلقيــة وروحيــة سامية كان منذ قديم عرضة للادعاء ، فلا أملك للنفس البشرية وأشد أسرا لها من التعظيم والتوقير ، واجتماع الخلق ، وطاعة الأمر ، مما لا يتيسر الا للربانيين من الخلق الذين فنيت مراداتهم فى مراد الله ، فصدعوا بالأمر ، واستعبدوا له فى فخر واعتزاز ، فكساهم الله من لدنه عزة الايمان التى تقصر دونها كل عزة •

والادعاء تؤازره النفس دائما بالتصنع لمظاهر الصلاح على فساد فى الطوية والارادات ، ومن ثم تجنح النفس الى حماية صاحبها من الفضيحة ، وتخترع من الآداب ما يهيىء لها المناخ الصالح لخدعها ولنماء الفساد فى ثوب خادع من الصلاح •

وكان ما قيل من تحريم ارتياد مجلس خلاف مجلس الشيخ ، وتحريم الاعتراض على أى عمل من أعمال الشيخ حتى ولو خالفه الشريعة بظاهره ، ومن هنا برزت فكرة السرية فى السلوك ، كما برزت فكرة التأويل ، ثم التأليه ، وأصبح الشيخ ربا لا ربانيا كما يقول الدبوسى •

ونمت تلك الأفكار الرخيصة فى بيئة الجهل كما ينمو (الميكروب) بين العفن ، وتضخمت قيمة مثل هــذا الشيخ فى عقليــة الجهال ، فأصبحت الخوارق المختلفة ، وتخويف الناس من بطشه فوق قيمة السلوك ، وقيمة الحق •

وأصبحت رواية الكرامة فى كثير من كتب المتأخرين فوق قواعد السلوك ، على ما فيها من غلو وزيادات يأباها ذوق الاسلام الرفيع •

وأصبحت أوراد الشيوخ أولى من القرآن وأدعية الرسول صلى الله عليــه وسلم ، فكل ما يصيب المريد من نكسات انما يرجع أولا وأخيرا الى التقصير فى الورد عن موعده ، وليتهم ألزموا المريد بأورادهم

بعد القرآن وأدعية الرسول والأذكار الشرعية ، بل أغفل الجهال كل تلك الأصول واتجهوا نحو الورد وحده وفى ذلك الانحراف كله .

أما ربط المريد بحلقة شيخ واحد لا يتعداه الى غيره فما رأينا من السلف الصالح من قال بهذا ولا حث تلاميذه عليـــه ، فكل عظيم منهم أخذ عن غير واحد ، بل ان أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه كان كان يقول لمريديـــه : ان رأيتم أعذب من هـــذا المورد فردوه ، وما على أى انسان وقع تحت تأثير تلك البدعة الا أن يقرأ تاريخ أحد الكبار من السالكين الى الله ، وتواريخهم فى متناول أى يد بحمد الله ، ليرى أن هـــذا الكبير أخذ عن عدة من الشيوخ .

ولا حجة مطلقا فى القول بقصور الهمم وعدم طاقتها على ارتياد المشارب المختلفة ، بل ان العكس هو الصحيح ، فالهمة القاصرة تحتاج الى تلوين المشارب لقمع كابوس الملل والكسل ، ما دامت المشارب كلها تحوم حول الكتاب والسنة ، وصحة المعاملة بين العبد والرب ، وبين العبد والناس .

وأما فكرة عـــدم اعتراض المريد على أعمـــال الشيخ ولو كانت بظاهرها مخالفة للشريعة فقد كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم أولى بهذا الأدب يتبعه أصحابه معه وهو المنزه عن مخالفة ما يدعو اليه . وقد رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعترض الرسول صلى الله عليه وسلم ويجذبه من ثوبه ليمنعه من الصلاة على زعيم المنافقين . بل لقد رأيناه صلى الله عليـــه وسلم يعاجل أصحابه بتفسير ما قد يبدو فى الظاهر مصدرا للشك فيعرفهم بأن من معه انما هى أمهم صفية ، ويعلل هـــذه المبادرة بأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق ، وهو الطاهر المعصوم قبل بعثه وبعد بعثه ، والصادق الأمين فى الجاهلية والإسلام على السواء .

على أن حلقات التصوف المتأخرة نزعت الى التركيز على الذكر وحده ، ولم تعن بتطهير محل الذكر بقدر يكفى لتهيئته للاستفادة من الذكر ، فاننا نرى من المتأخرين من يتعاطون المخدرات ويذكرون الله على تأويل سقيم ، ثم يعدون فعل المخدر فى عقولهم حالا ، كما يعدون ثورة نفوسهم اذا فتر فعل المخدر فيها ارهاصا ببلية محيقة بالكون كله ، وهم بهذا الوعى يستحقون الرحمة والعلاج كمرضى لا كشيوخ يأخذون بأيدى الناس فى طريقهم الى الله .

واذا كان كل عصر لا يخلو من الأخيار فان من واجب المفكرين أن يبصروا الناس بخطئهم فى هــذا المسلك ، وتوجيههم نحو الأخيار ، ونشر التراث الواعى الذى يعنى بالتطهير قبل العمل .

ولقد عنى المحاسبى رضى الله عنه بفكرة التطهير قبل العمل ، وأفاض القول فيها فى آداب النفوس . وعنده : أن التخلى عما انعقد عليــه القلب من رذائل وأدواء باطنه هو ذكر لله ، كما أنه المقصود الأول من الدين . والانسان مطالب بترك الشر كله ، وليس مأمورا بفعل الخير كله .

والشر شر كله ، واذا خالط الشر صالح الأعمال استحالت الى شر . ووقع العابد فى الشر من حيث لا يشعر .

ويرى : أن العكوف على خصلة واحدة من الشر وتدريب النفس على التوبة منها ، واحكام تلك التوبة ، ثم الانتقال الى خصلة أخرى ، وهكذا هو موضوع السلوك ومعناه ومقصود الله ومراده .

ويقرر فى « القصد والرجوع الى الله » حين يتحدث عن المعرفة وحركاتها فى القلب والروح : أنها تنصبغ بالشر فتخمد حركتها اذا كان القلب منعقدا على خصلة من خصال السوء[٣] .

ولقد وفق الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود فى وصف المحاسبى بالصوفى الثائر ، اذ أنه بالفعل كان ثائرا لا على فساد السلوك النفسى والروحى فحسب ، بل كان ثائرا على التجار والجند والقراء والنساك والصوفية . حتى لقد وصف بعضهم بأنهم أصحاب غلظة وجهل بالأخبار ، وعلم الانسان أن يسلك بنفسه ، وقال : ان الانسان الذى استنزل الطير من السماء ، وغاص أجواف البحار ، وحفر باطن الأرض بحثا عن الثروة لا يعجز مطلقا عن تفتيش نفسه ومراقبتها .

نحن اذن بين تيارين . أولهما : أن نلهث وراء الخوارق والأسرار ونعتبرهما أساسا للسلوك ، ومقياسا للرجال دون سلوك ، ودون تطهير ، ودون مسارعة الى عمل الخير ، ودون ترتيب للأعمال حسب أولويتها واتباع الأولى فالأولى .

وثانيهما : أن نصرف الأنظار عن الخوارق ، وأن نحطم الحواجز التى صنعها الجهال ، فنرتاد ما يلائمنا ويلائم الاسلام من الحلقات

---

(٣) قامت دار التراث العربى بنشره عام ١٩٨٠ م بتحقيقنـــا .

والمجالس ، ونعنى بنشر التراث الواعى ، الى جانب كتب السنة التى تنير طريق العمل ، والى جانب كتب السلوك النبوى ، لنحجب بهـذا النور ظلام بدعة الانسان فى السعى وراء الخوارق ، ذلك السعى الذى يدفعه الى الايمان بالكواكب والأوفاق والأزياج ، فيكفر جنانا وان آمن لسانا كما يقول الدبوسى •

ولقد قرر الدبوسى : أن بعض السالكين غلوا فقالوا : لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق ، ولا خلق بغير قدرة ، والله خالق كل شىء ، وما خلق الله بقبيح ، فارتكبوا المناهى وعاقروا الملاهى ، وأصبحت العبادة عندهم صراخا ، وتأويل القرآن تتفزع منه القلوب •

ويبدو أن تلك كانت بوادر « القلندرية » الذين قالوا : يكفى صفاء القلب وما على العبد بعد ذلك حرج ، كما أن تلك الفرية كانت أساس دولة المجاذيب فى عصرنا الحاضر •

من أجل ذلك اخترنا كتاب « الأمد الأقصى » للقراء لأول مرة لأنه يخدم السلوك الصحيح الذى لا اعتراض عليـه من جهة ، ويرسم الطريق الصحيح الى الله ، وينأى عن الأوهام وخداع النفس وتأليـه الفرد ، واستوعب كل نواحى النشاط السلوكى للانسان فى وعى وقوة وعمق •

* * *

* أهمية السلوك الروحى فى عصرنا الحاضر :

من المسلم به أن أى جهاز فاسد لا يمكن أن يعطى نتائج مطابقة للحق ، وأن الجهاز القويم يمكن الاعتماد على النتائج التى يعطيها والاطمئنان اليها •

والانسـان بوصـفه متفاعلا مع غيره بطبعـه ، عامـل فى بنـاء مجتمعه على صورة من صور الخير أو الشر تبعا لسلامة أجهزته الفكرية التى تتركز فى النفس والعقل والروح ثم الجسد الذى يتبع تلك المحركات على ترتيب معين صحيح •

ويقول الدبوسى : ان الجسد رعية ، والروح رقيب من عند المولى ، والنفس رقيب من الدنيا ، والحواس تخدم النفس ، والقلب يخدم الروح •

فاذا غلب رقيب المولى استأسر له بقيـة الأعوان والرقباء ، وعلى العكس اذا تفوق رقيب الدنيا •

ولا نشك فى قصور مناهج التربية والعلاج الوضعية عن الوصول بالانسان ولا سيما المسلم الى درجة من الكفايـــة للقيـــام بالمهام التى أرادها الله تعالى على المستوى السياسى الاسلامى فى الدنيا ، وعلى المستوى الأخروى الذى لا يخلو هو الآخر من خير الدنيا •

ومثل المناهج الوضعية مثل من يصبغ وجه المريض بذات الرئة بالأصباغ التى تعطيه لونا طبيعيا جميلا يخاله الرائى لأول وهلة سليما معافى والداء يهد من كيانه خلف الأستار والأصباغ ، هــذا الى معارضة المناهج الوضعية للمنهج الالهى فى جرأة وجهل ، وجرأة الجاهل أخطر شىء على مستقبل أمة الاسلام •

فمثلا قالوا : أن الزهد هو السلبية الاجتماعية ، وهو من دوافع الاستكانة والكسل ، والرضا بالقليل دون طموح ، وليس فى الحرمان خير •

هذا ما يدين به جمهور الناس وعلى رأسهم بعض من أنصاف المتعلمين ممن يتولون تدريب الشباب فى معاهد العلم وتربيتهم •

وأقول أولا : لـــماذا انحصر الطموح عند هؤلاء الأنصاف فى احراز الملذات والانطلاق فى تناولها ما شاءت لهم البهيمية الحمقاء ؟

أليس هناك ألوانا من الطموح ، ومجالات أخرى له لم تمس عقولهم ولا نفوسهم ، ومنها التفوق فى العـــلم ، والتفوق فى قـــوة الشخصية ، وفى الروح المعنوية وفى القدرة على مواجهة مختلف الشدائد فى حزم وعزم وأصرار ؟

ثم أقول : أى هو المؤمن القوى ، أهو الذى اعتاد الطعام المعين ، والنوم على الفراش المعين ، والاقامة فى بيت له مواصفات معينة ، أم هو الذى يتكيف فى أى بيئة ، وعلى أى مستوى من مستويات الطعام والنوم ؟

وهل فى ساحة الحرب خيار لطامح الى رفاهية الحياة ؟ أم ان المنصور فيها هو الصبور على الجوع ، القادر على النوم بين الصخور ، الذى يستمتع بلحن الطبيعة ما لا يستمتع بلحون العازفين ، والذى يأوى الى ركن الله الشديد ما لا يركن الى شعارات الفلاسفة الذين خرفت عقولهم وانحلت طبائعهم ؟

فالزهد تدريب على الحياة فى مختلف البيئات والمستويات دون ضجر ولا تغير فى ميول الانسان ونزعته نحو العمل من أجل تحقيق أهداف الاسلام فى الجهاد لاعلاء كلمة الله على وجه الأرض كلها .

واذا كان المطلوب من المسلمين أن يقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، أى انهم مطالبون بالهجوم على أمم الكفر دائما حتى يتحقق هذا الهدف ، اذا كان ذلك كذلك فهل هناك من سبب لانعكاس موقفنا من موقف المهاجم الى موقف المدافع العاجز عن الدفاع منذ العصر العباسى حتى الآن الا الترف ، والا ضعف ملكة الزهد لدى المسلمين ؟

وعلى أى منكر لهذا التعليل أن يرجع الى القرآن الكريم ليعلم كيف لعب الترف دوره فى تدمير الحضارات البائدة التى قص علينا قصصها وأخبارها ، وكيف أن الترف قد عكس المفاهيم فى أدمغة المترفين فعدوا الخير شرا والشر خيرا . فكان المترفون أول من يواجه المرسلين قائلين : **« انا بما أرسلتم به كافرون »**[٤] . وتبلدت عقولهم فقالوا لشعيب : **« ما نفقه كثيرا مما تقول »**[٥] . وانتكسوا فقالوا عن النبى لوط : **« أخرجوا آل لوط من قريتكم ، انهم أناس يتطهرون »**[٦] . وقاسوا الانسان بما يملك من مال فقالوا عن النبى محمد صلى الله عليه وسلم : **« لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »**[٧] . وهم : **« الملأ الذين استكبروا »**[٨] من قوم كل نبى ، ودعاة الكفر فى كل ملة ، والسوس الذى كان ينخر فى بناء الحضارات عبر العصور والقرون المتطاولة فى سحيق الزمان .

على أن الزهد فى الدنيا كان هو المقياس الصادق لصدق قبول المسلم الجديد لعقد الايمان المبرم بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم والذى كان ينص على الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس ؛ وكان ذلك فى مواجهة الغطرسة القرشية التى غرقت فى وحل المال فسلكت اليه طرائق الضلال من الربا الى القتل ، بل الى اكراه الجوارى على البغاء ازديادا من المال .

---

(٤) سبأ : ٣٤ (٥) هود : ٩١
(٦) النمل : ٥٦ (٧) الزخرف : ٣١
(٨) الأعراف : ٧٥

لهذا كان انحلال قبضة الانسان عن المـال دليلا على صدق ايمانه ما فى ذلك من مراء •

على أن الزهد ليس معناه القصور فى النمو الاقتصادى للدولة الاسلامية كما فهم هؤلاء • فالمـال عصب أمة الاسلام التى طولبت باعداد القوة لارهاب من تسول نفسه الهجوم على أطرافها ، بالاضافة الى الهجوم على أمم الكفر بعد استنفاد وسائل الدعوة المشروعة لتقرير الاسلام كدين ونظام معا ، ولا قوة الا بمال ، ولا مال الا بعمل فى مختلف نواحى النشاط •

ولكن الزهد معناه هو : استواء وجود المطالب البشرية وعدم وجودها ، أى : برودة وقع الأشياء على القلب • أى : أن تكون الدنيا فى اليد لا فى القلب • أى : يملك المسلم وكأنه لا يملك ، ولا يكون مالكا وكأنه يملك •

فهل هناك قوة على البذل من أجل اعداد القوة عند غير هـذا الزاهد ؟

وفوق كل ذلك فان الزاهد يمكن من الحفاظ على الروح المعنويـة لجند الاسلام على درجة عالية من القوة بمد يد العون الى كل محتاج على أساس الأخوة ، مما لا يتهيأ الا لزاهد غير حريص •

فالزهد هو عدم الحرص لا عدم العمل ، والزهد هو القوة التى تدفع الى التكافل الاجتماعى وليس الحرص الذى يدفع الى السلبية ، والزهد أساس تكوين القوة المـالية للأمة ، وهو أساس القوة المعنوية لجيش الاسلام على الوجه الذى عرضناه فى ايجاز •

ولو ذهبنا نستعرض بقية التعاليم الوضعية لطال بنا المقال فى غير موضع ولا مقام لتطويل •

من أين اذن يكون مصدر الالزام فى مجال تصحيـح الانسان المسلم ؟

لا جدال فى أن مصدر الالزام الذى نجح المسلمون فى تجربته فى الصدر الأول وصنعوا المعجزات تحت لوائـه فى مدى ربع قرن من الزمان لا يكفى فى عصرنا الحاضر لتصحيح دولة واحدة ، لا جدال فى أن هـذا المصدر الالهى هو الأولى والأجدر بالالتزام لوجه الله ، ومن أجل كرامة الانسان ، واختصارا للزمن ، ووصولا الى الهدف المنشود فى أقرب وقت •

فلا تفيدنا الكتب التى تبحث عن أسرار الانسان واعجازه فى مجال الخوارق ، فالانسان العربى بوجه خاص ، والمسلم بوجه عام قد سقط من قمة حضارة عريقة ، والسقوط من قمة الحضارة يدعه فى غايـة من التحلل والاضطراب ، وتزويده بوسائل الحصول على الخوارق كتزويد المريض بقدر من المخدر يمنحه طاقة من النشاط المؤقت لا يلبث بعدها أن ينهار الى أسوأ مما كان عليـه •

ولا تفيده الكتب التى تنزع الى تخويفه من الاعتراض على الشيخ ولو خالف الشريعة بظاهره ومن ارتياد مجلس غير مجلسه ، لأنه والحال هـذا سيقع فريسة سهلة للخوف والفزع بعد ما أضناه الخوف الموروث طوال قرون عديدة •

لا يفيدنا الا الكتب التى تعنى باصلاح العطب من أساسـه ، وتواجهنا بعيوبنا فى صراحة ، وتفتح أمامنا باب الثقة بالله ، وتؤنسنا الى جواره وعونه دون خوف ولا فزع ولا محاولة للاستعباد ، ولا ربط للانسان بخوارق انسان آخر •

من أجل هذا كان المحاسبى والدبوسى — فى كتابه هذا — هما أصلح المرشدين فى عصرنا هـذا ، ومن أجل هذا قدمنا « الأمد الأقصى » كدرس شامل لانسان الحضارة التى سقط من قمتها منذ قرون طوال •

* * *

* فكرة كتاب الأمد الأقصى :

قصد الدبوسى من كتابه هـذا كما قال فى مقدمته الى بيان الأمد الأقصى الذى يصل اليه السالك فى طريقه الى الله ، والأمد الأقصى فيما أبيح له شرعا من العمل الدنيوى لدرك الحظوظ العاجلة ، بحيث يكون تعدى الأمد الأقصى فى السلوك الى الله غلوا ووقوعا فى الكفر ، وتعدى الأمد الأقصى فيما أبيـح له من العمـل لدرك الحظوظ العاجلة تقصيرا فيما خلق لأجله من معرفة الله ، ووقوعا تحت سلطان العبودية للدنيا وللنفس •

وتحقيقا لهذا الهدف رسم هيكلا لكتابه ، ثم بنى حوله أفكارا تبرزه وتوضحه بحيث يستنير الطريق ، وتستبين المعالم •

أما الهيكل الرئيسى ، فهو : أن الانسان عبد ، فقير ، مأمور ، مسجون فى مملكة الأعداء • وعليـه أن يتلمس طريقه الى العتق بدل

العبودية ، والغنى بدل الفقر ، وليكون آمرا بدل أن يكون مأمورا ، وحرا بعد أن كان محبوسا .

أما أن الانسان عبد فلأنه فاقد لتحقيق مشيئته ، فقد يشاء من الخير الكثير ، ولا ينال الا المقدور له من خالقه . وكان مقتضى العتق الذى يدعيـــه الانسان لنفسه أن يحقق ما يريد مما يشاء . فهو بحكم مخلوقيته عبد لمن خلقه ، فاذا ادعى العتق بما ملك وتصرف ، وبما اتسعت عليـــه الأملاك فحكم غيره من بنى جنسه فانه فى هــذه الحالة يقع تحت سلطان العبودية لبنى جنسه من الخدم والحشم والعبيد وهو يحسب أنه حر ، فانتكس من عبوديته لخالق الكل الى عبوديـــة لمخلوق مثله من حيث لا يشعر ، لأنه يشغل نفسه وقلبه بتملق عبيده وخدمه وحشمه وجنده ليحفظ على نفسه ملكه وماله .

وأما أنه فقير ولو ملك ما ملك من وغير المـــال والعقار والمتاع فلأنه محتاج الى حفظ المـــال ، ومحتاج الى المـــال نفسه فى بقاء الحياة ، ومحتاج الى وسائل الاستفادة مما يتناول من غذاء لبقاء حياتـــه ، ولا سلطان له على تلك الوسائل .

فاذا تحققت حاجته فسما بها الى الله تعالى فقد أصاب الحق ، واهتدى الى النهج ، واذا تسفل بحاجته الى الأرض وما عليها فقد افتقر الى غير رب ، ووقع فى الشرك وما يشعر .

واذا تحقق الرق والفقر فقد تحقق الأمر ، وأصبح العبد مأمورا بما يخلصه من رقه وفقره ، ويرفعه الى عتقه وغناه ، وهذا الأمر من آمر هو الله ، وبأوامر هى الشريعة والمنهاج والسبيل ، فقد وجب على العبد معرفة ذلك كله ، ورياضة نفسه على القيام بحق الأمر لله صفوا حتى يؤتى عمله ثماره .

والعبد فى كل أولئك محبوس فى بسيط من الأرض ، فالدنيا سجن وليست دارا للحرية والمقام . وقد استدل الدبوسى على ذلك بقوله تعالى :

« ومن كان يريـــد حرث الدنيـــا نؤتـــه منها وما لـــه فى الآخرة من نصيب »(٩) . فعلمنا من النص أن الدنيـــا لأعدائنا الذين ليس لهم نصيب فى العقبى ، واذا كان ذلك كذلك كان مقامنا فيها على أنها دار للعدو ، والاقامة فى مملكة العدو لا تكون الا بحكم الحبس .

---

(٩) الشورى : ٢٠

واستدل كذلك بأن الانسان فى الدنيــا محبوس عن اصابة ما يريد ، محبوس عن الانتفاع بما يريد الا من حيث يريد الحاكم الجليــل خالق السجن والحرية والأسباب •

وخشية أن يظن الانسان أنه هين على الله بحكم خلقه على هــذه المقامات الأربع : العبودية والفقر والأمر والحبس ، فقد عقد فصلا فى أول كتابه أبرز فيه من خلال حكمة أصل خلقه أنه أفضل من الملائكة والجن ، وعلل لذلك تعليلات فاق بها غيره ممن تحدثوا فى هــذا الصدد كالراغب وغيره ، وألح على ذلك فى كل مناسبة ولا سيما حينما تحدث عن أنوار الانسان ، ولخص ذلك فى آخر أبواب كتابه فقال : « قد ثبت أن الله تعالى خلق الدنيا لهؤلاء الورى ، كما خلق لهم الأخرى ، ولا شك أن من خلق له الدنيــا والعقبى أفضل من الدنيا والأخرى ، والفضل للضياء فى مقابلة الظلمــاء ، والأنوار ظاهرة من السماء ، وهؤلاء الورى مخلوقون من الأرض ، فلاشك أن فيها أنوارا باطنة يقف عليها البصر الباطن من القلوب أضوأ من الأنوار الظاهرة التى يقف عليها البصر الظاهر من العيون • ثم لا شك أن الأنوار جمعت فى القبضة التى خلق منها آدم عليــه السلام ، فمنه خلق جميع هــذا العالم » •

كما عقد فصلا فى أول كتابه كذلك لجهاد النفس ، بين فيه مدارك الانسان من الحواس الجسدية الى النفس الى القلب الى العقل الى الروح ، وبين كيف تسيطر النفس على الجسد ، وكيف يمكن أن تسيطر الروح التى هى أمير من عند الله على الجسد فتسمو به الى رضا الله وحبه •

وتحدث من خلال تلك الفصول والأبواب عن كل ما عرف وما يمكن أن يعرف من النشاط البشرى ماديه ونفسيه وروحيه ، وعن آفات تلك النشاطات وكيفية الخلاص من تلك الآفات •

تحدث عن كل ذلك بعقلية القاضى الفقيه الأصولى ، لا بعقلية الصوفى غير المتفقه الذى يجرى وراء كل وهم •

ثم عقد كتابا آخر كتابه لدعوة النفس الى الله ، واستعرض أنواع الدعاة الى الله ، وكيف تلعب النفس دورها فى تضليلهم ، وكيف يخلصون من خداعها ، وتحدث فيه عن مشاهدة الله ، وعن العبادات على مختلف منازل الدعوة ، وكيف تكون نياتها بما لم يسبق اليه ولم يلحق به على الاطلاق •

والأمد الأقصى كما حدد الدبوسى معناه ، هو نهاية منازل العارفين بالله ، فهذا هو الأمد الأقصى صعودا وسموا ، والأمد الأقصى لعاشقى الدنيا ، وهو الأمد الأقصى نزولا وتسفلا .

وقد حرص على بيان الضدين ليزهو من خلال هـذا البيـان جمال الخير ، ويخمد قبح الشر ، وبضدها تتميز الأشياء . وقد تحدث عن هـذه الأنواع باغاضة فى باب عقده لأصناف الناس فى الدين ، وتحدث فيه عن أصناف الناس فى الدنيا : التجار ، والزراع ، والصيادون ، والحفارون ، والرعاة .. والأنبيـاء ، والأولـيـاء ، والصوفية ، والزهاد ، والعلمـاء ، والفاسقون ، والجاحدون .. وهو فى كل ذلك يسبر الأغوار ، ويتتبع حركات النفس وألوان خداعها ، لا تغيب عنه خدعة .

ولقد عنى الدبوسى ببيان محنة الانسان فى أن خلق عبدا مأمورا فقيرا محبوسا فعقد بابا للمحنة وتتبع ما امتحن به الانسان ، وأبرز ما فيه من نفع وضرر من جهة الدين ، وما فيه من نفع وضرر من جهة الدنيا ، أخذا وتركا ، فجاء جامعا لكل ما يواجه الانسان من عوارض فى مختلف أطوار حياته .

* * *

* مميزات الأمد الأقصى :

الدبوسى قاض حنفى ، وفقيه ضليع ، وأصولى بارع ، وعاش فى « دبوسة » من أعمال سمرقند ، أو فى « الدبوس » من أعمال بخارى ، على اختلاف فى الروايات . وعلى أى حال فهى منطقة حفلت بالعلمـاء والفقهاء وأئمة الحديث والتصوف ، وفيها ازدهرت الطريقة النقشبندية الصوفية المعروفة ، وشهد شطرا من القرن الرابع ، وثلاثة عقود من القرن الخامس ، وهى فترة كانت قد انحلت فيها روابط دولة الاسلام العظمى ، ونضجت فيها المعارف ، واستكملت المكتبة الاسلامية آلاتها فى مختلف فروع المعرفة تأليفا وترجمة وتمثلا .

ولئن كان الفكر الاسلامى قد استقر فى هـذه الفترة فى الفقه والأصول والتفسير والحديث ، فقد اضطرب فى التصوف أو فى علم قبول الأعمال .

كانت الأعمال واضحة بشروطها وأركانها وسننها من الناحيـة الشكلية ، أما من الناحية التطبيقية كما يريد الله تعـالى فقد كان هنالك اضطراب دون شك ، اضطراب قديـم فصلـه المحاسبى فى كتـاب

« المكاسب » منذ القرن الثالث الهجرى وما قبله لابد أن يكون هو الآخر قد آتى ثماره المرة مواكبا لنهضة المعرفة فى الفقه والأصول والتفسير والحديث وغيرها .

لقد وصل الاضطراب كما رواه المحاسبى الى حد أن « عبدك » الصوفى المتزندق حرم المكاسب كلها وقال : ان الدنيا كلها بمنزلة الخمر والخنزير ما يحل منها الا ما يحل منهما عند المخمصة وخوف التلف .

والى حد أن قال بعضهم : ان الحلال لا يوجد الا فيما يلتقطه المسلم خلف الحصادين .

ومنهم من قال : بل ان الحلال لا يوجد الا فى الكلأ مما تنبته الأرض لغير الانسان أصلا .

وهكذا حاول الجهال الذين وصفهم المحاسبى بالغلظة والجهل أن يستنزلوا الانسان الى مراتب السوائم من الأنعام ، وفى أحسن أحواله الى مرتبة المتسول الذى يعيش على اللقاط والقمامات .

وكان قدرا لازما أن يسقط المسلمون من قمة حضارتهم لحكمة عليا ، هى أن يجربوا بأنفسهم الانتكاس ، ويعملوا على النهوض منه بأنفسهم معتمدين على الله بعد أن تنمو مواهبهم بين آلام السقوط ، فالعرب فى نهضتهم الأولى قد ركبهم الغرور ، ولم يحافظوا على الميراث العريق ، ولم يكونوا مهيئين على هذه الصفة للصمود فى ميدان المنافسة مع غيرهم من الأمم التى نمت والتى ستنمو على مر الزمان ، فكانت دورة التاريخ التى اقتضتها سنة الله قاضية بأن ترجح كفة الغرب على كفة الشرق ، فاذا ما انتهت الدورة رجحت كفة الشرق على كفة الغرب ، وهى الفترة التى نعيش بدايتها الآن ، وهى سنة الله التى مضت من قبل وتمضى الآن ، ولكنها فيما يبدو — والعلم عند الله — ستكون آخر دورة تاريخية يعلو فيها الاسلام على الأرض كلها تحقيقا لوعد الله ، فهذا هو منطق القدرة العليا قدره الله القاهر فوق عباده ، والتى تأبى الا أن تنفذ ارادتها بسيادة الدين كله لله على وجه الأرض كلها ، كما تأبى أن تنتهى مراحل الاسلام الى نهايتها على يد محمد صلى الله عليه وسلم ثم يصل الاسلام الى حد الحد من ضعف أهله وعدم قدرتهم على اعلائه على كل كلمة .

ويبدو والله أعلم : أن الله تعالى قد قدر لاعلاء كلمته أقدارا ادخر اظهارها لأوانها على أيدى أقوام لم يقدر ظهور أمثالهم بعدهم ، كما

قدر أقدارا نافذة للعيان فى عصرنا الحاضر تحت سلطانها وحدها يمكن الاستفادة بتلك الأقدار المدخرة المحبوسة عن الظهور قرونا متطاولة .

وتوضيحا للفكرة أقول : انه كما لا يمكن اقناع الثائر بخطئه ، والسكران المعربد بجريمته وجريرة عمله ، ولا كبح الفرس الهائج الى ما يريد راكبه ، كما لا يمكن ذلك لم يكن ممكنا مطلقا أن يقتنع العرب فى دولة بنى العباس وما بعدها بأنهم يسقطون من قمة شامخة ليصبحوا أشلاء ممزقة نهبة لكل طامع .

كانوا قد خرجوا من الصحراء فملكوا وسيطروا على أعظم الأمم فاندفعوا فى هوج الى الشهوات كما يندفع ابن البخيل الممسك بعد وفاته فى تبديد ثروته لاشباع ملذاته ، ويطول بنا المقام لو استعرضنا ضحاياهم من أمثال أبى حنيفة المسموم ، وابن حنبل المقهور ضربا ، وآل البيت النبوى الذين نكل بهم بنو عمومتهم .

وكانت رحمة الله قاضية بحفظ كل ما يفيد خير أمة أخرجت للناس حينما تثوب الى رشدها ، كما يحرص الأب الرحيم بولده على ادخار ما ينفعه عند كبره ولله المثل الأعلى ، فوفق الله اثنين لا ثالث لهما فيمن نعرف الآن يمكن أن يثوب اليهما المسلمون بعد الافاقة من سكرة النعمة ، وسكرة الهوان ، والعزم على الصعود الى قمة التاريخ مرة أخرى : وهما الحارث بن أسد المحاسبى وأبى زيد الدبوسى . فاذا تحدثنا عن مميزات كتاب الأمد الأقصى فانما هى مميزات لتراث الحارث المحاسبى ، وهما أفضل معلمين حبس الله تراثهما حتى قدر ظهوره فى هذا الوقت العصيب من تاريخ الاسلام ليكون نبراسا جديدا لم تلعب به يد النسيان والله أعلم .

ويتميز كتاب الأمد الأقصى من بين كتب السلوك والتصوف بما يلى :

أولا : خلوه تماما من الأوهام ، ومن الدخول فى منعطفات الطريق التى يبحث السالك فيها عن الخوارق وينسى الهدف الرئيسى من وجوده وسلوكه ، فلا كرامة أعظم من الاستقامة ، ولا قوة أعظم من قوة اليقين .

ثانيا : هو حصيلة تضاف الى تراث المحاسبى فيما يمكن أن نسميه « علم النفس الاسلامى » . فى مواجهة علم النفس الغربى والشرقى غير الاسلامى الذى أسر ألباب الباحثين زمنا طويلا ، ولعل فتوره فى

عصرنا الحالى ارهاصا بولادة عــلم النفس الاسلامى الذى نأمل : أن يولد قويا زاحفا ، وهو بحمد الله شامل لكل حركات النفس الانسانية من وجهة النظر الاسلامية ، وما علينا اذا لم نقتبس العناوين الموروثة لأبحاث علم النفس الأجنبى . فليست تلك العناوين فريضة ، وما تمسحنا بها الا دلالة على عدم البرء من مرض « حب الاستعباد » .

فلا نجد بين علمــاء النفس المحدثيــن من له صبر المحاسبى والدبوسى على تتبع النفس خطوة بخطوة حتى ينتهى الى كشف خدعتها أو يشيد بناجح أعمالها ، كما لا نستطيع أن نجد بين القدامى من العلمــاء من له مثل تلك الموهبة فيمن عرفنا الى الآن .

فأنت حينما تقرؤه وهو يتتبع ألاعيب النفس مع الدعاة الى الله ، وكيف أنها تدعهم يثبتون أقدامهم على طريق الدعوة الى الله ، ثم تلوح لهم بالرخصة الشرعية ، ثم تستدرجهم الى الانفلات وتعدى الحدود ، فانك تقف معجبا مزهوا بالدبوسى ، كما وقفنا معجبين مزهوين بالمحاسبى حينما يتتبع ألاعيب النفس مع القراء والعباد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وهم يرتكبون المنكر حين النهى عنه ، كما تتبع ألاعيبها مع التائبين الى الله .

ثالثــا : لقد خرج الدبوسى على المصطلح الموروث عن الصوفية خروجا كاملا ، ولم يخرج عن موضوعاته ، وخرج عن مصطلح التبويب الذى اعتادوه وسايرهم عليــه المحاسبى فى كثير من الأحوال .

فأبواب كتاب الدبوسى هى : العبودية ــ الفقر ــ الأمر ــ السجن والملكة ــ المحنة والحيلة ــ أصناف الناس فى الدين ــ الرؤية والدعوة والبشارة . وهى عناوين مستحدثة تماما ، ولكنها تستبطن موضوعات السلوك التقليدية على صورة جديدة من البحث والفقه خالية تماما من المصطلح .

ومثال ذلك حينما أراد أن يتحدث عن بداية نهاية مقامات العارفين فيقول : « فيصحو وقد قرب سره من النار ، حتى كأن اللهب يكاد يمسه ، وكأن القلب يحسه ، واذا النفس التى لا ينجو معها عن النار ممتزجة به مجاورة وان طحنت بضغطة السكر بعدما كانت محيطة به فى أول الأمر ، فيهاب الله دون النار هيبة من علم أن الدنيا لا تعمل الا بأمره ، فيتداركه الله بالتوفيق للتقوى عن النفس ، ونصيبها يصفو

بتقواه حر الشهوات كما يصفو المؤمن العاصى بعد الحساب بحقيقة العذاب ، فاذا النار برد وسلام ، ومعبر وأمان » •

أليس هـذا هو مقام فناء الفناء والبقاء بالله الذى أثر بهـذا الاصطلاح فى كتب التصوف السابقة واللاحقة على الدبوسى فيما عدا كتب المحاسبى •

والواقع أن كتاب التصوف الاسلامى لم يوفقوا فى الاصرار على المصطلح ، فقد حدث هـذا المصطلح لحبس كتب التصوف عن غير أهلها ، أما وقد شاعت وذاعت والسلوك من علم الأذواق فقد كان الأكثر ربحا للمكتبة السلوكية هو البحث دون تقييد بالمصطلح ، فلا شىء يقيد انطلاق الباحث قدر ما يقيده المصطلح ، وكتاب الأمد الأقصى خير دليل على بركات الانطلاق من القيد وكيف أنها تأتى بما يشبه الاعجاز •

ومن العجيب أن تلك دلالة على ما قلنا من أن الله تعالى ادخر تراث هذين الامامين لهذا العصر الذى مَل الشباب وكثير من غيرهم كتب السلوك لمـا فيها من مصطلح ومسلك تقليدى فى التأليف ، حتى يمكن غزو القلوب بنفس السلاح ولكن على صورة مألوفة غير مملولة ، وهو ما يتطلبه العصر دون جدال •

رابعا : نستطيع من خلال هـذا الكتاب أن نقف على تعليلات جديدة لقضايا العلم والظواهر الاسلامية الأخرى غير التعليلات التى ورثناها •

وعلى سبيل المثال لا الحصر : هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة لم نجد من عللها بما عللها به الدبوسى ، وهو : أن البيت أضيف الى الله تعظيما ، فلو أقام به النبى صلى الله عليه وسلم لأضيف اليه كما أضيفت المدينة ومسجدها • والهجرة اشارة الى فضل الايمان على المكان ، فالايمان أفضل من الكعبة • ولا يخفى ما فى هـذا التعليل من اشارة الى أن وطن المؤمن عقيدته ، ولو استغلت تلك الفكرة تماما لتم غزو المسلمين للعالم كله فى أقصر وقت ممكن ، فهى السر فى نجاح الزحف الأول للمسلمين والتاريخ خير شاهد •

ومثال آخر نلخصه بتصرف لمجرد الاشارة ، وذلك : صلة العلوم التى كانت سابقة على ظهور الرسل وهى : النجوم والسحر والكهانة والطب وصلتها بحفظ كيان الانسان ، وكيف أن كل نبى جاء بما كان شائعا فى عصره ولكن على سبيل الاعجاز ، وكيف أنها كلها ترجع الى

قوة القلب واللسان والرأس ، وكيف أن القرآن جمع كل ما سبقه من القوى ، وتبعا لذلك كيف تفوق النبى صلى الله عليــه وسلم على كل من سبقه من الأنبياء والرسل ، ويضيق بنا المقام عن استعراض ما أبدع فيه الدبوسى فى تلك الموازنة من كتاب « أقسام الناس فى الدين » فى هذا الكتاب •

خامسا : للمرة الثانية فيما وقفنا عليــه من تراث التصــوف الاسلامي نرى كاتبا من كتابه القــدامي يتعرض لسياســة الدولــة الاسلامية •

أما أولهما فالحارث المحاسبى فى « المكاســب » وفى « آداب النفوس » حيث ربط بين النصر على العدو وتحقيق جميع المرادات وبين حل المطعم والمشرب والملبس خاصة والطاعة بوجه عام • وكيف وجه نقدا صريحا لجيش الاسلام فى عصره •

وأما ثانيهما فأبو زيــد الدبوسى فى كتاب « الدعوة والرؤيــة والبشارة » من هذا الكتاب وبشىء من التفصيل أكثر مما تحدث به المحاسبى •

وخلاصة ما قال الدبوسى : أن الأنوار الكونية أربعة : نور الشمس ، ونور القمر ، ونور النجوم المعروفة ، ونور النجوم غير المعروفة •

فنور الشمس ينسخ كل نور ، ونور القمر دونه ولكن يكفى للمسير ، ونور النجوم المعروفة دونه يهتدى بها البصير ، والنجوم التى ليست بمعروفة ما بها هداية ولا نور •

ويقابلها فى الانسان : نور النبوة ، نور الخلافة ، نور العلم ، نور العقل •

والنور الذى ينسخ كل نور هو نور الشمس وهو يقابل النبوة ، والقمر للخلافة ، والنجوم المعروفة للتابعين وعصر بنى أمية ، وغير المعروفة للعلمــاء وعصر بنى العباس •

ويقول : ان نور الخلافة بدأ يتناقص بعدما أصبح بدرا فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وحاول الامام أن يرد للخلافة قوتها ببأسه فلم يستطع ، أى : ان هــذا التناقص كان أمرا طبيعيا فى عمر الدول والأمم التى قفزت فى قوة الى قمة التاريخ •

ولئن كان الخلفاء قد اهتدوا بنور النبوة ، فان الامارة فى عهد بنى أمية قد اهتدت بنور القمر الذى هو نور الخلافة ، ثم جاء الملك

فى عهد بنى العباس وكان العقل هو الأساس ، وهو نور النجوم التى ليست بمعروفة ولا يهتدى بها بصير ، وجاء التغالب أو كاد .

وينقد فى شدة تعصب الناس لامام بعينه وعدم أخذهم بأقوال الصحابة الذين أخذ عنهم هـذا الامام . حتى أتباع أبى حنيفة لم يسلموا من نقده ، مما يدل على أنه كان رجلا منفسح الأفق ، موضوعيا فى بحوثه ، صافيا فى فكره .

وهو بعرضه هـذا يشير الى أن قوة الأمة الاسلامية لن تعود الا بالعودة الى الأصول التى قويت على أساسها وهى نور النور ونور الخلافة ، أما نور العقل المنفصل عن نور الخلافة فقد كان سببا لانهيارها وزوال حضارتها ، تماما كما قال المحاسبى ، ولكن بشىء من التفصيل والعمق اقتضته طبيعة العصر .

سادسا : الدبوسى شامل النظرة ، فهو لا يفتأ يقارن ويوازن بين الظواهر الملموسة فى مجال الحياة ، أو فى أحكام الفقه ، وبين الظواهر الغيبية غير الملموسة حتى تتضح أمام القارىء بحيث لا يحتاج فى فهمها الى كثير عناء .

فالانسان المحبوس فى سجن الأعداء الفاقد لحريته وهو يظن أنه حرا كالعبد المكاتب أطلق سيده يده فى العمل للوفاء بكتابته : حر فى ظاهر عمله ، عبد محبوس فى حقيقة أمره ، وكما يستطيع سيده أن يمنعه من العمل ويعيده الى محض الرق فالله تعالى يحبس عن العبد ما لا يريده له ، ويطلق يده فيما يريد .

والنفس بين القلب والرب كالأرض بين الشمس والقمر ، فكما تحجب الأرض نور الشمس عن القمر فينخسف نوره ويظلم ، كذلك النفس تحجب نور الله عن القلب فيظلم ويتبلد شعوره وهكذا حقق الدبوسى رحمه الله قول الله تعالى : **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »**[10] .

سابعا : اذا انضم الى هـذا الكتاب مختصر فى العبادات على طريقة الفقه فانهما يكفيان المسلم كل مهماته الدينية بحيث لا يحتاج الى شىء آخر . فقد تحدث الدبوسى فى وسائل قبول الأعمال ، ووسائل المعاملات بين العبد والرب ، وبين العبد والناس ، وتصحيح النوايا

---

(١٠) فصلت : ٥٣

والطوايا فى كل ذلك ، ثم تحدث عن العقيدة وصححها وزود القارىء بالأدلة المقنعة بالايمان وتحدث عن أسماء الله وقسمها حسب تعلقها بالانسان ، ثم عن المحكم والمتشابه وصحة المعاملة فيهما ، ثم عن معرفة الله والدعوة اليـــه ، وعن وسائـــل المعاش ، وعن أنواع المنحرفين ، وأصناف الصالحين ، ولم يدع مهما للانسان فى دينه الا زوده فيـــه بما يكفيه الا ما يتصل بشروط العبادات وأركانها وآدابها وسننها فانه أحال فيه الى كتب الفقه لا سيما كتابه « خزانة الهدى » • أما نوايا العبادات فى منازل السلوك المختلفة فقد تحدث عنها باسهاب •

ثامنا : ولقد وضع الدبوسى أمام أعيننا صورة كاملة للانحراف فى السلوك وللانحراف عند الدعاة الى الله • فالاباحية التى سادت بعض حلقات الصوفية فى عصره ، والتى لا تزال نشطة فى عصرنا تعتمد على أن فعل الله جميل ، وعلى أنه لا خالق الا الله ، ولا فاعل سواه ، فاعتنقوا الملاهى وركبوا المنـــاهى وعاشـــوا بعين واحدة ثم عموا وصموا • وأصبحت العبادة عندهم صراخا وبكاء ، وتأويل القرآن تتفزع منه القلوب ، والسياحة الى البلاد عندهم خير من السياحة الى الجهاد ، يقولون : ما لنا وللسلاح ، انما نحن أهل الصلاح •

والداعى الى الله اذا انحرف عمل لنفسه تحت ستار الدعوة الى الله كما قال المحاسبى فى وصاياه : « يزهدون الناس فى الدنيا ليأخذوها منهم فى المجلس » •

وهكذا تتبع الدبوسى الانحراف حتى لا يقع فيه سالك ، أو لا يغتر بما يبدو لدى هؤلاء من احكام التمثيل ، بل انه وضع العلامات المميزة لهم مما يكشف حالهم أمام الراغبين فى طريق الله •

تاسعا : لقد وضع أصولا للسلوك وأصولا للمعاملات بين العبد وربه على اختصارها جامعة لأصول الشريعة كلها ، يمكن جمعها فى صفحات قليلة ، ومن أمثلتها :

ــ لا حظ للعبد أصلا ، بل الكل لله ، الا جعل للعبد بأمر •
ــ حقوق الله لازمة لا يجوز تركها الا برخصة لنا •
ــ حقوق العبد مستباحة باباحة الا من حيث حجر الشرع •
ــ الهجر الجميل لأهل الأهواء ما داموا متأولين ، فاذا تعنتوا وجب التصلب •
ــ الأصل الايثار ، ولا استئثار الا فى بعض المواضع •

وهكذا يمضى فى بحثه فلا يدع موضوعا الا وضع له أصلا شرعيا ثم تحدث على أساسه فان لم يكن أصل فمقارنة بالشاهد ، أو بأصل آخر معلوم من أصول الفقه •

عاشرا : لم نأخذ على الامام الدبوسى الا نقطتين اثنتين فى كتابه قد يدخلان فى باب التجوز ولكن دقته المعهودة كان يجب أن تشملهما •

أولاهما : استعمال كلمة العصمة بدلا من كلمة الحفظ للعبد السالك الموفق ، فانه يسمى الحفظ المكفول للسالك الموفق بالعصمة ، ولا عصمة الا لنبى ، وقد نبهنا على ذلك فى التعليق •

أما الثانية فانه قال : لا حق لعبد على عبد ، ولا على الله الا تفضلا • وفاته أن الزكاة المفروضة حق معلوم للعبد على العبد امتاز بها الاسلام ليحفظ كرامة المسلم المحتاج فلا يقع تحت ذل التبرع ، صيانة لروحه المعنوية ، واعدادا له ليكون رجلا من رجال حضارات الاسلام عاملا بصدق واخلاص • وقد نبهنا على ذلك أيضا فى التعليق •

وأخيرا فان تراث هـذا الرجل يجب أن يبرز كله من ظلام الخزائن الى نور الحرية • وقد طبع له كتابان جليلان هما : « تأسيس النظر فى اختلاف الأئمة » و « تقويم أصول الفقه » •

وبقى له :

خزانة الهدى

الأسرار

خزانة المفتى

أصول الفقه

أما كتاب الأسرار هـذا فلم نعثر عليه فى مصر ، وسنواصل البحث عنه بعون الله ، ونسأل الله أن يوفقنا اليه لنشره ، فأغلب الظن أنه تحدث فيه عن شىء لم يكتب من قبله هو الآخر •

أيقظ الله منا القلوب مكان العيون ، ووفقنا لاتباع اليقين مكان الظنون وشكر الله للامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود صنيعه فى افساح المجال لظهور هـذا الكتاب ، نسأل الله أن يتغمده برحمته وأن يجزيه عن الاسلام خير الجزاء • لما أخذ به نفسه من جهاد فى سبيل العلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وتابعيه ومن ولاه •• انه سميع قريب مجيب ••

عبد القادر أحمد عطا

* * *


الأمد الأقصى
للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي
المتوفى عام ٤٣٠هـ

*** الرموز المستعملة فى التحقيق :**

(أ) نسخة دار الكتب المصريـــة .

(ب) النسخة الخاصـــة .

(م) هامش (أ) .

( ) كلمات سقطت من أحد الأصول .

[ ] كلمات أضفناها لتوضيح المعنى (المحقق) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أكرمنى بأخ زكا مزاجه ، وأذكى سراجه ، قد ابتكر الكلم بنور عقله ، وأدرك الحكم بتوفيق ربه ، وامتلك النعم بوفور فضله ، جالسنى مجالسة مستفيد ، متأمل فى (كتاب)[1] كل قريب وبعيد ، فلما قرع سمعه من كلامى بدعه[2] نظر الى كالمتعجب لما امتلأ منى فى سمتى[3] عينا ، وانتشى من صمتى[4] أذنا ، طار منه العجب ، والعجب ، فسأل سؤال ذى عقل وأدب ، فقال :

أيها المتكلم بما[5] تصدقه الأصول[6] ، وتحققه العقول ، انى امرؤ حالفت المسير ، لأقف على بصير ، يرفع عن أبصار قلبى من الشبهات ستورا ، ويكشف لى فى المشتبهات أمورا ، فكم[7] سلكت له المسالك ، وكأنك أنت ذلك .

فقلت : العبد عبد وان سعد نجمه ، وحمد سهمه ، ولكنى أستعين الله وأستهديه ، فلعله يوفقنى لكشف ما أنت فيه .

هات وفقك الله للاصابة ، ووفقنى للاجابة .

فقال : سعى كل حى لدرك نفع عاجل ، أو لدفع ضر حاضر ، واختص العقلاء من بينهم فى المطلب بقصد نفع العواقب ، ثم اختص

---

(١) سقطت من (أ) . (٢) بدعه : أى : عجيبه .

(٣) فى (أ ، ب) صمتى ، والسياق يقتضى ما اثبتناه .

(٤) فى (ب) : سمتى . والمعنى أن صمته يوحى بما تنتشى منه النفس .

(٥) فى (أ ، ب) : فيما . ورجحنا ما على هامش (أ) من نسخة ثانيـة . (٦) الأصول : الكتاب والسنة .

(٧) فى (م) : وكم . نسخة ثانية .

منهم الطبقة العالية باتعاب الجسوم للرتب السامية . فهل عندك علم بالأمد الأقصى فيما ينبغي للعاقل ألا يرضى[8] بدونه لنفسه فيما يسعى ؟

فقلت : كلام قصير ، هلك دونه الصغير والكبير ، واني غير هاديك اياه الا بالله العليم[9] ، ولا قوة للعبد الا بربه العظيم .

أما علمت أيها الأخ الرشيد ، والنجم السعيد ، أنك عبد لا مشيئة لك ، فقير لا ملك لك ، مأمور لا حكم لك ، مسجون فى مملكة الأعداء ؟

فقال : نعم ، كتاب عزيز جاءنى من رب عزت قدرته ، على يدى رسول مبين ظهرت دعوته ، وفيه : **« أن كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا »**[10] .

وقال تعالى : **« والله الغنى وأنتم الفقراء »**[11] .

وقال تعالى : **« ليس لك من الأمر شىء »**[12] .

ثم أيد هـذا المعنى بقوله : **« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم »**[13] .

« وما تشاءون الا أن يشاء الله »[14] .

وقال تعالى : **« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب »**[15] .

فتبين أنها للذين لا نصيب لهم فى الآخرة ، وهم أعداؤنا .

ثم أيده بقوله : **« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا ، وان كل ذلك لمـا متاع الحياة الدنيـا ، والآخرة عند ربك للمتقين »**[16] .

فاذا ثبت[17] أن الدنيا لأعدائنا لم يكن مقامنا فيها الا بحكم الحبس ، اذ العاقل لا يختار المقام فى مملكة عدوه بطيبة النفس .

ثم فسره الرسول المبعوث ليبين للناس ما أنزل اليهم فقال :

---

(٨) فى الأصول : أن يرضى . وسياق البحث يقتضى ما اثبتناه .

(٩) فى (ب) : العلى العظيم .

(١٠) مريم : ٩٣

(١١) محمد : ٣٨

(١٢) آل عمران : ١٢٨

(١٣) الأحزاب : ٣٦

(١٤) الانسان : ٣٠

(١٥) الشورى : ٢٠

(١٦) الزخرف : ٣٣ ـــ ٣٥

(١٧) فى (أ) : واذا ثبت .

« الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر »[18] ، وهل يسجن المرء الا فى مملكة من يعاديه على سيرته ، أو يضاده فى سريرته ؟ وانما مثل الدنيا (للعبيد من الجنة)[19] مثل بطن الأم من كل الدنيا للأجنة .

قلت : متعك الله بمحكم الخطاب ، وبحكم الكتاب ، ان لله آيات فى نفسك قبل الصحف والرسول ، تضطرك الى علم ما قلنا من الأصول ، فالعبد اسم خاص للمملوك من جنس العقلاء ، والمملوك اسم (لعاقل)[20] قهر[21] بالاستيلاء ، وأنت عاقل مقهور بالتكوين والانشاء ، فكنت عبدا مالك من مشيئة فانها[22] عبارة عن نهاية المالكية ، وأنت على ضدها من المملوكية ، ولأنك تشاء من الخير الكثير ، ولا تصيب الا المقدور .

واذا كنت عبدا غير أهل للملك ، كنت فقيرا لا أميرا فى ملك . واذا كنت فقيرا غير مالك كنت على حجر ، لا تتصرف الا باذن من المالك أو أمر ، واذا كنت فى بسيط الدنيا تحت أمر على فقر ، وما استطاع النفوذ منها واحد من الجنس[23] ... ، علمت أن المقام بها على هذه الصفات بحكم الحبس .

وأنت لا تتصور مملكة الا لمن ناكرك فيما قلت فعاداك ، فأنكر[24] العبودية ، فغلب عليه زى الحرية[25] ، واستولى استيلاء الملاك ، وعلا علو الملوك على مدرج الضلال ، فى مدة الامهال .

فقال : أزددت بما قلت بصيرة ، ورجع قلبى عنك بعين قريرة ، فما الأمد الأقصى ؟

قلت : أضدادها . فذكرنا اياها فيما بيننا نهاية الجهة السفلى ، فتكون أضدادها نهاية الجهة العليا ، وهى : العتق والحرية على نفاذ المشيئة والغنى والملك ، والامرة والحكم والولاية والملك ، لنفعل ما نشاء ، ونحكم ما نريد ، وانها الأمد الأقصى على ما تبلغه الأوهام من مزيد .

---

(18) رواه أحمد فى المسند ومسلم والنسائى وابن ماجه عن ابن عمر .
(19) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(20) سقطت من (أ) . (21) فى (أ) : مهر . أى : طبع .
(22) أى : المشيئة . (23) فى (ب) : من الحبس .
(24) فى (ب) : فانك فى العبودية . تحريف .
(25) فى (ب) : فغلب غلبة ذى الحرية .

فقال : فصل عظيم سماعه ، وغرض ظاهر امتناعه . فما نرى للعبد من رق[٣٦] ربه عتقا وحرية ، ولا ملكا و [لا] مملكة و [لا] مشيئة ، (فهل من دليل تطمئن القلوب بشهادته) ؟[٣٧] .

فقلت : نعم ، ان الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه المنزل من الحكيم الحميد ، شهد بما قلته لك فى الدار الآخرة ونعم الشهيد ، فقال : **« لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد »**[٣٨] .

« وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين »[٣٩] .

وقد ذكرنا أن تلك المشيئة عبارة عن نهاية المسالكية ، ولا مالكية قبل الحرية ، واذا تحقق الملك لم يكن التصرف بحكم الأمر[٣٠] ، وجاء الملك ، واذا جاء الملك تمنت النفس درك المنى بأيسر الأسباب ، (وذلك بمجرد المشيئة والخطاب حتى يقول : كن ، فيكون ، وانه فوق الحرية بيقين)[٣١] .

فقال : هذه صفة من عرف بالألوهية ، فكيف بها فيمن اتصف بالعبودية ؟

قلت : هـذه لله تعالى حق بذاته ، وللعبد كرامة من الله تعـالى لعبده بتكوين [الله] ما يشاؤه العبد ، تعالى الله عن الأشباه فى شىء من صفاته[٣٢] .

لأن العتق فى اللغة عبارة عن قوة للذات يأمن معها العتيق عن التملك بأسباب ملك عرفت للرقيق ، من قولك : عتق الطير ، اذا طار عن وكره ، فأمن أخذ الصائد واستيلاءه عليـه بقهره ، وعتاق الطير : جوارحها من جنسها ، التى أمنت استيلاء أغيارها على أنفسها ، والعبد بعد دخول الجنة يأمن كل استيلاء ، كما يفعل ما يشاء .

والحرية عبارة عن خلوص حقوق الحر له فى نفسه وماله ، وما لأحد حق على الفائز بالجنة فى شىء من أحواله ، فيكون عبدا فى ذاته ــ

---

(٣٦) فى (م) : من رق . نسخة ثانية .
(٣٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٣٨) سورة ق : ٣٥ (٣٩) الزخرف : ٧١
(٣٠) أى : لم يكن تصرف الأحرار فى الآخرة بحكم شريعة من أمر ونهى ، فلا تكليف فى الأخرى .
(٣١) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٣٢) فى (ب) : فى شىء من أشيائه .

فهو مخلوق مكون — عتيق حر فى أفعاله وأملاكه ، فهو منعم مكرم ، أطلق عن[٣٣] حجر المملوكين ، وعتق عن عبادة العـابدين ، وسـقط عنه الأمر ، وباينه الفقر ، وتحقق له الملك ، واستوى على الملك ، لكن عطاء من الملك الأعلى ، فلله الآخرة والأولى .

أليس الحر[٣٤] منا يملك عبده فيكاتبه ، فيصير حرا فى (حق)[٣٥] يده وفعله ، وهو عبد فى ذاته وأصله ؟

غير أن فكنا عن العبد بالكتابة[٣٦] خاص يحتمل الفسخ ، وفك الله تعالى عن الفائز بالجنة عام ماله من فسخ ، ولنا على المكاتب ضريبة ، والله تعالى أبرأه عن ضرائبه ، وألزمه بمواهبه ، فأشبه العتيق ، والتحق بطريقه فى كل طريق ، لله الحكم ، وله الحكم ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وهو الحكيم المجيد[٣٧] .

فقال : أوفيتنى اليقين ، ونفيت عنى الظنون ، فبين لى السبيل الى دركها ، والسبب لملكها ، فالله تعالى خلق الآخرة عطاء جزاء ، لا ابتلاء ولا ابتداء[٣٨] .

فقلت : بأربع خصال تنال مدى هـذا الكمال :

عامل ربك بقسم العبودية معاملة المسخرات من السماء والأرض والجبال ، فقد ساويتها فى منة الانشاء[٣٩] ، وقهر الافناء ، وباينتها بمعرفة حكمة القسام ، فلا تردد بها[٤٠] شكوى وسخطا ان لم تردد بها شكرا على زيادة الانعام .

ثم عامله بقسم الفقر معاملة الوحوش والطيور والأطفال ، فانك وهذه الخليقة فى الفقر والحاجة الى الغذاء على مثل ، ولكنك فضلت

---

(٣٣) فى (أ) عنه ، وفى (ب) : عند . وما اخترناه أوضح .

(٣٤) فى (أ) العبد . (٣٥) سقطت من (أ) .

(٣٦) الكتابة : اعتاق المملوك يدا حالا وذاتا مآلا حتى لا يكون للمولى سبيل على اكسابه . انظر [تعريفات الجرجانى ٢٣] .

(٣٧) فى (ب) : الحميد المجيد .

(٣٨) يعنى : ليست بلا مقابل من العمل .

(٣٩) فى (أ) : فى سنة الانشاء .

(٤٠) اى بالدنيـا .

عليها بنيل آلاء[٤١] لطلب الغناء وحيل الظفر ، فان لم تزدد بها طمأنينة فلا تزدد بها حرصا (مفضيا)[٤٢] الى حذر .

ثم عامله بقسم أنك مأمور معاملة الحيوان المجبر المحمول ، فقد قاربته فى توجه الأمر[٤٣] اليك ، ووقوعه من المحمل من أمانة الله عليك ، وانما باينته[٤٤] باطلاق أحسن الله به اليك ، وجزاء وعده لك : فان لم تزدد بهما طاعة فلا تزدد عصيانا وعتوا .

ثم عامله بقسم حلولك فى مملكة الأعداء معاملة التاجر السالك مأوى اللصوص والمهالك[٤٥] ، فما أنت — اذا حققت النظر — إلا ذلك ، غير أن لك دار أخرى بلا خوف ولا حذر ، وسوقا لربح بلا خسر[٤٦] ، فان لم تزدد بهما فى الرحيل نشاطا : فلا تفرش بهما للمقام بساطا .

فاذا رضيت بقسم الحق ، ولم يتعبك خوف الرزق ، وبارعت الى الأمور ، وأسرعت بقلبك عن الدنيا المسير ، جاءك عند المنزل[٤٧] البشير : ملائكة الله : **« ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون »**[٤٨] .

خفتمونى فى الدنيا على غيب فها أنتم آمنون ، وكنتم فيها مسافرين ، فهاكم فى الجنان خالدين .

فقال : صدقت ، ولكنه أمر عسير ، ما أرى عليه عبدا بقدير ، ففى النفوس دواع الى صدها ، وموانع عن ردها ، الا من أعطى فضل بصيرة وتوفيق ، وثبت على سواء الطريق ، فأعرنى أيها المنعم بالتعليم زيادة نور من العلوم ، لعلى أكرم عند ذلك بشرح صدر من الله تعالى فأهتدى الى الحق ، وأعتصم عن شر النفس والخلق . فبين لى كل ما يحتاج اليه العبد ليصير الحق يقينا ، ونقف[٤٩] عليه مكينا .

---

(٤١) فى (ب) : بنيل الأرب . (٤٢) سقطت من (أ) .

(٤٣) فى (م) : نفوذ الأمر . من نسخة ثانية .

(٤٤) فى (م) : باعدته . من نسخة ثانية .

(٤٥) سيأتى تفصيل تلك المعاملة فى كتاب السجن والملكة من هذا الكتاب .

(٤٦) فى (أ) : سوقا تربح ، واخترنا ما على هامشها من نسخة ثانية . وفى (ب) : سوقا للربح .

(٤٧) المراد بالمنزل : القبر . (٤٨) فصلت : ٣٠ .

(٤٩) فى الأصول : ويقف عليه .

فقلت : فر الى الله تعالى فان الله تعالى مجيب من اضطر اليه ، وحسب من توكل عليــه ، ولله تعالى عباد وصلوا بتوفيقه الى الحكم فى محكمات صنعه ، فاستخرجوها بألفاظهم لعباده على موافقة شرعه ، فبلغوا بذلك مراتب الأنبياء ، وصاروا قادة الأوليـاء ؛ قال صلى الله عليــه وسلم : « علمــاء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل » .

وانى قد جالستهم ونور الله تعالى لأبصار قلبى مصباحا ، ثم تضرعت اليه فآتانى — وله الشكر — لمغلق الحكم مفتاحا ، وانى ذاكر ان شاء الله لك ما تنشرح به الأمور ، وتهتدى به الصدور ، وشكر الله بالتحديث بنعمته ، واظهار كريم قسمته ، ولا حول ولا قوة الا بالله بارىء النهى ؛ والصلاة والسلام على رسوله سيد الورى ، وآله مصابيح الهدى ، والله أعلم .



كتاب جهاد النفس

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله خلق[1] الدنيا مهلكة ، وباطن الجسم معركة ، والآخرة مملكة ، أراها من سعد ، وأعمى عنها من شقى ، وألحق على من أحاط بمعاركه مهالكه أن يرى نجاته فى قراره ، ومماته فى فراره[2] .

والصلاة على من بعث لها مفسرا فقال مخبرا : « أفضل الجهاد جهاد النفس » .

وذلك فى أن الجسم من كل ذى عقل منا مبتلى بأربعة : الروح ، والنفس ، والقلب ، والرأس .

فالنفس تأمر باستعمال الرأس ، وحواسه[3] تأمر الجسم وتنهى للعاجل وهو الدنيا ، والروح تأمر باستعمال القلب عقله ناهية للجسم وآمرة للآجل وهو الأخرى : « **فأما من طغى . وآثر الحياة الدنيا . فان الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فان الجنة هى المأوى** »[4] .

فالجسم رعية ، والنفس أمير من الدنيا ، والروح — والله أعلم — أمير من عند المولى ، والرأس والقلب وزيران لهما . وعمل الأميرين على سبيل التسخير والاجبار ، وعمل الوزيرين على سبيل الاختيار[5] .

ولكل أمير أعوان أربعة .

فالدنيا تعين النفس بقوة تؤتاها[6] بوقت من السنة يوافقها ، وبفضل شباب من عمره يرافقها ، وينصر الدنيا على ذلك أبناؤها من

---

(١) فى (ب) : الحمد لمن خلق .

(٢) اى : ان من احتوى الدنيا فى قلبه واحاط الدنيا [المهالك] بباطنه [المعارك] يعشق الدنيا ولا يريد عنها فرارا .

(٣) اى حواس الرأس : السمع والبصر والخيال .

(٤) النازعات : ٣٧ — ٤١

(٥) وهو الجبر والاختيار .

(٦) فى الأصول : تؤتيها . وما أثبتناه أصح .

جنسه من الآدميين بمخاطبة ظاهرة ، ومن خلاف جنسه من الشياطين بوسوسة باطنة[٧] .

والله تعالى يعين الروح بآفات تسلب القوى بحلولها ، والشبيبة بنزولها[٨] ؛ (وينصر الله على ذلك عبيد الله من جنسه من الآدميين بدعاء جلى ، ومن خلاف جنسه من الملائكة بالهام خفى)[٩] .

فالجسم ما عاش فى الابتلاء أبداً . قال الله تعالى : « **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** »[١٠] .

وذلك فى جهاد النفس ، وهو تأول قول (الرسول صلى الله عليه وسلم)[١١] صاحب التنزيل : « أفضل الجهاد جهاد النفس » . فانها العدو الحقيقى المستولى على جسمك ، المأيوس عن موالاته ، وقد قال عليه السلام : « أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك » . وكذلك قال عليه السلام : « رجعنا من الغزوة الصغرى الى الغزوة الكبرى » . يعنى : من جهاد الكفرة الى جهاد النفس .

فالنفس جاهلة بالروح منكرة اياها ، جاحدة بالآخرة وبمولاها ، والروح عارفة بالنفس[١٢] والدنيا ، وهى مرسلة من عند المولى ؛ فالجسم القالب المؤلف المحسوس بعد الموت ، والنفس والروح ما اتصفتا بالفوت .

أما النفس فيحتمل أن تكون [هى] الطبائع[١٣] الأربعة التى ليست منك بمحسوسة ، من حرارة وبرودة ورطوبة ويبوسة ، التى جعلها الله أصلا لكل ما جبلت (عليه)[١٤] ، ثم جعلها علة لحياتها اذا اعتدلت[١٥] لكونك[١٦] بعضا منها ، ثم نشوئك من فضلها ، وارتزاقك

---

(٧) فى (م) : بوسواس باطنه . نسخة ثانية .

(٨) فى (ب) : والشيبة . خطأ .

(٩) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(١٠) الملك : ٢

(١١) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٢) فى (ب) : عارفة للنفس .

(١٣) فى الأصول : الطباع .

(١٤) سقطت من (أ) .

(١٥) أى : كل العالم مجبول من الطبائع الاربع ، وانت بعض من العالم فتكون مجبولا منها .

(١٦) فى (ب) : لكونها بعضا منها .

من نزلها ، ثم عودتك الى أصلها • وقد أبان الله ذلك لمن كل بصره ، أو قل نظره ، فقال : **« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون • الحق من ربك فلا تكن من الممترين »**[١٧] •

وقال : **« وهو الذى خلق من الماء بشرا »**[١٨] •

وقال : **« انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون »**[١٩] •

وقال : **« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين »**[٢٠] •

فتأويلها — والله أعلم — أن بدء الأمر كان من تراب ، فمزج بقبضة من ماء ، فصارت سلالة من طين تنسل من بين الأصابع لو قبض عليها ، ثم مكث ما شاء الله[٢١] حتى اعتدل كأنه حمأ مسنون يقبل التصوير فصوره ، ثم سلط عليه الريح حتى يبس فصار صلصالا (يتصلصل)[٢٢] كالفخار ، ثم حركه الجبار وأحياه بالحرارة المركبة فى الدم حتى استكملت الطبائع فكانت نفسا ، فنفس الشىء عبارة عن هويته ، وهوية الآدمى من الدنيا صورة ومعنى •

(الروح من عند رب العرش مبدؤه
وتربة الأرض أصل اللحم والبدن
وهكذا ألف الرحمن بينهما
ليصلحا لقبول العهد والمنن)[٢٣]

ثم لما كان هذا الخلق للابتلاء ، ثم للجزاء فى دار البقاء وهى غير دار الفناء وهذه النفس فى دار الدنيا داعية اليها كنفوس البهائم قرن الله الروح الناطقة التى هى للملائكة الى هذه النفس[٢٤] ، فأحيا بهما كل هذا العالم ، لتكون الروح داعية الى المولى ، ودليلا على البقاء بعد فناء الأولى ، والله أعلم بحقيقة الأمر ، وهو علام كل شىء •

ثم لم يجعل الى هذا العلم سبيلا[٢٥] بقوله : **« ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم[٢٦] الا قليلا »**[٢٧] • بعدما عرف الفلاسفة النفس وأوضحوا عليها دليلا •

---

(١٧) آل عمران : ٥٩ ، ٦٠ (١٨) الفرقان : ٥٤
(١٩) الحجر : ٢٨ (٢٠) المؤمنون : ١٢
(٢١) فى (ب) : ما شاء البصير •
(٢٢) سقطت من (أ) • (٢٣) البيتان سقطا من (ب) •
(٢٤) اى : خلق الله الروح للملائكة ، وخلق الروح والنفس للانسان •
(٢٥) فى (ب) : ثم أبان الى هذا العالم سبيلا •
(٢٦) فى (م) : أى : الروح • (٢٧) الاسراء : ٨٥

وقال تعالى : **« فنفخنا فيه من روحنا »**[٢٨] .

وقال : **« فاذا سويته ونفخت فيه من روحى »**[٢٩] .

فأضافه الى نفسه على الخصوص اضافة تكريم كبيت الله وعبد الله وناقة الله .

والنفس موصوفة بالذم حتى سميت طاغوتا وأمارة بالسوء ، وكان هواها بخلاف هدى الله . قال تعالى : **« ونهى النفس عن الهوى »**[٣٠] . وقال : **« فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »**[٣١] . قيل : طاغوت كل امرىء نفسه .

فأبان لك أنهما ضدان أميران ، لأن حياة الجسم بهما ، النفس منكرة بالروح لانكارها المولى (والدار الآخرة)[٣٢] وفنائها مع حياة الدنيا ، والروح ـ والله أعلم ـ له عرفان بالنفس لأنهما مضافة الى المولى ، وحلت بأمره بالورى . وقد قطع الشبهة لمن لم تحد أبصار قلوبهم ، وحدت أسماع رؤوسهم قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الجهاد جهاد النفس » . فان الروح يضاف الى الله كبيت الله وناقة الله وجهادها كفر .

وأما الرأس والقلب فوزيران للأميرين المتضادين . الرأس للنفس ، والقلب للروح ، لأن الرأس لا يستعمل الا الحواس . ولا تنال بها الا المنافع العاجلة من الدنيا ، فترى النفس للجسم ما أدركت بحواسها ، وأمرته بطلبها وشرائها ، ولا حظ لها فى درك ما تدعو اليه الروح من الآخرة وان اجتهدت ناظرة .

وأما القلب فانه ينظر بنور العقل ، وانه كالشهاب للعين ، ونظره : التأمل فى المغيبات ليبصر به نفع المغيبات بعين العواقب التى هى باقية . فترى الروح الجسم ذلك ، فتأمر بترك المبادىء التى هى ماضية ، وقد قال الله تعالى : **« فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »**[٣٣] .

---

(٢٨) التحريم : ١٢ — (٢٩) الحجر : ٢٩

(٣٠) النازعات : ٤٠ — (٣١) البقرة : ٢٥٦

(٣٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٣٣) الحج : ٤٦

وبين الوزيرين مصالحة ؛ لأن درك بصر القلب بالعقل ، وقوام بصره بالدماغ الذى فى الرأس . القلب كالفتيلة ، والعقل كالشهاب ، والدماغ كالزيت ، فأى الأميرين غلب كان الوزيران له ، فسبحان من جمع بين أميرين متخاصمين فى جسم واحد لاظهار حكمة المحنة .

ثم أمد النفس بغلبة المجانسة والعدد الكثير ، وسلبها بالعمى عن الروح لطف حيل البصيرة . فالنفس أربعة[٣٤] ، والحواس خمسة .

ثم أمد الروح وان كانت واحدة والعقل واحدا بمعرفة النفس لترد تهورها بتفكرها ، وقوتها بحيلتها ، فالفكرة أنفع من الكرة ، والحيلة أبلغ من القوة .

ثم ظاهر كل واحد منهما بوزيرين بينهما هدنة على غير دخن[٣٥] . وجماعة على غير سكن ، ليكون القلب — اذا علمت النفس معها — فيريها فى نفع دنياها (نفع)[٣٦] مصادرها ، وارتفاع مصالحها بترك مواردها ، لترجع عن رأيها فى اختيار العاجل المكدى[٣٧] على الآجل المجدى ، الى اختيار ما يزداد نفعه فى الثانى على القليل الفانى ، فتبيع الحاضر بنسيئة[٣٨] لربح موهوم ، ويزرع الموجود — وفيه اتلافه — لنماء يدوم . فيعرف الجسم عند رجوع النفس الى رأى القلب رجحان القلب عليها[٣٩] ، فيرجع عن طاعتها[٤٠] الى القلب ، ويقف لديه ، فينفك القلب بانعزال النفس عن أسر الهوى ، فيعود الى الروح بأمر المولى ومعه الجسم ، فتصير الروح والية وآمرة بتجارة ربحها عظيم ، وزراعة نماؤها نعيم مقيم ، وناهيبة عن نقد ستوقة[٤١] ، وسلعة تزيفها السوقة ، لئلا تكون (فى الله)[٤٢] شبهة بعد العقول ، ولا حجة بعد الكتاب والرسول ، وكان فضل الله عظيما ، فالحمد لله على آلائه حمدا كريما .

---

(٣٤) اى : الطبائع الاربعة كما سبق أول الكتاب .
(٣٥) الدخن : اى على غير عداوة .
(٣٦) سقطت من (أ) . (٣٧) المكدى : غير المفيد .
(٣٨) النسيئة : البيع دون نقد الثمن .
(٣٩) فى الأصول : عليه . خطأ .
(٤٠) فى الاصول : طاعته . خطأ .
(٤١) الستوقة : الفاسدة . (٤٢) سقطت من (أ) .

أيها الجسم المبتلى ، قد بينا لك جهادك ، وجهة ابتلائك ، ومولاك ورسوله الداعى اليه ، وعدوك الناهى عنه ، فأحسن الاختيار ، واياك والغفلة ، فعندها تغلب دواعى الجبلة .

قال الجسم : آها على جسم ما قدر الا بالنفس ولزمه عصيانها ، وما ارتضع الا من أخلاف الدنيا وافترض عليه كفرانها ، فمن لى بهما ، وأنى ذلك وكأنى مخدوع هنالك .

اتضحت[٤٣] وأنا فى لجة أمواجها طامية[٤٤] ، وأوديتها هامية[٤٥] ، وشطوطها نائية . كيف النجاة عن الهلك ، بلا ملاح ولا فلك ؟ !

قلت : أفرخ روعك ، وأفلح دوحك[٤٦] . ان الدنيا بحر ، ونفسك سفينة ، تسقيك درها ، وتقيك من ضرها ، وتنحلك[٤٧] من درها ، ولا تحملك الا فى قعرها ، فانها لا تجرى[٤٨] الا على اليبس ، والرسول ملاح والعقول نجوم ، والتوفيق من الله ريح طيبة ، والمقذاف النفس ، فقوم السفينة بالمقذاف ، واستدل بالنجوم ، وأطع الملاح ، ولك البشرى وثم الفلاح . ثم لا حاجة لك الى فلك البحر اذا كنت بالبر . ومججت أجاج البحار[٤٩] اذا أنهلت بزلال الأنهار .

فاذا ابتليت أيها الجسم بين أربعة[٥٠] فقد أعطيت للنجاة أربعة ، فلماذا الجبن ؟ فان الجبان لا يعدوه الحين[٥١] .

على أن الاثنين من الأربعة التى كان بها الابتلاء دعياك الى البر ، والثالثة بوزيرها حاملتك فى البحر ، فلم يبق الا المسير فى طاعة الملاح وهداية النجوم بريح طيبة تلقى بها عن قريب الشط على سلامة . وتتلقى فيه أنواع كرامة .

---

(٤٣) اى : وضحت بليتى بوجوب خلاف النفس والدنيا مع ضرورتهما لحياتى .

(٤٤) الطامية : الهائجة العالية .

(٤٥) الهامية : اى غذاها المطر فاشبعها .

(٤٦) العبارتان مترادفتان بمعنى الفلاح والنجاح .

(٤٧) تنحلك : تعطيك على وجه الهدية .

(٤٨) فى الأصول : تمشى . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .

(٤٩) فى (أ) : زلال البحار : خطأ . والمعنى : أنك تسعد بالراحة والحرية اذا تمت لك رحلة الجهاد .

(٥٠) فى (أ) : بأربعة .

(٥١) الحين : الموت .

وان شط السفينة اللحد ، فانه لمن قوم السفينة جنة الخلد ، فيا عجبا من راكب انقاد لمركوبه ، وجرى على هداه لدرك خطوبه ، ثم رضى بالطريقة ، وظن أنه أصاب الحقيقة .

أسفه أبلغ من ذلك ؟ أم هلاك أحق من هلاك ذلك ؟

يا ذا الذى ظننت الدنيا سريرك ، والنفس أميرك ، قد أبعدت النجعة[٥٢] . ان الدنيا يم طاغى ، والنفس فلك جارى ، فأسرع الرجعة ، فما البحر للتاجر بمقام ، ولا الفلك للسفر بامام ، وانما هو آلة العبور ، فاياك وطاعته فانه غرور ، وسيلحقك عن قريب الغرق وأنت مستقيل ولات حين اقالة[٥٣] فقد أتممت الصفقة خاسرة على جهالة ، وكنت حبيس الحباب[٥٤] ، فصرت فريس الدواب . فالقبر لمن أطاع النفس على ما اختارت حفرة من حفر النار .

خدعك الفلك ثم فارقك ، وأطعمك فى الملك وما رافقك . لا رؤية الا بالتوفيق ، ولا وقفة على الطريق . ولا حذر بعد الصرعة . ولا ندم حين الوقعة .

وان العبد متى رأى بحسه ، وأدرك بنفسه[٥٥] ، قصر دركه عن درك الوحوش لقوامها بمجرد قوى النفوس ، فمزجت بالجسوم دلالة على منافعها ومضارها ، لتصل (بها)[٥٦] الى مصالحها مدة قرارها . وسلب الآدمى ذلك لما علقت مصالحه بالعقول والأسماع[٥٧] ، ليكون سببا للرجوع اليهما عن النفوس والطباع ، حتى أن فرخ الطائر مع قوة الحراك لابث على وكنته[٥٨] ، ما لم ير الطيران فى قوته ، ويمتنع عن تلك المهالك صغار أولاد النعم ، ويفقد مثله فى بنى آدم الى أن يهتدوا بعقولهم ، ويبصروا بقلوبهم .

ومتى رأى[٥٩] العبد بقلبه ، وأدرك بتوفيق ربه ، سبق دركه درك العباد النورانيين ، حتى علم آدم ما غاب عن الملائكة أجمعين ، ولم

---

(٥٢) ابعدت النجعة ، يعنى : بعدت عن الصواب .
(٥٣) فى (أ) : اقامة .
(٥٤) الحباب : قعر البحر العظيم .
(٥٥) أى : حرم نشاط العقل والبصيرة .
(٥٦) سقطت من (أ) .
(٥٧) فى (أ) : والسماع .
(٥٨) وكنته : عشه .
(٥٩) فى (أ) : أدرك .

يبلغنا من علمهم الا (أشياء)[٦٠] مقصورة على السماع والمسموعات ، وتعدت علوم بنى آدم الى المستنبطات •

فالمسموع وان كثر فمقصور ، والمستنبط غير محصور ، وذلك تأويل قوله والله أعلم : **« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا »**[٦١] • ليكون احتجاجه عليهم بما أوتوا من كلمات الرب جل جلاله ، لا بمقتضى ما اختص الله (بعلمه)[٦٢] من الغيب ، ليكون أبلغ فى الثناء على الله تعالى ، وأبعد من الريب بخروج أنواع علوم الاستنباط فى الناس على الحصر تحريرا ، أو الحد تفسيرا ، فانها تزداد كل يوم بلا نهاية ، لا ينكرها ذو حاسة صحيحة (وعناية)[٦٣] •

وانى لما وقفت على هذه الخصلة[٦٤] أعميت عينى بقلبى[٦٥] ، وعصيت نفسى بربى ، متخشعا خشوع العبيد ، متقويا بالعزيز المجيد ، فهدانى الطريقة ، وأرانى حكم الخليقة ، وكشف لى الأسرار فى المصنوع ، فاستوى فى عقدى عندها الغروب والطلوع • وانى بتوفيق الله تعالى ذاكر لك منها ما يهدى اليك طلاق الدنيا قرارا ، ويلزمك عند نكاحها الى الله فرارا ، ولله الحمد على ذلك وشكرا ، وصلاة على محمد وآله شفعا ووترا •



---

(٦٠) سقطت من (أ) • (٦١) الكهف : ١٠٩ •
(٦٢) سقطت من (أ) • (٦٣) سقطت من (أ) •
(٦٤) فى (م) : الجملة • نسخة ثانية •
(٦٥) اى : عطلت نظر عينى ، وفتحت بصر قلبى •

كتاب حكمة أصل الخلق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق لا عن أصل موجود ، وجمع بين الأضداد بلا تقييد ، فجعلها أصلا للتكوين ، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، علما بملكه وحكمته ، وايقانا بفقرهم وسفههم . والصلاة والسلام على من أختير من بنى آدم لاقامة المطلوب من خلق العالم .

خلق الله تعالى العـالم من أضداد أربعة غير محسوسة : حرارة وبرودة ورطوبة وبيوسة . وخلق قوامها بالمـاء والتراب والريح والنار وهى أضداد لحكم أربعة — والله أعلم — من العباد ليدل على أنها دار ابتلاء لا دار جزاء ، اذ نشوها وقوامها باعتدال الأضداد ، وهو نفس البلوى ، وبذلك تقوم الدنيا (وليعلم أنها دار نفاد ، اذ قلما تميل الى الآباد ، ومهادنة بين الأضداد)[1] ، وليعلم أنها دار متعة بمنافعها ، لا دار اقتناء لجواهرها .

اذ قوامها بالتراب والمـاء والريح والنار ، وفى الانتفاع بهـذه الأصول ملاك ، وفى جمعها واقتنائها هلاك ، وليعلم أنها دار اختلاف لا تتفق نفوس سكانها على وتيرة ، ولا تجتمع قلوب أصحابها على سريرة . بل هم أطوار ، ولكل حزب اختيار ، فرح بما لديـه ، وعرج همه عليـه ، يحب من ألفه ، ويعيب من خالفه .

ثم خلق الله تعالى آدم من تراب وماء ، وهو الطين على ما نطق به الكتاب المبين ، وخلق الجان من مارج من نار السموم ، ونقل خلافة الأرض منهم اليه ، وأبان فضله عليهم فيه لحكم أربعة أصيلة — والله أعلم — دالة على فضيلة آدم عليـه السلام .

---

(١) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

احداها : أن المــارج من النار منتفع به باتصال عرضه دون جوهره ، والمــاء أصل منتفع بجوهره وعرضه ، فالمــاء مشروب ومحمول ، والتراب منتفع به انتفاع أصول .

وثانيها : أن فى طبع النار العلو ، ومنه الاستكبار والانكار ، وفى طبع المــاء والتراب التسفل ، ومنه التواضع والاقرار[٢] .

وثالثها : أن النار تغير الهيئآت ، وتأكل الذوات ، والمــاء مع التراب أصل ينمى الأصول من الحب والنواة ، ويبلى الفضول من الجيف والأمواه .

ورابعها : أن بين المــاء والتراب اعتدالا ظاهرا حتى كان التراب أصلا لقرار المــاء عليــه ، والمــاء مزاجا له لاستنماء الفوائد منه ، فقد مثله فى غيرهما ، فلم ينل بالأصل الواحد جل خيرهما[٣] .

ثم هــذا[٤] ليستدل الآدمى بالحكمة الأولى على صرف عنايته فيما يهذب ذاتــه لا أعراضه ، وحصر همته على ما يجمع الى مصلحة الذات أغراضه .

ويستدل بالحكمة الثانية على فرض رؤيته منن الله عليــه ، وشدة افتقاره اليه ، وفقد الوسائل الى استحقاق ما به أكرم ، وتوالى أسباب (ما حرم .

ويستدل بالحكمة الثالثة على استنمائه الأحوال المثمرة للآخرة ، ثم اقتنائه)[٥] ما تخايلت نعما ظاهرة .

ويستدل بالحكمة الرابعة على قوة أصله ، وانقطاع سلطان من دونه على نفسه ، وكفايته بغلبة من سواه ، لكن على وقار ومهل ، مثل عمل المــاء والتراب دون عمل النار على البدار والعجل ، ولذلك ضرب الله مثل المؤمنين كزرع[٦] أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه .

---

(٢) ومن هنا يظهر فضل التواضع فى احراز الدرجات العليــا من الايمان والمعرفة ، وضرر الكبر وزيف ما يترتب عليــه من معرفة وايمان .

(٣) فى (م) : كل خيرهما . نسخة ثانية . والمراد بالأصل الواحد : النــار .

(٤) أى خلق آدم من التراب .

(٥) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٦) فى (ب) : بزرع .

ولأصل هذه الخلقة — والله أعلم — أربع حكم أخرى فى ابتلاء الله الملائكة بالسجود له ، وجعله خليفة [على] البشر ، فان الله تعالى رأى من الحكمة — والله أعلم — أن ابتلى الملائكة باستخلاف آدم على الأرض فقال : **« انى جاعل فى الأرض خليفة »**[7] .

وابتلاهم بالانقياد لحكمه قبل الوقوف على حكمته ، فرد عليهم قولهم : **« أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء »**[8] . بقوله تعالى : **« انى أعلم ما لا تعلمون »**[9] .

وابتلاهم بالسجود له فقال تعالى : **« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا »**[10] .

فنشأت حكم هذه البلوى من حكم تضمنها أصل هذا الخلق ، وعند معرفتها تطمئن القلوب للحق .

احداها : أن الماء والتراب أصل للظلمات ظاهرا الى عجز وانحدار ، والملائكة نورانيون ، والجان نارية ، وفى النار نور ناثر الى قوة واقتدار ، فابتلوا بقبول خلافته . وفيها تفضيل ما أظلم وعجز نفسا على ما أظلم وقدر حسا ، وانه بخلاف الأصول ، وعند ذلك ابتلاء ذوى العقول .

وثانيها : ابانة افتراض الانقياد بنقصان[11] العبودية للعالم الحاكم بحكم الربوبية ، اذ لو خلقها على أساس عرفت مزيته بالحواس لم يكن الاقرار بحكم الانقياد للسماع ، بل كان بحكم ادراك حكمة المسموع[12] .

ثم علم الله تعالى آدم الأسماء كلها مما غاب عن الملائكة حتى وقفوا بذلك على فضيلة المخلوق وقدرة الخالق ، اذ زيادة العلم لن تكون الا بزيادة الادراك والنور . فكان فى ازدياد نوره ظهور فضله ،

---

(٧) البقرة : ٣٠ (٨) البقرة : ٣٠
(٩) البقرة : ٣٠ (١٠) البقرة : ٣٤

(١١) أى على أساس اتهام الانسان نفسه بالتقصير فى اقامة حق العبودية .

(١٢) والاقرار على أساس السماع هو الايمان بالغيب وعلى أساس العجز الذى هو من خصائص العبودية بخلاف الانقياد بحكم ادراك حكمة المسموع فهو اقل درجة من سابقه . انظر : منتهى المدارك المنسوب للقاضى عياض رقم ١١٣٢ (تصوف) ، خط : دار الكتب المصرية .

وفى ظهور النور من أصل الظلمة ظهور قدرة ربه ؛ فذلك مما لا يقدر عليه أحد الا الواحد الصمد •

ثم ضرب لذلك مثلا من الظاهر : نور العين يلمع فى سواد النظر ، وفيه : ابانة أن الفضيلة فى الدنيا بالعلم دون الولاية ، اذ الله تعالى ما ألزم الملائكة فضل آدم بجعله خليفة فى أرضه ، ولكن بما خصه من علمه • وفيه أيضا : اشارة الى اتباع الباطن دون الظاهر بنفسه[١٣] ، وأن الابتلاء كله من جنسه ، وفيه أن تصديق الرب وان كان واجبا على النفوس ، فتعرف الحكمة جائز لتطمئن اليه القلوب •

والحكمة الثالثة عن أصل الخلقة : ابانة تحقيق الخلافة له فى الأرض ، لأن أصل الأرض تراب ، والماء مزاج ، وغيرهما أتباع • فالجبال أوتادها ، وما سواها فمنها ولادها • والريح والنار تغير الأصول[١٤] ، والأصلح لخلافة كل بقعة من كان من أصلها ، ولذلك لم يرسل الله تعالى رسولا الى قرى الا من أمها وأهلها •

والحكمة الرابعة : ابانة حكم الابتلاء ، اذ هى ظهور المطيع من العاصى لاستحقاق الجزاء ، و [كون] الخلق من صعيد واحد من الأرض أدل على هذه الحكمة ، لاجتماع الصعيد على طيب منبت طيبا زاكيا . ومنبت طيبا غير زاك ، وخبيث لا ينبت شيئا ، أو منبت خبيثا • والنار عملها متفق ، والنور كذلك ، فقلما كان تنشعب عنهما المسالك ؛ ولذلك كانت الملائكة نمطا واحدا لم يظهر منهم عصيان ، والشياطين وهم [من][١٥] الجان نمطا واحدا لم يوقف منهم يقينا على ايمان ، واختلف الانس أطوارا على شواكل ، وتفرقوا موارد ومناهل •

---

(١٣) هـذا خاص بأصل الايمان لا بالتشريع على ما عليـه الباطنية الذين يسقطون ظواهر الشريعة . فالايمان بالله تعالى غيبى خضـوعا لحقيقته الباطنة دون الظاهر من آثار أسمائه وصفاته • والايمان بمحمد صلى الله عليـه وسلم رسولا غير خاضع لظاهره . بل لـما بطن فيه من النبوة والرسالة والوحى وهو غير منظور لنا بذاته .

(١٤) فى (ب) : تغير الأحوال .

(١٥) اضفنا هذه الكلمة للفرق بين الجن والشياطين . لأن الجن عرف منهم يقينا الايمان بنص الكتاب . قال تعالى : ((**قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به**)) (الجن : ١ ، ٢) .

ثم لله تعالى كما أراهم بعلمه فضله عليهم من باطنه أراهم كذلك بحسن صورته فضله من ظاهره : « **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** »[١٦] . ليدل بحسن التدبير على زيادة تكريم .

وقد أبان الرسول عليه السلام بما روى عنه : « وخلق آدم على صورته »[١٧] وتعالى الله عن حد الصورة والأجسام ، وانما هو عبارة عما قدر له من الاحسان والاكرام . فصورة الله : ما اختارها وأحبها ، كناقة الله من بين النوق ، وبيت الله من بين البيوت . وكذلك السلطان يقول : أجلست فلانا على سريرى وان لم يجلسه على سرير نفسه ، ولكن على ما اختار وأحب من السرر من جنسه ، ليدل باختصاص آدم بالزينة الظاهرة ، والحكمة الباطنة : أنه المستحق لخلافة الله تعالى على عباده ، والامارة على بلاده .

تعالى الله من حكيم ومدبر ، وعليم ومقدر ، استغنى عن المثال فلم يسمج بدعه ، وتعالى عن اللغوب ولم يتفاوت صنعه ، ثم دل بكونه خليفة فى دار الابتلاء [على] أنه السيد[١٨] فى دار الجزاء ، اذ تلك الدار على هذه بناء ، وأن الكونين خلقا له ولأولاده ، وأنهم المقصودون من جملة عباده .

أف لعبد نظر الى أصله فوجده ماء مهينا ، والى ربه فوجده قادرا قديما ، ثم رأى العاجلة زادا لمدة بلائه ، والآجلة معدة لجزائه ، والشياطين ملعونين[١٩] بسببه ، والملائكة مرسلين لرصده ، الى أنبياء عليهم السلام من البشر ، وبينات من الصحف ، على استغناء الرب عنه ، وافتقار العبد اليه ، ثم شك فى قسمته ، أو عصى بنعمته ، ثم ادعى أن لقلبه عقلا ، أو لأمره أصلا .

ألا ينظر العبد فى أحواله مدة حياته وعمره ، والى فضول لياليه ونهره ان غفل عن حكم الأصول ، واشتغل بالنعم والفضول ، وأنها أحوال محسوسة عيانا ، وفصول مدركة ايقانا ، ولله تعالى فى (كل)[٢٠]

---

(١٦) التين : ٤ .

(١٧) جزء من حديث أخرجه الترمذى عن حذيفة . وبوب له ابن فورك فى مشكل الحديث .

(١٨) فى (ب) : استبد . (١٩) فى (ب) : مغلوبين .

(٢٠) سقطت من (أ) .

ما أبدى وأخفى عبرة وحكمة من أبصرها عبر . ومن عمى عنها عثر ، ولا بصر الا بعقل ، ولا عقل الا بفكرة ، ولا فكرة الا بعد طهارة الفطرة[٢١] ، ولله الحكم ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء وهو الحكيم العليم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ولا نجاة الا باتباع من جاء لهذا الفضل معينا ، وداعيا الى طرقه وهاديا مبينا .



(٢١) هذا ينفى الفكر عن اصحاب الفطر غير المطهرة . بل هى افكار مدخولة لعدم طهارة محلها .

كتاب الفصول الأربعة

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدت من تمت نعمته ، وجلت حكمته ، وأثمرت طهارة الفطرة جنى العبرة ، فاجتنتها أنامل التأمل للهوات القلوب ، واستحلاها مذاق الألباب لمنشرح الصدور ، فاطمأنت النفوس الى نفائس ما أدركت ، وأعرضت عن أغراض فيها بقيت الأعراض ثم هلكت ، فقسم أحوال الآدمى على فصول أربعة ، وأوفاه اياها فى فصول من الزمان أربعة :

فصل الاجتنان[1] ، ومثاله الشتاء من الزمـان • وفصـل الصبا ، ومثاله من السنة فصل الربيع • وفصل الشباب ، ثم فصل المشيب ، ومثالهما من الزمـان الصيف ، ثم الخريف • وذلك على طبائعه الأربع : البلغم ، والدم ، والصفراء • ثم السوداء • ثم جمع هـذه الفصول فى فصول العمر[2] ليدل بتفاصيل السنة على ما تدل عليـه الجملة[3] •

وصليت على رسول الله الى كافة خلقه ، عرف العاجل بصدقه ، والله تعالى لحقه ، فأعرض عن الدنيا وقد عرضت عليـه بخزائنها[4] ، فأسفرت له بدفائنها[5] ، ثم خير نساءه على ما اختار من الترك ولم يورث مخلفيه الا العلم ، فقرب منهم بالتعليم البعيد فورث ، وبعد عنهم بالتغافل القريب فحرم ، ليبين لكل عاقل فضل سبب الدين[6] على فضل النسب الكريم •

ثم اعلم متعنى الله بالبلاغ ، ومتعك بالاستماع[7] : أن الله تعالى —

---

(١) أى : حين كان الانسان جنينا .

(٢) فى (ب) : فصول اليوم والليلة .

(٣) الليلة كالشتاء ، وأول الصبح كالربيع ، والظهر كالصيف ، وآخر اليوم كالخريف .

(٤) فى (م) : بخذافيرها . من نسخة ثانية .

(٥) أى بأسرار حكمة الله فيها . (٦) يعنى قرابة الدين .

(٧) فى (أ) : بالسماع .

وهو أعلم ــ قسم ابتداء النشو من البلغم ، وفى طبعه ضعف ظاهر ، وعجز حاضر ، ليعرفك أن المنشأ من ســواه قد فقدت القــدرة فى معناه ، وختم الحياة بالسوداء وعندها التمام ، وصلاح المرء للخاص والعــام ، اذ كمال الآدمى بحسن الرأى ، ولطف الحيلة ، وهما نتيجتا التجربة والفكرة ، وكمال حالهما فضل السوداء .

ثم كان مقرونا بها الفناء[8] ، ليدل على أنك مقهور بطبعك لمن أنشأك على ضعفك .

ثم ضرب لك مثلا لذلك [فى] تحولك من عجز بشتاء : تحرك الأجنة فى بطون الأرض ، وربيع يبديها ، وصيف ينميها ، حتى اذا كان الخريف ولاجت الثمار على التمام ، جاء أوان الصرام ، ثم نطق به الكتاب فقال : **« انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام »**[9] .

ثم ليبين لك أنك على سبيل لابد لك فيه من الرحيل : مضت طفولتك الى صبا مالك فيها من رجعة[10] ، وانقضى الشباب الى المشيب على سرعة ، وجاءك الخرف وعنده الصرعة ، [وذلك أمر] قد أيقن به الجاهل ، وأذعن له العاقل .

ثم أراك الحكيم عزت قدرته فصول سنتك كيف انقضاؤها وأنت فى سنتك مستشهد بفصولها على فصولك ، ومعرفا بأفولها قرب أفولك ، أيأمن مقيما بين الناس من يسير به الفلك وتخطو به الأنفاس ؟

ثم ليعلمك[11] أنك فى دار امتحان مالك فيــها من سلطان على اقتضاء شهوة ، أو تفكه نعمة (اذ أول أحوالك الضعف عن الاكتساب ، والعمى عن الأسباب ، ومدتك بعد مديــدة ، وحاجتــك الى المصالح شديدة)[12] ثم بعدها حال الصبا الباعث على التبذير ، وأنت مأخوذ عنك ، مالك محجور ، ونشطت فيه بطبيعة الدم للهو واللعب ، وقضاء الشهوات والفرج ، و (أنت)[13] مصفوع[14] للتعلم ، ممنوع عن التكلم .

---

(٨) فى (ب) : بماء الفناء .
(٩) يونس : ٢٤
(١٠) اى : ان عدم عودة الطفولة والشباب دليل على رحيل الانسان الى عالم آخر .
(١١) فى (أ) : ثم لتعليمك .
(١٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٣) سقطت من (أ) .
(١٤) مصفوع : اى مجبر على التعلم .

ثم بعدهما حال الشباب الباعث بقوة الصفراء على التعالى ومغالبة الرجال ، وأنت فى مقام الخدمة للكبار ، ومحل الائتمار •

ثم بعدها حال المشيب[15] الباعث بطبيعة السوداء على التأميل وقد آن (أوان)[16] الرحيل ، والأمر بجمع العدة[17] حذرا من الآفة . وقد انقضت المدة ، وانتهت المسافة •

ثم ضرب لك مثلا لذلك فى فصول آجالك : بربيع تخضر فيه الأرض للجالسين ، وتضحك للناظرين بزهرها ، وأنت ممتحن فيه بحماية خضرها عن الأنعام أملا فى عقدها[18] ، ورعاية أنوارها عن الصبيان طمعا فى ثمارها •

ثم صيف يأتيك من الثمار بنموذجها ، ويبدى اليك العروس من هودجها ، وأنت فيه مشتغل بالمؤن ، مذلل بالتعب •

حتى اذا جاءك الخريف ، ودنت القطوف ، وتزينت بالثمار الغصون ، ومالت الى الوفاء الظنون ، هبت صر[19] شغلتك بالادخار والتقديم عن ابتكار النعيم •

ثم لينبهك بارتزاقك وأنت جنين لا يصل اليك أحد من المخلوقين على أن الرزاق هو رب العالمين ، ولكن بشرط الغفلة عما سواه من المخلوقين • حتى أنك لما أبصرت والديك بعد الولادة من جميع الخلق ، وكلت اليهما فى الرزق ، هذه ترضع ، وهذا ينفق ، ثم وكلت الى نفسك فى شبابك لما رأيت نفسك ، وتمسكت بأسبابك • ثم لما رأيت أولادك وتمنيت حياتهم — وان كنت على المشيب — التزمت أقواتهم •

فلو لم تر فى جميع العمر غير ربك أحدا ، أتاك الرزق من ربك فى وقته رغدا[20] ، ولو لم تر لنفسك بعد والديك ما احتجت الى كسب

---

(15) فى (م) : الشباب . من نسخة ثانية .

(16) سقطت من (أ) .

(17) فى (أ) : القوة . وهما بمعنى : التشمير عن ساعد الجد فى الاستعداد للقاء الله .

(18) أى : املا فى أن تنعقد وتقوى وتستوى على سوقها .

(19) الصر : ريح تخرج من الارض كأنها عمود من نار .

(20) هذا السلوك غير ملزم لجميع المسلمين . وقد سئل أحد الزهاد : انجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا ؟ فقال : من كان له يقين مثل يقين ابراهيم الخليل فليفعل . وأين اليقين الابراهيمى فى هذا الزمان ؟

يديك ، ولو لم تر أولادك بعد نفسك ، ما التزمت أرزاقهم بعد أفول شمسك .

ألا تعتبر أيها الأخ — ان غفلت عن الطيور — بأول الحال ؟ ما ضيعك ربك فيها جوعا ، أفيضيعك وأنت على الكمال ؟ ما أجاعك وأنت جنين ، أيجيعك[٢١] وأنت مؤمن مبين ؟

ثم ضرب لك مثلا بعبدك ، والصغار من ولدك ، فانك ضامن لهم أقواتهم ما داموا تحت أمرك ، ورضوا بحكمك ، لتعلم به حالك فى الرزق مع خالق الخلق . ولئن ظننت مولاك دونك فى الوفاء فهو كفر ، وان عددت نفسك دون عبدك فى الطاعة والثقة فهو نكر .

ثم قد أسمع الصم ، وأفهم البكم بقوله : **« وفى السماء رزقكم وما توعدون »**[٢٢] .

ثم عظم شأنه[٢٣] بالقسم فقال : **« فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون »**[٢٤] . لينتبهوا بكون الأرزاق فى السماء على ألا شريك لله تعالى فى الاعطاء .

ثم نص على الضمان ، وألزم الحجة بقوله : ولله القدرة : **« وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها »**[٢٥] .

و [مع ذلك] ابتجازوا على الله خلفا وذلك غير سديد[٢٦] ، وفى آذانهم وقر وبقلوبهم عمى ونودوا من مكان بعيد .

أو لم تفهم ما أملت عليك الأصول ، ولم تبصر ما أبدى لك الفضول ، فأدركك المشيب وحل بك الأمر ، وأنت فى ظنك حدث[٢٧] وفى حالك غر ، قد أفنيت صباك لهوا فى الربيع بين أتراب وجموع راتعين (فى رياضه)[٢٨] متلهين بأعراضه[٢٩] الى شباب وصيف .

فاذا[٣٠] أنت على قوة واعتدال ، والفصل فصل خصب وظلال ، فتعاليت بنفسك ، واكتفيت بظلك ، وقلت : بالباكورة كفاف ، وللوقت

---

(٢١) فى الأصول : ايجوعك . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .

(٢٢) الذاريات : ٢٢

(٢٣) فى (أ) : وعظم شأنه .

(٢٤) الذاريات : ٢٣

(٢٥) هود : ٦

(٢٦) أى : اجاز من لا بصيرة له أن يتعلق أمر الرزق بغير الله .

(٢٧) فى (ب) : فى حالك حدث .

(٢٨) سقطت من (ب) .

(٢٩) فى (ب) : باعراض .

(٣٠) فى (ب) : فياذا .

دوام وانسعاف ، فاذا أتت بالخرف والخريف (ولكن)[٣١] والثمار بعد جميلة ، وفيك رأى وحيلة ، فاختلت[٣٢] لقوتك من جنى غيرك ، وان كنت تلهيت فى الربيع بأوراد[٣٣] جنى خيرك .

فبينما أنت فيه اذ دخل بك الموت والشتاء من الزمان ، ورحلت الى القبر عن البستان ، وصار القوام [للكل] بما قدم فى سالف الأيام ، لكل سهم مفرز ، وقسم محرز ، وأنت فى عذاب الأفلاس مالك عليه من قرار ، ولا عنه فرار ، وأنت عاقل حنكتك التجارب ، واجتمعت لديك المذاهب[٣٤] ، وقد أفنيت صباك بتعلم الصناعة على جبر ، ثم كنت[٣٥] أيام شبابك فيما تعلمت تحت أمر ، حتى صرت أستاذا وأنت بآخر العمر ، فجهدت أيام المشيب بعد حسن المعرفة للكسوب ، فساعدتك الأقدار ، ومانعتك الأدوار ، فاجتمعت لديك الأوقار ، ثم رحلت عنها قبل التمتع بها بفناء الأنفاس ، ورحلت عنك وهى على البكارة الى غيرك من الناس ، وانما اغتنمت منها حساب حلالها ، وعذاب حرامها .

(ألا أنبهك على الحق ، ألا أخبرك بالصدق)[٣٦] خالف من صباك طبيعته ، بتعلم ما يعرفك الله وشريعته ، ثم خالف طبع شبابك بخدمة[٣٧] كبار العلماء وطاعتهم ، حتى اذا حل بك المشيب[٣٨] قمت مقامهم بلا ريب ، والعيون تلاحظك بالتوقير ، والقلوب تصاحبك بالتوفير ، أمرك نافذ بغير أعوان ، وحكمك لازم بغير سلطان ، يتمنى البعيد قربك ، ويخشى[٣٩] القريب بعدك ، وأنت مكرم بذاتك ، محمود بصفاتك ، صفقتك مع ربك ناجحة ، وتجارتك فى سوق الزهادة صالحة ، تعقد ما شئت من الأسلام[٤٠] بهين من رأس المال ، وأنت آمن من الفوت والاخلال .

---

(٣١) سقطت من (ب) .

(٣٢) فى الاصول : واحتلت . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .

(٣٣) فى (ب) : بارواء . (٣٤) فى (أ) : المواهب .

(٣٥) فى (أ) : حتى كنت .

(٣٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٣٧) فى (أ) : فى خدمة . (٣٨) فى (ب) : الشيب .

(٣٩) فى (ب) : ويجتنب .

(٤٠) الأسلام : جمع سلم وهو : اسم لعقد يوجب الملك فى الثمن عاجلا ، وفى المثمن آجلا ، فالمبيع يسمى مسلما فيه ، والثمن رأس المال ، والبائع يسمى مسلما اليه ، والمشترى رب الثمن . انظر [تعريفات الجرجانى ٨٢] .

فبينما أنت مشغول بتجارتك ، مستأنس من الله[٤١] بلطف مشتريها وفضله ، مسرور برواج معيبه[٤٢] ، وكثرة نزله ، اذ جاءتك البشارة بحلول الأجل ، وانقضاء مدة المهل ، فتئول الى استيفاء الأسلام ، واحراز الأرباح العظام ، بحيث لا تصفها الألسنة ، ولا تخطر على الأفئدة ، واتصل سرورك بالمظنون بسرورك باليقين ، بأن الشتاء من فصول سنتك لتزداد نعمه على سائر الفصول ، لمن قدم اليه منها الفضول ، لما فيه من راحة النفس بانسداد أبواب التقلب ، وملافاة الأحزان[٤٣] بانقطاع سبل التفرق[٤٤] ، ويسر الاصابة باجتماع الألوان فى واحد من المكان •

فقال : فكأنك أتعبت قلبك بدوام التفكير ، فزاغ عن الطريق فيما أملى عليك من التدبير ، وان الله خلق هذا العالم مقرونا بقاؤه بالغذاء وقسم غذاءهم مما لا تنبته الأرض بنفسها الا بعد ابداع واستنماء ، فكيف حكمت أنت قبل السبب بالبقاء ؟

ولو قلت : ان الله تعالى ضمن الأرزاق بحلال من الأسباب فلا تطلبوها من غير تلك الأبواب ، وضمنها ضمان الزاد للمسافر فلا تجمعوها جمع الأحمال للتاجر لكان عدلا ، وطريقا سهلا • فانما على العبد فى كل الأحوال طاعة ربه ، وتعرف الأمر من كتبه ، ثم العمل بحسبه[٤٥] •

أما رأيت أن الله تعالى لما ضمن الأرزاق للطيور والوحوش بلا تسبب[٤٦] منهم أصلا قسم لها مما يوجد على وجه الأرض سهلا ، ثم لم تستغن عن الطلب ، وذلك القدر منها سبب ، لكنها قنعت واكتفت به وما جمعت •

قلت : أيها الأخ الذكى ، والعبد التقى ، اياك والاصغاء الى تلقين نفسك واستعذاب هواها ، والاستماع لحججها لتحصيل مناها ، فانها أمارة بالسوء فى قالب الحق ، محدثة بالكذب بلسان الصدق ، ما أراها الا قد غرتك بهذا السبب المشروع لعمارة الدنيا ، ومزاحمة الجموع

---

(٤١) فى (ب) : مع الله . (٤٢) فى (ب) : المعيب .
(٤٣) فى (أ) : وملاقاة الاخوان .
(٤٤) فى (ب) : نسل التفرق . (٤٥) فى (ب) : بخشيته .
(٤٦) فى (أ) : ولا تسبب . فالجملة اعتراضية ، واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .

من الناس فى جمع المـــال ، فان الدنيـــا حلوة خضرة ، عشقها الناس الا قليلا ، ومن تمسك بسبب منها وقع فى جد الهم[٤٧] طويلا .

فاذا هاجت فيه حمية الجاهلية ، وجاش فيه الغضب ، تعدى الحدود والسبب ، وماله على نفسه ملاك[٤٨] ، وعند ذلك الهلاك .

ولو كان هـــذا الوهم منك حقا ، والحديث صدقا ، لاكتسبت الرزق بسبب الجهاد فى سبيل الله والقتال ، فهو السبب للارث الأطيب الحلال ، مع ما تستحق به من كفايتك من بيت المـــال ، أو لاشتغلت بتعليم الناس الدين ، وبالأذان وبالامامة للمؤمنين ، فذلك سبب لاستحقاق الكفايـــة من بيت مال المسلمين ، أو رضيت عند متاركة الأسباب بالفقر ، فهو سبب لاستحقاق الكفاية من أصحاب الدثر[٤٩] ، من نيلك[٥٠] أسباب رزق هى بنفسها عبودية أو عبادة الرحمن الى أسباب هى لعمارة الدنيا دليـــل على اغترارك بوساوس[٥١] الشيطان .

ألم يبلغكم قول الرسول صلى الله عليـــه وسلم : « أنا أعـــلم بأمور دينكم وأنتم أعلم بأمور دنياكم »[٥٢] ؟ أما بلغكم كسبه ؟ فذلكم حسبكم الا أن يعجب العبد فى قربه من ربه بعظيم حاله ، فيلطخه بمباح أعماله ، فقد خص بالكسب لازالة العجب[٥٣] .

فقال : نعم ، لقد كشفت الشبهة ، وألزمت الحجة ، ولكنى أكلمك على أصل الفطرة ، وما عندها بيت مال ولا جهاد ولا غنى ولا عتاد .

قلت : انك رجل ما أدركت من فطرتك الا ما وصفت لك من أسباب الكفاية فيها موجودة ، فكيف تركتها الى أسباب العمارة بناء على حالة

---

(٤٧) فى (م) جدالهم — من الجدال . من نسخة ثانية .

(٤٨) فى (م) : الملاك . من نسخة اخرى .

(٤٩) الدثر : الثراء . وفى (م) : أصحاب الدين . نسخة ثانية .

(٥٠) فى (أ) : من نيلك .

(٥١) فى (م) : بوسواس . من نسخة اخرى .

(٥٢) الطبرانى فى الأوسط عن ابى امامة . وفيه مقال .

(٥٣) لم نعثر على أن الكسب علاج للعجب فيما كتبه العلماء ، ولكن لعل اصل ذلك كله فى اهباط آدم من دار البقاء الى الأرض . وفى (أ) : ازالة للعجب .

لم تزل فى حقك كانت مفقودة[٥٤] . لو أنصفت لاعترفت وعرفت ، وتبت عما اعتقدت من الباطل واقترفت .

على أن الله تعالى خلق آدم فى الجنة مكفيا غنيا ، يأكل ما يشاء رغدا هنيا ، وانما ابتلى بالعمل بعد ما عصى ربه وزل .

فقال : زالت البسترة عن الحبائل[٥٥] ، وعرفت أنى كنت على باطل ، فبين لى حكمة تعليق الله تعالى رزق عباده بأسباب منهم ظاهرة مع ما لزمهم من معرفة [حقيقة] الرزق مما قسم الله تعالى لهم فى اليوم بحجج باهرة .

قلت : ليبين لهم أنها دار محنة والتباس وشبهة ، [اذ] علق الله تعالى رزق العباد الممتحنين بأسباب مخصوصة منهم ، لترى النفس الرزق [محسوسا] منها ، فتدعو الجسم فى طلب الرزق اليها .

ثم علق حقيقة الوجود بالطبائع الأربعة [التى] لابد لهم عليها ، لترى الروح ذلك من الله تعالى ، فتدعو الجسم الى طلب الرزق منه . فيكون الجسم مبتلى بين ذلك ، فيكون[٥٦] اذا ترك الأسباب لمسببها [قائما] فى حد العبودية ، فينال عند ذلك من تركه ما يجول [فى قلبه] من الأمنية ، وهذا كما قال تعالى : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث** »[٥٧] .

ثم قال للرسول عليه السلام : « **ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا** »[٥٨] . فنهاه عن النظر قبل التسبب[٥٩] للملك ، ليكون على حذر ففيه الهلك ، حتى قال (الرسول)[٦٠] عليه السلام : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »[٦١] ،

---

(٥٤) هذه دعوة الى الكفاية دون الزيادة عليها ، ولها أصل فى سلوك النبى صلى الله عليه وسلم وسلوك صحابته ، ولها اتصال وثيق بمبدأ الحد من الاستهلاك لبناء أمة الاسلام العظمى .

(٥٥) الحبائل جمع أحبولة وهى : فخ الصائد .

(٥٦) فى (ب) : فيصير .

(٥٧) آل عمران : ١٤

(٥٨) طه : ١٣١

(٥٩) فى (م) : التشبث ، من نسخة . وفى نسخة أخرى : التسبيب .

(٦٠) سقطت من (ب) .

(٦١) أخرجه أحمد فى الزهد عن جابر .

ليصير القلب ميتلى بذلك ، ويميل الى البغض ، فالحق هنالك ، واذا أبغضتها لم تقربها[٦٢] بسفاح ، ولا أمسكتها بنكاح .

ثم نبه على هـذا المعنى بقوله تعـالى : **« أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشـاء لجعلنـاه حطاما فظلتم تفكهون »**[٦٣] .

ثم نبه فقال : **« وكأين من دابة لا تحمل رزقهـا الله يرزقهـا واياكم »**[٦٤] .

كيلا يشتبه عليـك من حال الطائر أنه أصاب بسبب الطيران .

ثم أوضح ذلك بحال اجتنابك وطفولتك ، ثم صغرك وجهالتك ، ثم أخبر عن قصة مريم اذ قال لها زكريا وقد وجد عندهـا رزقا : **« أنى لك هـذا ، قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب »**[٦٥] .

وقـال : **« ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا »**[٦٦] .

وقال للرسول عليـه السلام : **« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليـها ، لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك »**[٦٧] .

ولكن من شرط الاصابة بلا سبب : ألا ترى أحدا غير المسبب ، فأما ما دمت تخاف الجوع بفقد الأسباب فتمسك بحلالها وتوكل على الله فانك من الأوساط ، وهو الذى ذكرت أنه العدل ، والطريق السهل ، انه لكذلك لمن لم تشغله رؤية الرب عمن سواه ، ومعرفة الآخرة عن معرفة دنياه[٦٨] .

---

(٦٢) أى : الدنيـا .　(٦٣) الواقعة : ٦٣ ــ ٦٥
(٦٤) العنكبوت : ٦٠　(٦٥) آل عمران : ٣٧
(٦٦) الطلاق : ٢ ، ٣　(٦٧) طه : ١٣٢

(٦٨) حرر الحارث المحاسبى موضوع الحركة فى طلب الرزق والقعود عنها تحريرا شافيا فى فصل مستقل من كتاب المكاسب . ملحق بأعمال القلوب والجوارح من تحقيقنا . نشر عالم الكتب بالقاهرة .

فقال : سلمت لك نيل الكفايــة بلا كد ولا عناية ، فأين مكارم الأخلاق واليد العليــا ، وثواب الصدقات ، ومحامد النحلى[٦٩] ، وكنت رضيت فى اكتفائى من أموال الناس باليد السفلى ؟

فقلت : أعوذ بالله من أن يكون زين لك عملك فرأيته حسنا ، وأضلك الله تعــالى وحسبته هينا : أنا ندعوك الى ترك الدنيــا بأسرها ، وأنت تأخذها لتميل الى الكرم بجود بعضها ، فكم ما بين الأمرين ؟ ما أنت فى الأخذ ابتداء الا منازع بحظك وما فيه من كرم أصلا ، ثم ما أنت فى الاعطاء الا طالب لنفسك حمدا ، أفتبلغ به منزلة من تركها كلا فلم يجعل لنفسه حظا وقد قدر عليها أخذا ؟

وهل كرم حق الا فى ايثار الخلق برضا الحق على قهر النفس ، ثم للصابرين عن الدنيا مع ما فضل الآخذ [على] المعطى [من] ثواب الصبر على ابتلى من الفقر .

أما علمت أن ثواب المريض المصلى قاعدا مثل ثواب المصلى قائما ، ثم فضلــه بثــواب الصبر على المرض ؟ فكفر الله تعــالى عنه مظالم بتألمه[٧٠] . أما سمعت قول القائل : يا طالب الدنيا لتبر ، تركك لها أبر ؟ أليست اليد العليــا باعطاء بعض الدنيــا ، فكيف للتارك رأسا اليد السفلى[٧١] ؟

ما قولك فى بريرة وقد أهدت الى الرسول صلى الله عليــه وسلم وقبله منها ، وقولك فى رسول الله صلى الله عليــه وسلم وقد قبل دعوة العبد ؟ لمن كانت اليد العليــا ؟ لبريرة أو لرسول الله صلى الله عليــه وسلم ؟ بل لرسول الله ، فانه خير بين الدنيا والمولى فاختار الله تعالى ، وتركها لبريرة وأمثالها ، وللعبد وأشكاله ، فأهدوا اليه بعض ما ترك عليهم ، فلمن تكون اليد العليــا واليد السفلى ؟

---

(٦٩) النحلى : العطاء .

(٧٠) الأصل الذى بنى عليــه المؤلف نظريته وقياسه هو : أن ترك الرخصة والعدول عنها الى العزيمة أعلى درجة وأكثر ثوابا ويدل له أن عمر رضى الله عنه صلى لمــا طعن قائما وكان جرحه يثعب دما . انظر مفصلا باسانيده فى سير السلف للحافظ اسماعيل الاصبهانى . خط .

(٧١) أى : مع القدرة على الأخذ ، لا عجزا عن الحصول عليها . وقد حقق المحاسبى فى الباب الرابع من وصاياه هــذا الموضوع فلينظر هناك . نشر مكتبة صبيح من تحقيقنا .

وليس كلامنا فيمن أحب الدنيا ونكحها بقلبه فتركته[٧٢] ونشزت عنه حتى لم يمسها الا من يد غيره ، فصارت يده السفلى ، لأنها آخذة بلا اعطاء ، ومتهبة[٧٣] بلا جزاء .

ثم ندع هـذا ونقول : رجل اشتغل بالعـلم والعمل عن الدنيـا ، فصار بعلمه اهتداء ، وبعمله اقتداء ، فنجا بسببه الناس من الضلالة[٧٤] ، وفكوا عن أسر الجهالة ، فأحبوه بقلوبهم ، وجازوه بعطائهم ، ومجدوه بثنائهم ، فلمن السابقة ؟ وأى يد العاليـة ؟ وأى الكفايتين العظمى ؟ وأى المنحتين أولى ؟

كأنى وضعت هـذا الأساس[٧٥] لأعمى بقلبه ، زمن[٧٦] بجسمه ، يحيـا وبالا ، ويعيش عيالا[٧٧] ، ما له عند أحد من يد ولا سابقة ، ورضى بما تصدق عليـه لنفسه حظا ، ولم يرفع الى ما فوقه[٧٨] لحظا ، فهذه هى اليد السفلى وهو الجاهل[٧٩] فى الآخرة والأولى .

أما علمت أن فيما دعوناك اليه رضـاء بالحكم ، وهو العبودية ، وفيما تدعو اليه عمل بالأمر وهو العبادة ، والعبودية سابقة ، والعبادة لاحقه .

قال : فلقد قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم لعمرو بن العاص : « نعم المـال الصالح للرجل الصالح » . وقال لسعد [بن أبى وقاص] وقد شاوره فى الوصية بماله : « الثلث ، والثلث كثير . لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » . وقال أبو بكر لعائشة وقت موته : « ان أحب الناس الى غنا أنت ، وأعزهم على فقرا أنت » .

قلت : أيها الأخ ، ان الناس طبقات لا يصلحون على وتيرة ، ولا يسلكون قط طريقة ، وان رسول الله صلى الله عليـه وسلم كلمهم على

---

(٧٢) فى (أ) : ففركته .

(٧٣) أى : طالبة للهبة . ويصدق ذلك على محترف السؤال ، وعلى الظالم يهب المظلمة لمن ظلمه على سبيل الصدقة عليها بها .

(٧٤) فى (ب) : الضلال .

(٧٥) يريد : ما قرره من معنى اليد العليـا واليد السفلى .

(٧٦) الزمن : من به علة لا تبرأ .

(٧٧) أى : عالة على غيره .　　(٧٨) فى (ب) : فوقها .

(٧٩) فى (م) : الخامل . من نسخة ثانية .

قدر ما عرف لهم من الصلاح فيه • فقال لبلال : « أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش اقلالا » ، واختار الله تعالى والآخرة فى نصيبه ، ثم خير نساءه على ذلك •

أو كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم مغبونا هنالك ؟ وكذلك أبو بكر رضى الله عنه رأى صلاح عائشة رضى الله عنها فيما آل ، ثم لمـــا آل الأمر الى نفسه تصدق بجميع ماله ، فقال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : « ماذا خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله » • وتصدق عمر رضي الله عنه بشطر ماله وقال : « خلفت لعيالى الشطر • فقال النبى صلى الله عليــه وسلم : فضل ما بينكما فضل كلاميكما • فقال عمر : كنت أجتهد لأسبق أبا بكر يومئذ فآيست يومئذ » •

ثم قال الله تعالى : **« من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب »**(٨٠) • ولم يقل : ومن كان يريد حرث الآخرة بحرث الدنيا •

ثم قال : **« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا »**(٨١) •

أفبيان أوضح من كتاب الله ؟ ومقتدى به أولى من رسول الله ؟ وحجة أبلغ من دلالات العقول ؟

قال : متعك الله وايانا بآياته ، وهدانا الى الحق بدلالاته ، وفقك الله لشكر ما استنار صدرك لقلبك ، واياى لشكر ما وفقنى لمثلك ، فنعم الرفيق أنت ، ونعم الطريق هــذا ، ما بقى الا السلوك ثم الوصول عن قريب ، والله تعالى أستعينه وأستهديه فهو السميع المجيب • ضل عبد لم يهتد بعلمك ، أو لم يقتد بسمتك ، ولم يتأمل بعد أن عرف أنه مخلوق للابتلاء فى أقسامه ، وضيع فى غيرها ساعة من أيامه •

قلت : متى ترك خداع الأمل الناس للتأمل فى مدة المهل ، وانما يشعرون عند حلول الأجل الا قليلا من أوليــاء الله ، وكأنك منهم ، وان الله تعالى ضرب للنشور مثلا بحياة الأرض بعد موتها فقال : **« فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور »**(٨٢) •

---

(٨٠) الشورى : ٢٠ — (٨١) الكهف : ٢٨

(٨٢) فاطر : ٩

هل اعتبرت أيها الأخ بموت العالم بموت بنى آدم ، وبحياته اذا ذهب الشتاء بحياتهم يوم الجزاء ؟

أما ترى الأرض وقد حييت يتقارب نباتهـا منظرا ، وقد تباين مخبرا ، فمن أزواج وأفراد ، وجمل وآحاد ، غفل الزوج عن أمثاله ، وجهل الفرد بحاله ، حتى اذا كان بعد حين اختلفت مناظرها بخلعها ، من نبت زين بزهر ، وقرب الى مجالس الملوك لحسن خبره ، ومن نبت لعين لشوكه أو فساده ، وجمع للنار ، ومن نبت صفى طيبه من خبثه بعصار ، ثم سلم الى الخزانة ، وتميزت العصارة للاهانة •

أفلا تذكر به نشورك ، ويوم حشورك ، يوم بروز العالمين أشكالا ، غافلين[٨٣] أمثالا ، حتى اذا كان الحساب والجزاء كانوا سابقين وأصحاب الشمال وأصحاب اليمين ، سلم الخبيث الى الجحيم ، والطيب الى النعيم ، والمغشوش يسبك بالنار ، ثم يحشر الى الأبرار ، مالك يومئذ فى القسمة من تدبير ، ولا حيلة ولا تقدير ، فاجتهد يوم زراعتك هـذا لبذر لطيف الحب ، وشرب طاهر عذب •

أم رأيت الربيع اخضر لعينيك[٨٤] فزرعت منه نشاطا فى نفسك ، أما ردعك عنه علمك بفراقه عنك ان عشت ، وفراقك عنه ان مت ، فتأخذ منه غير هـذا حظا ، أو تلاحظه بموق القلب لحظا ، فتجتنى[٨٥] منه مكان أزهاره[٨٦] وعظا ، علما بأن الله الذى خلقه لك حكيم لم يخلقه الا لحظ منه يبقى معك •

آه ، فكل العبيد مغلوبون بطبيعة البلغم ، ما بهم من قدرة قبل طبيعة الدم ، وقل من غلب طبيعة دمه ، فترك لهو يومه ، وقل من لم تغلبه طبيعة الصفراء ، فلم يغالب الأكفاء وغير الأكفاء •

وأغلب الطبائع للانسان السوداء ، فاحذر أن تكون مغلوبا بها ، فتبخل عن نفسك أملا فى غدك ، وتغفل عن الحلول بلحدك فرحا بولدك فانك ان غلبت هذه [السوداء] فحزنت لموتك ، واستهنت بمالك لم يضرك

---

(٨٣) يعنى : لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه •
(٨٤) فى (م) : بعينيك • من نسخة ثانية •
(٨٥) فى (م) : فتجنى • من نسخة ثانية •
(٨٦) فى الأصول : أزهارها • والسياق يقتضى ما اثبتناه •

غلبتها اياك من قبل ، وان غلبت بها[٨٧] لم ينفعك وان غلبت ما قبلها في كل فصل .

أيقظ الله القلوب مكان العيون ، ووفقنا لاتباع اليقين مكان الظنون .

أيها الأخ ، قد بينا لك كيفيـــة الابتلاء فى أصل خلق الناس ، ثم بلواك فى صفات ذاتك التى هى الأساس : عبد ، فقير ، مأمور ، مسجون . والله تعالى ـ وهو أعلم ـ قد ابتلاك على كل قسم من الأربعة الأقسام بأربعة من الأحكام . وانى ان شاء الله هاديك اليها بتوفيقه ، وقفك الله على الحقيقة منها بطريقة ، وما توفيقى الا بالله عليـــه توكلت واليه أنيب ، والله تعالى أستعين ، انه سميع مجيب .



(٨٧) فى الأصول : بهذه .

كتاب العبودية [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد واجب على كل عبد لربه بحقه ، عرف كونه بخلقه ، ونشأه برزقه ، والصلاة واجبة على رسول ما جاهد نفسه والخلق فى الله الا شكرا ، وما واصل الدنيا وأبناءها الا ذكرا .

فالحمد أبلغ ما يكون للرب الجليل ، والصلاة أكمل[2] ما يقال على الرسول ..

أما بعد .. أيها الأخ المقتبس نورا للهدى ، ونجاة للورى ، اعلم أن الله تعالى امتحنك فى كونك عبدا بمعرفته ، والرضا بقسمته ، والانقياد لكلمته ، والعمل بطاعته . فهذه وجوه أربعة من الامتحان . اثنان منها عبودية ، وعبادة منها اثنان[3] .

فالعبودية صفة نفسك ، والعبادة صفة فعلك ، اذ واجب على كل ذى عقل وتمييز أنعم عليه بالتكوين أن يعرف منعمه ، وأنه هو المولى ، ثم يرضى بما قسم له ، اذ الموجود بقدره انعام من الله الأعلى ، فلا أقل من الرضا ان عجز عن شكره عليه ، والحمد بما أحسن اليه من بره ؛ ثم الانقياد بكلمته وحكمه اذ لم يجد عن وثاق عبوديته وغلبة سلطانه مخرجا ، ثم العمل بطاعته اذ لم يستجز عليه سفها .

---

(١) فى (م) : العبودية أقوى من العبادة ، لأن العبودية هى الرضا بما يفعله الرب ، والعبادة فعل ما يرضى له الرب من العبادات . فالأول أشق ، فكان أفضل ، وهذا لأن العبودية الا يرى العبد متصرفا فى الحقيقة الا الله ، فيفوض أمره اليه فى كل حال ، أفقره أو أغناه ، ابهجه او اشجاه ، أسمنه أو أضناه ، البسه أو أعراه ، اماته أو احياه ، ضره أو نفعه ، فان المتصرف فى الحقيقة هو الله ، فانه خالق كل شىء ، فيجب التسليم لأمره فى كل حال ، ولأن العبادة قد تسقط العبودية ، والعبودية لا تسقط العبادة .

(٢) فى (ب) : أعلا ما يكون .

(٣) العبودية فى المعرفة والرضا . والعبادة فى الانقياد والطاعة .

ثم معرفة [الانسان] المنعم من طرق أربعة : النظر فى جسمه ، والنظر فى حياته ، والنظر فى رزقه ، والنظر فى وقته •

فان من أنعم النظر فى جسمه عرف حدوثه لتجسمه[٤] باجتماع الأجزاء ، والاجتماع عرض يضاد القدم ، واذا نظر فى أبيه وجده وجدهما كذلك ، واذا نظر فى كل العالم وجد الحجة قائمة هنالك ، فانه عناصر مختلفة ، وطباع لم تقو لاحداث المحسوس الا باجتماع ، فيلزمه اعتقاد محدث قديم واحد لا شبيه له مما ظهر فيه آيات الحدوث فيزول[٥] بها عن صفة القدم •

ومن أنعم التأمل فى حياته وجدها مقرونة بأنفاس ان أرسلها كلها جاء الموت ، وان أمسكها تعجل الفوت ، فيعرف بتعلق حياته بسبب ليس فى ملكه أنه عاجز عن دفع هلكه ، ومن عجز عن ابقاء الموجود كان أعجز عن انشاء الوجود ، ويعرف أن الذى أنشأه قادر ليس كمثله شىء ، ولا يجد ذلك فى أصله ما لم يصل الى ذى القوة والقدرة الخلاق بلا فكرة •

ومن نظر فى رزقه فوجده مما تنبت الأرض بماء ينزل من السماء وبحرارة تتصل بها من الهواء ، على أساس يشهد بالحكمة ، وما له ولأصله فى ذلك من صنعة ، ويرى هـذه الأصول مع قربها مسخرات للاصلاح ، وما له دون التناول من نزلهـا بقاء وفلاح ، عرف يقينـا من سخر الكل للبعض ، ومن قرن بين منافع السماء والأرض •

ومن نظر فى وقتـه وهو الأيام والساعات والشهور والسـنوات رأى حدوثها بدوران الفلك ، وجريان الشهب ، ورأى الحوادث كلها مما ينفعه ويضره فى الأوقات ، ثم رأى ذلك الفعل منها عن تسخير ، ثم يرى نفسه صاحبة التدبير ، وهو تحت ما يبدو من المسخرات مقهور ، اعتد بمن سخرها ورفع السماء فقدرها ، وبسط الأرض ففطرهـا ، تبارك الله من صانع على الأشكال ، ومبدع غنى عن المثال •

فاذا عرف الله جل جلاله وقدرتـه على الخلق ، وحكمته فيما فتق ورتق رضى بالقسمة من طرق أربعة : معرفة أصل الوجود ، ومعرفة حال الوجود ، ومعرفة النفع فيما فات ، ومعرفة العوض عن الآفات ؛ لأن العبد وان حرم المواهب ، وأحاطت به المصائب ، فنفس الوجود

---

(٤) فى (أ) : عرف تجسمه .

(٥) أى : لئلا يزول عن صفة القدم .

نعمة من الله تعالى عليــه ، واحسان لا يماثله سواه ، وما له فيما حرم من حق ، فيلزمه الشكر .

متى نظر بالصدق تم تمكينه من [أن] استدامة الحياة فى حاله أعز وأنفس مما حرم من صحبته وماله ، والموجود موجود باحسان من الله وفضل ، والمعدوم معدوم من طريق العدل ، والعدل مرضى ، والفضل مشكور .

فقدر الباقى من المحبو[٦] أصل ، ووجوده من الله اكرام ، وقدر الغائب[٧] من حرمان المواهب فرع ، ونقصان من الانعام ، والمكرم[٨] على ما أكرم مشكور بثناء ، وفيما حرم مسئول بدعاء .

فاذا عرف الحال من الزيادة والنقصان أهل لله شكرا ، ولم يحتج الى تجرع الغصص صبرا .

ثم يعرف الفائتة منه مما تحبه الطباع والنفوس من قوة البدن وصحته واعتداله ، وأهله وماله وولده ، فيجدها أعوان النفس على الروح ، ودعاة الدنيــا سرا بلا تصريح ، فان صح اعتدل ، ومن اعتدل قوى ، ومن قوى علا (فى الأرض)[٩] .

ومن سلم أهله كثر ولده ، ومن كثر ماله وعدده طغى ، ومن علا وطغى ترك العبودية وعصى روحه[١٠] وأطاع نفســه ، وهى العدو المبين ، ومن فقدها[١١] خضع لضعف البدن والاعتلال[١٢] ، وذل بفقر عن الأهل والمــال[١٣] ، وقام فى مقام العبيد ، فصار مطيعا لروحه ، وهو الآمر المبين .

واذا عرف الفائت وعرف ما فيه من انعزال عدوه[١٤] عن ولايتــه واستيلاء أميره[١٥] على رعيته لم يرض من نفسه بالرضا حتى يفتح فاه بحسن الثناء على المولى[١٦] .

---

(٦) اى : الموهوب .
(٧) فى (أ) : وقدر الفائت .
(٨) فى (أ) : والمكرم .
(٩) سقطت من (أ) .
(١٠) فى (أ) : وعصى ربه .
(١١) اى : فقد العبودية .
(١٢) فى (أ) : والاعتدال .
(١٣) اى : ماله وعدده وصحته .
(١٤) اى : نفسه .
(١٥) اى : روحه .
(١٦) ليس هــذا من تمام مقام الشكر ، فالشكر يبدأ من اللسان وينتهى بالقلب ، ويعلو بالسلوك ، وترجمة الشكر الى سلوك تتلخص فى

ثم ينظر بعد ذلك الى جميل ما وعد الله تعالى على الصبر عليها ، والرضا بها على خلاف النفس بدلائل السمع والعقل ، وتبشير الله تعالى ايـــاه بقوله : « **وبشر الصابرين • الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليــه راجعون • أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون** »[١٧] • وجميل ما وعد الله لعباده على عبادتهم ببذل الطاعة له فى أوامره ونواهيه ، فان العوض أجمل وأجزل على عبوديتهم ببذل الرضا له فيما أمضاه ويمضيه •

فالقسمة قبل الأمر . والرضا فوق العمل[١٨] ، حتى كان ترك الرضا كفرا ، وترك العمل فسقا • فاذا عرف جزيل العوض على ما ألم به استحلى ذواقه ، وتمنى اعتاقه ، حتى اصطبر العقلاء لكريه الأدوية واحتموا عن لطيف الأغذية مختارين، لمـــا فى عاقبة الدواء من حسن الشفاء وقد قيل : ما ألم من عـــلم ما نال فيما ألم •

ألا يشكر عبد ربا خلق الدنيـــا سجنا لابتلائه ، والآخرة ملكا لعطائه ، ثم سلبه أسباب المقام أيام احتباسه ، ثم ابتلاه بالمكاره فيها ليفر عن احتباسه ، ثم جزاه على جده فى الفرار عنها ، وكراهية القرار فيها •

فان عمى عن هـــذه البواطن فكيف عمى عن كثرة سخطه على القسام ، فانه غير راد شيئا من الأحكام الا بزيادة من حيث ضيق

=

استعمال نعم الله تعالى فى مراضيه ، وصيانتها عن مكارهه ، وهذا اعلا درجات الشكر .

أما عدم الرضا بالرضا فمعناه : اتهام الانسان نفسه فى احكام عقد الرضا بالله ، وليس معناه : عدم الرضا كما يتبادر الى الذهن .

ومما يحتمله المعنى هنا كما قرره المؤلف : أن الراضى ينفى عن نفسه انه رضى ، بل ينسب كل فعل لله تعالى ، فهو لم يرض الا بعد توفيق الله اياه ، ولذلك يثنى على المولى من هـــذه الوجهة .

(١٧) البقرة : ١٥٥ ـــ ١٥٧

(١٨) لأن العمل قد يكون ولا رضا . والحق أن العمل يجب أن يكون مقترنا بالتفويض بحيث يكون التفويض سابقا عليـــه ، فيكون عقد المؤمن المفوض الراضى : أن يعتقد انه لا شيء له عند ربه فيفوضه اليه ، ولكنه طاعة للامر يفوض كل أموره اليه ، ثم يعمل على هذا الاساس ، فيكون الرضا حينئذ فوق العمل .

القلب عن الآلام ، فانه أمر موجود يقينا لا ينكره ذو بصيرة فيتركه ، فما اشتغل عاقل قط بزائد ضرر ، أو زلة ألم ، ألم تسمع قول القائل :

الدهر يخنق أحيانا بلا دية
فان خنقت فلا تضجر ولا تثب
حتى يؤخرها تأخير مدتها
وقد يزيد خناقا كل مضطرب[١٩]

فاذا ملأ عين الرضا بالنظر فى حسن القضاء ، ورأى الاحسان منه اليه فى كل حكم ، انقاد لكلمته[٢٠] بوجوه أربعة : الاقرار بالملك لله تعالى ، والاقرار بالملك على نفسه ، والاقرار بعلم الغيب لله ، والاقرار بجهل الغيب على نفسه ، اذ تحقيق الملك لله ينافى الاعتراض عليه : **« لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون »**[٢١] .

وثبوت الملك عليك من كل وجه يحجزك عن المحاجة كما انحجز عبدك بين يديك ، وكون الله عالما بالغيب مع جهلك دليل على ألا لبس على الله تعالى ، وانما التبست الحكمة عليك ، قال الله تعالى : **« انى أعلم ما لا تعلمون »**[٢٢] .

فاذا انقاد لكلمته موقنا بحكمته بعد ما عرف من نعمته رغب فى طاعته . بدعوة اللب ، ومحبة القلب ، وتلذذ فيها تلذذ المشغوف بالحب وقت الوصول الى الحب[٢٣] ، بل الى حد لا مثال له فيما سوى العبد والرب ، وذلك تأويل قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[٢٤] .

فالطاعة أقسام أربعة : الكفر بالنفس وأعوانها ، ومخالفتهم فى الله ، ودعوتهم الى الله ، وأسر من قدر عليه منهم لله ، فهى أعمال أربعة .

فاذا كفر بالنفس لم يتخذ الهه هواه ، واذا خالفهم لم يعطه مناه[٢٥] ، واذا دعاه الى الله [فأبى] جاهده وعاداه ، واذا أسره أمن

---

(١٩) البيتان مضطربان فى (أ) .
(٢٠) فى (أ) : لحكمته . والسياق يقتضى ما اخترناه .
(٢١) الأنبياء : ٢٣ . (٢٢) البقرة : ٣٠
(٢٣) الحب بكسر الحاء : المحبوب .
(٢٤) بعض حديث ذكر فى الكتاب كثيرا . أخرجه النسائى عن أنس .
(٢٥) أى : لم يعط هواه محبوبه .

فى معناه ، واذا لم يكن الهه هواه كان الله مولاه ، واذا خالف هواه فى أعماله أطاع الله تعالى بكل أفعاله .

فالايمان بمنزلة شراء الجنة بالنفس[٢٦] ، والطاعة بمنزلة ايفاء الثمن بلا بخس ، والجهاد بمنزلة تخليد الحياة ، واستعجال بعض الموعود بعد جواز الصراط .

أما الايمان فلقول الله تعالى : **« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة »**[٢٧] .

وأما الطاعة فلأن تمامها فى الاستقامة ، قال الله تعالى : **« ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا »**[٢٨] الآيـــة .

وأما الجهاد فلقول الله تعالى : **« ولا تحسبن الذين قتلـــوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »**[٢٩] . ثم يبعث يوم القيامة وعليـــه آثار الجهاد مشرفا على كثير من العباد ، تأتيه خلع المولى ، وأنواع البشرى ، حتى الرؤية واللقاء ، الى ملك وبقاء ، وأنواع كرامة ، والناس سكارى بأهوال القيامة .

قال الأخ : هــذا جزاء من قتل ، وأنت فى بيان جزاء من ظفر .

قلت : ان الذى جاهد فظفر فوق الذى قتل فعذر ، فكان جزاء المنصور جزاء للمعذور الى مزيد[٣٠] ان شاء الله وخير كثير[٣١] .

وانما مثل ذلك مثل ملك كريم من ملوك الأرض جهز عبدا له الى عدو خرج فى مملكته ، فكفر بالعدو وخالفه ، وقد خوفه العدو ومناه ، ثم دعاه الى مولاه فعصاه ، فغالبه ومنعه دعواه ، ثم عاد بعد أسره الى ملكه بأمره ، فأتاه ورسله يأتونه بالمواعيد الجميلة ، والبشارات الجليلة ، كلما ازداد قربا من الحضرة ازداد كرامة جزاء على الاستقامة ، حتى بلغ الحضرة فما وقف الا بقدر ما استخبر عما جرى بأوجز عبارة ، ثم أذن له بالدخول للقاء والزيارة ، ثم خرج الى خلعة وامارة .

---

(٢٦) يقول الله تعالى : **« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنـــة »** (التوبة : ١١١) . فشراء الجنة بالنفس والمـــال مبنى على أصل الايمان .

(٢٧) التوبة : ١١١

(٢٨) فصلت : ٣٠

(٢٩) آل عمران : ١٦٩

(٣٠) فى (أ) : الى الأبد .

(٣١) وهو جزاء ما فتح الله على يديه ويدى أمثاله من البلاد ، ونشر كلمة التوحيد ، وارساء قواعد العدل .

فكيف استجاز العبد أن يكون مع ملكه دون عبد العبد مع مالكه ؟ وهـذا يخاف الهلك قبل الوصول الى الخلعة والملك ، ويخاف ـ إن حيى ـ على ماله الخلف والعجز ، وعبد الله لا يظن الا القـدرة والنجز[٣٢] .

ومن هلك فى جهاده حيى وملك جزيل الثواب ، وليس يلحق العبد فيما يبتلى من الجهاد أكثر من الفناء ، فما باله يخاف وعنده الولاية والبقاء . يقول الله تعالى : **« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »**[٣٣] .

أيا عبد . نسيت مولاك ، وشايعت من عاداه وعاداك ، أخبرنى وأنت الغافل عن جدواك ، أتعتقك نفسك عن الرق ؟ أم تنقذك من الفقر ؟ أم تطلقك عن الحجر ؟ أم تخرجك من السجن ؟

فقال المغرور بحبائل الزور[٣٤] : نعم ، أعتقتنى فملكت العبيد ، وأمرتنى فجمعت الجنود ، واستوليت على الأرض . واستويت على سرير الملك ، فلم يبق الا واحدة[٣٥] ومن ذا الذى ينجو من الهلك ؟

فقلت : أضللت رأيك جاهلا أم عالما ؟ وضللت فى التيـه مخطئا أم عامدا ؟ أخبرنى عن تفسير الملك ، فقد ادعيته لنفسك بما آل اليه مالك ، وتقررت عليـه حالك .

فقال : الملك ، التحكم بما شاء الملك على قوة واقتدار ، بلا ممانعة صغير . ولا معارضة كبير ، ولا مغالبة كثير ، حتى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون .

فقلت : صدقت ، أو أدركت هذه الجملة ، وبلغت هذه المنزلة ؟

قال : نعم ، ذلت لى الصعاب ، وخضعت لى الرقاب ، واتفقت لى الأسباب ، وعبدنى الأرباب ، فأنا اليوم مطاع على عزة وامتناع ، لا تعز عنى عظيمة ، ولا تعجزنى عضيهة[٣٦] .

---

(٣٢) اى : الوفاء بالوعد . (٣٣) آل عمران : ١٦٩ .

(٣٤) فى (ب) : بحبائل الغرور .

(٣٥) وهى : الموت كما يبدو من السياق .

(٣٦) العضيهة : الأمر العظيم . وفى (م) : عظية . من نسخة أخرى .

فقلت : أليس استقر سلطانك ، وعلا مكانك بجنودك ويأس عبيدك لا تستغنى عنهم ساعــة لاستدامة ما أنت عليــه من الطاعة[٣٧] ، فأنت تطلبهم بهواهم[٣٨] ، وتنيلهم مناهم ، صدقا برغبتك فيهم ، والناس يطلبون رضاك رياء لخوفهم اياك ، أو طمعا فى جدواك ، فصار ما لزمك من الطاعة [لهم] أوفر مما لزمهم [من الطاعة لك] ، اذ طاعتهم لك بواسطة منك[٣٩] ، وطاعتك لهم بباعثة فيك[٤٠] • فكم بين لزوم بمعنى فى نفسك ، ولزوم بمعنى فى غيرك •

ثم انك تطيع من دونك[٤١] وانه لمر ، وانهم ليطيعون من فوقهم وذلك يسر ، ثم انك مضطر الى طاعتهم ، فلن تكون [على] هــذه المنزلة دونهم بحال ، وطاعتهم لك غير ضرورية ، لبقاء منزلتهم فى أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وال ، غير أن طاعتهم بأجسامهم فظهرت للعيون ، وطاعتك بقلبك فما شعرت بها الا النفوس • و [ان] ما يلزم القلب لأشد مما يلزم الجسم لكون الجسم تبعا للقلب[٤٢] ، غير أن النفس هى العدو زينت لك حب الظاهر ، فعميت بفرط المحبة عن العيب الباطن •

فجلست على سرير العبودية للعبيــد ، وكان ائتمارك للجنود ، وأحاطت بقلبك[٤٣] المكاره والآفات ، وظننت أنك ملك ، هيهات ••

[لو] وافقت نفسك فى حالك ، ورأيت احتكام الهموم والأوجال على بالك ، ومنازعات الرعيــة معك بالشكاية والسؤال ، ومنازعات سائر الملوك من أشكالك بالغلبة والقتال ، لرأيت الهموم والأوجال ، لا تسئل عما تفعل بقلبك وأنت مسئول ، ولرأيتك تأكل من فضول الناس وقلبك مأكول •

دع هذه ، وأخبرنى عن الامارة ؟

قال : نفاذ الأمر بلا حجر •

---

(٣٧) اى طاعة الناس لك .

(٣٨) فى (أ) : تطلب مهواهم . والمعنى واحد . اى : يتقرب اليهم باشباع اهوائهم حتى يضمن ولاءهم .

(٣٩) وهى : استمالتهم باشباع اهوائهم ثم بارضائهم .

(٤٠) وهى حرصه على استدامة ملكه .

(٤١) اى : تطيع اهواء الاعوان والعبيد والجنود .

(٤٢) بل هو الشرك الخفى القريب من الجلى ، اذ انه علق مصالحه بالعباد ، وارتبط قلبه بهم بقدر ما ارتبط بحب الملك ، وبقدر ارتباطه بالاعوان يضعف عقد الايمان الكامل .

(٤٣) فى (ب) : بقصك .

فقلت : وهل نفذ أمرك على رعيتك الا من طريق نفاذ حكمك ؟ و [هل] نفذ ما نفذ من أمور حاشيتك الا من ذلك الطريق على قلبك ؟ الا أن الرعيـــة لم يتسارعوا الى ارادتك حتى ألزمتهم بأمرك فظهر ، وتسارعت أنت الى ارادات الحشم[٤٤] حبا لنفسك فاستتر ، فساويتهم فى الائتمار وانما فضلتهم بالبدار[٤٥] .

فتحاكم إلى قلبك ثم انظر لمن الامارة ، فما يغنى عن حقائق الأغراض حسن العبارة ، ما أنت الا مأمور حشمك[٤٦] ، والرعية مأمور ملكهم . غير أن النفس لبست عليك مقام الائتمار بمسارعتك الى الفعل قبل الأمر والاظهار[٤٧] ، فكنت أنت والرعية بالائتمار مرعيين آمنين فى سربكم ، مكفيين معافين فى أبدانكم ، مرضيين مع ما لزم قلبك دونهم على صدر الامارة [من] أعباء الرعاية [وما] لزم مالك لجماعتهم [من] أثقال الكفاية وزال بدوام الخوف و (تعب)[٤٨] مناوأة الأشكال عن بدنك العافية ، ونطقت مكان الرضا من كل ناد ألسنة شاكية .

ثم دع هذه ، فأخبرنى عن الملك الذى به يزول الفقر ؟

قال : انه خلوص حقك[٤٩] لك باقتدارك عليـــه ، وانقطاع منازعة غيرك فيه .

فقلت : نعم ، فهل خلصت أموالك حقا لك ، أم وجبت حقوقها فى حفظها واستنمائها عليـــك ؟ هل صارت فى يدك باقتدارك عليها ، أم بافتقارك اليها ؟ فانك قبل أن اقتدرت عليها[٥٠] بالوصول افتقرت الى سبيل التحصيل .

انما أنت رجل ملكتك أموالك فبذلت عمرك لجمعها ، وأسرتك آمالك فأتعبت جسمك فى طلبها .

---

(٤٤) فى (ب) : الجسم .

(٤٥) ليس هـــذا فضلا شرعيا ، وانما هو فضل فى انحراف القلب عن الجادة .

(٤٦) فى (ب) : جسمك .

(٤٧) اى : المسارعة الى فعل ما يرضى اهواء الجند والحشم قبل صدور الأوامر ، فكان التلبيس فى طاعة الجند والحشم للأمر ، وكونه فى الحقيقة طاعة مدخولة بالهوى .

(٤٨) سقطت من (أ) .

(٤٩) فى (أ) ، (ب) : الخلوص حقا لك ، وفى (م) : الخلوص حقك لك ، من نسخة ثانية ، وما اثبتناه اوضح .

(٥٠) الضمير فى (أ) ، (ب) مذكر فى الفقرة السابقة .

أخبرنى عن ابتداء نشوك الى اليوم ، أمالك على زيادة أم عمرك ؟ بل انتقص العمر وزاد المـال • فما أنت (اذن)[51] الا مملوكه على أى حال ، غير أنك خديع النفس تعجل للمال منفعتك مدة أجلك طمعا فى نيل منافع المـال مدة أملك[52] • تنبه فانه غرور ، فعدة الأمل بعد الأجل بكثير[53] •

ثم دع هذه ، فأخبرنى عن العتق •

فقال : قوة فى الذات حتى يفوز بها على مراده وأمره ، من قولنا : عتق الطير ، اذا طار عن وكره ، وعتاق الطير الجوارح منها •

فقلت : صدقت ، أقدرت بما رأيت لنفسك من عتاق وتبسط وانطلاق على تقييد غرض أو اطلاق ؟ فلا تكذبن فقد بينا أنك مملوك أموالك • ان قلت : استغنيت فما أنت الا عبد عبيدك • وان قلت : استوليت • فما ازددت بما توهمت الا رقا • ولعمرى ان بعد الضال عن المنزل بالخبب[54] اليه كان حقا[55] •

أخبرنى أيها المخدوع المصروع عن صعلوك أراد أمرا مما تهواه النفوس من مغالبة أو أخذ أو سفر أو لهو ، أهو أقدر ، أم الذى كثرت حواشيه ، وعمت مواشيه ، ولزمه النظر فيما يذره ويأتيه ليومه وغده وأهله وماله وولده ؟

قال : الصعلوك •

[قلت] : فدع اذن ألقاب الأغنياء والملوك ، فالاسم بلا معنى فاسد من الدعوى ، وكنت اذا حققت النظر فيه كمن نحت حجرا فسماه الها وسمع له قاها[56] •

فقال : كأنك فيما تحقق من الأمر بالعقول راد للشرائع ، والرسول قد عرفنا الأملاك بالكتاب ، كما عرفنا الأسباب ، ولنا فيها تصرف نافذ وأمر جائز •

---

(٥١) سقطت من (ب) •   (٥٢) فى (ب) : مدة مهلك •

(٥٣) أى : ان الأمل فى تقدير الانسان يزيد عن العمر بكثير •

(٥٤) الخبب : ضرب من السير •

(٥٥) فى الأصول : ولعمرى ان بعد عن المنزل الضال بالخبب اليه كان حقا ، وقدمنا الفاعل عن موضعه ليتضح المعنى •

(٥٦) قاها : أى طاعة •

فقلت : قبل تحقيقى لك الأمر فيه على وجهه أستدل بما استدللت [به] على الملك وعلى فقده ، فان تصرفك فى أملاكك كلها متردد بين جائز مأمور به ، وفاسد منهى عنه ، وما هـذا علامة الملك والقهر ، لكنه علامة الاذن على الفقر[٥٧] .

غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقائك ، وقرن بقاءك بغذائك ، وخلق مما فى الأرض منفعة[٥٨] لك الى وقت انقضائك ، فقسم لكل عبد نصيبا كيلا يتغالبوا فيتفانوا ، وجعل عليـهم من أصلحهم قيـما وهو السلطان ، وذلك تأويل قول الرسول : « السلطان ظل الله فى الأرض » ، اذ بالظل الاتقاء عن حريق الشمس ، وبالسلطان الاتقاء عن حريق البأس ، فهم يتمتعون بالأنصباء عن يد القيـم عن أحوال طفولتهم وصغرهم .

فاذا عقلوا سلمت اليهم الأنصباء لحق الاذن فى التجارة دون اثبات الملك[٥٩] .

فاذا بلغوا وكملت الحالة ضربت عليهم الضرائب للمولى ، وخوطبوا بأدائها فى مدة الحيـاة ليعتقوا اذا أدوا[٦٠] ، وسلمت اليهم للحال الأنصباء لحق الاذن تسليم يد ، ليتصور الأداء بحكم تباين الأيدى . وان لم يكن فى الحقيقة ملكا للمؤدى ، حتى لم يملكوا من أملاكهم الا بقدر ما فك الله الحجر عنهم بالعقد .

ثم أوضح لك[٦١] ذلك بعبيد لك صغار تفرست فيهم الخير ، فقصدت ابتلاءهم لتعتقهم اظهارا لكرمك وفضلك ، فأفرزت لكل عبد من مالك ما يكفيه ، وسلمت الأنصباء الى قيم عليهم ، فلما عقلوا أذنت لهم فى التجارة فى تلك الأنصباء ، فلما ظهر رشدهم وصلاحهم لتحمل الضرائب كاتبتهم على مال معلوم ، وأجل ممدود ، وتركت الأنصباء

---

(٥٧) لأن التصرف ليس ناشئا عن حرية ، بل هو ناشىء عن أمر ونهى . (٥٨) فى (مب) : متعة .

(٥٩) وهـذا هو التوفيق بين قوله تعالى : « **لله ملك السموات والأرض** » (المـائدة : ١٢٠) وأمثاله . وقوله تعالى : « **خلق لكم ما فى الأرض جميعا** » (البقرة : ٢٩) وأمثاله . والنص فى التوفيق قوله تعالى : « **واستعمركم فيها** » (هود : ٦١) .

(٦٠) وهذه الحقوق : هى الزكاة والصدقة الحرة ، وأعلى من ذلك بيع المـال والنفس لله . (٦١) فى الأصول : عليك .

عليهم ، احسانا منك اليهم ، فتصرفوا بقدر ما انفك الحجر عنهم كأنهم مالكون ، وليسوا (الا)[٦٢] عبيدا .

وانما يتحقق ذلك يوم ينقضى الأجل قبل الأداء ، وما عندهم بعد حلول الأجل من وفاء[٦٣] .

الا أن كتابتنا توجب عند الأداء اعتاق الذات ، وأداء فرائض الله يوجب عتاقا فى حق الصفات .

ثم الله تعالى (بحكمه على المنكرين لعبوديته ، المدعين لحريتهم بالرق للعبيد المقرين)[٦٤] بربوبيته ، أبان لكل عاقل : أن مدعى الحرية جالب لنفسه رقا ، وملتزم ما أنكر من حق الله لعبيده حقا ، فالخلق كلهم عبيد الله تعالى ، فمن آمن به كتبت حقوقه عليـــه ، وتعلق عتقه بأدائها نجوما[٦٥] فى حياته الى حين انقضائها ، لكن بفضل الله أوجبته حكمته ؛ لا بحق العبد أوجبته عبادته .

ومن كفر به وفسخ العقد ، ورد الكتاب ، بقى عبدا تحت الأوامر ، وازداد عليـــه القهر ، فالمولى قاهر لا يفوته الآبق ، ولا يغلبه الغاصب ، وانما أمهلهم ساعة تأكيدا للأمر ، وقطعا للعذر ، حتى اذا مضى مهل التدارك ردوا الى المهالك ، ليذوقوا وبال أمرهم ، ويأخذوا جزاء كفرهم ، نسأل المولى الأعلى الذى من علينا فخلقنا عبيدا (له)[٦٦] لعبادته ، ثم أوجب لنا العتق بأداء أمانته ، أن يحسن الينا بالاعانة على الأداء كما أعنا مكاتبينا ، فجعل لهم سهما مفروضا فى أموال الأغنياء ، ثم يحسن بالحط والعفو الينا ، كما أمرنا بالحط عن مكاتبينا ، فما نظن الله تعالى أمرنا بالحط مع حاجتنا اليه وبخلنا بمثله الا تأميلا لنا فى كرمه [فقد] حط كثيرا مما ألزمنا من قسمه ، فهو الجواد الذى لا يوصف ببخل ، والغنى الذى لا يمسه فقر[٦٧] .

---

(٦٢) سقطت من (ب) .

(٦٣) أى : ان العبد المكاتب اذا لم يؤد ما كاتبه عليـــه سيده بقى عبدا .

(٦٤) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٦٥) أى : أجزاء .

(٦٦) سقطت من (ب) .

(٦٧) فى (م) : تعتريه حاجة . من نسخة أخرى .

ولم يجعل الابراء طريق العتق كالأداء الا ليعلمنا بحكمه فينا لمن شاء فيمن تمسك بالعقد ، وأعرض عن الأداء الواجب عليه ، مرتكبا ما دعته اليه نفسه .

تباركت أسماؤه ، وتظاهرت نعماؤه ، والحمد لله على كل ما أبدى من نعمه ، وأخفى من حكمه ، والصلاة على من نزلت عليه هذه المواهب ، وخفت بسببه الضرائب ، وعلى آله الطاهرين ، وعباده الصالحين .



كتاب الفقر

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدت من ألزم[1] العباد فى الدنيا صفة الفقر الزاما ، من أنكر وسعى للغنى لم يزدد الا فقرا واعداما ، ثم وعد لهم كفايتهم بأسباب ظاهرة ضمانا من وثق به جاعته الكفاية بغير سبب ايقانا .

وصليت على رسول عرف الحكم صدقا ، والوعد حقا ، فاختار الفقر وقد خير ، وأصاب الكفاية وما قدر[2] .

وما على العبد الا الانقياد لحكم ربه ، والاقتداء بالرسول فى سمته[3] ، غير أن الانقياد وان لزم العبد اسلاما ، فما يهون الا اذا عرف من الحكم حكمته ، وعرف من سمت صاحب الشرع معناه وحقيقته ، وعلى بيان ذلك أيها الأخ بتوفيق من الله تعالى ، هدانى الله واياك الى ما عنانى من أمور دينى وعناك .

اعلم أن الله تعالى لما خلقك عبدا ألزمك الفقر بناء على صفة العبودية على ما سبق القول فيه[4] ، وأقيم الدليل عليه ، وابتلاك بأربعة من وجوه المحن متعلقة بهذه الصفة[5] : معرفة الغنى ، والقناعة بما أوتيت ، وترك الفرح عليه ملكا ، وترك الأسى على ما فاتك .

فهذه وجوه أربعة ، لأن العبد مع فقره مستغن بما نال من الكفاية ، فكانت نعمة عليه من الغنى فلزمه معرفته ، والقناعة بما أوتى ، لأنه — وان قل — فنعمة نالها بغير سبب سابق منه ، ولا يفرح عليه فرح الملك ، لأنه فقير بسبب العبودية ، لا يملك على الله تعالى وان آتاه ، ولا يأسى اذا فاته ، لأنه لم يكن له حين آتاه .

---

(١) فى (أ) : الحمن لمن الزم العباد . والسياق يقتضى ما فى (ب) ، (م) .

(٢) اى : ما ضيق عليه .

(٣) اى : فى اختياره للفقر .

(٤) اى : من أنك عبد لا مشيئة لك .

(٥) اى : صفة الفقر .

ثم معرفة الغنى من طرق أربعة : النظر فى حاله قبل التسبب ، وفى حاله بعد التسبب ، وفى حاله بعد الإصابة ، وفى حاله بعد الانتفاع به .

فان من نظر فى حاله قبل انعقاد سبب الملك له عرف نفسه فقيرا لا يملك شيئا ، محتاجا الى ما يريد من أغذيـة ، أو يشفيه من أدوية ، والى ما يصونه من الآفات مدة بقائه ، ثم وجده يصل الى ما يحتاج اليه من لباسه وغذائه ، علم أنه من مالك غنى[٦] ضامن لذلك ملى .

فنظر فى أصوله فاذا هم فى صفة الفقر على سبيله ، فنظر فى البساط الممهد ، والبناء المشيد ، فرأى الموجود منهما[٧] من مطر أو نبات على سبيل التسخير بلا اختيار لتقدير ، وعلم أن الغنى من خلق الأرض والسماء آلة للابتداء والانماء ، ثم الاخفاء والابلاء .

ثم ينظر فى حاله بعد التسبب ، وأصل التسبب : الاستخراج من الأرض ، وبه قوام كل أحد ، فان التجارة : النقل من يد الى يد ، فلا يجد من نفسه الا سبب الائتلاف ببذر الحب واخفائه ، والصلاح فى انباته[٨] وانمائـه ، وذلك بطبائع هوائية تتصل بالأرض ما لأحد عليها من يد ، فعلم[٩] أنه من مالك الأرض والسماء ، ومغير أحوال الهواء .

ثم ينظر فى حاله بعد الاصابة ، فيجده لا ينتفع به الا بعد حاجته اليه من جوع أو عطش أو شبق[١٠] ، وتلك حوائج لا تثبت الا بقوة طبائعه ، ويجد نفسه لا تملك من قوتها شيئا .

ثم بعد الحاجة لا يصل الى الاستيفاء الا بسلامة آلات الاستعمال ، والسلامة مقرونة بانعدام الآفات ، ويجد نفسه لا تملك من ردها شيئا .

ثم يجده بعد سلامة الآلات لا يقدر على الاستيفاء الا ببقاء ما نال من الأرزاق ، وهو عاجز عن حفظ بقائها كما عجز عن حفظ نفسه وابقائها ، فيجد نفسه فى حال الاصابة أشد افتقارا من حال العدم ، لافتقاره فى

---

(٦) فى (أ) : من مال غَنِى . وفى (م) : من مال الغنى . من نسخة ثانية .

(٧) فى (ب) : الموجود فيهما . (٨) فى (ب) : والفلاح فى انباته .

(٩) فى (ب) : علم فى الفقرة كلها .

(١٠) الشبق : الرغبة فى الجماع .

حال الاصابة الى الحفظ ليبقى ، ثم [الى](١١) الاستنماء لكيلا يفنى(١٢) ، فيعرف عنده مالك الغنى .

فقال الأخ : جاء موضع الاشكال ، فكأنك مخطىء فى ذا المقال ، ان حفظ المـال أيسر من ابتغائه(١٣) ، والاستنماء أخف من انشائه(١٤) .

قلت : [بغية](١٥) من ألزمك تعب الطلب ، اذ لم أنهك عن السبب ، وانما قلنا لك : نيل الكفايـــة حال الفقر وما عليك من غم ألذ من نيلها مشوبا بالهم ، وذلك تأويل قول الرسول صلى الله عليــه وسلم فى الذى يصيب شيئا من الدنيا : « (ان الملك الموكل به يقول :)(١٦) هاك بمثليــه من الغم »(١٧) . أى : غم الحفظ وغم الاستنماء . فقل من طلب فنال فلم يحفظ ، وقل من حفظ فلم يستنم ، وكيف يدعهما(١٨) ولم يطلبه الا لمحبته ، ومن ظفر بمحبوبه اهتم لحفظه خوفا على فراقه ، وسرورا بالظفر بمشتاقه ، وفى الانفاق منه فراق ، فيبخل ويكد لاستنمائه خوفا من فنائه ، وحبا لنمائه(١٩) ، ولن يتمتع المرء بالمـال الا بعد الاستهانة به ، ومن استهان به لم يطلبه الا لضرورة فرجى ، ومن توكل على ربه جعل له من الضرورة مخرجا .

ثم نقول لك : ان الطلب للكفاية أيسر وألذ من حفظ ليست له نهايـــة .

الكفاية فرض وقت الحاجة ، وذلك تافه ينال بأدنى عمـــل ، وأما وقت الحفظ فماله من نهايـــة ، فهو من فروض الأمل . ثم عمل الكفاية يسير ، لا ينازعه على الاصابة ــ لتفاهته ــ كثير ، والحفظ عسير ،

---

(١١) سقطت من (ب) . (١٢) فى (أ) : كيلا يفنى .

(١٣) فى (أ) : بقائه . وفى (م) : بغائه . بالغين . من نسخة ثانيـــة .

(١٤) أى : ان الانسان ليس أشد افتقارا حال الاصابة من حال العدم كما قرر المؤلف . (١٥) سقطت من (أ) .

(١٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٧) هـــذا الحديث صحيح المعنى ، ولم نعثر عليه فى أمهات كتب السنة .

(١٨) أى : الحفظ والاستنماء .

(١٩) أى فليس حفظ المـال أيسر من بغائه كما ادعى المعترض .

ينازعه ـــ لنفاسته ـــ الجمهور . (وأما الاستنماء ففيه الفتنة[٢٠] ، وسيأتيك ان شاء الله تعالى بيانه فى باب القناعة)[٢١] .

ثم ينظر فى حاله وقت أكله وشربه ، لا يصل اليه نفعه ، ولا يتخطاه شره ، الا باعتدال الطبائع التى لا يد له عليـها ، ولا وصول بالحيلة اليها ، الا بالاصطبار على ما يكره من الأدوية والاحتماء عما يجب من الأغذية ، وربما أخطأ فى تدبير الدواء ، أو تقدير الغذاء ، فاتصل به الفنــاء ، فيعلم عند افتقاره الى الصلاح وعند الاستيفاء من [الذى] جمع [له] بين هــذه الطبائع الأضداد على اعتدال أجراهــا على ما شاء[٢٢] من الزمان ، وأنه هو القدير الغنى عن الثقلين[٢٣] .

فاذا عرف الغنى بالأحوال الأربع ، وعرف فقره فيها أجمع ، قنع بما أوتى من وجوه أربعة : معرفة أصل الكفاية ، ومعرفة اجتماع جدوى جميع الدنيــا فيه ، ومعرفة قبائح الطمع ، وفضائح الحرص .

أما معرفة أصل الكفاية فلأنه يجدها من الله تعالى احسانا بلا سابقة كانت منه اليه ، واكراما بلا لاحقة تكون منه به ، فان شكره[٢٤] على ما تمتع به رضى به وقنع . فاذا قنع بالموجود ، واشتغل بشكره عرفه الله تعالى فوائد الموجود ، وعوائد أمره ، فيجد نفسه على سنام اليسر والغنى[٢٥] متختما بخاتم الملك على سرير الامارة بقدر ما تجوز عنهما من حيث الأملاك ، (والاستيلاء فى العاجل)[٢٦] ان تصورا فى الدنيا .

قال الأخ[٢٧] : فصل بديع ، وأمر فظيع ، أمرت رجلا بلا جاه علم ولا زهد ولا نسب ، ولا ملك عبيد ولا حشـــم ولا نشب بقوت يومه ، وانه من أخسر[٢٨] قومه ، ازدرته العيون ، ولفظته الظنون ، ما أرى هــذا أمرا يكون[٢٩] .

---

(٢٠) فى (أ) : القيمة . وفى (م) : القيامة . نسخة ثانية .
(٢١) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢٢) فى (أ) : من شاء .
(٢٣) فى (أ) : الغنى عن التفكير .
(٢٤) فى (أ) : فان لم يشكره . خطأ .
(٢٥) وردت فى (أ) عبارة : (ان تصورا فى الدنيا) بعد قوله : (والغنى) وهى مقدمة عن موضعها كما سيأتى قريبا .
(٢٦) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٢٧) فى (م) : فقال الأخ . من نسخة ثانية .
(٢٨) فى (أ) : من أخس .
(٢٩) فى (أ) : الأمر يكون .

قلت : تأمل بقلبك مكان عينيك ، فالذى حكيته مما تمليه الحواس ، ويستحليه عامة الناس .

فقال الأخ : كيف السبيل اليه ، وما الدليل عليه ؟

قلت : أخبرنى عن الذى ملك الدنيا بأسرها ، وأعطى عمرة فى مهرها ، ما الذى استدر من ضرعها ؟

فقال : ملك الأمصار ، واستخدم الأحرار . وصف الأشجار ، وخرق الأنهار ، وشيد القصور ، وابتكر الحور ، وأكل الألوان ، وشرب على الألحان ، واتخذ المغانى[٣٠] ، وأدنى الأغانى ، وتلهى بالغوانى[٣١] . وأطاعته الجنود طوعا وكرها ، وجاءته الوفود رغبا ورهبا ، وما عليه فى كل ذلك من وزر اذا قام بالأمر . أما سمعت الله تعالى يقول : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** »[٣٢] .

وقال : « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** »[٣٣] .

وقال : « **فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما** »[٣٤] .

أفترى الله تعالى من بالمرتبة المهجورة ؟

وقال سليمان عليه السلام : « **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** »[٣٥] . فكأنه سأل المرتبة المذمومة[٣٦] .

وقال فى قصة يوسف : « **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين** »[٣٧] . بين أن التمكين فى الأرض رحمة منه وجزاء على ما سبق من حسن تسليمه لربه .

---

(٣٠) فى (أ) : ونجد المغانى . بتشديد الجيم وفتحها . .

(٣١) جمع غانية ، وهى : التى غنيت بجمالها وحسنها عن الزينة والحلى .

(٣٢) الأعراف : ٣٢

(٣٣) النحل : ٩٧

(٣٤) النساء : ٥٤

(٣٥) سورة ص : ٣٥

(٣٦) فى (م) : المنزلة المهجورة . نسخة اخرى . وفى (ب) : الرتبة .

(٣٧) يوسف : ٥٦

وقال لمحمد صلى الله عليـــه وسلم : **« ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى »**[٣٨] . أعنى : من عليـــه بالغنى كما من عليـــه بالهدى .

فما الدعاء الى القناعة ــ وله طريق الى المراتب العليا شرعا ــ الا من طريق العجز والغباوة . فأما اذا لم ينلها الا بوزر فليدعها لله بحكم الأمر . وانما المناظرة معك على بيان الأولى منهما مع انفتاح الطريق شرعا اليهما .

فقلت : غصت لعمرى فى بحار خواطرك لتخرج لى منها درا فما أصبت الا الصدف الخالى ، وكأنك قد علوت ، فذلك سبيل كل غالى .

أما علمت أن الجسوم لتتعب فى نيل هذه الأمور ، ومالها منها من ثمرة غير قضاء شهوة بطن أو فرج أو بدن ؟ والقانع بما أوتى قاض لهذه الشهوة بلا تعب على سكن ، فالى كم تتبع الأســـامى ، وتترك المعانى ؟

فقال : ان الغنى ليقضيهـــا باللين والحسن ، والفقير يقضيهـــا بالجشب[٣٩] والخشن .

فقلت : تنبه ، فكلامنا فى القانع والحريص ، ليس فى الفقير والغنى ، وكم من قانع أوتى الملك ، وكم من حريص استعجل الهلك .

على أنى فرضت الكلام فى فقير قنع بقوت يومه ، فأقول : ان منزلة معتاد الفقير من قلبه ، مثل منزلة معتاد الغنى من نفسه ، فقد هانت (منزلته)[٤٠] لديـــه ليسر الاصابة ، وعزت منزلة هــذا لدى الفقير لعسر الاجابة ، والظفر باب الملالة ، والحرمان باب الاستطراف[٤١] ، وان التافه قدرا ليحلو فى العين عند العزة[٤٢] ، ويسقط قدر الرفيع[٤٣] مع الكثرة .

ثم الفقير لحاجته الى التقلب ببدنـــه فى حوائجه لعدم الخدم والعبيد و [لضرورة] الأكل عند الحاجة لقلة الوجود تقوى طبائعه ،

---

(٣٨) الضحى : ٧ ، ٨ (٣٩) الجشب : الغلظ .

(٤٠) سقطت من (أ) .

(٤١) اســـتطرفه : اســـتحدثه . والطارف والطريف من المـــال : المستحدث ضد التالد والتليد . (٤٢) العزة : القلة والندرة .

(٤٣) فى (م) : وتسأم الرفيع . من نسخة ثانية .

وتتقد نار شهواته ، وتفاوت الاستلذاذ بسبب الشهوات أكثر من التفاوت بسبب المطعوم •

فان قلت : وراء قضاء الشهوة سرور •

قلت لك : فما السرور الا فى نيل المحبوب ، ولكل قلب معتاد محبوب يناله من دنيـاه على اختلاف الطبقات على ما ذكرت لك فى معتـاد قضاء الشهوات ، بل الفقير القانع يفضل المكثر فى سروره من حيث قلة الهموم فانها تعترى القلوب لفوات المـألوف ، ومألوف المكثر أكثر من مألوف الفقير بكثير ، وكل على شرف الفوات والرحيل ، فعلى قدر ذلك منزلتهما فى الهموم •

فان قلت : وراء هـذا نشاط النفس فى نفاذ الأمر ، وعلو المكان على بساط الأمن •

قلت : ان الأحوال طبقات ، وما من حالة للعبد الا وهو منها بين طبقتين : عليـا ، ودنيـا • وأمره نافذ فى حاله على من دونه ، غير نافذ على من فوقه •

ونشاط كل نفس فى معتاد حاله فى طبقتـه مثل حال الأخرى ، كما فى السرور وقضاء الشهوة •

ثم القانع فضل الحريص باغماض عينيه عن الطبقة التى فوق طبقته ، فكان نشاط نفسه فى نفاذ أمره فيها مشوب بالتحسر على ارتداد أمره فيمن فوقه ، ونشـاط الحريص مشوب[44] فى النفاذ بالتحسر والتنغيص وعلى هـذا علو المكان •

فأما الأمن فللقانع وحده دون غيره ، اذ الأمن بعدم الأعداء ، وعدم الأعداء بعدم المنازعة مع الناس ، وذلك فى القناعة بما أوتى سهلا ، وجنى عفوا ، يتمتع بلا منع ، ويتبرع بلا طمع •

ان الدنيا عجوز بكر ، تبرجت لأزواجها ، وأطمعت فى ازدواجها ، فعشقها الكل الا من شاء الله[45] ، وجادل بعضهم لتخلص له فهلكوا قبل الوصول اليه ، فعوا الا من تمتع بمسها قانعا بالشركة حال غفلته بضرورة شبق ثم طلقها بموجب الغيرة نادما على ما سبق ، كأكل الميتة وعليها الذئاب والكلاب لسد الرمق •

---

(٤٤) فى الأصول : ومشوب نشاط الحريص •

(٤٥) فى (م) : الا ما شاء الله • نسخة أخرى •

أما علمت أن التعب فى ترك القناعة لجلب صفة الغنى ، وأنه عبارة عن صفة الاستغناء ، وأنت اذا بلغت مرتبة من سميته غنيا افتقرت لحفظ حالك الى من دونك افتقار اضطرار[٤٦] ، وكان افتقارك وأنت على الكفاية الى الزيادة على سبيل الاختيار ، فانك تجد كثيرا من الفقراء القانعين من أهل الزهد والوحوش تمضى أعمارهم بغير ادخار ، ولا حاجة الى أهل اليسار ، ولا ترى غنيا مستغنيا بنفسه عن خدم وعبيد ولا أمير الا مفتقرا الى عساكر وجنود .

فلماذا التعب فرارا عن الفقر وأنت متهافت فى حبائله ، أو لماذا الحرص ورودا على الغنى وأنت ضال فى مناهله[٤٧] ، فالقانع بحاله قد استغنى بتعففه ، وهيب بتحمله ، وأحب فى مروءته ، واستشير بحسن رأيه ، وأطيع لاصابته ، فسوده كرم نفسه ، وأمره عظيم[٤٨] خلقه ، فأصبح مقصودا وما عليه أثقال الحشم ولا أوزار الهموم ، آمنا عن جدال الأضداد ، وما يشغله الا حسد الحساد ، وذلك باب مفتوح على كل طبقة ، من تأمل فى سببه حمد الله تعالى عليه ولم يطلب فى منازل النعم مقاما الا لديه ، فان الحسد نار تتقد فى الحاسد بنعمة فى المحسود ، يزداد (أبدا)[٤٩] بزيادة النعمة فيه .

فقال : ومن أين التجمل والمروءة للفقير القانع ؟

فقلت : ان تجمل كبار النفوس ليس بزيهم ولا مروءتهم فى حليهم ، وانما تجملهم بمكارم الأخلاق ، وان تمام كرم الخلق بترك الدنيا لأهلها[٥٠] ، فانهم طالبوها ، فالبخل بعد الطلب قبيح بالمصاب ، فكيف البخل قبل الاصابة بالأسباب .

وأما المروءة فكلها فى الاحسان ، وحده : ترك حقك لغيرك . وأصله : ترك المنازعة فيما لك من غيرك .

---

(٤٦) فى الأصول : افتقارا اضطرارا .

(٤٧) فى (م) : عن مناطه . من نسخة ثانية .

(٤٨) فى (أ) : عظم خلقه . (٤٩) سقطت من (ب) .

(٥٠) ليس هذا الموقف الاسلامى الجليل دعوة الى السلبية ، بل هو فى الحقيقة تدريب للنفس على الحرمان يمكن أن يتعرض له المسلم الحق فى جهاده لاعلاء كلمة الله ، ولا تتهيأ تلك القوة مع الترف أو اعطاء النفس ما تريد . وقد فصلنا الكلام عن هذه النظرية فى التقديم .

فاذا عرفت هـذا تبين لك أن طيبات الرزق متكاملة لذى القناعة من الخلق ، وما حرمناها ، وانما منعناك عن كشف الفقر بالحرص ، واتعاب النفس بالطلب ، واحتمال الذل بالطمع[٥١] ، غير أن ملك القانع ملك خفى لا يصل اليه الا قلب ذكى ، عمل صالحا فأنار الله تعالى صدره بالعقل ، وبصر روحه بالعقل .

وقد تكلم فى تأويل الحياة الطيبة ، فقيل : رغد العيش على سلامة النفس ، وقد يصيبه القانع عطاء من الله تعـالى كما أصاب الأنبيـاء عليهم السلام[٥٢] من غير اذاية نفس[٥٣] ولا اتعاب جسم . وقيل : الحياة الطيبة لمن تلذذ بما أوتى بقوة طبائعه وصحة بدنه ، ولم ينقصه ما فات بقناعته .

وقيل : الحياة الطيبة لمن شغل عن الدنيا بالمولى ، فطابت حياته فى تمام الخلوة ، قريرا بالقرب ، مسرورا بزوال الوسائط والحجب .

وأما قول الله تعالى لمحمد صلى الله عليـه وسلم : ((**ووجدك عائلا فأغنى**))[٥٤] . فمعناه والله أعلم : ووجدك عائلا تفتقر الى العمل لقوتك فأغناك عن العمل بمـال خديجة ، ولم ننكر عليـك من مالك الا الحرص .

ويحتمل : ووجدك عائلا ببواعث الشهوة .

ويحتمل : ووجدك عائلا برؤيتك نفسك فأغناك برؤية ربك[٥٥] .

وأما الملك العظيم لآل ابراهيم فكان فى النبوة والعـلم والحكمة والقناعـة والرضـا والشـكر على المقسـوم لهم من ظاهر النعمة . فقد بينـا لك أن الملك [فى الدنيـا] ان تصـور لكان فيهما لا يعدو هما ، ولم نقل فيـما سبق : ان زيـادة النعم الظاهرة عقوبات فى نفسهـا ، وقد ذكرنا أن قدر ما أوتى من الكفايـة نعمة ، فكذلك الزيادة من جنسها تكون على صفة أصلها بطريق الكفاية لا بطريق الحرص .

---

(٥١) فى (ب) : بالطبع .
(٥٢) فى (أ) : صلوات الله عليهم .
(٥٣) فى (ب) : اذهاب نفس .   (٥٤) الضحى : ٨
(٥٥) يحتمل : الرؤية ليلة المعراج ، ويحتمل : الرؤية القلبية فى الآفاق والأنفس لآيات الله .

وأما سؤال سليمان فحسن ، سؤال فقير من أغنى الأغنياء ، وانما نهيناك عن الطمع فى أمثالك من الفقراء ، والسخط على ما قسم لك ، والشكاية مع ما أسدى اليك ، وقد نطق القرآن به : **« قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، ان أجرى الا على الله »**(٥٦) .

وفى قصص الأنبياء عليهم السلام (كلهم)(٥٧) : **« وما أسألكم عليه من أجر ، ان أجرى الا على رب العالمين »**(٥٨) .

فالسؤال من الرب حسن ، وما يجوز للعبد قط أن يشبع من احسان ربه ، أو يدع الافتقار اليه ، غير أن الأنبياء صلوات الله عليهم سألوا الدنيا ليأسروها للمولى (ويتوصلوا بقهرها واهانتها الى العقبى)(٥٩) ، وأنت تسألها لتكرمها وتهين نفسك ، وتعلو بها وتنسى ربك ، وتكون عبدا من عبيدها ، وواحدا من جنودها .

ثم ندع هذا الذكر ، ونرجع الى الشرع والأمر ، فأعلى المنازل ما صرت اليه بأمر شرعك ، لا ما ملت اليه بباعث طبعك(٦٠) . وان الغنى مأمور بالزكاة فرضا ، وباقراض الله تعالى نفلا ، والفرض يأتى على البعض ، والقرض يأتى على الكل(٦١) ، فيصير فقيرا بالأمر ، والفقير ما أمر بالكسب الا حال الضرورة قدر الكفاية ، والزيادة عليها تكون بدعوة الطبيعة ، لا بأمر من الشريعة(٦٢) .

ثم الناس أربعة : مشغول بالدنيا عن المولى ، ومتخذ الهه الدنيا ، ومشغول بالمولى عن الدنيا ، ومستول على الدنيا للمولى(٦٣) .

فالمشغول بالدنيا عن المولى : جهال الكفرة من الذين اتبعوا آباءهم ولم يعرفوا الا أرضهم وسماءهم ، فشغلوا بها عن الله تعالى فجهلوه .

والمتخذ الهه الدنيا : حكماء الفلاسفة من الطبائعيين ، والقرامطة من الباطنيين(٦٤) ، تأملوا فيما أحسوا من الظواهر ، فوجدوا فيها

---

(٥٦) سبأ : ٤٧
(٥٧) سقطت من (ب) .
(٥٨) الشعراء : ١٠٩
(٥٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٦٠) فى (أ) : ببعث طبعك .
(٦١) أى انه ليس محددا كالزكاة فيمكن عقلا أن يشمل الكل ، اذ القرض لا يتوجه نحو قدر معين .
(٦٢) فى (أ) : لا أمر من الشريعة .
(٦٣) فى (ب) : بالمولى .
(٦٤) الباطنية : قوم أسقطوا المعانى وحوروا المبانى خدمة لأهدافهم الالحادية وقد تزعمهم الحسن الصباح ، ومنهم الاسماعيلية حديثا .

أمارة الحدث ، فتعدوا عنها الى العناصر وسموها « الهيولى » وقالوا : هى العلة الأولى •

والمشغول بالمولى عن الدنيا : أولياء العزلة ، من الذين علموا المحدثات بحقائقها ، فتعدوا عن العناصر الى خالقها ، فبقوا عنده طالبين رضاه ، أو راغبين فى ثوابه ، أو خاشين سخطه ، أو هاربين من عقابه ، واشتغلوا بشدة الطلب ، أو فرط الرغبة ، أو صدق الخشية ، أو قصد الهرب عن الدنيا خوفا من تقاعدهم عن مقامهم ان التفتوا اليها ، فهى فى أيديهم كأنها ليست فى أيديهم ، وليست لهم كأنها لهم[٦٥] •

ومقاماتهم فى ذلك أربعة : مقام المحبة ، ومقام الخشية ، ومقام الرغبة ، ومقام الرهبة •

فمقام المحبة بمعرفة الله تعالى على صفة الكمال ، ومقام الخشية بمعرفة العبد نفسه على النقصان والقصور ، ومقام الرغبة فى معرفة ما فى جميل الموعود ، ومقام الرهبة فى معرفة ما فى شديد الوعيد •

فالمحبة أصلها : الصفوة ، وفرعها : طلب رضا المحبوب ، وثمرتها ، أنس المحب •

والخشية أصلها : الحياء ، وفرعها : الاعتذار ، وثمرتها : القبول •

والرغبة أصلها : الطمع ، وفرعها : التعب ، وثمرتها : الوجود •

والرهبة أصلها : العجز ، وفرعها : الهرب ، وثمرتها : النجاة •

فمن رهب عجزا أمسك عن سببه ، ومن رغب طمعا سعى لأربه[٦٦] ، ومن خشى حياء شغل عن رؤية أعماله بالتهذيب[٦٧] ، ومن أحب صفوة عمى عن تفاوت أقسام الحبيب[٦٨] •

فالمقامان الأولان[٦٩] للمستدلين ، والآخران[٧٠] للمستمعين[٧١] •

فالوصول الى علم ذات الله تعالى ، وقصور ذات العبد بالاستدلال ،

---

(٦٥) ومن أمثالهم داوود الطائى ، وأبى بكر الشبلى وأشباههما •

(٦٦) فى (م) : سعى لحاجته • من نسخة ثانية •

(٦٧) أى : انه لا يرى أعماله مهذبة لائقة بأن ترفع الى مولاه •

(٦٨) أى : تفاوت قسمته لمواهبه بين عباده على أساس حكمته • وحب الصفوة هو : الحب الصافى لله بحيث لا يبصر العبد السببه الذى هياه الله ، بل يبصر مجرد النعمة صادرة منه •

(٦٩) هما المحبة والخشية • (٧٠) هما : الرغبة والرهبة •

(٧١) فى (أ) : للمستحقين •

والوصول الى الجنة والنار بالسماع . قال الله تعالى : **« انما يخشى الله من عباده العلماء »**[٧٢] . و « انما » لاثبات المذكور ونفى ما عداه .

ورأينا العالم يخشى الله تعالى[٧٣] ويرهبه من سواه ، فدل [على] أن الخشيــة غير الرهبة . كالرغب غير الرهب . فالخشية بمعرفة العبد نفسه على النقصان والقصور ، فلا يتصور ذلك من جاهل بنفسه رهب الله تعالى بالسيف والسعير . قال تعالى : **« وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه »**[٧٤] . وانما خشى رسول الله صلى الله عليــه وسلم الناس حياء أن ينسب الى الاستئثار ، لا لمكروه يلحقه منهم على اقتدار .

والله تعالى ذكر المقامات كلها فى كتابه فقال : **« واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه »**[٧٥] . فهذا مقام المحبة .

وقال تعــالى : **« انما يخشى الله من عباده العلمــاء »**[٧٦] . فهذا مقام الخشية .

وقال تعالى : **« ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين »**[٧٧] .

والمستولون على الدنيا للمولى : الأنبياء عليهم السلام ، وورثتهم من أولياء العشرة[٧٨] ، وهم الزهاد من الفقهاء ، عرفوا الله تعالى وآمنوا به ، وعرفوا أعداءه فقصدوهم (بالاسترقاق ، وعرفوا اماءهم وهى الدنيــا فقصدوهم)[٧٩] بالاستغنام ، ليكون الكل لله ولعباد الله مصروفا الى سبيل الله ، فتصير الدنيــا عند ذلك الوصول الى الله تعالى أسبابا بعد ما كانت عن الله حجابا [أهلها] ولله أنصــارا بعد ما كانوا كفارا ، وانها لمن أعلا المراتب ، وهو القوة من أعلا المواهب .

ومثال الفريقين[٨٠] من أصحاب ملوك الأرض : الندماء والوزراء . غير أن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين منهم من سألها ربه لنفسه

---

(٧٢) فاطر : ٢٨

(٧٣) فى الأصول : يرهب الله ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٧٤) الأحزاب : ٣٧ (٧٥) الكهف : ٢٨

(٧٦) فاطر : ٢٨ (٧٧) الأنبياء : ٩٠

(٧٨) أى : الذين يعاشرون الناس بالارشاد والدعوة على عكس أولياء العزلة المذكورين من قبل .

(٧٩) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٨٠) يعنى : أولياء العشرة وأولياء العزلة .

ليصرفها الى عباده فى سبيله وجهاده كسليمان عليه السلام ، ومن أوتى ملكا فى الدنيا من النعيم الظاهر ، ومنهم من سألها لعباده ليكون أقرب الى الكرم والسخاء ، وأدل على هوان الدنيـا ، وكيلا يرى فيما هو نعمة عند الأعداء تحقيقا لديهم أن الدار للابتلاء ، وانما نعيمها متاع ثم حساب ، أو غرور وعذاب ، وانما هو عبد فقير مأمور فى مملكة الأعداء ، ما يريد براحا عن الفقر ، ولا اعراضا عن الأمر ، ولا عتقا فى الحال عن الرق ، بل يعاديهم فى الله ليفتتح المملكة لله ، ويأسرهم لله ، فيرجع اليه منصورا ان رجع اليه ولى العزلة مدعورا[٨١] كمحمد رسولنا عليـه السلام ، وانها لأعظم الدرجتين ، وأعلى المنزلتين عند الله .

ومقامات الأنبياء عليهم السلام فى حق الدنيـا أربعة : من زويت عنه الدنيـا فلم يطلبها[٨٢] ، ومن عرضت عليـه الدنيا فلم يقبلها[٨٣] ، ومن لم يعط فطلبها[٨٤] ، ومن أعطى فلم يردها[٨٥] .

فالأول مقام الرضا والهيبة ، والثانى مقام الكرم ، والثالث مقام الافتقار ، والرابع مقام الجود .

رضى الأول بالقسمة فلم يتحرك لغيرها هيبة فشكر مكان الشكوى من غيره ، وسكت مكان السؤال من خيره وكرمه .

وأما الثانى فآثر غيره على حظه ، وقد خير فى أخذه (وأخلص) لله شكر الخلق بتفويضه[٨٦] اليه قسمة الرزق ، فآثر الله على نفسه بالشكر ، وعباد الله بالملك مكان شكر الأول وسكوته ، وكم فرق ما بين العبد وملكه ، وما بين الله وملكوته .

وأما الثالث فرأى فقره وغنى ربه ، فلم يصبر على الاظهار اليه ليحقق[٨٧] بلسانه ما اعتقده بقلبه ، ثم سأله[٨٨] من ملكه تحقيقا لـمـا

---

(٨١) مدعورا بالدال المهملة . أى : مغذورا مقهورا . وفى (م) ، (ب) مذعورا بالمعجمة أى : خائفا .

(٨٢) وذلك كعيسى عليـه السلام .

(٨٣) مثل نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم .

(٨٤) كسليمان عليـه السلام .

(٨٥) مثل خليل الرحمن ابراهيم عليـه السلام .

(٨٦) فى الأصول بالتفويض . وما أثبتناه أوضح .

(٨٧) فى الأصول : تحقيقا . وما اخترناه أوضح .

(٨٨) فى الأصول : السؤال . وما اخترناه أوضح .

أيقن فى وعده[٨٩] بنجزه ، فشكا الى الله تعالى مكان رضا الأول ، وطلب مكان سكوته وسأل .

وأما الرابع فقد أوتى نعيم الدنيا مصفى عن خبثها ، كما صفيت نفسه عن دنسها ، فقبلها ليجود بها على خلقه ، تحقيقا لكرم الله بفعله[٩٠] ، فاستأثر بالحظ قبل أن آثر ، وأثبت الجود لنفسه قبل أن أظهر ، لكنه جاد على خلقه مكان شكوى الثالث ، ورضا الأول ، وعمل لله مكان سكوت الأول وسؤال الثالث[٩١] .

فصار مقام الكرم أعلا المقامات ، ثم مقام الجود ، ثم مقام الرضا ، ثم مقام الافتقار .

والناس فى منازل الدنيا على أربعة أقسام : قسم رأوا الرزق من الدنيا ومن الأسباب ، وقسم اتكلوا ، وقسم رأوه بالأسباب من المولى ، وقسم توكلوا .

فالأولون عامة الناس من الذين لم يعلموا الا ما أدركوا بحواسهم فأقبلوا على الأسباب بأنفاسهم ، غادين على تعب ، رائحين الى نصب ، ما باينوا الأنعام الا بفرط الكد بدعوة الأمل ، وترك التمتع فى مهلة المهلة ، فأولئك الذين قال الله تعالى لهم : **« ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »**[٩٢] . مع ما لم يصلوا اليه الا بخدمة الأنعام ، أو صحبة الطغام[٩٣] .

وأما المتكلون فالمكدون الذين لا يرون رزقهم الا من أموال غيرهم ، فيتكففونهم خاضعين بالسؤال من غيرهم ، وانهم لشر الفريقين فى باب الطلب والخشوع .

فالأولون ما رجعوا فيما باشروا من السبب الى ذل وخضوع ، وما لهؤلاء الى غير هوان ومذلة من رجوع ، وان الذل والهوان لأحط منزلة من الكد والسؤال ، والأخذ أدون درجة من البخل .

---

(٨٩) فى (أ) : فى عده .
(٩٠) فى (أ) : تحقيقا عليهم كرم الله . وفى (ب) : كرم ربه .
(٩١) فى (أ) : ورضا الثالث . وفى (ب) : وسؤال الثانى .
(٩٢) الفرقان : ٤٤
(٩٣) الطغام : أوغاد الناس . الواحد والجمع سواء . والوغد هو : الرجل الدنىء الذى يخدم بطعام بطنه .

وأما الطالبون من الله تعالى بأسباب فعامة المسلمين ، باشروا الأسباب بظاهر الشرع ، وتوكلوا على المسبب بحقيقة الأمر ، كما قال النبى صلى الله عليـــه وسلم للأعرابى الذى قال : أرسل ناقتى وأتوكل : « بل اعقلها وتوكل » .

وقال الله تعالى لرسوله عليـــه الســـلام : **« خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا »**[٩٤] .

« وشاورهم فى الأمر »[٩٥] .

« فاذا عزمت فتوكل على الله »[٩٦] .

وكان عليـــه السلام اذا خرج الى الغزو لبس درعه ، ويوم أحد ظاهر بين درعين ، وكان ينصب الحراس حتى نزل : **« والله يعصمك من النـــاس »**[٩٧] ، اذ رسول الله صلى الله عليـــه وسلم كان قدوة للناس كافة ، وصلاحهم فى هـــذا ، اذ توكلهم على الله تعالى لا يبلغ منزلة تلغى السبب ، فذلك أعلا الرتب ، لا يناله كل أحد .

فمن تسبب بقدر الكفاية كان عدلا ، فى دعوى توكله صادقا ، ومن تسبب للتكثير كان رذلا ، وخفنا أن يكون فى دعوى التوكل كاذبا ، فان لم يكن فلازم عليـــه السفه ، جمع فى غير منفعة ، لم يكن له مثل ، وكان على جمع فى غير منفعة ، ومنع وقت الحاجة لا لمتعة .

وأما المتوكلون فهم خاصة المسلمين الذين اطمأنت قلوبهم الى الضمان وانشرحت صدورهم بنور الايقان ، فتأتيهم الكفاية كما تأتى الأجنة والطفول والدواب التى ما فى أيديها الى أرزاقها من أسباب يرزقها الله تعالى واياهم ، وهو العليم القدير .

وبلغنا أن أهل الصفة زمن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم كانوا من المتوكلين ، ولمـــا كان عهد عمر وخلفهم خلف بدلوا طريقهم بقلوبهم ، وسلكوا بجسومهم ، قال لهم عمر رضى الله عنه : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون ، فطردهم وقال : أنتم المتأكلون[٩٨] .

ألا يعلم العبد لو حقق النظر أن الأرزاق مقسومة ، والأمور كلها مكتوبة[٩٩] ، لا تبديل فيما سبق[١٠٠] ، وهو الحكيم العليـــم ، وأن

---

(٩٤) النساء : ٧١ (٩٥) آل عمران : ١٥٩

(٩٦) آل عمران : ١٥٩ (٩٧) المـــائدة : ٦٧

(٩٨) فى (م) : المتكلون . نسخة اخرى . والمتكلون . نسخة اخرى .

(٩٩) فى (أ) : مكتوبة . (١٠٠) فى (أ) : لمـــا سبق .

رزق المرء لا يأكله غيره ، فلماذا خوف الفوت فالهرب[١٠١] ، ورزق غيره لا وصول له اليه ، فلماذا كد الجمع[١٠٢] والطلب .

كم من آكل مما جمع غيره ، فكم جامع[١٠٣] لغيره خيره ، وكم من ميت جوعا وله مال ، وكم من ميت شبعا وريا وما له مال[١٠٤] .

وانما خفت الموت[١٠٥] على نفسك فى توكلك من حديث النفس ، فلن تموت نفس الا بما قدر لها فى الأزل ، ومن كتب عليــه القتل أبرز اليه[١٠٦] فى المنزل ، وقد قال جعفر الصادق رحمه الله : « علمت أن رزقى لا يأكله غيرى فاطمأننت ، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فاجتهدت ، (وعلمت أن الله يرانى فى كل حال فاستحييت)[١٠٧] ، وعلمت أن الموت كائن فاستعددت »[١٠٨] .

وقال صلى الله عليــه وسلم : « ان الروح الأمين نفث فى روعى : أن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » .

قال : فعلى هــذا يجب ترك العبادات ، فما بجهده يتغير الحكم المــاضى ، ولا يرجع بسببه عن قضائه القاضى .

فقلت : أجل ، غير أن الله تعالى ابتلانا فى أسباب الآخرة (بخلاف أنفسنا بفعلها الا بعذر وفى أسباب الدنيا ابتلانا)[١٠٩] بخلافنــا[١١٠] لأنفسنا بتركها الا لحاجة ، فما الابتلاء الا فى جهاد النفس .

وسبب السعادة هو الطاعة فى الأصل ، فتدل[١١١] مباشرته أسبابه الآخرة على السعادة ، ومباشرة أسباب الدنيا على الشقاوة .

ودليل ذلك : أن الحكيم عزت قدرته لمــا جعل[١١٢] الآخرة جزاء ، (والجزاء لا يكون الا لاحقا)[١١٣] علم أن العمل لها سابق ، ولمــا جعل

---

(١٠١) فى (أ) : والهرب .
(١٠٢) فى (ب) : كره الجمع .
(١٠٣) فى (أ) : وكم جامع .
(١٠٤) فى (أ) : حال . وفى (م) : خال . من نسخة ثانية .
(١٠٥) فى (ب) : خففت المؤنة .
(١٠٦) فى (أ) : لبرز اليه .
(١٠٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٠٨) انظر مكارم الأخلاق للطبرسى ص ٧٨
(١٠٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١١٠) فى (أ) : خلافا .
(١١١) فى (ب) : فيدل .
(١١٢) فى (ب) كما جعل .
(١١٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

الدنيـا متاعا لك قبلك ، علم أنك بلا عمل لها (بها)[114] لاحق ، ولأنه خلقنا فيها للابتلاء بالعبادات وذلك بالعمل ، فعلم أنه حق مطلوب ، وبنى الخطاب بها على قدرة لا تنالها الا بالرزق ، ثم لم يلزمنا طلبه ، فعلم أن الرزق مضمون •

فان اشتبهت عليـك هذه الجملة فاقرأ كتاب الله تعالى ، وعد الأوامر بجمع المـال ، والأوامر بصالح الأعمال ، وضمان المغفرة بغير سبب ، وقران الرزق بالطلب •

أليس قـد قـال عز من قائـل : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين** »[115] •

وقـال : « **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليـها ، لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك** »[116] •

وقـال : « **وأنفقـوا فى سبيـل الله ولا تلقـوا بأيديـكم الى التهلكة** »[117] • قرن التهلكة بالبخل الذى يبقى المـال ، والنجـاة بالانفاق الذى يخلقه[118] • فكيف ظننت أنت أن النجاة فى البخل ، والهلكة بالجود •

وقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من سعد فى بطن أمه • فقيل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال : كل ميسر لمـا خلق له » • ثم تلا قوله تعالى : « **فأما من أعطى واتقى • وصدق بالحسنى • فسنيسره لليسرى • وأما من بخل واستغنى • وكذب بالحسنى • فسنيسره للعسرى** »[119] • فأشار الى أن السعادة مقرونة بعمل الخير ، وبدأ تفسيره[120] بالاعطاء والبذل ، والشقاوة مقرونة بعمل الشر ، وفسره بالاستغناء والبخل • فكل نوع من العمل دليل على ما تعلق به[121] • قال تعالى : « **ألا تزر وازرة**

---

(114) سقطت من (ب) •
(115) الذاريات : ٥٦ ـــ ٥٨
(116) طه : ١٣٢
(117) البقرة : ١٩٥
(118) يخلقه : أى يبليه ويذهبه • وفى (م) : يتلفه • من نسخة ثانيـة •
(119) الليل : ٥ ـــ ٩
(120) فى (ب) : تفسيرها •
(121) فى (أ) : علق به ، وفى (م) : خلق به • من نسخة ثانية •

وزر أخرى * وأن ليس للانسان الا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى »[١٢٢] .

وأما الرزق فمما ضمنه الله تعالى لخلقه ، لأنهم عباده ، لا أنهم عابدوه لحقه ، فقد اشترك الناس والوحوش فيما يتقون[١٢٣] برزقه ، وانما الأسباب الظاهرة ليبتلينا بتركها الى ما ضمن فى الأزل الا لحادث أمر كأسباب الآخرة التى هى خلاف النفس ليبتلينا فيها بالعمل الا لعارض عذر[١٢٤] .

أم أنت[١٢٥] أطعت النفس ، وقلبت القصة ، فتركت أعمال الآخرة اعتمادا على ضمان المغفرة مقرونا بأصل الجبلة ، وباشرت أسباب الرزق لتعلقه بتلك الجملة .

فقال : فلا تظن أحدا أعلا مرتبة من الرسول الأمين المبين ، الذى أكمل به الدين ، وأنه صلى الله عليه وسلم (كان يتسبب الرزق ، وكان يتسبب لغيره من الخلق .

قلت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم)[١٢٦] عرضت عليه الدنيا لما توكل ، لكنه أعرض عنها استهانة بها وايثارا لغيره ، وتركا لراحة ينالها[١٢٧] بمال الدنيا وخيره ، ثم اشتغل بالسبب خلافا لنفسه (فيما ينال من الدعة بترك السبب)[١٢٨] وتفريغا لقلوب الناس عن كفايته بما أوتى من الطلب ، ووصولا الى كفاية المحتاجين من الفقراء والمساكين ، لا أنه رأى منه رزقه مضمونا ، بل لينال بالطلب بتلك النيات مع حقيقة التوكل ثواب العمل (فى اظهار الحق من قسمة الرزق)[١٢٩] .

---

(١٢٢) النجم : ٣٨ — ٤٠ (١٢٣) فى (أ) : يبقون برزقه .

(١٢٤) اى : ان اصل الابتلاء هو مخالفة النفس والعدول بها من محبوبها الى مكروهها وذلك ثابت فى الحرص على الدنيا ، والراحة من تبعات العمل الاخروى سواء .

(١٢٥) فى (أ) : وان انت .

(١٢٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٢٧) فى (أ) : لراحة تناله .

(١٢٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٢٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

ثم طلبه بأسباب ابتلانــا الله تعــالى بفعلها مما تكرهها [النفس] من قتال للمشركين[١٣٠] ، ورعايــة للمسلمين ، لا بالأسباب التى هى أسباب عمارة الدنيا ، مما ابتلانا فيها بالشرك من تجارة وحراثة أو صناعة فقال صلى الله عليــه وسلم : « جعل رزقى تحت ظل رمحى » .

وان ذلك للدرجة المتناهية علوا ، الجامعة من العبودية والعبادة ، فالتوكل عبودية ، والطلب عبادة ، والطلب بسبب هو عبادة ، وكما كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم خير الأمم ، كان (على) [١٣١] أعلا الهمم ، وذروة سنام الكرم .

على أن رسول الله[١٣٢] صلى الله عليــه وسلم كان مقتدى به ، فباشر سببا لرزقه مما هو عبادة بنفســه[١٣٣] ، ليكون فى ظاهره[١٣٤] صلاح العامة ، وباطنه صلاح الخاصة[١٣٥] ، لتتم عنده فائدة الاقتداء ، وعائدة الاهتداء .

قال : فاذن قد رجحت مقام الصبر — وذلك مقام الفقر — على مقام الشكر ، والصبر ضرورى ، والشكر اختيارى ، وما مقام صاحب الاضطرار كمقام المختار .

قلت : انك أيها الأخ الى الاسترشاد أحوج منك الى الاحتجاج[١٣٦] قبل الفهم ، فانك (تتكلم)[١٣٧] فى المقامين[١٣٨] وما لك بهما من عــلم . أمضطر من ترك الغنــا (مختــارا أم) [١٣٩] صــابر[١٤٠] من طلق البرصاء[١٤١] فرارا . انما مقام الصبر عند ترك الجزع على ما كرهه ،

---

(١٣٠) فى (ب) : مرفقا للمشركين .

(١٣١) سقطت من (ب) .

(١٣٢) فى (أ) : أن الرسول .

(١٣٣) وهو غنيمة الحرب فى سبيل الله .

(١٣٤) فى (ب) : ليكون فى السبب .

(١٣٥) بكونهم قادة الأمم ، وناشرى العدل ، ومقيمى دين الله . والمراد بباطنه : التوكل .

(١٣٦) فى (ب) : الاحتياج .

(١٣٧) سقطت من (ب) .

(١٣٨) وهما : الشكر والصبر .

(١٣٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٤٠) فى (ب) : صائر .

(١٤١) فى (ب) : البرصبا . تحريف وتشويه .

لا عن النجاة عن الحجاب والحساب طوعا ، وسيأتيك شرح ذلك فى (كتاب)[142] ذكر الدنيا ان شاء الله تعالى .

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى اختار الله وترك الدنيا عن جهده فى عمله[143] فقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » . وقد سئل واحد من الزهاد فقال : الذين اذا وجدوا شكروا ، واذا فقدوا صبروا . فقيل له[144] : وكذلك الكلاب . فقال : من هم ؟ قال : الذين اذا وجدوا آثروا ، واذا فقدوا شكروا[145] .

فقال : ما تأويل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة »[146] . وقد ذكرت أنها عرضت عليه منكوحة فطلقها ، ومملوكة فأعتقها ، فكيف أحب منها النساء والطيب ؟ .

قلت : انه صلى الله عليه وسلم أبان بقوله[147] : « دنياكم » أنها ليست له ، وأبان بقوله : « حبب الى » أن الذى بيده القلوب حبب اليه منها النساء ، لأن فى النكاح وصالا واحسانا قبل قضاء الشهوة ، ووجوب نفقة ورعاية ، وضروب محنة من جنس ما يكون[148] فى رعاية الأمانة .

ثم فيه اقامة حكم الله تعالى ، (علق بفعلنا من تعلق بقاء العالم بنسلنا ، ولا نسل الا بالماء ، وبقاء)[149] علق بماء رجل[150] لا يتصور من ماء غيره ، ولا يتصور من مائه على ما شرع الله تعالى الا بعد ملك ،

---

(١٤٢) سقطت من (ب) .

(١٤٣) اى : عن صلاة الليل والجهاد وغيرهما .

(١٤٤) فى (ب) : فقيل له .

(١٤٥) صاحب هذه المقالة ابراهيم بن ادهم . جلس اليه ... فقال له ابن أدهم : علام أصلتم أصلكم ؟ قال : اذا وجدنا شكرنا واذا فقدنا صبرنا . فقال : هكذا كلاب بلخ ، فقال له : ... وعلام أصلتم أصلكم ؟ قال : .... [حليـــة الأوليـــاء] .

(١٤٦) أخرجه النسائى عن أنس وليس فيه « من دنياكم » .

(١٤٧) فى (أ) : انه أبان بقوله صلى الله عليـــه وسلم .

(١٤٨) فى (أ) : ما كان .

(١٤٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٥٠) فى (ب) : بماء الرجل .

ولا ملك الا بعد سببه المشروع ، فصار مبتلى بفعله طاعة لربه فى اقامة حكمه (بما شرح له من سببه)[151] .

ولأنا أمرنا بالجهاد لتبديل صفة الكفر بالايمان خوفا من القتل ، وفى النكاح تسبب[152] لايجاد المؤمن من الأصل ، غير أنه علق بالشهوة ليكون أدعى الى اقامة ما فيه بقاء العالم الى القيامة .

فأما بقاء الحياة المعلق بأكل الرجل من خيره فما يكون بمال غيره ، فلا يفوت حكم الله تعالى باعراضه عن التكسب الى التوكل والترهب ، فصار الأصل فى باب الرزق لما كان يحصل بالمباح : الاعراض عن سبب الملك الا اذا خاف الفقر ، وفى باب[153] بقاء الجنس بالنسل لما لم يشرع[154] بغير ملك : الاشتغال بسببه[155] الا اذا خاف الظلم .

وأما الطيب فانه حظ الروح والملائكة ، حتى لا يكاد ينتفع بأصله الا الروحانيون من بين الحيوانات والملائكة رسل الله ، والروح من أمره جاء من عنده من بين الموجودات ، فكان الطيب من حظوظ أهل الآخرة وان كانت جواهره فى الدنيا ظاهرة .

وأما الصلاة فرأس العبادات ظاهرة وباطنة ، فكان ذكر الصلاة معها دليل على أن المذكور قبلها فى المعنى مثلها ، ولهذا قدم العلماء النكاح على التخلى للعبادة[156] ، وجعلوا التطيب من سنة (يوم)[157] العيد والجمعة وآداب سائر الصلوات لله (تعالى)[158] .

فاذا عرف العبد نظام الأمر فى القناعة أعرض عن الأسباب التى لم يبتل العبد بفعلها لولا الشهوات الداعية اليها طلبا للراحة والدعة قبل أن ينظر الى التقوى والرعة[159] .

---

(151) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(152) فى (أ) : تسبيب .
(153) فى (ب) : فى باب .
(154) فى (ب) : ولما لم يشرع .
(155) فى (ب) : اشتغال بسببه .
(156) فى (أ) : لعبادة الله تعالى .
(157) سقطت من (أ) .
(158) سقطت من (أ) .
(159) الرعة : الورع . وفى (ب) : الدعة .

ثم ينظر فيما يدعوه الى تركها فيجد نشـأه[١٦٠] من الطمع فيما ليس عنده ، حتى اذا تأكد طمعه حرص على طلبه •

فيلزمه بموجب العبادة ترك الطمع لما فيه من قبائح[١٦١] أربعة : أولها : الكفران الظاهر ، ثم الفقر الحاضر ، ثم الذل اللازم ، ثم الأسف الدائم •

لأنه لا يطمع فيما ليس عنده حتى يستقل حظه (الذي دفعه الله تعالى اليه من النعمة)[١٦٢] ، ولا يستقل حظه حتى يقوم عن مقام الشكر ، ولا يقوم عن مقام الشكر الا بضده وهو الكفران ، وأنه سبب ذهاب القديم[١٦٣] دون وجدان النعيم ، فلن يزداد العبد كفرانا — وهو رأس القبائح — الا ازداد حرمانا •

ثم يتحول عنه فى قيد الافتقار الى شكله[١٦٤] ، وقد أطلقه الله تعالى عن مثله[١٦٥] ، وذلك لأن المطموع [فيه] حظ هو عنه ممنوع ، فاذا أراده — ولا يجـده عنده — كان العـدم فقرا اختيـارا ، ثم (يسعى)[١٦٦] الى ذى يد ليطلبه منه فكان افتقارا ، وأى سفه وقبح أعظم من سعى عاقل لرد فقره بما يزيده فقرا فى أمره •

ثم يتحول[١٦٧] الى مجلس الذل اذ سعى[١٦٨] الطامع مع القلـة سعى طالب ، وسائل عن افتقار ، لا عن سعى مغالب عن اقتدار[١٦٩] ، فانما[١٧٠] يتم سعى الفقير بالتذلل والاستكانة والملق والخيانة ، وكلها خصال قبيحة غير مرضية (لمختار)[١٧١] ، ومناهل أجاج غير متأنية[١٧٢] الا عن اضطرار •

ثم يحل اذا افتقر وسعى وتذلل ورأى ما فى أيدى الناس[١٧٣]

---

(١٦٠) فى (ب) : مشتهاه • (١٦١) فى (ب) : مصالح •
(١٦٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(١٦٣) يعنى : القديم من حظ النعمة •
(١٦٤) أى : مثله من الانسان • (١٦٥) أى : من الذل •
(١٦٦) سقطت من (ب) • (١٦٧) أى : من الفقر •
(١٦٨) فى (ب) : اذا سعى ، وبه فسد المعنى •
(١٦٩) فى (أ) : على اقتدار •
(١٧٠) فى (ب) : وانما • (١٧١) سقطت من (ب) •
(١٧٢) فى (م) : غير مأتية • (١٧٣) فى (ب) : الورى •

بميادين الأسف . وسقياها المنى ، وغراسها البغيضة[١٧٤] ، وجناها الأسى ، فيجتنى منها للوجه صفرة ، وللعين سخنة ، وللقلب حسرة .

فان تغذى بها تولد منها علة الحسد ، وانه لنار تحرق الكبد ، وتأكد الجسد ، والمحسود عنه[١٧٥] غافل ، والطبيب بعلتـه جاهل ، وما بعد ما تحسر بالفوت الا تجرع كأس الموت على حال قبيح ، وبال جريح .

ولئن أخطأ الأجل دعــاه الشره الى الحرص فقد وجب تركه لفضائح[١٧٦] أربع : أولها : ارقاق الجسم بلا متعة[١٧٧] ، ثم اعلان الفقر بلا حاجة ، ثم استعذاب البخل بلا فائــدة ، واستحلاء الكد بلا ثمرة[١٧٨] .

لأن من حرص على شيء دام عليه دوام الرقيق بوثاق الرق[١٧٩] ، وعبادة العبيد فى لباس الذل[١٨٠] ، بعلم (من) الفقر أبداه علانية .

فالفقر صفة لازمة للعبد لجانب مولاه ، مستور عن أهل دنياه ، ما يعلنه الا الحرص ، ولا يحمله على الحرص الا شره النفس[١٨١] ، وأى فضيحة أسوأ من اعلان الفقر للبشر ، وفيه ذهاب القدر والمنزلة والخطر .

ألم يبلغك قول على رضى الله عنه : « استغن عمن شئت وكن نظيره ، وامنن على من شئت وكن أميره ، واحتج الى من شئت وكن أسيره » .

فالطمع احضار الفقر ، والحرص اظهاره ، وذهاب القدر والمنزلة ثماره ، بئست الشجرة ، (وبئست الثمار)[١٨٢] وبئس التدبير ، وبئس الاختيار .

---

(١٧٤) فى (أ) : النغيصة . (١٧٥) فى (ب) : والمحسود له .

(١٧٦) فى (ب) : وقد وجب تركه بفضائح .

(١٧٧) فى (ب) : بلا منعة . (١٧٨) فى (ب) : واستحلاء الكل .

(١٧٩) فى (ب) : بوثاق الرزق .

(١٨٠) فى (ب) : وعبد عبادة العبيد ليس طواعية بعلم الفقر . اضطراب .

(١٨١) فى (ب) ، (م) : شرة النفس . بكسر الراء وتشديد الشين المعجمة .

(١٨٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

وليته رجع الى فائدة فيما أرق نفســه ، فقل من حرص فلم يحرم ، وقل من أنصف فلم ينعم[183] ، غير أنه أعلن فقره للجماعة ، وكان مستترا بالقناعة ، فلم يغنم بارقاق جسمه الا حرمانا ، فرباه باعلان فقره فأثمر هوانا ، فذاق منه فاستعذب البخل بما عنده من الفضل[184] .

فمن دعاه الحرص الى الطلب[185] بسبب يسير[186] ألزمه منع الموجود ، واساءة الظن بالمعبود .

والبخل كتاب عزل المهـابة والمحبة والحشمة ، ومنشــور المسكنة والبغضاء والخسة ، فاذا تململ[187] فى هــذه الولاية بهمة فى الحرص عليــة ، مل وتمنى الخروج منها[188] ، فاستحلى[189] الكد ، واستراح الى الجهد وقد خانه جده ، وغرق سعده ، فسار عن مملكة البخل فى طريق الجهد ، الى سجن الجزع ، فى قيد من الهلع ، لا راحة له قدر نفس ، ولا نجاة له الا بتعس[190] .

فان قلت : كم (من)[191] طامع نال ، وحريص تمول .

قلنا (لك)[192] : أكان ما أصاب عوضــا يســاوى ما لزمه من الفضائح ، أو طهرة عن دنس القبائح ؟ وان ساوى وطهر فماذا أفاد وأثمر ؟ هل أناله وراء المقسوم حقا ، أو آتاه فوق الكفاية رزقا ؟ الا عذابا من الكد عاجلا ، وحسابا على الجمع آجلا .

على أنه قد نال مثل حظه فى الناس من ليس بحريص ، فما باله توسخ بهذه الفضائح ، وما واسطتها الا التنغيص .

فاذا قنع لم يفرح بما آتاه بوجوه أربعة : اثنين فى أن أتتك نعمة ، و (اثنين)[193] فى أن أتتك فتنة . أما وجها النعمة فان النعمة ذات مهر لا تقيم عندك الا بايفائه وهو الشكر ، وانه المهر الغالى الذى

---

(183) فى (م) : فلم يغنم . من نسخة ثانية .

(184) اى فضل المــال .

(185) فى (ب) : الى القلب .

(186) فى (ب) : يسير بسبب ، وفى (أ) بشر سبب . وما أثبتناه أوضح .

(187) فى (أ) : تأمل .

(178) فى (ب) : فنما .

(189) فى (أ) : واستحلى .

(190) فى (ب) : بنفس .

(191) سقطت من (أ) .

(192) سقطت من (ب) .

(193) سقطت من (ب) .

أفلبس الخلق عن وفائه ، حتى كان الدعاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالرحمة موزونا ليخرج عن شكر نعمة خص بها من بين البشر . فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحتى تضرع سليمان عليه السلام ليوزعه شكر ما أنعم عليه وعلى والديه .

أملىء له[١٩٤] أحد بعد الأنبياء بما فى يديه ؟ كلا مع ما أنها على شرف الزوال ، ولعمرى ان هم الفراق لينال فى فرح الوصال . على أنا اذا ذكرنا (أنها)[١٩٥] لا تزيد فى متعتك ولا عزك ومنعتك ، وانما أثقل بدنك[١٩٦] ، وشغل قلبك ، لتعلم أن الدنيا دار محنة لا دار نعمة .

وأما وجها الفتنة فانها دار غرور وخداع ، بحسن اقبال واطماع وصال ، ثم مهرها — وهى فتنة[١٩٧] — كل عمرك ، فاذا وفيتها كانت[١٩٨] لابد لغيرك ، مع أنك اذا ظننت اعتناقها ، وأمنت فراقها ، نسيت ربك ، فانتقلت عن مجلس النسيان الى فرس الطغيان ، فبينما أنت تجول فى ميادين اللهو على فرسك الطاغى ، اذ سلبك العنان ، وجاوز بك الميدان ، فصرعك فى واد لا يغنيك فيه ناد[١٩٩] ، مالك وجه خروج ، ولا وسع عروج ، فالدنيا راحلة[٢٠٠] عنك الى مثلك بلا اعتداد[٢٠١] ، كما شاهدتها أقبلت عليك عن اعداد ، أيفرح عاقل بمثلها ، أو يسر بوصلها ؟ ما لذى[٢٠٢] حزم سرور بالخديعة والغرور .

هذا لك فى الدنيا مع ما لك منها فى الآخرة من القطيعة والسعير .

فاذا لم يفرح بما آتاه ، لم ييأس مما فات[٢٠٣] من دنياه من طرق أربعة : أما ان كانت أنتك نعمة فلأنه برىء[٢٠٤] من المهر ولم يرد شيئا فى الفقر ، فالمتعة الأولى باقية ، وذخيرة الصبر فى الأخرى حاصلة[٢٠٥] ، ولأنها لم تكن وهى فى يده[٢٠٦] بملكه ، بل كانت لربه ،

---

(١٩٤) فى (ب) : امل له .
(١٩٥) بياض فى (ب) .
(١٩٦) فى (ب) : يميك .
(١٩٧) فى (أ) : فتنية .
(١٩٨) فى (ب) : كان .
(١٩٩) فى (ب) : نادى .
(٢٠٠) فى (أ) : راغلة .
(٢٠١) اى : بلا عدة . وهكذا فى (م) من نسخة ثانية .
(٢٠٢) فى (ب) : ما الذى .
(٢٠٣) فى (أ) : بما فات .
(٢٠٤) فى (ب) : برى . تصحيف .
(٢٠٥) فى (ب) : حاملة .
(٢٠٦) فى (ب) : وهى فريدة .

ولم ينقص ولا فات[٢٠٧] شيء[٢٠٨] من رزقه فانه على الله تعالى يؤتيه بحقه .

وأما ان كانت فتنة فانه باين[٢٠٩] حذر الوقوع فيها ، فأمن وانقطع عنه دعوة الشهوة فسكن[٢١٠] . فما العبد فى قناعتـه الا كالمريض فى حمايته ، فاذا عدم ما لا يوافقه سكنت طبائعه ، فاذا عرض عليـه انبعثت نوازعه ، فربما لا يملك أعنتها فيهلك فى فتنتها[٢١١] ، وان من العصمة ألا تجد ، وهو أول[٢١٢] مصراعى باب الرحمة ، والمضراع الآخر من التوفيق ، وما الأسى للعاقل ــ وهو فى باب الرحمة ــ برفيق ، بل واجب عليـه حمد ولى الرحمة والاحسان مكان القناعة والصبر بكل لســان .

ثم أقسام الأموال أربعة : حرام ما لدى اليد فيه من ملك ، وحرام ما لمـالكه فيه من نفع ، وحلال فيه لله حق ، وحلال لمـالكه محض .

فأما الأول فالأموال المغصوبة ، فهى المجموعة ظلما بلا اقراض من الخلق ، ولا اذن من الله تعالى (الحق)[٢١٣] ، نحو ما فى أيدى اللصوص المحتالين ، واللصوص الغالبين ، ومن اتصل بهما من الظالمين ، ما لهم خروج عن وبالهـا قطعا الا بالرد على أربابهـا ، والتوبة عن أسبابها[٢١٤] على ندامة واستغفار ، ومخافة واعتذار ، الى أن يعدم طاقة الايفاء بفعل أو لسان[٢١٥] ، فيقرب من رحمة الرحمن .

وأما الثانى فالأموال المستفادة بتراض على فساد بأسـباب نهى عن مثلها العباد من عقود فاسدة شرعا ، وجنايات[٢١٦] اتصلت بهـا وصفا[٢١٧] ، وان خبيث الأموال للأبدان شر من السموم ، اذ فيها

---

(٢٠٧) فى (ب) : وقد فات . (٢٠٨) فى (ا) : فاتت شيئا .
(٢٠٩) فى (ب) : يابى . (٢١٠) فى (ب) : فسكر .
(٢١١) فى (ب) : لا يملك اعينها فيهتلك فى منيتها . ولعله تصحيف .
(٢١٢) فى (ب) : وهى أقل . (٢١٣) سقطت من (ب) .
(٢١٤) فى (ب) : عن اشباهها .
(٢١٥) المراد : الاستغفار . (٢١٦) فى (ا) : وخيانات .
(٢١٧) فى (ا) : وضعا .

قضاء الحياة الدنيا ، وفى الخبيث نار الجحيم ، حتى أن الرسول صلى الله عليــه وسلم ما وقى أكلة خيبر وكانت مسمومة ، ووقى أكلة الشاة المصلية اذ كانت مغصوبة ، وما يخرج عن عهدتها الا بصدقته ، فاذا تصدق بها خلت[٢١٨] يده غير مقضى وطرا ، الا تعبا وتحسرا .

أسفه برجل أتعب نفسه بجمع الخبيث فمزق دينه ، ثم رقع بالتصدق وما صدق ظنونه ، فصار رداء الدين مرقعا ، وسكون النفس مودعا .

وأما الثالث فما اكتسبه بأسباب صدق الشرع فى اباحتها عقله ، وحقق فعله فى أداء الأمانة قوله ، فطاب الربح ، وزكا الريع ، وحلى ذوقه ، وحمد سياقه ، الا أنه ابتلى بأداء اليسير على اليسار ، واخراج العدد من الأوقار[٢١٩] ، وقد استحلى ما يجامع[٢٢٠] وشغفه حبا ، فلم تطعه نفسه على بذله بخلا ، فزين له عند ذلك سوء عمله ، ومد أمد أمله ، وأنسى حلول أجله[٢٢١] ، وقال : فى الأمر بعد تراخى ، وللخلل تدارك وتناهى ، حتى ران[٢٢٢] على قلبه ، وأسر الهوى (قوى)[٢٢٣] لبه ، فصار[٢٢٤] الشح طبعا ، والمنع (حتى)[٢٢٥] عن نفســه شرعا ، فهنالك حرم جل خيره ، وصار جماعا لغيره .

فبينا[٢٢٦] هو فى حساب أمواله ، اذ حسبت عليــه أنفاســه[٢٢٧] ، وأتاه ملك الموت وبيده كأسه ، وعاين مصيره الى عذاب القبور ، ومصير المــال الى كل وارث كفور ، وما بخل به طوق نارى يكوى به عنقه وصدره ، وحمل ثقيل يقصف به كتفه وظهره .

وأما الرابع فالمــال الذى حسن لصاحبه فى الابتداء عقده ، وفى الانتهاء قصده ، واستوفى منه[٢٢٨] متعته ، وأمضى بالفضل[٢٢٩] صدقته ،

---

(٢١٨) فى (ب) : حلت يده .
(٢١٩) الأوقار : الأحمال العظيمة .
(٢٢٠) فى (أ) : وقد استحلاه الجامع .
(٢٢١) فى (ب) : حول اجله .
(٢٢٢) فى (ب) : حتى مدون .
(٢٢٣) سقطت من (ب) .
(٢٢٤) فى (أ) : وصار الشح .
(٢٢٥) سقطت من (ب) .
(٢٢٦) فى (أ) : فبينما هو .
(٢٢٧) فى (أ) : اذ حوسب على انفاسه .
(٢٢٨) فى (ب) : واستوفى منه .
(٢٢٩) فى (م) : بالعقل . من نسخة ثانية .

فكان قواما لمدة حياته ، واماما لما بعد وفاته ، (فانه)[٢٣٠] قد زكى أسبابه ، وسوى حسابه ، وأعد للرسول[٢٣١] جوابه ، فجاء الرسول للرحيل ، فسارع الى الطاعة ، وحوسب فاذا بساعة ، فكان حسابا يسيرا ، ثم انقلابا الى أهله مسرورا ، وذلك تأويل قول الرسول (عليه الصلاة والسلام)[٢٣٢] فى الدنيا : « حرأمها عذاب ، وحلالها حساب » .

ومصداقه قول الله : **« ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم »**[٢٣٣] .

وقوله : **« فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا . وينقلب الى أهله مسرورا »**[٢٣٤] .

والمقامات فيها أربع : مقام الشكر والحمد ، ومقام الكفر والسخط ، ومقام الصبر[٢٣٥] والرضا ، ومقام الجزع والشكوى .

فسبب مقام الشكر معرفة الله تعالى فى كل حال بالانعام ، فقبيح ترك الشكر بسبب انعدام ما لم يكن له ، وعنده مما أنعم عليه أقسام أدناها الحياة[٢٣٦] ، فهى رأس المال ، وأعلاها الايمان فهو المقصود فى كل حال ، فيترك القبيح ، لكن (الحسن)[٢٣٧] من شكر بالقلب ، وحمد باللسان ، وذلك جهد الضعيف .

وسبب مقام الكفر : الجهل بالقسام[٢٣٨] ، أو ظنه الخطأ عليه فى الأحكام ، فيعد ما أوتى غيره دونه مأخوذا منه[٢٣٩] ظلما ، فيستحسن الكفر بمثله[٢٤٠] ، والسخط على فعله .

وسبب مقام الصبر معرفة الأعواض[٢٤١] ، فانها تهون على المرء

---

(٢٣٠) سقطت من (أ) . (٢٣١) المراد : ملك الموت .
(٢٣٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٢٣٣) التكاثر : ٨ (٢٣٤) الانشقاق : ٧ — ٩
(٢٣٥) فى (ب) : المصير . (٢٣٦) فى (ب) : أدناها الجبلة .
(٢٣٧) سقطت من (أ) .
(٢٣٨) المراد : الجهل بحكمة القسمة ، فقد يكون المنع فى ذاته عطاء من جانب آخر كالمواهب والنبوغ والحماية من ضياع الأبناء ، وقد يكون العطاء منعا ، كالمرض يمنع المتعة ، واضطراب حال الأسرة يمنع الراحة ، كل ذلك مع المال الوفير . (٢٣٩) فى الأصول : مأخوذا عنه .
(٢٤٠) أى : بمثل القسام الذى أخذ ماله وأعطاه غيره . يريد : الله . . والعياذ بالله . (٢٤١) فى (ب) : الأعراض .

ما يلحقه من المكاره والأعراض[٢٤٢] ، حتى لابس العقلاء[٢٤٣] المكاره في الدنيا لأعواض قصدوها للحال دون العقبى ، وشرب الطبيب الدواء ، لمـا في عاقبته من الشفاء ، وكان ذلك وان كان مكروها عند أولى العقول رضيا ، وراود المريض شربه كأنه أصاب زلالا .

وسبب مقام الجزع الجهل بالأبدال ، فما اصطبر عاقل لدواء جهل من عاقبته[٢٤٤] الشفاء ، ولا لابس حزنا لم[٢٤٥] يؤمل نفسه (فيه)[٢٤٦] اصابة[٢٤٧] ، ولا أجهد[٢٤٨] نفسـه بدعاء لم يرج منه اجابة ، ومتى أكره عليـه[٢٤٩] جزع ، ولم يفرح[٢٥٠] به حتى شكا وولول[٢٥١] وبكى . وهل جزعه وشكواه — لو عقل المحكوم عليـه كرها — الا مما يزيد بلواه ؟ فما الحكم من الحاكم يتبدل بجزعه ، وانما يزيده الجزع ضعفا ، وعليـه حمل القوة ، فيزيد في ضرره .

فسبحانه من ملك تمت نعمته ، وعمت رحمته ، حتى لا يخلو عبد عنهما بحال[٢٥٢] ، واستبان سبيله ، واستنار دليـله ، فلم يعدمهما ذو عقل وبال ، فله الشكر على أقسامه ، فما وجدنا قسما خارجا عن انعامه ، والا فالصبر ، فما[٢٥٣] يعمى عن العوض صدر[٢٥٤] ، الا ما أعمى بالكفر ، والعياذ بالله من عمى القلوب ، وضيق الصدور ، والمصيبة في الدين ، والبينونة عن المسلمين ، والصلاة على محمد وآله أجمعين .

* * *

---

(٢٤٢) في (ب) : المكاره والاعواض . والمراد بالاعراض : الحوادث .

(٢٤٣) في (ب) : حتى ليسر العقلاء .

(٢٤٤) في (ب) : لرواج جهل من عاقبته . وفي (م) : للدواء .. من نسخة ثانية .

(٢٤٥) في (ب) : جرما ، خطأ ، وفي (أ) : حزيا ، تصحيف . واخترنا ما في (م) من نسخة ثانية .

(٢٤٦) سقطت من (ب) .

(٢٤٧) في (م) : اصابته . من نسخة ثانية .

(٢٤٨) في (ب) : ولا جهد نفسـه .

(٢٤٩) أي على الدواء أو تحمل الأحزان .

(٢٥٠) في (أ) : ولم يقنع به .

(٢٥١) في (ب) : شكا وولى .

(٢٥٢) والرحمة العامة التي لا يخلو منها عبد كالمـاء والهواء والشمس والاقتدار على المشي وضمان الكفاية قدر الحاجة وغير ذلك .

(٢٥٣) في (ب) : فيما يعمى .

(٢٥٤) المراد بالصدر ما في الصدر وهو القلب . مجاز .

كتاب الأمر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن عظم قدره فلم يحد ، ونفذ أمره فلم يرد ، ولم يبق فى (يد)[1] أحد أمر ولا نهى ولا اطلاق ولا خطر .

والصلاة على من قام بأمره بلا مداهنة ، ونابذ الكل بلا مهادنة[2] ، حتى أتاه اليقين ، وعلى آله أجمعين ، فكمل الدين بشريعته ، وختم الأمر على طريقته ، فلزم المـأمور[3] معرفة الأمر ومعرفة الأوامر ، والمسارعة اليها ، والانتقال الى حدودها ، فهن محن (أربع : ثنتان عبودية ، وثنتان عبادة)[4] ، تعلقت بقسم أنه مأمور ، لأنه (لمـا ثبت أنه)[5] عبد فقير لا يملك شيئا ، ثم رآه يبسط يده الى حوائجه ، وينطلق فى مناهجه ، على ضرورة أن له ذلك بأمر الملك[6] الغنى ، ولزمه بعده أن يعرف الأوامر بحدودهـا ، ليمكنه العمـل بهـا ، والوقوف بحدودها[7] .

فأما معرفة الأمر بالأوامر فمن طرق أربعة : المنهاج المشروع ، وصاحبه ، وسهولته ، وقربه من المنزل .

أما المنهاج[8] المشروع فهو شريعة الاسلام ، مشتملا على مصالح العباد ، فى أمور المعاش والمعاد ، والعبد بقواه عاجز عن بلوغ مداه ، (وهو)[9] دليل على أمر عالم لا سبيل الى علمه[10] ، وحاكم حكيم فوق

---

(١) سقطت من (ب) .
(٢) نابذ الكل : حاربهم . والمهادنة : الهوادة .
(٣) فى (أ) : ولزم المـامور .
(٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٦) فى (أ) : بأمر المـالك الغنى .
(٧) فى (م) : لحدودها . من نسخة ثانية . وفى (أ) ، (ب) : بمحدودها .
(٨) فى (أ) : اذ المنهاج المشروع وهو . .
(٩) سقطت من (أ) .
(١٠) فى (ب) : لا على سبيل علمه .

ما يخطر بوهمه ، وقد فقد هذه الحكمة فى الآباء والجدود ، فعدهم من العبيد .

فتأمل فى الأرض والسماء ، ففقد فيهما كل صفات ذى العلم ؛ وأمارات ذى الحكمة[11] والحكم ، فآمن بعالم حكيم ، دبر الكونين المحسوسين فسخر ، ثم ابتلى العالم المميز الذى سخرهما له فنهى وأمر .

ثم ينظر فى صاحب المنهاج وهو الرسول المبعوث اليه ، صلى الله عليه وسلم فيجده صاحب آية عجز البلغاء عن معارضته ، والعقلاء عن مناقضته ، كلام على غير وزن الشعر ، وفوق نظم النثر ، مبانيه فصيحة ، ومعانيه بليغة ، باين فى تفصيله كل كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم)[12] فى فصوله ، اذا قرأته طمعت فى مثله ، فاذا قصدت حصرت عن قوله ، فاق بتأويله وهو قصد الكتب كلها وهى فوق العد ، ألزم صاحبه والناس ما كرهته النفوس من مخالفة الآباء ، ومجادلة الأقارب ، ومجانبة الأصدقاء ، ومنابذة الأجانب ، وهجرة الوطن والمال والأهل ، وقتال أهل الجبل والسهل ، واختيار الفقر وتخيير أهله على ذلك ، ماله من الناس من أجر[13] هنالك ، مع شهادة عليه بما كان يكون لولا العصمة ، ويجب الستر عن مثله لولا الحكمة فقال : « **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا** »[14] .

وقال : « **وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** »[15] الآية . فأظهر عليه ما كان ستره ليكون فعله شريعة لأوليائه ، ما تلون قصده وقد تلونت[16] به الأحوال كما تتلون همم الرجال ، من استكانة فى قلة[17] ، واستكبار فى منعة[18] ، بل كان أقوى ما يكون اذا انفردوا عنه ، اذ يرى اذا توحد خرج الى بدر الصغرى وقد قعد أصحابه ، وثبت يوم حنين وأحد وقد تمزقت أسبابه .

---

(١١) فى (ب) : ذات الحكمة .
(١٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٣) فى (ب) : من آخر .
(١٤) الاسراء : ٧٤
(١٥) الأحزاب : ٣٧
(١٦) فى (أ) : وقد تلون .
(١٧) فى (أ) : فى قلته .
(١٨) فى (أ) : فى منعته .

فيعرف بالكلام المباين سائر الكلام ، والسيرة المباينة سير الأنام ، أنهما ليسا من طريق قوى العادات فى الورى ، لكنهما من العلى رب القوى[١٩] ، لاستحالة فعل الجزء[٢٠] ما بال الكل عنه عجز[٢١] .

فاذا عرف الأمر ببرهانه[٢٢] ، ومن وصل اليه الأمر على لسانه ، تأمل فى المنهاج[٢٣] فيجده سهلا سمحا حنيفا ، عدلا وسطا مرضيا[٢٤] ، لا يتعب فيه انسان ، ولا يكسل عنه كسلان ، فانها صلوات خمس فى اليوم والليلة ، ما تضعف عنها نفس على قدر وسع الجبلة ، اما قائما واما قاعدا واما على جنب ، ما ينقص فى ثواب ، ولا يزاد فى ذنب ، وصوم شهر من جملة الشهور على العاقلين البالغين الأصحاء الحضور ، وأما الزكاة والحج فلا يجبان على فقير ، فان لم تتعب بحفظ المـــال أو جمعه[٢٥] ، لم تلزماك[٢٦] بشرعه . ثم بعد الصلاة والصوم كل الشريعة مبنى على الترك والنوم .

أيكسل عبد[٢٧] عنهما لرب كونه وصوره ، ثم علمه وأقدره ، ثم وعد له بهما العتاق والملك ، والولاية والملك بلا نهاية آجلا ، وعلى أحسن أحدوثة وتمام كفاية عاجلا ، وماله من الناس فيهما من منازع : ولا مجادل ولا ممانع ، اشتغالا بالدنيـــا لمتعة مضمونة[٢٨] لا تقيـــم ، وكفاية مقدورة (مخزونة)[٢٩] لا تريم[٣٠] ، والناس كلهم دافعوه عنها[٣١] ، ومنازعوه فيها ، ما هـــذه الا صفقة خاسرة ، بعد حجة ظاهرة .

---

(١٩) فى (ب) : من رب العلى القوى .

(٢٠) فى (ب) : فعل الحر .

(٢١) فى (ب) : ما بال كل . وفى (أ) : ما بالكل . وما فى (م) اوضح .

(٢٢) فى (أ) : ببراهينه .

(٢٣) فى (أ) : فى المناهج . واخترنا ما فى (أ) ، (م) .

(٢٤) فى (ب) : عدلا وسطا سمحا مرضيا .

(٢٥) فى (أ) : بحفظ المـــال وجمعه .

(٢٦) فى (ب) : لم تلزمك .

(٢٧) فى (ب) : تواكل عبد .

(٢٨) فى (م) : لمتعة مفرزة . من نسخة ثانية .

(٢٩) سقطت من (ب) .

(٣٠) فى (أ) : ما تريم .

(٣١) أى الدنيا .

فاذا أيقن بسهولة هـذا المنهاج ، وصعوبة ما الى الدنيـا من معراج[٣٢] ، عادى نفسه وما ملكه ، وأقبل على الطريق فسلكه ، فما خطا الا خطوات حتى حط[٣٣] بالمنزل الرفيع ايوانه ، البسيط[٣٤] ميدانه . فحضرة الله أعز مكان ، وأبسط ميدان ، وما اليهما للقاصد مسافة ، وصحبة الله أهنى صحبة[٣٥] ، وأعلا قربة ، وما فيها للمخلص من آفة ، وللعبد هذه الصحبة بلا (حساب ، وهذه الحضرة بلا)[٣٦] حجاب[٣٧] فى تلك الحضرة ولا حجر حجاب .

فيعلم عند ذلك أنه ما شرع هـذا الطريق على السهولة والاستقامة والقرب الى أعلا المنازل وأبعدها عن الحواس الا العالم الحاكم[٣٨] بغير مثال وقياس ، ثم شاهد الحق بسره ، وأيقن بعد العلم (بحكمه)[٣٩] فى أمره ، واستغنى عن المحاجة ، فقد صار حجة فى حاله ، وسكت عن التذكير فقد أصبح عبرة بفعاله .

أعاقل يبيعها بحضرة ملوك الأرض واليها مسافات بعيدة ذات طول وعرض ؟ ودونها حاجب[٤٠] لا يأذن الا بنـوال ، وحجاب لا يرفـع الا بأموال ، وبعد ذلك ما لها من صحة فمن عاداتهم الاستطراف . وفى هممهم الاستنكاف[٤١] ، وما المستطرف صاحب ، ولا المستنكف راغب ، الى وجوه من الفساد ، فما هم الا أباق عباد ، مع ما دعاه الرب جلت قدرته اليه بأكرم رسول ، وأحسن كتاب ، واستغنى عنه الآبق الذى خاله ملكا ، وتحجب عنه بالعبيد والأبواب ، ثم لا يروج عليـه[٤٢] الا المعيب ، ولا يقرب منه الا المريب ، اذ لا وصول اليه الا بمن حوله من الرجال ، وانهم قط لا ينصحون لذى كمال ، مخافة أن يبدلوا به

---

(٣٢) فى (أ) : من المعراج .

(٣٣) فى (أ) و (ب) : ان حط . واخترنا ما فى (م) .

(٣٤) أى : المبسوط الواسع .

(٣٥) فى (ب) : وصاحب الله أغنى صحبة .

(٣٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٣٧) فى (أ) : بلا زجر ، وفى (م) : حجب . من نسخة ثانيـة .

(٣٨) فى (أ) : العالم الحكيم . (٣٩) سقطت من (أ) .

(٤٠) فى (أ) : ودونها حجاب . (٤١) فى (أ) : الاستكشاف .

(٤٢) أى : الملك .

لو صدقوا فيه ، وان اتفقت له فرصة فانتهزها[٤٣] للوصول اليه لزمه ان استطاب المقام لديـه ألا ميزد خطأه ، ولا يظهر غيبه عليـه ، فيرجع عنه بعمى بصر القلب ، وخرس لسان العقل ، وكتف قلبه مثقل بمجان اترسس[٤٤] بها عن سهام الأعداء ، وقدم عقله حسير في الفرار عن حسد الأوليــاء .

فجانبهم ان كنت على كمال (الى)[٤٥] البر الكامل ، ودع الجهال الجواهل (للجاهل)[٤٦] ، فالشكل الى الشكل أميل ، والجنس بالجنس أوصل[٤٧] . وبلغنا عن معاوية أنه سئل : كيف مال الناس اليك وعلى رضى الله عنه بفضائله عليك ؟ فقال : ان أنوار الناس لم تبلغ نوره ، والشكل الى الشكل أميل .

فان جهلت هـذه الطريقة مع وفور عقلك متعلمها من البهائم ، وتأمل فى الأنعام السوائم ، هل اجتمعت أضدادا وان كن أفرادا ؟ فانك ما باينتها[٤٨] بطبعك ، وانما باينتها بعقلك ، والله تعالى ما رزقك العقل الا لترد سفه الطبيعة ، لا لتزيد سفها لم يكن فى الطبائع شريعة .

فاذا عرف الأمر وجب عليـه العمل[٤٩] بأمره ، فعاج[٥٠] الى معرفة الأوامر وهى أقسام[٥١] أربعة : العبادات البدنية ، والمـالية ، والمعاملات المـالية ، والنفسية[٥٢] .

فالأولان حق الله المجيد ، والآخران حق العبيد .

حكم الحكيم دقت حكمته ، وجلت نعمته على هـذا العالم بالابتلاء لحكمة الجزاء ، فعلق بقاء أنفسها بالأموال ، وبقاء جنسها بازدواج

---

(٤٣) فى (ب) : انتهزها .

(٤٤) الكلمتان غير واضحتان فى (ب) . والمجان جمع مجن . وهو الترس يتقى به المحارب ضربات السيوف والرماح .

(٤٥) سقطت من (ب) . (٤٦) سقطت من (ب)

(٤٧) فى (ب) : بالجنس افضل .

(٤٨) فى (ب) : ما ماثلتها .

(٤٩) فى (أ) : ووجوب العمل عليه .

(٥٠) فى (ب) : لعاج . وعاج : رجع وعاد .

(٥١) فى (أ) : وهن اقسام . (٥٢) أى المعاملات النفسية كالنكاح .

النساء بالرجال ، توفيرا على النفس حظها فى دعائها الى جمع الدنيا ونعمائها ، والى مخالطة[٥٣] بناتها وأبنائها ، وقرن أسبابها بشهواتها الطبيعية لتكون باعثة عليها ، وسابقة اليها ، وما خلقهم لذلك ، بل ليوحدوه ، ثم ليعبدوه بأمره على خلاف الطبع ، معرضين عما تدعوهم[٥٤] اليه الشهوات الا بالشرع ، فيكونوا مبتلين ، تبارك الله أحكم الحاكمين .

وعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى ، مكان تعليق ملك الحاضرة بالشهوات[٥٥] والهوى ، ثم شرع العقوبات مكروهة بالطبائع ، لتكون زاجرة لهم عن طبع النفوس [عادلة بهم] الى موجب الشرائع[٥٦] ، مكان الشهوات الداعية الى نفع العاجل ، الزاجرة عن الآجل .

فالعقوبات زواجر[٥٧] ، وفيها معنى التطهير عن آثام الارتكاب والافتراء[٥٨] ، لكن بشرط الالتزام والانتهاء[٥٩] ، لا أنها أصل فى باب الابتلاء ، وانما الأصل ما ذكرناه من الابتداء .

وانما مثل العقوبات مع العبادات مثل الأدوية مع الأغذية ، فالأدوية ليست مما دعت الطبائع اليها على الابتداء ، ولا مما تعلق بها فى الأصل البقاء من جملة الغذاء ، ولكنها زواجر عن الافراط فيها[٦٠] ، و [عن] التناول فوق الكفاية منها ، لما أنها فى طباعها ومذاقها مما تنفر النفوس عنها[٦١] ، وتتقذفها الطبائع[٦٢] ، وفيها معنى التطهير لأمراض فضول الغذاء ، ولكن الاحتمال والاحتماء .

فنشء الأغذية[٦٣] لما فيها من الاصلاح بشرط الحمية فى محل الأدوية[٦٤] وعلى الابتداء ، و [الأدوية] على الابتداء ليست

---

(٥٣) فى (ب) : والى مخالفة .
(٥٤) فى (ب) : عما تدعوه .
(٥٥) فى (أ) : بالشهوة .
(٥٦) فى (أ) : الى مواجب الشرائع .
(٥٧) اى : ان العقوبة مشروعة جزاء ، لا ابتداء ولا ابتلاء أصالة بخلاف العبادات .
(٥٨) آثام الافتراء كقذف المحصن مثلا .
(٥٩) أى : بشرط عدم الاصرار ، ومن هنا لم تكن أصلا ، فالأصل هو مخالفة محبوب النفس ، وذلك ظاهر فى الأمر كله والنهى كله .
(٦٠) أى : فى الأغذية والأشربة .
(٦١) فى (أ) : منها النفوس .
(٦٢) فى (ب) : وتتقذفها الطباع .
(٦٣) فى (أ) : فتشاكل الاغذية .
(٦٤) فى (ب) : فى محل الاجزية .

معدودة[٦٥] فى الغذاء ، فكذلك العقوبات تشاكل العبادات لما فيها من التطهير ، بشرط الانتهاء فى محل الجزاء ، وعلى الابتداء ليست معدودة فى أقسام الابتلاء ، بل ابتلى الله (تعالى)[٦٦] العبد بالعبادات بعد ابتلاء[٦٧] النفس[٦٨] بالمعاملات ، من مالى وبدنى . فالمالى ، يتأدى بالمال ، والبدنى ما يتأدى بالبدن ، والمالى تجزىء فيه النيابة ، لأنه ابتلى فى اخراجه بالنقصان ، وحصوله بيده وبيد غيره سيان ، والبدنى لا نيابة[٦٩] فيه ، فقد ابتلى بشغل[٧٠] نفسه فى طاعة ربه ، وانه يفوت بنيابة غيره .

ثم (ان)[٧١] الله تعالى شرع المعاملات لتعينه على (تحقيق)[٧٢] معنى العبادات بزيادة العبيد[٧٣] ، وتقوية الأجسام بالنفس شرع[٧٤] فى العبادات لتعينها على تحقيق الدنيا بكسب المحمدة من الخواص[٧٥] والعوام ، تحقيقا لمعنى المحنة والحبس ، والتسوية من حيث الظاهر بين حظ الروح والنفس .

فصارت العبادات كلها مشروعة للابتلاء بخلاف هوى النفس والطبيعة ، ولن يتحقق معنى الابتلاء فى الأداء اذ ذاك فعل العبيد ، فأما الوجوب فبحكم[٧٦] الحاكم المجيد ، فصارت الاقامة مطلوبة من المخاطبين بالعبادات لا محيص[٧٧] (لهم)[٧٨] عنها الا بأنفسهم فيما لا يحتمل النيابة ، اذ بالانابة[٧٩] منهم فيما يحتملها[٨٠] (ما)[٨١] لابد لهم منها[٨٢] .

---

(٦٥) فى (أ) : غير معدودة .

(٦٦) سقطت من (ب) .

(٦٧) فى (أ) : بعد ما ابتلته .

(٦٨) فى (م) : النفوس . من نسخة ثانية .

(٦٩) فى (ب) : لا ينالة .

(٧٠) فى (أ) : بشغل نفسه .

(٧١) سقطت من (أ) .

(٧٢) سقطت من (ب) .

(٧٣) فى (م) : بكثرة الاعداد . من نسخة ثانية .

(٧٤) فى (أ) : تشرع .

(٧٥) فى (م) : من الخاص . من نسخة ثانية .

(٧٦) فى الأصول : نحكم . واخترنا ما فى (م) .

(٧٧) فى (م) لا مفر . من نسخة ثانية .

(٧٨) سقطت من (ب) .

(٧٩) فى (أ) : أو بالانابة .

(٨٠) فى (ب) : فيما يحتمها .

(٨١) سقطت من (ب) .

(٨٢) فى (أ) : لابد لهم عنها .

كما أن الحكمة فى العقوبات[٨٣] لما كان معنى الردع لم ينفك من أقيم عليه من ذوق ما يكرهه الطبع ، فتبين للعبد أن عمله لا يعمله أحد من الورى ، وبذلك نطق الكتاب : « **وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى** »[٨٤] . فيجتهد فى تحصيله قبل أن تخطفه[٨٥] أيدى المنون ، وهو على مطى الأمل[٨٦] سائقا بسوط الظنون .

وأما المعاملات فالمالية منها لبقائه مدة مهله ، وتلك الفائدة حاصلة بغير عمله مما خلق الله[٨٧] مباحا له من خير[٨٨] ، أو مما خلق بسبب من غيره ، فلا يشغلن به قلبه ولا يعده خطبا[٨٩] .

وأما البدنى من النكاح فان لم يقم ما كان يكون منه بغيره فما عليه بأس ان انقطع النسل وهلك الناس ، ولا يميلن[٩٠] اليه اذا خاف فيما عليه خللا ، بل مال اذا لم يخف على سبيل الترحم على الجنس متنفلا .

ثم العبادات فى حكم الابتلاء على قسمين : فى معنى رياضة ، وخدمة . فالخدمة ثمرة الرياضة ، والملكة والولاية ثمرة الخدمة ، كالدابة تراض لتصلح لركوب الملوك وخدمتهم ، ثم يجرى عليها وظائف دواب نوبته ، وكالأمير يمتحن كثيرا من قومه لفتح البلاد[٩١] ، وقمع العدا ، لم يقربه للخدمة والنجوى ، فاذا صلح لهما صرفه فى خلعة الوزارة على نسبة الإمارة .

فعلى مقدار حسن الرياضة حسن الخدمة ، وبقدر قبول الخدمة تجب الخلعة ، والصوم[٩٢] والحج والزكاة والجهاد وكل العبادات فى معنى رياضة العباد الا الصلاة ، فانها محض عبادة على بساط قربه ، فاذا صلح لها صرف الى دار الجوار وأرض الملكة ، ولهذا كانت الصلوات الخمس عهد الله لادخال الجنة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجد فيها قرة العين[٩٣] .

---

(٨٣) فى (أ) : من العقوبات . (٨٤) النجم : ٣٩ ، ٤٠ .
(٨٥) فى (أ) : تختطفه . (٨٦) فى (أ) : على مطى العمل .
(٨٧) فى (م) : فيما خلق الله . من نسخة ثانية .
(٨٨) فى (أ) : من خيره .
(٨٩) فى (أ) : فلا يشتغلن به قلبا ، ولا يعدنه خطبا .
(٩٠) فى (أ) : فلا يميلن . (٩١) فى (أ) : بفتح البلاد .
(٩٢) فى (أ) : فالصوم . (٩٣) فى (أ) : للعين قرة .

أما يرضى العبد سائر عباداته لا تتأدى[٩٤] الا بغير الله . من بيت (فى)[٩٥] الحج بالزيادة[٩٦] وفقير فى الزكاة بالميرة ، ونفس فى الصوم تقهر بالكف عما تعلق به قوامها ، وبه يتأدى صيامه ، والصلاة لا يتأدى[٩٧] (فيها)[٩٨] الا بالله العظيم كالخدمة اسم لا يتأدى الا بالمخدوم .

وكذلك سائر العبادات تتأدى بما لا يعرف مثله فى الشاهد خدمة ، ولا يستجاز نحوه على بساط القربة ، بل أركانها تتأدى بما يكون رياضة للنفس فى مخالفة شهواتها ، ومنابذة اراداتها ، كالصوم تؤديه بالكف عن الشهوات الطبيعية من أكل وشرب وجماع ، التى هى أصول ما فى الدنيا من متاع وان فعل ما ينافى الخدمة ، وينفى عن بساط القربة من الجدال[٩٩] بلا حق ، والكلام بغير صدق ، وجميع أحوال الدنيا التى تضاد التقوى[١٠٠] ، فانما الأحسن[١٠١] له أن يقرن الكف عما لا يعنيه بالكف عما عناه من المفطرات فصار معنى الرياضة أصلا ، ومعنى الخدمة فرعا ، كيلا يخلو الأصل عن ثمرته ، والسبب عن فائدته[١٠٢] ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الغيبة تفطر الصائم » . أى : تذهب ثوابه ، وتصرم ثمرته ، وهو فى مقابلة ما يدعو الطبع الى الحمية عن الغذاء لطلب الشفاء .

وكذلك الحج تؤديه بالوقوف على فناء بيت الله بعرفة ثم بالمزدلفة ، ثم القربان[١٠٣] بمنى ، ثم الطواف حول بيت المولى . وابتداؤه بفرقة الأهل والوطن بوداع ، للوصول[١٠٤] بعد طلوع السفر الى هذه البقاع[١٠٥] ، وما هذه الأمور كلها الا على سبيل الرياضة لنفسه على خلاف شهواته فى حب وصال السكن ، والمقام بين الأهل والوطن ، وهى فى مقابلة حب الأسفار اذا كبرت النفوس وعلت الهمم ، وسطت الآمال

---

(٩٤) فى (ب) : لا ينادى . (٩٥) سقطت من (ب) .
(٩٦) فى (ب) : الزيارة . (٩٧) فى (ب) : لا ينادى .
(٩٨) سقطت من (أ) . (٩٩) فى (ب) : من الخذلان .
(١٠٠) فى (ب) : التى لا تضاد التقوى .
(١٠١) فى (أ) : وانما الأحسن .
(١٠٢) فى (أ) : عن عائدته . (١٠٣) فى (ب) : ثم القران .
(١٠٤) فى (ب) : الوصول .
(١٠٥) فى (م) : تلك البقاع . من نسخة ثانية .

لطلب أنفس الأموال[١٠٦] ، ونيل عظام الأعواض[١٠٧] من الملوك والوقفات على أبوابهم ، اظهارا لصدق اعتقاداتهم ، بتحمل مشقة الأسفار[١٠٨] على فراق أهليهم وأوطانهم وأسبابهم ، وتجرع كأس المذلة بالوقفات والتردد فى تلك المقامات ، ليتوصلوا بما يظهر منهم[١٠٩] الى بساط القربة ، ويصلحوا لاقامة مرضى الخدمة .

فما يكون قبل الوصول الى ملكهم رياضات غير متصلة[١١٠] بالملك فوائد تلك المعاملات[١١١] حتى كانت تلك الأعمال من كثير لا يشعر بهم صاحب السرير ، والخدمة اسم لا ينفك عن المخدوم ، وغير صالح اثبات هـذا الوصف للملك الا لمن هو عبده معلوم .

فعلى هـذا[١١٢] تحقيق معانى العبادات للرب وان لم يقع شيء منها[١١٣] على غيب ، كما شبهنا مكة بالحضرة ، والكعبة بالايوان ، تعالى الله عن تحديد مكان له فما له من مكان ، بل كان ولا مكان ، فخلق المكان فبقى على ما كان ، فدل هـذا البنـاء على الرياضة ، ودل تأديها مع أعمال الدنيا على أنها ليست بعبادة[١١٤] ، وانما ندبنا الى تحصيل معانى الخدمة من التهليل (والدعاء)[١١٥] والثنـاء والتلبيـة[١١٦] والدعاء ، ليتصل بالرياضة معنى الخدمة ، وتتزين النخلة بعد عثاكيلها[١١٧] بالثمرة .

وكذلك الصدقة يؤديها بازالة ملكه الى الفقير على سبيل الايثـار خلافا لطلبه فى الاستئثار ، مع ارتكاب ما ينـافى معانى الخدمة على ما ذكرناها فى الحجة ، الا على سبيل الأدب والسنة ، وهى فى مقابلة ما تأمره النفس بالجود[١١٨] فى شهواتها العاجلة .

---

(١٠٦) فى (أ) : نفيس الأموال .
(١٠٧) فى (أ) : عظام الأغراض .
(١٠٨) فى (أ) : مشقة السفر .
(١٠٩) فى (ب) : بما يظن منهم .
(١١٠) فى (أ) : غير متصل .
(١١١) فى (ب) : تلك المقامات .
(١١٢) فى (أ) : فعلى ذلك .
(١١٣) فى (أ) : لم يقع شيء فيه .
(١١٤) فى (ب) على ما ليست بعباذة .
(١١٥) سقطت من (ب) .
(١١٦) فى (أ) : والتلبية والثناء .
(١١٧) العثاكيل : جمع عثكول وعثكال ، وهو فى النخل بمنزلة العنقود فى الكرم .
(١١٨) فى (ب) : تامره النفس بالوجود .

فاذا آل الأمر الى الصلاة ألزم العبد شرائط الخدمة فى الشاهد من التطهير[١١٩] من أنجاسه ، والتزين بلباسه ، ودخول مكان خاص للرحمن ، ثم استقبال الكعبة مقام جهة الوجه للملك بلا جهة[١٢٠] .

واذا شرع فيها لم تتأد الا بما يحقق[١٢١] معانى الخدمة من قيـام على استقبال واستقامة ، وكلام يليق بتلك المقامة ، وتذلل بالركوع ، وتخشع بالسجود[١٢٢] ، وسؤال على الجثو ، ما تحل فيها التفاتة ، ولا لغير الله حركة[١٢٣] ، ثم يتصل بهذه[١٢٤] المعانى التى هى خدمة معانى الرياضة فى مخالفة [العبد] شهواته الداعيـة الى خدمة الكبراء بالأفعال ، من قيـام وانحناء وسجود وقعود ، وبالأقوال من شكر وثناء وتمجيد وتحميد .

غير أن هـذه المعانى[١٢٥] فيها أتباع ، والتى ذكرناها أصول ، حتى ارتفعت بأضدادها[١٢٦] من مقول أو مفعول لتجنى [معانى] الخدمة ، التى هى ثمرة من أصلها . فاحسن ما تكون القطوف على غصنها ، وفى ذلك تأويل قول الرسول عليـه الصلاة والسلام : « حبب الى من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة » ، لأن الكريم من قوم الملك العظيم من بينهم الصالح لنشاط القرب[١٢٧] والنجوى ، ولا تقر عينه بما ينـال فيما يراض ، ويمتحن [به من] الأسفار[١٢٨] وقمع العدا وان استولى عن من تحت يده من العباد ، ونفذ أمره فيما فتح من البلاد ، وانما تقر به عين المنقوص حاله من محل المشاهدة والشورى ، العاجز عن الخدمة على بساط القرب واللقيا ، حتى لم تعرف رتبه قرة العين فى الصلاة الا لسيد السـادات[١٢٩] ،

---

(١١٩) فى (أ) : من التطهر . (١٢٠) فى (أ) : لا له جهة .

(١٢١) فى الاصول : لم يتاد الا بما تحقق .

(١٢٢) فى (ب) : وتحشم بالسجود .

(١٢٣) فى (أ) : حركته . (١٢٤) فى (أ) : يتصل بهن .

(١٢٥) أى الرياضة .

(١٢٦) فى (ب) : بوادرها ، وفى (م) : بضوادها .

(١٢٧) فى (أ) : لتخلط القربة .

(١٢٨) فى الاصول : بالاسفار .

(١٢٩) فى (أ) : بسيد السادات .

خاتم النبوة والرسالة ، قائد قومه[١٣٠] للقيامة[١٣١] ، ولهـذا تكررت الصلوات في اليوم والليلة ، وتفرق غيرها[١٣٢] على الأحايين بنـاء على ما يكون من تكرار خدمة الوزير ونجواه ، وتأخر الأمر عن زعماء الجيوش وأمراء أطراف المملكة الى حين .

ولهذا اشتملت شروط الصلاة على معاني[١٣٣] الحج والصوم ، ثم فضلتهما بأركانها . فالرياضة لا تقصد الا لتحصيل الخدمة بها في أوانها ، وكانت[١٣٤] الخدمة زائدة على بنيانها .

فقال الأخ : كلام بديع (وفصل مريع)[١٣٥] ، ولكنك سكت عن جهاد المشركين ، وقتال الباغين ، وبه نطق القرآن ، وجاء من الرسول (صلى الله عليه وسلم)[١٣٦] البيـان[١٣٧] .

قلت : أما عرفت أنا في شرح أقسام الابتلاء الذى لزمنا على الابتداء ، وقتال الناس جاء من بعد زجرا[١٣٨] لهم على حربهم[١٣٩] ، وحملا [لهم] على سواء أمرهم ، كما وجبت العقوبات للزجر على من تولى عن الأمر ، وانما هـذا في مقابلة ما يبعث (نفوس)[١٤٠] شرار الرجال على طلب الدنيا بالقتال ، لينضم معنى الرياضة في مخالفة النفس الى طلب مصلحة الزجر ، كما كانت في عادات الظلمة طلب مصالح خزائنهم ومملكتهم بالسياسة والقتل والجلد ، فشرع الله تعالى لاقامة مصالح الشريعة أمثالها من كل حد ، ولذلك سقط الجهاد [عنك] اذا كفيته بغيرك[١٤١] ، وحد العبادة والابتـلاء الأصلي ما لا يسقط[١٤٢] الا بك .

فاذا علمت أيها الأخ أن الابتلاء بدني ومالي ، والمـالي عارض

---

(١٣٠) في الأصول : قوم . (١٣١) في (أ) : يوم القيامة .
(١٣٢) في (أ) ، (ب) : وتفرقت . واخترنا ما في (م) .
(١٣٣) في (أ) : الى معاني . (١٣٤) في (أ) : فكانت الخدمة .
(١٣٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) . والمريع : الخصيب .
(١٣٦) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٣٧) في (أ) : البنيـان . (١٣٨) في (ب) : جزاء لهم .
(١٣٩) في (ب) : على حريهم . (١٤٠) سقطت من (أ) .
(١٤١) في (أ) : كفيت بغيرك . (١٤٢) في (ب) : مما لا يسقط .

لا يأتيك الا بالنكاح[١٤٣] ، ويبين عنك[١٤٤] بالسماح ، فاكفف عن كسبه ، أو أتلفه[١٤٥] فى رضا ربه ؛ فلا تردد[١٤٦] على نفسك نصف الابتلاء ، اذا لم تقدر[١٤٧] على اسقاط ما لزمك بحق البدن على الابتداء .

أما يعلم العاجز عن نفقة نفسه أنه غير جائز له الطمع فى ثواب نفقة امرأته ؟ أو تزوج لتكون نفقته[١٤٨] على امرأته ؟ فانه للؤم على اغترار بلعل وعسى ، ثم اختداع بالأمل والمنى ، وما للعاقل أن يبنى[١٤٩] أمره الا على الحقيقة ، ولا أن يسلك الا ما نهج (الله)[١٥٠] له من الطريقة .

دع أيها العاجز عن نفقة امرأته ثواب صلة النكاح الى القادرين ؛ فما أنت فيما قصدت من الصادقين ، انما سعيك اليه سعى مخدوع من الطامعين ، فان لم تشعر وتزوجتها طمعا فى مالها ، ورغبا فى جمالها ؛ فبخلت بالمـــال عليك ، وطالبتك بالمهر والنفقة والسكنى ، وحبستك وهى تنطلق ، ونفسك فى غيره[١٥١] تنقلق[١٥٢] ، فلماذا منك امساكها وقد فركتك[١٥٣] ورضيت بالافتداء ؟ أم طلبت زيادة ؟ كلا ، بل كسبت بالطمع فى مالها حبسا ، ولتسكبن بجمالها قيادة[١٥٤] ليكون من منى النفس انطلاق المحبوب[١٥٥] وأنت فى الحبس .

انه لعمرى سوء اختيار ، فمالك اليها من اضطرار [الا] بالطلاق فى ملكك ، والا فأبشر بهلكك ، وما على الا البلاغ ، ان أنا الا نذير ، وما التوفيق الا بالله رب العالمين .

---

(١٤٣) أى : اذا تزوجت فقد وجب عليك حق مالى هو انفاقك على الزوجة ، ثم اولادك بعد انجابك .

(١٤٤) فى (ب) : ويفنى عنك .

(١٤٥) فى (ب) : اذ تلفه .

(١٤٦) فى (ب) فلا تزد .

(١٤٧) فى (أ) : ان لم تقدر .

(١٤٨) فى (أ) : او نكح لكون نفقته .

(١٤٩) فى (أ) : وما لعاقل ان يبنى .

(١٥٠) سقطت من (ب) .

(١٥١) في (أ) : غيرها .

(١٥٢) فى (ب) : تتعلق .

(١٥٣) فركتك ، أى : ابغضتك .

(١٥٤) القيادة : الوساطة بين الزانى والمزنى بها .

(١٥٥) فى (ب) : المجبور .

قال : زاد الله لصدرك نورا ، ولقلبك بصرا وسرورا ، لو مننت علي ، بل على أناس زمانك بكشف ما يتوصل به الى اقامة ما ابتلينا به علي وجهه من بيانك لشركت في ثواب المهتدين من البريـــة ، وفزت بتراث من تراث النبوة .

قلت : استجبيت دعوتك ، وأجبت[156] لك منيتك ، وانا بادئون بالرياضات ، وخاتمون بالخدمة بتوفيق من الله ورحمة ، وذلك من باب الاقامة ، فان العبد اذا عرف ما ابتلي به — ولابد له من فعله — تسارع الى اقامته من طرق أربعة : لعلمه أنه لا يعمله[157] غيره ، ولعلمه بما فيه من اظهار صدقه ، ورغبته في اكتساب شرف تلك المقامات ، ثم ثوابها في الآخرة . اذ معدوم في عادات العقلاء التكاسل عما لابد لهم منه حال الاقتدار فيبقوا[158] تحت وبال الترك ، وما بهم وسع الفرار ، وغير موجود فيهم كتمان الصدق واعلان الكذب في مقـــام التجربة للمجازاة على ما يعلم منهم حال المقدرة .

فاذا لم يستجز الكسل جد في العمل ، واذا لم يرض بالمذيق جاء بالصريح[159] ، اذ هو قادر على نوعي الكلام[160] فصيح ، فاذا كابرته نفســـه على ما عـــلم رغبتـــه في شرف المقام ترغيب نصيح ، فنبدأ بالصيام[161] .

فنقول والله أعلم : مقام الصيام مقام الصديقين ، ومقام المخلصين ، ومقام الواصلين بالرب بلا حجاب من المخلوقين ، ومقام الخلمة المخزونة عن أيدي الملائكة والناس أجمعين ، ومقام الأضياف ، ومقام استخدام الأشراف ومقام الرضا به .

أما مقام الصديقين فلأنه خالف شهواته الطبيعية بأمر ربه ، من جماعه وأكله وشربه ، وما الصدق لله الا في خلاف النفس ، وانه بقدر ما يدعو اليه الطبع ، وذلك تأويل قوله والله أعلم : « الصيام جنة » ،

---

(١٥٦) في (ب) : واجابت .
(١٥٧) في (م) : لا يعلمه . من نسخة ثانية .
(١٥٨) في (أ) : فيبتون . خطأ .
(١٥٩) المذيق : اللبن المخلوط بالمـــاء . والصريح : اللبن الخالص .
(١٦٠) نوعا الكلام : الصدق والكذب .
(١٦١) في (ب) : فيرغب بالصيام .

لأن شهواته تغتر بالجوع ، فيصير جنة عن طباعه ليثبت معنى الصدق(١٦٢) فى مخالفتها .

وأما مقام المخلصين فانه يتأدى(١٦٣) بالكف الذى لا يطلع عليه انسان ولا جنى ولا شيطان ، الا الملك الكاتب بأمر الرحمن ، وذلك تأويل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى يقول : الصوم لى وأنا أجزى به »(١٦٤) . وكل العبادات لله تعالى ، فدل تخصيص الصوم بالاضافة اليه على أنه(١٦٥) لا حظ لأحد فيه ، لعدم اطلاعهم عليه ، فاذا لم يطلعوا عليه سلم عن شرعة الرياء ، فخلص لله تعالى .

وأما مقام الواصلين بلا حجاب فلأنه ثمرة الاخلاص ، وهذا عمل مستور عن الجن والانس .

وأما مقام الخلعة المخزونة فلأن الجزاء (يكون الجزاء)(١٦٦) وفاق الطاعة ، وهذه الطاعة عن الكل مصونة ، وذلك تأويل قوله : « وأنا أجزى به » . فكل الأجزية من الله تعالى ، فدل تخصيص هذه الاضافة(١٦٧) الى نفسه على خروج رسول بين الله وبين عبده(١٦٨) .

وأما مقام الأضياف [فـ] ـلأنه خالف نفسه بأمر ربه جل وتعالى فى تناول ما يشتاق اليه(١٦٩) الناس مع القدرة فى الدنيا ، فيجازيه الله تعالى بأضعاف ذلك حين العسرة فى العقبى ، يؤتون بموائد يوم القيامة على ما جاءت به الأخبار حيث الناس فى الحساب ، وما وصلوا بعد الى ثواب ، وذلك أيضا تأويل قوله والله أعلم : « للصائم فرحتان : فرحة عند افطاره ، وفرحة عند لقاء ربه »(١٧٠) . أى : جازيناه عن الكف عن غذائه بفرحة زائدة فى فطوره قبل عشائه ، ما لم يكن ينالها لو تفكه

---

(١٦٢) فى (أ) : فيثبت معنى الصدق .

(١٦٣) فى (أ) : فلأنه يتادى .

(١٦٤) بعض حديث أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابو داوود والنسائى ومالك عن ابى هريرة .

(١٦٥) فى (أ) : على أنها .

(١٦٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(١٦٧) فى (أ) : تخصيص هذا بالاضافة .

(١٦٨) أى انه جزاء مصون لا بوساطة ملك ولا اى رسول آخر .

(١٦٩) فى (أ) : يستضاف له .

(١٧٠) بعض حديث أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه والنسائى ومالك عن ابى هريرة وفيه : فرحة عند فطره .

بغذائه ، ثم يخير منها[171] عند لقائـه والناس بعد فى الحساب[172] وما وصل أحد الى جزائه . فانما لهم ذلك فى الآخرة مقام الفطور قبل الصلاة فى العاجلة ، فيحل الصائمون يوم القيامة محل الأضياف ، والناس قد حلوا محل الخصوم ، ومن كان ضيفا لكريم خدمه الأشراف ، وما هم الا الملائكة ، فكم بين[173] خصوم قامت عليهم الملائكة موكلين طالبين ، وبين قوم أضياف قامت عليهم الملائكة المكرمين[174] راغبين .

وأما مقام الرضا به فلأن مقام الوصول بلا واسطة ، ومقام الاخلاص بلا رياء ، مقام الرضا بالعبد ، فكذلك[175] فكذلك مقـام الضيف ، وذلك تأويل قول النبى صلى الله عليـه وسلم : « ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[176] ، والله جل وعلا غنى عن (وصول)[177] الروائح الطيبة (اليه)[178] والمؤذية ، ولكن هـذا على مثال من رضى بانسان[179] وأحبه ، واستحسن كل ما ظهر منه أو رأى عليـه ، فكيف لا وانما غير رائحة فمه العبادة على الاخلاص ، وطيب أثرها مما لا يعرف بالقياس . هـذا للصائم الى كثير لا يخطر بالصدور ، ولذلك خص وقت فرض الصوم بالاضافة[180] الى الله تعالى من بين الشهور ، كما خص المسجد الحرام من بين الدور ، ثم صفدت فيه (مردة)[181] الشياطين تسببا لصيانة ما شرع مضمونا بالضمير ، وغلقت أبواب النيران ، وفتحت أبواب الجنان ، ليدل على أنه شهر العتاق عن السعير ، وخص بليلة هى خير من ألف شهر ، وذلك يربو[182] على أضعاف العمر ، ثم الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، ليدل على أن من أحياها مرة (بالطاعة)[183] وعصى كل عمره محاها بقدرها

---

(171) فى (ب) : يخبر منها .
(172) فى (أ) : والناس كلهم فى الحساب .
(173) فى الأصول : من قوم .
(174) فى (ب) : مكرمين راغبين .
(175) فى (أ) : وكذلك .
(176) أخرجه الجماعة عن ابى هريرة .
(177) سقطت من (ب) .
(178) سقطت من (ب) .
(179) فى (ب) : باحسان .
(180) فى (أ) : باضافته .
(181) سقطت من (ب) .
(182) فى الأصول : يربى .
(183) سقطت من (ب) . وفى (م) : بالطلعة . من نسخة ثانية .

وفاز بفضله[١٨٤] ، وذلك قول النبى عليه الصلاة والسلام : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » .

وأما الصدقة ففيها : مقام الجود ، ومقام الاحسان ، ومقام الكرم ، ومقام الرحمة ، ومقام المحبة ، ومقام الطهرة ، ومقام الشكر .

أما مقام الجود فلأن الصدقة لا تتأدى الا بازالة ملكه بغير سبب من المزال اليه ، وذلك [هو] الجود متى كشف عن معناه ، ووقف عليه . فأما من أعطى بسبب سابق ، أو بمعنى لاحق ، فما هو بجواد ، ولكنه معوض ومعتاض . قال الله تعالى فى صفة أبى بكر رضى الله عنه : **« وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . الا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى »**[١٨٥] .

وقال فى على رضى الله عنه وأهل بيته رضى الله عنهم أجمعين : **« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا »**[١٨٦] .

وأما مقام الاحسان فلأنه كفاه بماله مهمه فى دنياه ، ولم يثقله[١٨٧] بعوض توخاه ، (وهو[١٨٨] الاحسان)[١٨٩] متى تعرف معناه .

وأما الكرم فانه وحشى ما صيد الا بشرك ايثارك على نفسك بحظ مطلوب من مالك أو جاهك أو اقتدارك ، وانه لباب أحد مصراعيه من صبرك ، والآخر من فضلك ، فلن تجد من النفس طاعة الايثار الا بعد الحبس[١٩٠] فى سجن الاصطبار ، وذلك تأويل قوله تعالى : **« واذا مروا باللغو مروا كراما »**[١٩١] . أى صبرا عن الجواب ، وترك المناقشة فى الخطاب بفضل ركبه الله تعالى فيهم ، لا يعجزه عن مجاوبتهم ، وفى حكمة الشعر :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره   وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

---

(١٨٤) فى (أ) : وفاز بفضلها .
(١٨٥) الليل : ١٧ — ٢١
(١٨٦) الانسان : ٨ — ١٠ .
(١٨٧) فى (ب) : ولم ينقله .
(١٨٨) سقطت من (أ) .
(١٨٩) سقطت من (ب) .
(١٩٠) فى (ب) : بعد حبس .
(١٩١) الفرقان : ٧٣

وما فتحت[١٩٢] هـذا الباب الذى سميناه كرما الا بايثار جاهى ومالى ، فعلى المـال والجاه تدور أمور أصحاب الدنيا من الأقسام ، حتى لم تجد قسما منهم من الملوك والتجار وغيرهم الا (اذا)[١٩٣] تمت أحوالهم جاها ختموهـا بالكنوز العظام ، وبقدر ما يحب الرجل (صفة)[١٩٤] الكرم يدعو الى التصبر[١٩٥] على سنية الهمم ، وقد بلغنى عن كبير[١٩٦] من الملوك أنه قال : حبب الى الفقر حتى كأن الناس يتقربون الى بالذنوب • ولهذا نهينا عن التصدق بالخبيث الذى هان على النفوس (وأمرنا بالانفاق مما تحبه النفوس)[١٩٧] ، ليتحقق معنى التكرم[١٩٨] فى الجود به على الأمم •

وأما مقام الرحمة فلأنه أشفق على غيره حيث رجح حظه على حظه ، بما آل اليه أمر الدنيا بأسره •

فهذه مقامات محمودة بينه وبين العباد ، وبتلك الصفات ينادى ، وعليها يقام يوم التناد[١٩٩] ، فالدعاء يوم القيامة بأسماء الأفعال دون أسماء الآباء تحقيقا لمعنى المكفآت والجزاء • والمقامات الثلاثة بينه وبين ربه كما كانت الصدقة بين الله وبين العبيد[٢٠٠] ، اذ الاعطاء بأمر الله تعالى اخراج الى الله عز وجل ، وملك الفقير من ملك الله رزقا وصلة •

وأما مقام المحبة فلأنه ما لم يحب الله تعالى على الحقيقة لم يبغض الدنيـا ، ومن لم يبغض الحسـناء لخير منها لم يطلقهـا بلا عدوى[٢٠١] ، وعلى هذا التأويل لم يقبل النبى صلى الله عليـه وسلم الدنيـا ، واختار الفقر ، ومرن عليـه كبار الولد ، وما تنعموا باليسير[٢٠٢] •

---

(١٩٢) فى (أ) : وما نحت •

(١٩٣) سقطت من (ب) •

(١٩٤) سقطت من (ب) •

(١٩٥) فى (ب) : التصبرة •

(١٩٦) فى (أ) : عن كثير •

(١٩٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) • وفى (م) : مما نحبه من النفيس • من نسخة ثانية •

(١٩٨) فى (م) : الكرم • من نسخة ثانية •

(١٩٩) أى يقال : يا جواد ، يا محسن •

(٢٠٠) فى (م) : العبد • من نسخة ثانية •

(٢٠١) أى بلا طلب الى وال ليعديه على من ظلمه • يقال : استعديت الأمير على فلان • والاسم عدوى •

(٢٠٢) فى (ب) : وما تنعم باليسير •

وأما مقام الطهرة فلأن الاعطاء تطهرهم عن دنس الوصلة الذي كان فيهم [للدنيا] ، قال الله عز وجل : **« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »**[٢٠٣] . ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم والله أعلم : « الصدقة تطفىء غضب الرب » . لأن الله تعالى لا يغضب الا على ذنب .

وأما مقام الشكر فلأن الشكر بالقلب : أن يعرف النعمة [أنها] نعمة من الله تعالى ، و [الشكر] بالفعل : أن يصرفه الى من احتاج من عباد الله ، اذ الشكر واجب على العبد جزاء (وجزاء)[٢٠٤] الشيء بمثل ما كان ابتداء ، والعبد عجز عن مثله فى حق ربه ، فلم يبق الا الاقرار بقلبه ، لكن قدر فى حق عبيده على شكله ، فأخذ بحقهم[٢٠٥] بفعله .

فآل أمر المتصدق فى مقاماته بعد تمامها باعطاء الكل الى أول مقامات الفقير التارك للدنيا[٢٠٦] مختارا ليعلم أن الترك مع القدرة أعلى درجة من الاعطاء بعد الأخذ ، وأتم ايثارا .

هذا للمتصدق ، مع (ما)[٢٠٧] أنها تزيد فى العمر على ما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الصدقة تزيد فى العمر » . وتأويله والله أعلم : أن الله تعالى علم من أمره أنه يتصدق ، فقسم له من العمر قدرا ما لو علم أنه يبخل لقسم له منه شطرا ، أو لأنها تثمر حديثا حسنا فيبقى به حيا بعده بذكره[٢٠٨] ، فكأنه حى وان انقضى عمره . وأيضا فانها تشفى من المرض . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : داووا مرضاكم بالصدقة »[٢٠٩] . وتأويله والله أعلم : أن الله تعالى أمرض عباده ليكون كفارة لهم عن مظالمهم ، وتطهيرا لهم عن آثامهم ، فاذا تصدقوا طهروا وشفوا من أسقامهم . وتكون حصنا للأموال عن السرقة[٢١٠] على ما روى : « حصنوا أموالكم بالصدقة » . وتكون

---

(٢٠٣) التوبة : ١٠٣
(٢٠٤) سقطت من (ب) .
(٢٠٥) فى (أ) : فى حقهم .
(٢٠٦) فى (أ) : التارك الدنيا .
(٢٠٧) سقطت من (أ) .
(٢٠٨) فى (آ) : نكره .
(٢٠٩) اخرجه الدمياطى فى المتجر الرابح عن العرباض بن سارية نقلا عن الترمذى وابن ماجه .
(٢١٠) فى (ب) : من السرقة .

ستارا عن مكروه القبر ، ولباسا والناس عراة يوم الحشر ، ومركوبا والناس رجال ، وظلا والناس ما لهم من ظلال .

فالجزاء على شكل[٢١١] ما قدم العبد من المثال : المثال بشبيهه[٢١٢] من المثال ، قال الله تعالى فى حق مانع الصدقة : « **سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** »[٢١٣] .

وقال فى الكنز : « **يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** »[٢١٤] .

وقال فى الغلول[٢١٥] : « **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** »[٢١٦] .

فلما كان جزاء المنع على مثال الممنوع دل على أن جزاء الدفع على مثال المدفوع ، وقال عليه السلام : « سمنوا ضحاياكم فانها مطاياكم » ، ليعلم أن الجزاء على قدر الابتداء ، وقال تعالى : « **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله** »[٢١٧] . فالهاء كناية عن المقدم بعينه ، فهذه الخلع جزاء مقام الجود والكرم ، اذ الكريم الجواد فى كل مقام بجوده محروس ، وبكرمه معظم .

وأما الحج فله شبه بالصوم ، لما فيه من الكف عن محظورات الاحرام[٢١٨] ، غير أنه مباينه من حيث انه شرط فى الحج (لا)[٢١٩] يتأدى به ، وركن يتأدى به الصيام ، وله شبه بالصدقة لما فيه من بذل المال ونقصانه ، الا أنه ليس بعينها ، اذ فى الصدقة صرف المال الى الفقراء اخوانه ، وفى الحج صرفه الى نفسه وأعوانه . وله شبه بالصلاة لما فيه من الوقوف والطواف بالكعبة ، ولكن ليس بنظيرها لتأدى الحج مارا بعرفة بغير وقفة ، وتأدى الطواف منحرفا عن القبلة ، ولكن قضاء حق المكان فى الحج ركن بر ، وفى الصلاة شرط .

---

(٢١١) فى (ب) : الشكل . (٢١٢) فى (ب) : بشبيهه .
(٢١٣) آل عمران : ١٨٠ (٢١٤) التوبة : ٣٥
(٢١٥) الغلول : الأستئثار بشىء من غنائم الحرب دون اذن شرعى .
(٢١٦) آل عمران : ١٦١ (٢١٧) البقرة : ١١٠
(٢١٨) فى (أ) : محذورات الاحرام .
(٢١٩) سقطت من (ب) .

وفيه محل التهاون بالدنيـا ، ومحل الشجاعة ، ومحل العزم للقوى ، ومحل الصبر ، ومحل الخلوة ، ومحل الذكر ، ومحل الرجاء ، ومحل الفوز •

لأن من لم يتهاون بأحوال دنياه ، لم تجد نفسه [رغبة فى] الخروج مودعا أهله وماله ومغناه ، ومن لم يشجع قلبه لم يألف السفر فى المـأمن والمخاوف ، والمهالك والمتالف ، ومكة بين أيديها من كل جانب اختطاف واستلاب ، أو قتال وخراب ، والسلامة بلا عدة ندرة[٢٢٠] ، ومالها من عبرة ، وذلك تأويل قوله (صلى الله عليـه وسلم)[٢٢١] : « الحج جهاد » •

ومن لم يقو عزمه لم يتم له هـذا الغرض الخطير ، على خطر كثير ، وسفر مديد ، غير مرتدع عن خطبه ، ولا منقمع لصعبه ، مقبلا فى اعراض عن عواقب العاجلة ، معرضا فى اقبال على مواهب الآخرة ، ومن لم يستحل مذاق الصبر بعزيمة صبره بماله[٢٢٢] من الشفاء فى آخر أمره ، لم يقدم على معاوضة الحضر[٢٢٣] بالسفر ، ومبادلة السراء بالضراء ، ومرافقة الأجانب على خلاف ، مكان موافقة الأقارب على ائتلاف ، ولم يتحمل ذل القربة ، وضر الافتقار مكان عز الأسرة ويسر اليسار •

فأول مصراعى باب الصبر اختيارا من الشكر ، كما أن آخر مصراعى باب الشكر افتقارا من الصبر[٢٢٤] ، وانهما للغايـة[٢٢٥] فى مقامـات العبودية والعبادة ، والمعرفة والزهادة •

واذا فارق الأهل والمـال والوطن ، والأحباب والأولاد والسكن لوجه الله بمهجته أخلاه بينه وبين حضرته •

ثم ذكره بعيان الموقف الأصغر الموقف الأكبر ، وبالافاضة عنه

---

(٢٢٠) كان ذلك فيما مضى من الزمان اما الآن فالأمن والسلامة موفوران فى أى وقت •

(٢٢١) سقطت من (ب) •

(٢٢٢) فى (أ) : بعزيمة صدره لمـاله •

(٢٢٣) فى (أ) : معارضة الحضر •

(٢٢٤) أى : ان الصبر الاختيارى أوله شكر ، والصبر على الفقر آخره شكر •

(٢٢٥) فى (م) : للغاية . من نسخة ثانية •

الى منى راجين ، الاجابة للدعاء[٢٢٦] الى الحساب مهطعين ، وبزيارة البيت الآمن زيارة الجنة آمنين ، بل أكرم عبده بلقاء بيت ربه بلقائه بقلبه ، وأذاقه بكأس حبه ، فذهل عما قدم وأخر من أمره ، واستأنس عنده بذكره ، فرجا[٢٢٧] عند ذلك اللقاء ، فائـزا بالعطـاء . هـذا (له)[٢٢٨] مع ماله والله أعلم من سؤدد وزعامة يوم الحشر والقيامة ، فعلى قدر عزم المرء وصبره وشجاعته ونهوضه لعظام الأمور يسود الجماعة ، ويقود الجمهور .

وأما الصلاة فعماد الدين ، والأذان اعلان شعار المسلمين ، وانها لعلى مثال خدمة مشوبة بكرامة التقريب ، بعد حسن رياضة وتهذيب ، شاملة على معانى الجميع بأصولها والفروع ، وفيها محل الاعراض عن الدنيـا بواحدة ، ومحل الاقبال على الله (تعالى)[٢٢٩] بواحدة ، ومحل الصفوة ، ومحل القربة ، ومحل الدعوة ، ومحل النجوى ، ومحل التقوى ، اذا دخل محلا لصلاته ما لأحد فيه نصيب ، بأصحاب ما لهم فيه الى أمور من سبيل ، مقبلا على الله بوجهه ، متحرما بقلبه ولسانه ، مؤديـا لجميع أركانه[٢٣٠] ، صفا لله تعالى منه كل شيء بالخلوة عما سواه ، والتحرم عن كل أمور دنياه .

فاذا دعاؤه[٢٣١] مستجاب ، وغرضه مصاب ، ونجواه فيها مسموعة ، وتقواه عن الدنيا بقلبه مقرونا الى شخصه مرفوعة ، فكأنه وقد قرت عينه على بساط القرب ، وتنفس قلبه فى مضمار الصفوة ، وتعزز بسماع الدعوة ، وعجل له اللقاء الموعود ، وما شهد بعد اليوم المشهود ، ما يريم عنه براحا ، ولا الى غيره سراحا ، فاز بالمنعم فنسى النعيم ، وطار الى الآخرة وهو فى الدنيا مقيم .

فاذا اهتزت الهمة العاليـة لهـذه المقامات[٢٣٢] حثها بسـوط أعواضها[٢٣٣] حتى يستوى عليها .

---

(٢٢٦) فى (أ) : الاجابة للداعى .

(٢٢٧) فى (ب) : فرحل .

(٢٢٨) سقطت من (ب) .

(٢٢٩) سقطت من (أ) .

(٢٣٠) فى (أ) : بجميع أركانه .

(٢٣١) فى (ب) : دعاه .

(٢٣٢) فى (ب) : لهذه المقامات .

(٢٣٣) فى (ب) : بسوط عوارضها .

فالصلوات تكفر ذنوب الساعات ، وما فضل منها فى الأيام تكفره الجمعات ، وما فضل منها فى الشـــهور كفره الصيـــام ، وما فضـــل منها فى السنين كفره حج بيت الله الحرام .

فالصلاة كفارة الأصول ، وما سواها كفارات الفصول(٢٣٤) ، ولكل عبادة خاصية ما بينا(٢٣٥) ، لا تنال فى غيرها ، والله تعالى أعلم بمقادير خيرها غير أن الحج والأدلة(٢٣٦) قد دلت على أن الصلاة أخص بالله تعالى من بين الجملة ، وما على العبد أن يطلع على شرائط(٢٣٧) الثواب ، فذلك فضل من الله تعالى ، بل يطيعه متسارعا اليه بحكم العبودية ، فذلك من العبد عدل ، وانما ذكرناها ترغيبا للكسالى ، وتنبيها للسكارى ، وهداية للحيارى ، بل ابانة لفضل الله تعالى ، فانه الخالق ، ثم الهادى ، ثم الموفق للعمل ، ثم المجازى .

فمن صام جانب شهوات طبعه ، ومن زكى جانب شهوات ماله ، ومن حج جانب شهوات نفسه ، ومن صلى فقد طلق الدنيـا ، وقرت عيناه باللقاء على بساط النجوى ، وذلك تأويل قول الرسول (صلى الله عليـه وسلم)(٢٣٨) والله أعلم : « اذا أقبل العبد على صلاته(٢٣٩) أقبل الله عليــه » . ومن صام فقد تترس عن العصيان ، ومن تصدق فقد تبرأ عن الطغيان ، ومن حج فقد حقق عهود الايمان ، ومن صلى فقد مزق حبائل الشيطان متصلا بالرحمن ، وذلك فى قول النبى صلى الله عليــه وسلم : « ان الشيطان اذا سمع الأذان أدبر وله حصاص » .

أو نقول والله أعلم : من صام وهى العبادة المستورة وقى العذاب المستور فى القبور(٢٤٠) ، ومن زكى وهو الاحسان الى الناس وقى العذاب المشهور يوم الحشر ، ومن حج وهو ركوب الأهوال وقى هول المرور على الصراط ، ومن صلى وهى عبادة على بساط الاكرام دخل الجنة بسلام ، وذلك تأويل قول الرسول : « خمس صلوات كتبهن الله تعالى

---

(٢٣٤) فى (ب) : كفارات القول .
(٢٣٥) فى (ب) : على ما بينها .
(٢٣٦) فى (أ) : والدلالة .　　(٢٣٧) فى (أ) : على شريطة .
(٢٣٨) سقطت من (ب) .
(٢٣٩) فى (م) : الى صلاته . من نسخة ثانية .
(٢٤٠) فى (ب) : فى القبر .

على عباده فى اليوم والليلة ، من أتى بهن يوم القيامة كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة » •

أو نقول والله أعلم : ان من صام مال الى الوفاق ، ومن تصدق فقد تبرأ عن النفاق ، ومن حج أقام التقوى على ساق[٢٤١] ، ومن صلى عجل للجنة الصداق •

فاذا تسارع العبد بحق الألوهية ، أو بحكم العبودية ، أو رغبا أو رهبا الى الطاعة ، وعرف عظم الشأن ، رغب فى اقامة الحدود ، فتركها ظلم بزيادة كان أو بنقصان ، قال الله تعالى : **« ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون »**[٢٤٢] •

وقال : **« ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم »**[٢٤٣] •

وقال النبى صلى الله عليه وسلم وقد علم الوضوء : « الوضوء ثلاثا ثلاثا ، فمن زاد أو نقص فقد تعدى وظلم »[٢٤٤] •

ولهذه العبادات حدود للجواز والفساد ظاهرة[٢٤٥] ، وهى من باب الفقه ، ذكرناها فى كتاب « خزانة الهدى » ، وانما هذا الكتاب لبيان الحدود التى هى للقبول والرد باطنا ، وانه لمن باب التعظيم والتقوى وهى أربعة : حد الخطاب ، وحد الزمان ، وحد المكان ، وحد الفعل • تجب مراعاتها بطرق أربعة : فى حاله اذا دعى ، وفى حاله اذا أجاب ، وفى حاله اذا فعل ، وفى حاله اذا استحق •

أما حد الخطاب : فبأن يعرف منة الله على نفسه بأن خاطبه داعيا ، وأرسل اليه هاديا ، على استغنائه عنه وافتقار العبد[٢٤٦] اليه باطنا وظاهرا ، ورجوع فائدة الخطاب الى العبد دونه أولا وآخرا ، كرما وحكمة ، وفضلا ورحمة ، فيجيب جواب مخبت[٢٤٧] بأعباء المنة ، مسرور بآلاء النعمة •

---

(٢٤١) فى (أ) : على الساق • (٢٤٢) البقرة : ٢٢٩

(٢٤٣) الحديد : ٢٧

(٢٤٤) اخرجه الترمذى والنسائى عن أبى أمامة ، والطبرانى فى الاوسط عن أبى هريرة • (٢٤٥) فى (أ) : ظاهرا •

(٢٤٦) فى (ب) : عند افتقار العبد •

(٢٤٧) المخبت : الخاضع •

ثم يعرف منة الله تعالى عليـه فى بيان زمن الأداء وتشريف خدمته ، ليتمكن فيه من اقامته ، ويحوز أجزل[٢٤٨] عائدته ، ويترفه[٢٤٩] بالترك عند انقضائه ، ليتمكن[٢٥٠] من السعى لطلب فضل الله تعالى وابتغائه ، تعالى الله عن منافع الأعمال ومضارها ، بطاعات الخليقة وانكارها ، فيزداد اخباتا وسرورا ، فيبعثه السرور على شغل الزمان بالمـأمور ، ويردعه الاخبات عن النظر الى غير ما أمر •

ثم يعرف منة الله تعالى فى بيان المكان ، ليكون للعبد متسلى اذا قصد بيت ربه ، ومتشرفا اذا دخله ، ومستراحا اذا ناجاه فيه ، ومثالا على ما يرى من عادات الناس وخدمة ملوكهم •

ثم الله تعالى سهل الطريق ، ورفع الحجاب ، وطرد البواب ، وفتح الباب ، ليسارعوا[٢٥١] اليه رغبة ، ولا يقفوا رهبة ، فيزداد القلب خشوعا بترادف المنن ، والعين قرة بتضاعف النعم ، فينبغى ألا يكون له عن ذلك المكان خروج ، ولا الى غير الله تعالى عروج •

ثم يعرف منة (الله)[٢٥٢] فى الفعل ، وفى اعطائه قدرة عليـه ، ثم فى توفيقه له محسنا اليه ، حتى اشتغل بأداء أمره مطيعا ، واهتدى بفعله بصيرا سميعا ، وفى الناس من علا شأنه ، وعم سلطانه ، وكثر أعوانه[٢٥٣] ، وهو مخذول لأمور الدنيا ، طريد عن بساط المولى ، وكلهم مشغولون بخدمة الورى : العبيد بجسومهم للأكابر ، والملوك بقلوبهم للعساكر ، فيزداد تواضعا ونشاطا ، وخشوعا واغتباطا ، فتصير الأجزاء كلها بعد الأعضاء فى شغل الأداء تفرق[٢٥٤] على الانتهاء •

فاذا كان صوما فكف عن المحظورات[٢٥٥] فمه وفرجه ، كف عن مثلها لسانه ، وكف عن نظيرها[٢٥٦] قلبه حتى يكاد يصير الصائم صوما ، والعمر يوما ، لولا الأمر لمـا شعر بوقت الفطر •

---

(٢٤٨) فى (أ) : جزاء عائدته •
(٢٤٩) فى (ب) : ويترفهه •
(٢٥٠) فى (ب) : ويتمكن •
(٢٥١) فى (أ) : ليتسارعوا •
(٢٥٢) سقطت من (ب) •
(٢٥٣) فى (ب) : أنواعه •
(٢٥٤) تفرق ، من الفرق وهو الخوف •
(٢٥٥) فى (أ) : وكشف عن المحظورات •
(٢٥٦) فى (ب) : ويخف عن نظيرها •

وان كانت صدقة وهو يعرف منة الله عليـــه بأن أغناه[٢٥٧] بالمـــال (فضلا)[٢٥٨] ورحمة[٢٥٩] وأحوج غيره اليها (عدلا)[٢٦٠] وحكمة ، ثم جعل يده العليـــا ، ويد غيره السفلى ، مع ما له بعد اكتســـاب الجمال[٢٦١] من النجاة عن فتن المـــال آتاهـــا ووجهه يتهلل حمدا ، وهامته تترفع مجدا[٢٦٢] ، وقلبه يتخشع شكرا ، حتى يتمنى أن يجعل نفسه صدقة مكان ماله[٢٦٣] ، لاستلذاذه شرف الايتاء[٢٦٤] وجماله .

وان كان حجا وخرج الى البيت وهو ينظر الى أنه كان عبدا فصار وفدا ، بنى الله بيتا ليكون له بالوفادة اليه شرفا وشأنا ، وأمر خليله صلى الله عليـــه وسلم بالدعاء اليه رجالا وركبانا ليريهم مثال الحشر الأكبر ، واللقاء بعد المحشر ، ويعجل لهم عتقا حفيا سيظهر يوم الجزاء ظهورا جليا ، ثم أكرمه بالاستطاعة ، وجعل له فى أهل بيته قدم الشفاعة ، فتألم[٢٦٥] بالخروج عنها ، وتمنى الدوام فيها ، فيصير وقد خرج ببدنه وراحلته خارجا بقلبه وكليته ، يقوده النشاط ، ويحدوه الاغتباط ، حتى اذا طهر ظاهره للاحرام بالمـــاء طهر باطنه لله تعالى بالاصطفاء[٢٦٦] .

ثم اذا أحرم بتلبيته جسده[٢٦٧] عن الصيد والطيب والنســـاء وغيرها[٢٦٨] من المحظور أحرم قلبه باخلاصه لله تعـــالى عما يخطر بالصدور ، ثم يمضى ملبيا بلسانه ، مصدقا بقلبه ، مستأنسا بذكر ربه ، حتى يبلغ الموقف ، فيقف بعرفة ظاهرا ، ويقف بالمحشر باطنا ، ويستقبل الكعبة بوجهه ، والله تعالى والجنة بقلبه ، ويدعو الله تعالى ويثنى عليه بذكره ، ويحاسب نفسه بصدره ، حتى يحل بمنى ، فيأخذ النحيرة بيده لينحرها[٢٦٩] لزيارة البيت العظيم ، والبراق يعقده[٢٧٠] ليركبه الى دار

---

(٢٥٧) فى (أ) : باغنائه .
(٢٥٨) سقطت من (ب) .
(٢٥٩) فى (ب) : مرحمة .
(٢٦٠) سقطت من (ب) .
(٢٦١) فى (ب) : المـــال .
(٢٦٢) ليس المراد الكبر على الفقير ، بل هى عزة الايمان المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، عزة الشعور بأخيه المؤمن الفقير والتساند معه .
(٢٦٣) فى (ب) : مكانه .
(٢٦٤) فى (أ) : لالتذاذه شرف الايتاء .
(٢٦٥) فى (ب) : فالم .
(٢٦٦) فى (أ) : بالاصفاء .
(٢٦٧) فى (أ) : جسمه .
(٢٦٨) فى الأصول : وغيرهما .
(٢٦٩) فى (أ) : ليذبحها .
(٢٧٠) فى (أ) : يقصده .

النعيم ، فاذا لقى البيت ناظره لقى الله تعالى خاطره ، فاذا طاف بالبيت برجله ، طاف بالجنة[٢٧١] مع أهله .

ومن الذى لقى الله[٢٧٢] (تعالى)[٢٧٣] عزت قدرته وهو عنه راض ثم خطر وهم الزوال بباله (بل)[٢٧٤] أو دخل الجنة مكرما ولم يقلق على ارتحاله .

وأما المصلى فاذا سمع الأذان ، وهو نداء الرحمن ، على أعلا بنيان ، الى أشرف مكان ، ما اليه مسافة ، ولا فيه آفة ، بل فيه كرامة الاذن بالنجوى ، وشكوى البث والحزن الى المولى ، وعرف عظم هـذه المذلة قام ببدنه متواضعا سريعا ، وبقلبه مسرورا سميعا الى طهارة الأعضاء عن الحدث الخارج لخدمة ربه موصولة بطهارة[٢٧٥] القلب عن الحدث[٢٧٦] الداخل للقاء ربه .

ثم يدخل المسجد بأركانه[٢٧٧] ، ويستقبل عرش الرحمن بجنانه ، ثم يكبر بلسانه جهرا ، ويناجى بضميره[٢٧٨] سرا ، موقنا بقلبه أنه بين يدى ربه ، عارفا عظم شأنه ، وعلو مكانه ، حتى يصير ظاهره كباطنه[٢٧٩] دائبا ، وباطنه عن مكانه الى الله تعالى آيبا ، فهو حاضر غائب ، موجود معدوم ، واصل بائن ، عمى عينه وبصر سره[٢٨٠] ، لو أقسم على الله لأبره .

أو أنت ممن يعبد الله تعالى بعادة أولئك ، واتبعت[٢٨١] آباءك ، فتصوم عن الأكلة ، وتفطر بالغيبة ، وتتصدق بالمـال ، وتبطل بالمنة ، ويحج ظاهرك ، ويلج باطنك ، ويركع ظهرك فى بيت المولى ، ويرتع سرك فى الدنيا ، فاذا أنت حاضر غائب ، موجود معدوم ، واصل بائن ،

---

(٢٧١) فى (أ) : طاف الجنة .
(٢٧٢) فى (أ) : لقى الرب .
(٢٧٣) سقطت من (أ) .
(٢٧٤) سقطت من (أ) .
(٢٧٥) فى (أ) : موصلة بطهارة .
(٢٧٦) فى (ب) : عن حدث الداخل .
(٢٧٧) أى : بأعضائه .
(٢٧٨) فى (أ) : وينادى .
(٢٧٩) فى (ب) : ظاهره لباطنه .
(٢٨٠) فى (ب) : عمى عينه وبصره وسره .
(٢٨١) فى (ب) : واتبع . وفى (م) : واتباع . من نسخة ثانيـة .

عميت بالدنيا[٢٨٢] عينك ، وأبصرها سرك ، والدنيـا عن سرك على غفلة ، سألتها بحق الاخلاص بقلبك نقمة[٢٨٣] ما نلتها بحيلة .

بقيت[٢٨٤] يا رجل بمخالفة شهواتك على العادة ، وما كتبت لك من عبادة ، وغبت عن الدنيـا ببدنك ، وحضرتها بقلبك ، فغابت عنك ، فما لها بالقلوب من بصر ، وحضرت العبادة ببدنك وغبت بسرك ، فغابت عنك الآخرة ، فما للأبدان عند الله تعالى من خطر ، فما أسوأ عادتك ، وما أغبن صفقتك ، أو راءيت فأحبطت (الثواب بالشرك الباطن ، أو أعجبت فأحبطت)[٢٨٥] العمل بالكفر اللازم .

فقال[٢٨٦] الأخ : لو صرحت[٢٨٧] عما أجملت من أقسام العابدين بأسامي مسفرة[٢٨٨] عن معانيها للسامعين .

قلت وما توفيقي الا بالله رب العالمين : ان العابدين أربعة : الفائز ، والخاسر ، والمغرور ، والأحمق .

أما الفائز فالذى عبد (الله تعالى)[٢٨٩] ببدنه ، مخلصا بقلبه ، أعمى في حاله الا عن ربه ، سواء عنده ذم عليها أو حمد ، قرب بها[٢٩٠] أو طرد ، أهين أو وقـر ، أتبع أو هجر ، الا شـفقة عليـهم ان كانوا ضالين[٢٩١] ، وحمية لله تعالى ان كانوا عاصين ، لا يطلب منهم أجرا ، ولا يتوقع ذكرا ، الا أن يستتبعهم ان أظهر العبادة قولا وفعلا نصرة لدين الله ، أو يسكتوا عنه ان أخفى ليصونهم عن زيادة عصيان ، ويكفهم عن سب الرحمن[٢٩٢] ، ما لنفسه فيهم من نصيب عاجل في الدنيا ، الا المحبة في المولى ، عارفا بعد الاخلاص منة الله عليـه في توفيقه

---

(٢٨٢) في (ب) : عميت عن الدنيـا .
(٢٨٣) في (أ) : لقمة . (٢٨٤) في (أ) ، (ب) : لقيت .
(٢٨٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢٨٦) في (أ) : وقال . (٢٨٧) في (ب) : لو خرجت .
(٢٨٨) في (م) : بأسماء مسفرة . من نسخة ثانية .
(٢٨٩) سقطت من (ب) . (٢٩٠) في (أ) : قرب فيها .
(٢٩١) تفاصيل المدح والذم الذى يجوز ان يغضب له العابد والذى لا يجوز في باب المدح والذم من « الوصايا » للمحاسبى . نشر مكتبة صبيح بالقاهرة . وباب المدح والذم من « أعمال القلوب والجوارح » له أيضا . نشر عالم الكتب بالقاهرة .
(٢٩٢) انظر باب الاسرار بالعمـل في « أعمال القلوب والجوارح » للمحاسبى ، لزيادة تفصيل في هـذا الموضوع .

للثبات على طريقه الى ما لا نهاية له فى أوهام الصدور ، فيرجع الى الاقرار بالقصور ، والاعتذار عن ترك الواجب فى الأمـور ، قائمـا (فى)[٢٩٣] مقام الافتقار ، مستغيثا فى قيد الاضطرار ، لا يرى من نفسه أمرا الا ما يلتزم به لله تعـالى شكرا ، فيتحقق له عند ذلك (حال)[٢٩٤] العبودية فى عجزه وافلاسه ، ومنة الله عليـه بكل نفس من أنفاسه •

قال الله تعالى : « **ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان** »[٢٩٥] •

وقـال : « **بل الله يمن عليـكم أن هداكم للايمان ان كنتـم صادقين** »[٢٩٦] •

وقـال : « **قـد أفلـح المؤمنـون • الذين هم فى صـلاتهم خاشعون** »[٢٩٧] •

وأما الخاسر فالمتعب بالعمل بدنه ، الساهى (عنه)[٢٩٨] بقلبه ، فتفوته الدنيـا على سخط من ربه ، فالدنيا تنال بظواهر الأمور ، والمولى لا يرضى الا بأسرار الصدور ، قال الله تعالى : « **فويل للمصلين • الذين هم عن صلاتهم ساهون** »[٢٩٩] •

وأما المغرور فالمتعب بدنه وسره ، المرائى عباد الله فى أمره ، طمعا فى علو شأنه ، أو حسن ذكره •

وان الرياء ليقع من طريقين : قصد بالقلب مكابرة ، ودفعه يسير • واهتزاز النفس الى ما يتعجل له من نفع على عبادته مخادعة ، وانه لأمر عسير •

فمن جبلة النفوس الكسل الا بنفع لها يتعجل من مال أو علو شأن ، أو ارتفاع مكان ، أو نفاذ أمر ، أو حسن ذكر ، بأى سبب كان ، لا يخلو عنه الا من محا عن قلبه حب الدنيا والعباد[٣٠٠] بحب الله وحب الأخرى ، وأبغضهم بمعرفته أن الناس طالبون من الدنيـا ذلك الحظ ،

---

(٢٩٣) سقطت من (ب) •
(٢٩٤) سقطت من (ب) •
(٢٩٥) الحجرات : ٧
(٢٩٦) الحجرات : ١٧
(٢٩٧) المؤمنون : ١ ، ٢
(٢٩٨) سقطت من (ب) •
(٢٩٩) المـاعون : ٣ ، ٤
(٣٠٠) فى (أ) : العباد والدنيا •

فهم مجادلوه على ذلك[٣٠١] ، غير باذلين ، والا فحاسـدون[٣٠٢] ، والا فعاجزون عن تبديل قسمة رب العالمين .

فاذا أيس منهم[٣٠٣] ، واعتقد أنهم منازعوه ، قطع الطمع منهم ، فنجا عن شبك الاراءة[٣٠٤] وانها لشرك خفى ، ونفاق غير مرضى ، تتراءى تلك العبادات يوم الحساب كما يتراءى للظمآن السراب ، وذلك فى قول الرسول صلى الله عليـه وسلم : « ان الله تعالى يقول : أنا أغنى الشركاء ، فمن عمل لى ولشريكى فهو كله لشريكى »[٣٠٥] .

وقال الله تعـالى : « **فويـل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون** »[٣٠٦] .

وأما الأحمق فالمجهد بدنه للعمل ، وقلبه للاخلاص ، الصابر على الفقر والخلوة عن الناس ، فاذا هو فى خلوته وطاعته اذ وسوست[٣٠٧] له نفسه فزينت له[٣٠٨] أمره ، وشرفت لديه فى العبادة قدره[٣٠٩] ، كأنه مبتدىء الى الله تعالى احسانا ، تعالى الله عن ذلك شانا .

فنظر الى حاله بعين العجب ، وعقد عليـه القلب ، فاحترقت عبادته به احتراق الحطب بالنار ، وتساقطت أعماله تسـاقط الثمار بالاعصـار[٣١٠] ، فاسودت منظرا ، وفسـدت مخبرا ، وانه للكفر

---

(٣٠١) فى (أ) : عن ذلك .

(٣٠٢) فى (م) : فخاسرون . من نسخة ثانية .

والمعنى : أن طالب النجاة من الرياء يجب أن يعلم أن الناس جميعا يطلبون ما يطلب وهم : اما مانعوه عن نيل ما يريد ، واما حاسدون له ساعون فى ابعاده عن طريقهم . ومن هنا ينعزل عن بيئة الرياء فيبغضه .

(٣٠٣) فى (ب) : انس منهم .

(٣٠٤) فى (ب) : الارادة . والاراءة والرياء بمعنى .

(٣٠٥) أخرجه احمد فى الزهد عن العرباض بن سارية . وعبد الله ابن أحمد فى الزوائد عن ابن عمر .

(٣٠٦) المـاعون : ٤ ــ ٦

(٣٠٧) فى (أ) : وسوس .

(٣٠٨) فى (ب) : فزين له .

(٣٠٩) فى (م) : القدر . من نسخة ثانية .

(٣١٠) فى (ب) : بالاغصان .

السرى[٣١١] ، والجحد الخفى ، أذ كان التمكين من الله تعالى لعبادته[٣١٢] أعظم منة عليـــه من التكوين ، فاذا رآها احسانا منه الى الله تعـــالى فقد كفر بمنة التمكين ، وجحد انعام الله تعالى عليـــه من بين العالمين .

(فصار)[٣١٣] دمار العجب شرا من الريـــاء[٣١٤] ، اذ فساد الأول لم يتعد الى الصورة عن المعنى ، ولا عن الآخرة الى الأولى ، وفساد العجب يشمل الأمرين ، ويعم الدارين ، فكان عملا بلا جدوى ، وما هو الا عمل الحمقى .

والنجاة عن العجب عزيزة ، فالنفس مدعية الملك (والاختيار)[٣١٥] والامرة والاحسان والقدرة الا بالرجوع الى معرفة عجزها وافتقارها بالوقوف على أسرارها ، ومعرفة قدرة خالقها ، ومنته عليـــه فى جميع طرائقها . قال الله تعالى : **« لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله »**[٣١٦] .

ثم لا ترى معجبا الا ممقوتـــا بين النـــاس ، مهجورا بفرط الوسواس[٣١٧] ، فكيف حاله مع ربه وهو مشرك بعجبه ، بالله أستعين ، وبه أعوذ ، واياه أستهدى ، واليه ألوذ ، تبارك من مقدر لا يتحرك العبد ولا يسكن ولا يتكلم ولا يسكت الا بنعمة من الله جديدة مضمونة الى منة قديمة . فله الحمد دائما[٣١٨] سرمدا ، والشكر متواليا أبدا .

أعجب ابليس بكونه من النار اعتقادا فكفر والتحق بالملعونين ، وأعجب فرعون بنفسه فى ملكه فادعى الألوهية[٣١٩] فأغرق بآله أجمعين ،

---

(٣١١) فى (أ) : فان العجب الكفر السرى .

(٣١٢) فى (ب) : لعباده . وانما كان التوفيق من الله تعالى للعبادة أعظم من نعمة الخلق ، لأن الخلق قد يكون ولا سعادة ، وقد يكون من فريق السعير ، فالتوفيق للعبادة من تمام نعمة التكوين .

(٣١٣) سقطت من (ب) . (٣١٤) فى (ب) : شر من الرياء .

(٣١٥) سقطت من (ب) . (٣١٦) البقرة : ٢٦٤

(٣١٧) صلة الوسواس بالعجب ظاهرة . فلا ترى معجبا بعمله الا وهو متردد شاك يكثر من تكرار الفعل الواحد رغبة فى اجادته أمام الناس . كما أن المعجب كثير الحديث عن نفسه ، يصدق باطله ويرويه على أنه حق وذلك عين الوسواس . كثير التجريح لغيره بالحق وبالشبهات وهى من الوسواس .

(٣١٨) فى (أ) : فالحمد دائما . (٣١٩) فى (ب) : الاهيته .

وأعجب قارون بعلمه ، فرأى قدرته فخسف به وبداره الأرض فهو من المخذولين[٣٢٠] ، وأعجب سليمان عليــه السلام الخيل فأحبها ، فاشتغل عن ذكر ربه ، ففتن وانعزل عن كرسيه بجسده[٣٢١] ، وأعجب آل محمد (صلى الله عليــه وسلم)[٣٢٢] جند الله يوم حنين فهزموا ، وما توقف أحد على أحد الا نفراً قليلين مع (الرسول)[٣٢٣] الثابت بتأييد رب العالمين[٣٢٤] ، ورأى يوسف صلوات الله عليــه منته على صاحب الرؤيــا فسأله التذكير عند ربه ، فلبث فى السجن بضع سنين ، وقال موسى عليــه السلام لأخيه هارون : **((اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيــل المفســدين))**[٣٢٥] . فعبدوا العجل وموسى فى مناجاة خالقهم وما يعبدون[٣٢٦] . وقال عيسى عليــه السلام : **((وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم))**[٣٢٧] .

فأظهر الله تعالى دينه بعده بالحواريين ، ومحمد صلى الله عليــه وسلم توفى فلم يفوض الأمر الى عين منهم ، بل سلمهم الى الله تعالى ، فعم البلاد دينه بالخلفاء الراشدين ، ثم بعده بأقوام أكثرهم ممن لا خلاق لهم فى الدين تتميما[٣٢٨] لمــا فوض لله رب العالمين[٣٢٩] . وقال شعيب صلوات الله عليــه لموسى عليــه السلام : **((ستجدنى ان شاء الله من الصالحين))**[٣٣٠] . واسماعيل عليــه السلام : **((ستجدنى ان شاء الله من الصابرين))**[٣٣١] . فوفقا للنجز[٣٣٢] . وقال موسى عليــه السلام للعبد الصالح شعيب : **((ستجدنى ان شاء الله صابراً))**[٣٣٣] .

---

(٣٢٠) فى (ب) : وهو من المخذولين .
(٣٢١) فى (أ) : بجسد .
(٣٢٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٣٢٣) سقطت من (ب) .
(٣٢٤) فى (أ) : بايد رب العالمين . اى : بقوته .
(٣٢٥) الأعراف : ١٤٢
(٣٢٦) « ما » نافية . اى وهم لا يعبدونه ، من حيث يعتقد موسى انهم قائمون على عبادة الله .
(٣٢٧) المــائدة : ١١٧
(٣٢٨) الكلمة غير واضحة فى (ب) .
(٣٢٩) فى (أ) : لله تبارك وتعالى .
(٣٣٠) القصص : ٢٧
(٣٣١) الصافات : ١٠٢
(٣٣٢) فى (ب) : فرفعا للنجز .
(٣٣٣) الكهف : ٦٩

(فأقر بالعجز)[٣٣٤] ولم يظهر فرق ما بينهم الا من حيث تخصيص موسى نفسه من حيث الصبر ، وتعميم شعيب واسماعيل فى بابهما الأمر .

فالعجب كل العجب أن ترى لنفسك فضلا وشكلا[٣٣٥] ، وأن ترى لمن دون الله تعالى بغير أمر الله أمرا ، فالأول طريق الى الكفر ، والثانى طريق الى الذل ، ولا يتحرر منهما[٣٣٦] عبد الا بتثبيت الله تعـالى ، وعصمة وتوفيق من لدنه ورحمة ، ليرى بنور التوفيق القدرة والاحسان لله ، والعجز والاساءة من العبد .

فلله الحمد أبدا على كل نعمة ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله صفوة الأمة .



(٣٣٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٣٣٥) فى (أ) : أو شكله .

(٣٣٦) فى (أ) : ولا ينجو منهما .

كتاب السجن والمملكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن سجن عباده فى بسيط من الأرض حتى لو راموا النفوذ من طولها لتحيروا فى العرض تسجينا من جحده ازداد احتباسا بقوله وفعله .

والصلاة على رسول عرف المملكة والملك ، فلم يطلبهما فى السجن ، ودار الهلك ، فأقام فيه عبدا مسجونا مقيدا ، وخرج عنه (حرا)[1] مضونا مؤيدا ، واستدل بالسجن على الملك الذى حبسه فيه وهو عنده على الاطلاق[2] ، ثم نظر فى حكمة حبسه فاستدل على مملكته بعد الانطلاق ، فأبغض السجن بدليل ، وأعد للرحيل .

فهذه الخصال الأربع من المحن[3] تتعلق بقسم السجن .

فأما معرفة الملك فبأربعة وجوه : بمعرفة حال السجن ، وحال احتباسه ، وحال عمله ، وحال اصابته .

أما السجن فهو العالم[4] المحسوس من السقف العالى والبساط المسوس[5] ، فمتى تأمل العبد فيه وجده سقفا رفيعا لا يناله بصره ، وبساطا بسيطا لا يجوزه قدمه ، وأوتادا رفيعة[6] لا يزعزعها بيده[7] ، وسراجا وهاجا لا تقاربه سرجه ، فيتيقن[8] بالعجز[9] عن صنعه بمن رفعه[10] ووضعه .

ثم رأى ما فيهما[11] من الأشياء سواه مسخرين لمنافعه ، مذللين لمصالحه ، فيعلم أنها متاع ، وأنه المقصود من بين الأنواع ، وأن للبناء بانيا غير شبيه بالبناء وبمن فيه ممن اتصف بالعجز عن الانشاء .

---

(١) سقطت من (ب) .   (٢) فى (أ) : على اطلاق .

(٣) فى الأصول : الأربع خصال والمجن . وما اخترناه من (م) أوضح .

(٤) فى (أ) : فهذا العالم .   (٥) فى (ب) : المحسوس .

(٦) فى (أ) : راسخة .   (٧) فى (ب) : لا تزعزعها يده .

(٨) فى (أ) : فتيقن .   (٩) فى (ب) : ما يعجز .

(١٠) فى (ب) : من رفعه .   (١١) فى (أ) : ما فيها .

ثم ينظر فى حاله فيجده هالكا فيه ، لا يمكنه النفوذ من أقطارها .

ثم فى عمله فلا ينجيه عن مكاره أدواره مع ما يرى فى الدنيا من الفسحة ، ويجد لنفسه من القدرة ، ولقلبه من حسن الرأى والاختيار ، بفرط الذكاء وجودة الاختبار ، فيعلم أنه مطلق ظاهرا ، محبوس باطنا ، وحاكم فى الأسباب ، محكوم عليه فى الأعواض[١٢] ، مبتلى بين ذلك ، لا هنا ولا هنالك .

فالاطلاق الظاهر يسوله النهوض الى ما أراد ، والحبس الباطن يقطع عليه الطريق الى المراد ، وحكومته تعطيه حلاوة الامضاء لنفسه ، والحكومة عليه تذيقه مرارة الامضاء عليه ، وأن له حابسا فيه ، حاكما حكم عليه ذلك .

والله تعالى حبس عبيده[١٣] فى فسحة لا تعرفها العيون الا مملكة ، وحكم عليهم فى حظوظهم[١٤] المتعلقة بأسباب لا تعرفها النفوس الا ولاية .

ثم ينظر فى اصابته اذا عمل وأصاب : كيف امتنع عليه (منها)[١٥] مقصوده ، وتباعد عنه مطلوبه ، ما دامت اليد تشهد بالامتلاك ، والكاتب ينسخه فى ورد الأملاك ، الا أن يزيل عن نفسه[١٦] صفة ملكه الذى فى تحصيله قرب من هلكه ، ومتى يصفو تمتع بهلاك المحبوب ، أو تلذذ بزوال المطلوب ، ولئن نلت متعة بلا ازالة ، كان كما كنت عليها قبل الحيازة . فهى متعة نظر ، أو متعة فكر ، وصرت فيما حزت خاليا عن الغرض ، فعادت حكمتك فى فعله الى غيب ، وعلمت أن الذى حبسك وأنت مطلق فحكم عليك وأنت حاكم حرمك الغرض وأنت مصيب .

فسح الدنيا عليك وهى[١٧] سجن وأنت فيه محبوس عن النجاة ببدنك ، محبوس عن الاصابة بعملك ، محبوس عن الانتفاع باصابتك ، وأن الحبس عن الانتفاع بالمصاب لأضر من الحبس عن الأسباب[١٨] ،

---

(١٢) فى (ب) : الاعراض . (١٣) فى (أ) : حبس عبده .
(١٤) فى (ب) : وحكم عليه فى حظوظه .
(١٥) سقطت من (أ) . (١٦) فى (ب) : يزيد عن نفسه .
(١٧) فى (أ) ، (ب) : وهو سجن . واخترنا ما فى (م) .
(١٨) فى (ب) : من الأسباب .

والحبس عن الاصابة بعد العمل والنصب ، لأوجع من المحبوس فيه بترك السبب ، و [ان] حبس البدن بالعلة والحال لأشد من الحبس بالقيد والأغلال .

ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلا من أحوالك بضال فى التيــه ، حبس عن الوطن لضلاله[١٩] ، ومحبوس فى السجن عن أهله وماله ، ومحبوس عن الثمرة بفساد (نفاذ)[٢٠] عمله ، ومحبوس عنهما بكسله ، ومحبوس عن التمتع باعتلاله ، ومحبوس عنه بفقد ماله .

فقلب الضال المجنون[٢١] ، أضيق من قلب المسجون ، وقلب المحزون وقد تعب بعمله آلم من قلب المحروم وقد استراح بكسله ، وقلب الصحيح الفقير أسلم من قلب الموسر الكسير .

ودل[٢٢] الاحتباس من الوجوه الأربعة على الحابس وهو الرب القدير .

فقال الأخ : شحذ الله فهمك ، وهذب علمك ، ولقد بالغت فى بيان الحبس ، فما الحكمة التى تطمئن اليها النفس ، فلسنا نريد حبسا فى الشاهد الا ردعا ، أو جزاء لظالم وقمعا ، فكيف جاز من الله تعالى ابتداء ، وكيف أنشأ الخلق فيه انشاء ؟

قلت : كما خلق الله تعالى عباده على صفة الفقر ، والافتقار فى الشاهد بيننا أمر نكر ، وكما جبلهم على الحجر حتى لم يتصرفوا فى أملاكهم الا بقدر الأمر ، ومثله فى الشاهد بعد الرشد جور ، وكما كونهم على صفة العبودية ابتداء ، ولن يجوز فى الشاهد نقص الحرية الا على الكفر جزاء ، وأنت فى الكل على أشكال ، ناظر فيها بعين اغفال .

أما علمت أن العقوبة فى حجرنا بزوال اطلاق أثبته[٢٣] الملك فى حقنا ، فأما الحجر (لا)[٢٤] عن ملك[٢٥] فأصل ، والاطلاق فيه بالأمر فضل ، وملك العبد فى حق الله مجاز ما له أصل ، وعقوبة الرق فى حقنا

---

(١٩) فى (أ) : بضلاله .　　　(٢٠) سقطت من (أ) .

(٢١) المجنون : اى المحبوس عن الوصول الى وطنه من الجنة وهى : الوقاية وحبس الشيء عن الوصول الى شيء آخر .

(٢٢) فى (أ) : فدل .　　　(٢٣) فى (ب) : أبنيــة الملك .

(٢٤) سقطت من (ب) .　　　(٢٥) فى (ب) : عن الأملاك .

كانت فى نقض الحرية وما العبد فى حق الله تعالى الا على صفة العبودية ، فلما لم يكن حرمان ما لم يكن له عقابا ، بل كان اعطاء ما[٢٦] أعطى مما لم يكن له من التكون عطاء حسابا[٢٧] .

وكذلك الافتقار عقوبة لما فيه (من زوال الغنى ، وما للعبد غنى فى حق ما بينه وبين المولى ، وكذلك السجن عقوبة لما فيه من)[٢٨] حرمان نعمة الفسحة ، فأما فى حق من أخرج اليه من البئر فنعمة ، وذلك مثل الآدمى فى اخراجه ابتداء من بطن الأرض الى ظهرها ، وفى الانتهاء من بطن الأم الى حجرها .

هـذا بيان أن الدنيا سجن وعقوبة اذا قوبلت بالآخرة ، فأما اذا قوبلت بالحال الأول[٢٩] فنعمة حاضرة ، لأن الله تعالى حكيم لم يخلق هـذا العالم عبثا ، ولكن للجزاء ، ولا يصح الجزاء على سبيل الحكمة الا بعد الابتلاء ، فجعله مستعبدا فقيرا مأمورا محبوسا ليجازيه ، اذا أطاعه[٣٠] بأضدادها ، ويزيد من فضله على كل طاعة أضعاف أعدادها .

قال : فما حكمة اطلاق العمل مع الحبس عن الغرض ، هل يبقى دونه الا تعب ، وهل ذلك الا عبث ؟

قلت : أسأل الله فى شرحه التوفيق ، وهو المضل والمضيق ، ان الأغراض الدنياوية اصابتها شريكة الحرمان فى حق العامل والكسلان ، ليعلم أن العمل ليس بلازم ، وأن الحرمان مع العمل غير دائم ، فيتوكل المبصر بقلبه عمل أو ترك[٣١] على المسبب ، ويتكل المبصر بعينه فى الحالين على السبب ، ويصير الجسم مبتلى بين دعوة النفس الى ما أبصرت عينه ، وبين دعوة الروح الى ما أبصر قلبه .

حكم نفذ عليك من الله تعالى فى حظوظك ، والنفس تراها متعلقة بأسباب ، وتأمرك بالعمل ، كما نفذ القلم من قبل بأمور آخرتك ، والشرع علقها بالعبادة ونهاك عن الكسل ، وانه للابتلاء الذى ضلت فيه القرون ، وحارت الأفهام والظنون ، فلا عمل بغير قدر ، والعبد مجازى على العمل ، لا نجاة له وان جد عن المقدور ، وما [هو] فى الاحتجاج

---

(٢٦) فى (ب) : اعظاما .
(٢٧) فى (ب) : عطاء احسانا .
(٢٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢٩) فى (أ) : بالحالة الأولى .
(٣٠) فى (ب) : اذ الطاعة .
(٣١) فى (ب) : أم ترك .

بالقدر عند الله تعالى بمعذور ، اذ القضاء من الله تعالى غير ماض بأقداره الا متعلقا بعمل العبد على ما علم من اختياره[٣٢] .

فالعمل من جهة العبد غير مجبر عليه ، ولكنه تحت مشيئة الله تعالى غير مفوض اليه ، ردا على من فوض أو أجبر أو سلط أو أكره ، كيلا ينسب الصانع عز ذكره بمخالفة العبد مشيئته الى عجز ، ولا بمجازاته على عمله جبرا الى سفه .

ثم ضرب لأقسام الآخرة مثلا بالأقسام الحاضرة من تعلقها بالأعمال الحسية[٣٣] غير خالية عن الأقدار السماوية[٣٤] لا فرق بينهما الا من حيث ان أقسام الآخرة متعلقة بأسباب ابتليت بفعلها ، وأقسام الدنيا متعلقة بأسباب ابتليت فى الأكثر بتركها على ما مر بيانه[٣٥] .

والغرض فى البابين مما ينال ظاهرا بالسبب ، ولكن لا ينال حقيقة الا بالله العظيم ، فهو الذى علقها به ، وأقدره عليه ، وهو العظيم الحكيم[٣٦] .

ما لأحد قدرة تعليق انقلاب الحب زرعا ، ثم حبا بالزراعة ، ولا قدرة تعليق العتق ثم الملك ثم الولاية ثم الملك بالطاعة .

كيف و [قد] كانت الطاعة لزمتك بحق العبودية ، فمن أين قدرة اكتساب الحرية ؟ بل ذلك من الله تعالى فضل ورحمة ، ومجازاة بحكمة الله تعالى من محسن تصويرا بقدرته ، محسن تحريرا بحكمته ، فظهرت القدرة القاهرة بالانشاء ، وعرفت الحكمة الظاهرة بالجزاء .

وأما المملكة فتعرف من طرق أربعة : بحال السجن ، وحال المسجونين ، وأعمالهم ، وحظوظهم .

---

(٣٢) لتقريب هذه الفكرة — ولله المثل الأعلى — : اب او معلم المعى تفرس فى ولده أو تلميذه انه لن ينجح فى عامه ، وعلل ذلك بميول الولد ونواياه فى السلوك . فكلما استعان الولد بأبيه أو بمعلمه على تحقيق مآربه ساعده على ذلك علما منه انه كما تفرس تماما ، فاذا رسب الولد ، فانما رسب بعمله الذى كان معلوما لأبيه او معلمه ولم يعمل تلك الأعمال الا بمشيئة أبيه بعد دراسته بحصولها .

(٣٣) فى (ب) : بالأعمال الحسنة .

(٣٤) فى (ب) : الاقرار السماوية . تحريفة .

(٣٥) انظر كتاب الفقر ، وكتاب العبودية .

(٣٦) فى (أ) : العليم الحكيم .

أما حال السجن فى أنه محبس ، وحال المسجون فى أنه فى الاحتباس وهما مكروهان عند الناس ، فدليل وجودهما بلا ذنب من الانسان من طريق الحكمة على الامتحان ، والامتحان كما دل على أن الدار للمحنة ، وأن الممتحنين[٣٧] فى دار المحنة لا يكونون مختارين[٣٨] ، بل يكونون مضطرين[٣٩] [فقد] دل من الحكيم على التمييز بين الخبيث والطيب ، قال الله تعالى : **« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليـه حتى يميز الخبيث من الطيب »**[٤٠] .

والتمييز دليل التفريق بينهما محلا وجزاء ، الطيب الى دار الطيب مع الطيبين ، والخبيث الى محل الخبيث مع الخبيثين ، على مثال صائغ حكيم يمتحن التبر[٤١] فى بوتقة على النار ليصفى من الغش المنضار[٤٢] ، فيكون الصافى[٤٣] تاجا يرفعه الهام ، والغش سقطا تطؤه الأقدام .

وأما الأعمال والحظوظ فان الناس اختلفوا فى أعمالهم ، واشتركوا فى نيل أنزالهم ، فلا عابد أعطى زائدة ، ولا جاحد حرم عائدة ، ولا بر أغنى برا ، ولا شر سقى مرا .

فدل الأمران على دار أخرى للجزاء ، يفرق بينهما فى العطاء ، وذلك قوله : **« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »**[٤٤] .

فاذا عرف السجن والملـكة أبغض السجن من طرق أربعة : (كراهة)[٤٥] للمحنة ، ورغبة فى النعمة ، وحذارا من الفتنة ، ونشاطا الى الأمن[٤٦] .

---

(٣٧) فى (أ) : الممتحن .
(٣٨) فى (أ) : لا يكون مختارا . وهكذا بالافراد بقية الفقرة .
(٣٩) فى (ب) : اضطرارا .
(٤٠) آل عمران : ١٧٩
(٤١) فى (أ) : يختبر التبر ، وقد تطابق (ب) ، (م) .
(٤٢) فى (ب) : للنضار . والنضار : الذهب .
(٤٣) فى (أ) : فيكون صافيا .
(٤٤) الجاثية : ٢١ ، ٢٢
(٤٥) سقطت من (ب) .
(٤٦) فى (ب) : فى الأمن .

اذ السجن مبنى للحبس ، وانه لمكروه ، وحائل عن المملكة وهى محبوبة ، ثم يشتمل السجن على فتن من ضيق المكان ، وشر الأقران ، لا تخص بلواهما الظالمين ، بل تعم المسجونين ، مع ما عرف [من] الأمن عنه بالخروج منه •

أو أنت[٤٧] نظرت بعينيك فى الدنيا فلم تلق حبسا ، وذقت بفمك النعمى فلم تجد بها بأسا ، وتباعدت عن الفتنة بعلو شأنك ، وأمنت بتمتع مكانك ، فما أنت بمحتبس لو دمت على هذا الا بأضيق مكان لا تجد العين فيه مجالا وهو القبر ، ولا تذوق الا أمر سم لا يدع عليك أوصالا وهو الموت ، ولا تفتتن الا بأقرب موجود لا تقدر على الفرار منه[٤٨] وهو النفس ، ولا تخاف الا فى أهول مكان لا تجد فيه أنصارا وهو المحشر •

أما علمت أن سجنا لم تعرف حدوده ولو بالظن لم يعرف حرمان النعيم[٤٩] فيه بالعين • ولو تأملت فيه على جسمك وقلبك مما تخاله نعيما لسميته عذابا أليما ، ولعلمت[٥٠] أنك دون النعيم بالسجن محروم •

ولو تأملت فيما ظننت به نفسك بين الأهل والولد والخدم سليمة ، وجدتها فى فتنة صماء مقيمة • ألم تسمع الله تعالى يقول : « **يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم • انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم** »[٥١] •

أفتنة أعظم من مال يطغيك ، وامرأة تلهيك ، وولد ينسيك ؟ استكنت فى أعظم جهاد مع نفسك وهى فقيرة ، وانها مع المال أميرة ، وقد انضمت اليها امرأتك فصارتا نفسين ، وصرت رهين حاجتين ، بل النفس الأخرى أشر من الأولى[٥٢] فى جوعها دفعا ، وفى شبعها بطرا ، وستصيران[٥٣] ثلاث نفوس اذا ولدت ، وشر النفوس الآخرة ، فانها

---

(٤٧) فى (ب) : ثم أنت •
(٤٨) فى الأصول : لا تقدر منه فرارا • وما أثبتناه أوضح •
(٤٩) فى (ب) : جريان النعيم •
(٥٠) فى (م) : وعلمت • من نسخة ثانية •
(٥١) التغابن : ١٤ ، ١٥ •
(٥٢) فى (أ) : شر من الأولى •
(٥٣) فى (ب) : وستصير •

فقيرة محتاجة عاجزة ، ومتى قدرت وبدا طلعها[٥٤] ، ازدوجت هى بالأخرى[٥٥] ، ولما لاح ينعها يتناصرن عليك ، ثم يشكون اليك .

هـذا لك منهن ما دمن لك مواهب ، وربما انقبلن مصائب[٥٦] وربما خانتك امرأتك فى فراشك وأنفقت على غيرك من معاشك ، وليشتغلن به قلب الغيور ، وما الحكيم على مثله بصبور ، ولا الحافظ اياها على كيدها بسليم ، ثم يلحق به عتل زنيم دعى[٥٧] ، يكد لهما كدا ، وهما يتمنيان موتك جدا .

فاياك والاشتغال بها ولو بخطرة[٥٨] ، فانها تصير فكرة ثم نظرة ، واذا أنت مسلوب العنان بفرط الشهوة ، مستور لديك وأنت بادى العورة ، التمست المرأة[٥٩] تطلب لمـالها وجمالها ، وتبع جمالها الرجال ، وأنت (لها)[٦٠] تبع المـال[٦١] ، تحفظ بنفسك مالها ، وهى ترضى بنفسها رجالها .

ألا تميل عن مثلهـا الى ذات الدين ، امتثالا لسنة[٦٢] خاتـم النبيين ؟

وان كانت على دمامة وفقر ، فذلك المختار من الأمر ، فتكون لك بدمامتها[٦٣] صفوا ، ويقوم بفقرها قضاء حوائجك[٦٤] طوعا ، وكانت عونا لروحك[٦٥] وأنى ذلك ، وكان ولدها الصالح بعد موتك من جملة

---

(٥٤) بدا طلعها : بلغت وبرز ثديها .

(٥٥) فى (ب) : هى الأخرى . والمعنى صار لها اخت ثانية .

(٥٦) فى (ب) : مصليا .

(٥٧) فى (ب) : عتلا زنيما دعيا . خطأ .

(٥٨) فى (ب) : ولو بخطوة . (٥٩) فى (أ) : اليسنت المرأة .

(٦٠) سقطت من (ب) .

(٦١) المراد انه اصبح خادما لمـالها .

(٦٢) فى (أ) : بسنة . (٦٣) فى (ب) : يدمنها .

(٦٤) فى (ب) : ذوى حاجتك .

(٦٥) كيف تكون الدميمة عونا للروح ؟ ! اللهم الا اذا أراد المتخلين بالكلية عن متاع الدنيا ، كما كان عليه أبو ذر رضى الله عنه وزوجته .

أعمالك[٦٦] ، غير أن مثل[٦٧] هـذا الاتفاق ناقة صالح[٦٨] ، ومالك في مثلها من ناصح ، والعياذ بالله من العمى ، والتهافت في الردى .

فاذا أبغضت المكان ، واشتقت الى المملكة استعددت للرحيل اليها بأربعة : النقلة ، والتجرد ، والزاد ، والراحلة .

فزمان السفر الى المملكة مديد ، وأنت في سفرك فريد ، ناقلا عن الوطن[٦٩] والأهل والسكن ، ومن رحل غير عائد الى النقلة امتلأ غما وحسرة ، ومن لم يتجرد للسفر وهو فريد تحير خوفا وفكرة[٧٠] ، ومن لم يستصحب الزاد والمنزل خراب عذب جوعا وتحيرا ، ومن لم يركب الراحلة والسفر مديد لقى[٧١] جفاء وخسرا .

ألا ان النقلة[٧٢] عن الدنيـا بالبذل ، والتجرد بالترك ، والزاد بالتقوى ، والراحلة اليقين . والتجرد والراحلة العبودية[٧٣] ، والنقلة والزاد عبادة . فمن ملك راحلة العبوديـة وضمرها بمضمار العبادة سبحت[٧٤] به اذا ركبها [في] البر والبحر ، ما يفزعه موج ، ولا يجوعه قفر[٧٥] ، حتى تجوز به الى منازله ، وتورده على مناهله ، مصونا في مهالكه .

وقد كان ابراهيم عليـه السلام من الموقنين فحل بالنار وهي عليـه برد وسلام ، وكذلك كان خاتم النبيين يداخله السم وما له ايلام ، وقال عليـه السلام لأصحابه : « لم يسبقكم أبو بكر بكثرة الصلاة والصيام ، وانما سبقكم بشيء ركز في قلبه » . أي : باليقين سبق الى ربه (جل وعلا)[٧٦] . وعلامات النقلة أربعة : استيقان القلب ، ثم ترك العمارة ، ثم تفريغ المكان ، ثم بيعه بما يصحبه .

---

(٦٦) في (ب) : من حماد أعمالك .

(٦٧) في (ب) : يتمثل .

(٦٨) يريد : ان الصبر عليها شديد المؤنة كما كان شديدا على قوم صالح صبرهم على الناقة حتى عقروها .

(٦٩) في الأصول : للوطن . واخترنا ما في (م) من نسخة ثانية .

(٧٠) العبارة مضطربة جدا في (ب) .

(٧١) في (أ) : بقي .

(٧٢) في (ب) : لأن النقلة .

(٧٣) في (أ) : عبودية .

(٧٤) في الأصول : تسبح .

(٧٥) في (ب) : مفقد . وفي (م) : قتر . من نسخة ثانية .

(٧٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

وأما التجرد فيتم بأربعة : تجرد بقلبه لله تعالى شكرا ، وتجرده لله تبارك وتعالى[٧٧] بلسانه حمدا ، وتجرد عن ملك الدنيـــا لله تعـــالى يدا[٧٨] ، وتجرده عن عمل الدنيـــا لله بدنا[٧٩] .

والزاد أربعة أنواع : طعام ، وشراب ، وادام ، وملح . فالشراب وجده والطعام تمامه بالادام ، وطعمه بالملح .

ومثاله من التقوى : الايمان والعبادات المفروضة ، وسننها وآدابها . فالايمان وجده ، وكمال المفروض بالمسنون (طعمه)[٨٠] ، وحسنه بالأدب .

واليقين فى أربعة : التوكل ، والتفويض ، والصبر ، والرضا .

فالتوكل : اعتماد العبد على فضل الله وقدرته فيما أراد ، فلا يجازيه الكريم القدير الا بالظفر ، قال تعـــالى : **« وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل »**[٨١] .

والتفويض : نزول العبد على حكم القسام الحكيم كيفما كان ، غير مبال بالمكروه منه ، فيجازيه الله تعالى بالوقاية دونه . قال الله تعالى : **« وأفوض أمرى الى الله ، أن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما مكروا »**[٨٢] .

والصبر آرية التوكل ، والرضا جلاء التفويض ، فمن ربط التوكل بآرية الصبر لم يزعزعه ريب الدهور ، وثبت عند المكاره وهو منصور ، ومن جلا (مرآة)[٨٣] التفويض بالرضا لم يغب عن قلبه غيب الأمور[٨٤] ، فأيقن عنه كأنه عاينه وهو عنه مستور .

وعلامات المسجونين أربعة : رثاثة فى الزى ، وغثاثة فى الأكل ، وطاعة للآمر بما هو سبب الخروج ، وبغض السجن بالقلب .

ورثاثة الزى وغثاثة الأكل مترددتان بين شهوة وحكمة . والطاعة والبغض بين حكمة وذلة .

---

(٧٧) فى (أ) : لله سبحانه بلسانه .
(٧٨) فى (م) : بدنا . من نسخة ثانية .
(٧٩) فى (م) : يدا . من نسخة ثانية .
(٨٠) سقطت من (ب) .
(٨١) آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤
(٨٢) غافر : ٤٤ ، ٤٥
(٨٣) سقطت من (ب) .
(٨٤) فى (م) : أمور الدنيا . من نسخة ثانية .

فالذى يرث زيه ، ويغث أكله بشهوته[٨٥] : البخيل المحروم خير عاجلته وآجلته ، بين أقرانه ، المهان فى ذلة بين اخوانه ، المسكين بفقر ظهر بخلا ، وغم بطن حبا ، فخاف الخروج عن سجنه — وقد عرفه سجنا — خوفا على مفارقة ماله ، وهو مفارق عن فوائده شحا فى حاله ، فيقيم ذليلا مسكينا ، ويخرج (شقيا)[٨٦] مهينا ، وهو يتحسر على ما جمع بعمره ، وحفظ بقلبه ، فقد تركه لغيره ، ولم يحظ بخيره .

أما يعلم هــذا المحبوس — ان رضى بالسجن مقاما ، ولم يتمن سواه اكراما — أنه خارج عنه لآخرين يدخلونه[٨٧] لا محالة ، فلا يكثر من أحب من المــال فيه على جهالة ، بل احتال لتقديمه الى ما اليه راحل ، ليصل الى محبوبه يوم اليه واصل ، أم جاهل لا يعى شيئا ، أم متحامق متغافل .

أيها المتألم بزوال ملكك حتى حفظته عن زيك[٨٨] وأكلك ، لتزولن عنه يوم هلكك ، وان ألم الزوال حمله كرها أشد[٨٩] من ألم الزوال شيئا بعد شىء طوعا ، أم سفهت[٩٠] فلا تهتدى الى حكمة ، وشقيت فسد دونك باب الرحمة ؟

وأما الذى رث زيه وغث [أكله] لحكمته فهو الذى سخا بماله[٩١] لراحته عن دار محنته ، وقدمه الى مملكته ، ولم يرض أن يرى على زى الملوك وطعامهم وهم فى دار المحبوسين[٩٢] ومقامهم ، فيظن ظان أنه رضى به وطنا ، واستطابه لنفسه مسكنا ، فيفتى به عالم[٩٣] عسى ، أو يضل به جاهل من الورى ، ويحشر فى زمرة من يقال لهم : « **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيــا** »[٩٤] .

---

(٨٥) اى خدمة لشهوته فى حفظ المــال من الانفاق .

(٨٦) سقطت من (ب) .

(٨٧) فى (ب) : لآخر يزيد خلوته . تحريف .

(٨٨) فى (أ) : عن ربك . والسياق يقتضى ما اخترناه .

(٨٩) فى (م) : لاشد . من نسخة ثانية .

(٩٠) فى (ب) : او سفهت .

(٩١) فى (أ) : سجن بماله . وبه يفسد المعنى . وفى (ب) : اسخى .

(٩٢) فى (أ) : دار المسجونين .

(٩٣) فى (أ) : فيفتابه عالم . وفى (م) : فيغثى به . من نسخة ثانيــة .

(٩٤) الأحقاف : ٢٠

فأحبته القلوب للحال ، اذا استهان بمراتبهم ، فلم ينازعهم عليها ، وقرت به العيون اذ لم يشح[٩٥] بمواهبه فآثرهم بها ، فهذا يقيم حميدا ، ويخرج سعيدا .

وأما الذى أبغض وأطاع للذلة فالخسيس المحروم نور الحكمة ، أطاع السجان تحريا لصلاح عاجل كرها ، وملأ قلبه من أوامره[٩٦] بغضا ، واستأنس بمن فى السجن من أجناسه ، وشكا فيما عليه من الأحوال الى جلاسه ، يكره[٩٧] الخروج من السجن حبا لصحبه ، وبغضا لربه ، فهذا الشقى الذى ركب[٩٨] ذروة الشقاوة ، والغبى الذى صور من طينة الغباوة ، فقد خالف هوى نفسه[٩٩] بالطاعة لغيره[١٠٠] ، وحرم بسوء نيته كل خيره[١٠١] ، واستأنس بفرقة أمثاله[١٠٢] ، وشكا اليهم وهم شامتون بحاله ، وأحب أصحاب السجن ولابد له من الرحيل عنهم ، وأبغض الرب مع علمه بالوصول اليه .

ألم يدر الشقى اذا التزم الطاعة أنها على الطوع أحلى ، ولرب السجن أولى ، وعلى سبيل يثمر (له)[١٠٣] فى العاقبة احرى[١٠٤] ، وأن الاستئناس بالمصاب غير صواب ، والشكوى الى الشامتين لشر عذاب . بل لو جاز الاستئناس حال المصيبة فبالتسليم[١٠٥] ، وان حلت الشكوى حيال التثقيف[١٠٦] فالى صاحب الثقاف[١٠٧] العظيم[١٠٨] ، والخروج وأنت متوطن تجذب جذبا أضر بك[١٠٩] من خروجك وأنت منتقل تخطو خطوا ، ألم تر قول الله : « **والنازعات غرقا** »[١١٠] فى توفى الكافرين ،

---

(٩٥) فى (ب) : يسبح بمواهبه .
(٩٦) اى : اوامر الله تعالى .
(٩٧) فى (أ) : وكره . وفى (م) : كارها . من نسخة ثانية .
(٩٨) فى (ب) : الشقى الذى يركب .
(٩٩) فى (ب) : خالف هـذا نفسه .
(١٠٠) اى لغير الله تعالى .
(١٠١) فى (ب) : عن خيره .
(١٠٢) فى (أ) : بفرقة اشكاله .
(١٠٣) سقطت من (ب) .
(١٠٤) فى (أ) : العاقبة أجدى .
(١٠٥) فى (ب) : فبالسلنيم .
(١٠٦) فى (أ) : حال التثقيف .
(١٠٧) الثقاف : أداة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوى وتعتدل .
(١٠٨) فى (أ) : الحكيم .
(١٠٩) فى (ب) : اصبر بك .
(١١٠) النازعات : ١

« **والناشطات نشطـا »**[١١١] فى توفى المؤمنين • قال الله تعـالى : **« ولـو ترى اذ يتوفى الـذين كفروا الملائـكة يضربون وجوهـهم وأدبارهم »**[١١٢] •

ثم العرض على الله تعالى وأنت راغب خير من العرض وأنت كاره ، فهذا الذى شرك العباد فى محنة طاعة الدنيـا ، وشرك الكفار فى محبة شدة اللظى[١١٣] •

وأما الذى أبغض وأطاع للحكمة فالسعيد الموفق لنور السعادة ، أطاع رب السجن فرارا عن محنة السجن طوعا ، فملأ قلبه على السجن مما وقف على شدائده بغضا ، فاعتزل جلاسه مستأنسا بمالك الأمر ، وتحمل لديهم[١١٤] فيما أصاب ، واستحلى الصبر[١١٥] ، وتمنى فراق السجن لبغضه اياه ، وأحب لقاء الرب لعلمه برضاه •

فهذا السعيد الذى مزج بالسعادة[١١٦] ، وحلىَ بالعبادة ، صفت فى بغضه الدنيـا لله سريرته ، وحطت عنه أعباء الطاعة لله محبته[١١٧] ، قد استوفز فى مقامه بقلبه انتظارا لرشد ربه ، فاذا الرسل ينادونه بالبشارة قبل الحلول والزيارة وهو متسارع من السجن الواسع الى الدهليز الضيق ، مستبشرا بما نال من الرحمة •

فمكان الراحة وان ضاق خير من واسع مكان الشدة ، لا ، بل البيت الخصيب المضىء نهارا أوسع من التيـه القفر المظلم سرارا ، استبطأ اذن الخروج الى فناء دار الملك مشتاقا الى اللقـاء ، مشغولا بفرط محبة الملك عن الملك والجزاء ، فصارت المقامات أربعا بعد الوجود الظاهر : الدنيـا وهى السجن[١١٨] ، والقبير وهو الدهليز ، والمحشر وهو فناء المملكة ، والجنـة وهى المملكة •

---

(١١١) النازعات : ٢ — (١١٢) الأنفال : ٥٠

(١١٣) فى (ب) : شدة الطى • — (١١٤) فى (ب) : ويتحمل لديهم •

(١١٥) فى (١٠) : بحلى الصبر • وفى (م) : بحلاوة الصبر • من نسخة ثانية •

(١١٦) فى (م) : فرح بالسعادة • من نسخة ثانية •

(١١٧) أى : انه لا يشعر بالكلفة فى اداء الفرائض وجميع المـأمورات ، بل يأتيها فى سهولة ويسر وحب لها دون مكابدة ولا معاناة • فالذى سقط عنه هو تعب الطاعة ، لا الطاعة نفسها •

(١١٨) فى (ب) : وهو السجن •

هــذا الذى عرف الدنيا سجنا فأبغضها ، وكذب العين فى أنها مملكة فأعرض عنها . فأما من عرفها مملكة فأحبها ، وكذب عقله بالكفر فسيعزله الله تعالى عنها الى أضيق سجن منها وهو القبر ، وهو راض بذلك الوهد مهدا[119] ، بعد ما كان لا تكفيه الدنيــا طولا وعرضا ، خوفا على جزاء فعله (اذ عرف عقده ، وذاق النموذج فى لحده)[120] . فبينــا هو كذلك اذ نفخ فى الصــور ، وجاء أوان النشــور ، فخرج من الضيق الى السعة وهو يقول : **« يا ويلنا من بعثنا من مرقدنــا هــذا »**[121] لمــا قدمت يداه ، وأظهر الله تعــالى عليــه وأبداه ، فيستوى على متن جهنم للعرض ، وعليــه سيماه ، فيخسف به الله تعالى (جهنم)[122] خسفاً الى سلاسل وحميم[123] ، ودرك بعد درك فى عذاب أليم فكانت مقاماته أربعا : الدنيــا وهى المملكة ، والقبر وهو السجن ، فينزع عن المملكة نزعا ، ويجذب الى السجن جذبا ، ثم يخرج للعرض الى فنــاء الملك ، وهو متمنى السجن خوفا من الهلك ، ثم (جهنم و)[124] اللظى لا يموت فيها ولا يحيا .

فأرى الله عباده بلطيف حكمته (تحقق)[125] الدنيا سجنا بعيونهم بعد الوفاة ، كما خلقها سجنا تراها القلوب حال الحياة ، كيلا يبقى لأحد على الله حجة بعد العيان ، ويزداد الذين آمنوا ايقانا على ايقان ، والله المستعان ، والعياذ به[126] (لأهله)[127] من الخذلان .

والمسجونون[128] أربعة : مصر على هواه فعلا وعقدا ، ومصر عقدا لا فعلا ، وتارك لهواه ظاهرا وباطنا ، وتارك باطنا لا ظاهرا .

فاما المصر عقدا وفعلا فلا يزاد له[129] الا تضييقا ، ولا ينال الا تشديدا ، يزاد أبدا فى أغلاله[130] ، ويرد الى أسوأ حاله ، من

---

(١١٩) فى (ب) : الوهد صيدا . والوهد : المنخفض العميق .
(١٢٠) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٢١) يس : ٥٢
(١٢٢) سقطت من (ب) .
(١٢٣) فى (ب) : وحمم .
(١٢٤) سقطت من (ب) .
(١٢٥) سقطت من (ب) .
(١٢٦) فى (أ) : والعياذ بالله .
(١٢٧) سقطت من (أ) .
(١٢٨) فى (ب) : والمسحورون .
(١٢٩) فى الاصول : فلا يزداد له . واخترنا ما فى (م) .
(١٣٠) فى (ب) : فى اقلاله .

فسحة السجن الى البئر ، ومن النيران أخرج الى المصر ، فبجلادين[١٣١] وهو أظلم عليـــه (وأضيق)[١٣٢] خوفا من العذاب الذى[١٣٣] لا ينجو بدون حياته من البئر العميق ، وزاوية المضيق فى ظلماته .

فعلى هذا المصر على هواه عقدا وفعلا فى الدنيا ، لا يزداد بما يطلبه ملكا وجلالة ، الا ضيقا وسفالة ، باضطراره[١٣٤] الى منازعة الكبار من أشكاله[١٣٥] ، وافتقاره فى رد منازعاتهم الى من هو دونه فى حاله ، وكان (من)[١٣٦] قبل أن نازع على الندرة نازع ضعيفا ، وان احتاج قصد شريفا ، غير أن الله تعالى أمضى حكمه فى زيادة تضييقه وتشديده ، على مثال بنـــاء السجن وتشييده ، تعرفها القلوب ، وتنكرها العيون ، حتى يرد الى الحبس (بعد الموت)[١٣٧] عيانا ، ثم يخرج الى المحشر بعذاب لا ينجو عنه (بفواته)[١٣٨] ايقانا[١٣٩] .

وأما المصر عقدا لا فعلا فمخادع بظاهره ربه ، وما خادع الا نفسه ، وسيخادعه الله تعالى فى سجنه ، وسيستدرجه بمكره ، فيبعثه على طلب الدنيـــا وما لديـــه من اصابة ، أو يملأ كفه من النعيم وما لنفسه الى التمتع به من اجابة ، أو ترغب نفسه فى التناول وشهواته فاترة لا يجد له لذة ، وطبائعه فاسدة لا تعطيه الا علة ، أو يقوى شهواته الفاترة[١٤٠] فيقضـــم النعم[١٤١] قضـــما ، ويســـلمه[١٤٢] الى الطبائـــع فتهضمه هضما[١٤٣] ، فيورث التناول فضولا فى القوى ، فيبعثه الى منازعات الورى ، اما بلسانه أو بيده ، أو بماله وعدده ، فيفقد راحة جسمه ، وأنس صدره ، الى أن يحل بقبره .

فلا تزال المصائب تصيبه فى لباس المواهب ، والأسود تعانقه فى

---

(١٣١) الكلمة مضطربة لا معنى لها فى (ب) .
(١٣٢) سقطت من (ب) .
(١٣٣) اضطربت العبارة فى (أ) هكذا : الى لا ينجو ...
(١٣٤) فى (ب) : فاضطراره .
(١٣٥) فى (ب) : منازعاتهم على أشكاله .
(١٣٦) سقطت من (ب) .
(١٣٧) سقطت من (ب) .
(١٣٨) سقطت من (ب) .
(١٣٩) فى (ب) : يقينـــا .
(١٤٠) فى (ب) : فاترة .
(١٤١) فى (ب) : فيقضم النعيم .
(١٤٢) فى الأصول : ويسلمها .
(١٤٣) فى الأصول : فتهضمها .

جسوم الكواعب ، الى أن يأتيه اليقين[١٤٤] فيساوى المسلم فى مرائى العيون •

ثم يخرج الى المحشر فى معشر المسلمين ، يظن أنه خدع بما أظهر رب العالمين ، غافلا عن خداع المولى ، كما غفل عنه فى الأولى ، يمشى بنورهم[١٤٥] الى أن يعاين النعيم ، معتقدا جواز الجحيم ، اذ الله تعالى ضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة والثواب ، وظاهره من قبل المخادع[١٤٦] العذاب •

يناديهم[١٤٧] : ألم أكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنك خادعت الله تعالى واغتررت بامهاله فى الدنيا ، فخادعك الله حتى مشيت بنورنا الى مأواك[١٤٨] من النار ، وانما هى مأواك اليوم مع الكفار • فكان مأوى المخادعين مأوى الذين كفروا معلنين ، وانما ازدادوا حسرة بما عاينوا من النعمة ، وحيرة على ما أخذوا بغتة •

وأما التارك لهواه ظاهرا وباطنا فلا ينال[١٤٩] من رب السجن [الا] ترفيها ، ووعدا حسنا وتخفيفا ، ويحل عنه[١٥٠] كل يوم (نوع)[١٥١] قيد ، ويخرج كل يوم الى خير سجن ، وتتصل اليه من لدنه ضروب مواعيد[١٥٢] صادقة ، ويدر عليه صنوف عوائد كلها بالفوز ناطقة ، حتى يصير معه بقلبه (وينسى)[١٥٣] احتباسه ، فى السجن بجسمه ، الى أن يأتيه البشير بالاطلاق ، فيقوم اليه مجيبا متسارعا بأركانه ، سابقا فى العرض كل اخوانه ، فلا يقف حتى يعتق ، فقد ظهر حاله قبل عرضه ، وخرج عن عهدة نافلته وفرضه •

---

(١٤٤) المراد باليقين : الموت •

(١٤٥) اى : بنور المسلمين مصداقا لقوله تعالى : ((**يسعى نورهم بين ايديهم** ••)) (الحديد : ١٢) •

(١٤٦) فى الاصول : من قبله المخادع •

(١٤٧) فى (أ) : ينادونهم •

(١٤٨) فى (ب) : الى ما وراءك •

(١٤٩) فى (أ) : فلا يزال •

(١٥٠) فى (ب) : ويحل عند •

(١٥١) سقطت من (أ) •

(١٥٢) فى (م) : صنوف مواعيد • من نسخة ثانية •

(١٥٣) سقطت من (ب) •

وأما التارك لهواه باطنا لا ظاهرا فلا يخفف تركه عقدا مكاره الحبس ، ولا ينجو قلبه فى محبته عن مساعدة النفس • فهذا عبد خادعته نفسه فأطاعها على جحده ، وما خادع الا ربه ، فأماله فى فعله عن سنن عقده ، فصار يعصى بين ندم عنه بقلبه ، وخوف عليــه من ربه ، فينمحي العصيان بين طاعة وطاعة[١٥٤] ، وتتلاشى بين عشرة وعشرة[١٥٥] ، فلا يزال عنه حتى يأتيــه رسول الخروج ، ناظرا بعين الرحمة ، ناطقا بلســان الهيبة ، وهو على خوف ورجاء ، فيجيب ولا يتسارع الى الاجابة قلبه ، ويتكاسل عنها جسمه ، الى أن يبلغ شفا القبر ، فيبصره مظلما ضيقا بظاهره ولحده ، واسعا نيرا بباطنه ، فيمكث فى قبره غافلا عن حال غيره ، الى أن ينادى للعرض على المولى ، فيقام للحساب مع أقران فعله فى الدنيــا •

ونصب الميزان ، وأزلفت الجنان ، وسعرت النيران ، وكورت الشمس ، وانكدرت النجوم ، وطويت السموات ، وسيرت الجبال ، وبسط الصعيد ، وظهرت الآيات ، وصفت الملائكة صفين للعزيز الوهاب ، صف العقاب ، وصف الثواب ، وجاءت الرسل شــهودا ، وأقام العباد وفودا ، وأحاط دخان جهنم بالخلق محرقا ، وأضحى الصعيد بنور الرب مشرقا ، والعباد عراة حفاة ، فهم مذعنون مهطعون ، سكوت لا يجسر أحد أن يقرب أحدا هيبة ، ولا يرفع بصره الى شيء خيبة ، وتطايرت الكتب الى الخلق ، ودعى كل أناس بامامهم الى الحق ، والمسكين ذاكر ما أظهره ، ناس ما أضمره ، يذوب حيــاء عما فى الكتاب ، ويبكى خوفا من سوء الحساب ، يرفع يمينه ليأخذ فرجع غير راغب ، فاذا ملك الرحمة بيمينه الى كتابه يقول : لا تخف فأنا الكاتب ، والرسول صلى الله عليــه وسلم يكنفه يقول : لا تستحى فأنا الشاهد ، والله تعــالى يقول : أبشر فأنا المحاسب[١٥٦] ، فيخادع الله تعالى نفسه جزاء على

---

(١٥٤) أى : طاعة النفس فى العصيان ، وطاعة فى الندم والتوبة .

(١٥٥) يعنى بين عشرة الهوى ظاهرا ، وعشرة الرب باطنا . فالباطن مسخر لله ، والظاهر مختار للهوى مع سلامة العقد .

(١٥٦) وعلى هــذا يكون سبب الرحمة هو سلامة عقد الباطن ، وحضور العبد مع الرب ، والندم على الزلة ، والتوبة من قريب : « **انمــا التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب** » •• (النساء : ١٧) .

ما خادع عبده ، فيسلمه الى الجنان من بين أهل النيران ، جزاء للظاهر بالظاهر ، والباطن بالباطن ، والله خير المجازين ، وأكرم المحسنين ، وان غلبت سيئة حسنته[157] طهره الله بما رحمه أو نار ، ثم ألحقه بالأبرار .

* * *

* ذكر الدنيا ــ لا شيء سوى الدنيا :

وهو قول الكافرين . زعموا أن الدنيا مرتعة وملهاة[158] ، ومملكة ومفخرة ، فيرتعون (أيام صباهم ، ويلهون)[159] أيام شبابهم ، ويملكون اذا بلغوا أشدهم ، ويفخرون بعد ذلك بأفعالهم وآثارهم ، وليست الدنيا كذلك ، بل هي مخدعة بزخارفها ، ثم متعبة فى مطالبها ، ثم معركة فى منازعة أهلها[160] على مواهبها ، ثم مهلكة عيانا ، ولما نيل[161] المنى منها [أحد] ايقانا ، وقد قدمنا عليه من البيان برهانا .

هذا اذا سميناها مملكة ، وطلبناها بولاية الأمراء والكبراء[162] ، واذا سميناها مملوكة[163] ، وطلبناها بعقد طلب الرغبة والفخار[164] ، فهى عجوز ذات عشاق ، ملولة فاجرة .

أما عجوز[165] فلأنها أم جداتك وآبائك ، وقد كانت أسنت قبل أولئك ، وللعجوز أربع خصال : غرور بالنقاب[166] ، وفرار عن الخلق[167] ، وسماجة عند النظر ، وبشاعة عند التمتع .

---

(١٥٧) فى (ب) : حسنة .
(١٥٨) فى (م) : ولهو . من نسخة ثانية .
(١٥٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٦٠) فى (ب) : فتاركة اهلها . وفى (م) : منازعات . من نسخة اخرى .
(١٦١) فى الأصول : ولم ينل ، واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .
(١٦٢) فى الأصول : الكبار . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .
(١٦٣) فى (ب) : سميناها مملكة .
(١٦٤) فى (أ) : طلب الرعية والتجار .
(١٦٥) فى (أ) : اما العجوز .
(١٦٦) اى بما يستر قبحها من الستور .
(١٦٧) فى (ب) : وفرار عن الخلوة .

وأما ذات عشاق فلأن الناس كلهم يحبونها بغير ملك[١٦٨] ، وهى الملتفتة اليهم بغنــج[١٦٩] ، ولهــا خصـــال أربعة : الوعد ، والخلف ، والتحنن[١٧٠] ، والتلون .

وأما الملولة[١٧١] فلأنها ما دامت لقديم ، ولا امتنعت لجديد[١٧٢] ، ولها خصال أربعة : الاستطراف[١٧٣] ، وسرعـــة الاعراض ، وســـوء الاختيار ، وترك الاختبار .

وأما الفاجرة فلأنها ما اجتمعت للعادة كنوزا الا عند الغاصبين من الولاة والظالمين ، ولها خصال أربعة : استلذاذ الحرام[١٧٤] ، واستبشاع الحلال ، والتمنع على الطالب ، وتتبع الهارب[١٧٥] .

غير أنك حكيم ، تركت خصالها الذميمة ، الى خصالك الحميدة ، فنظرت فى طبائعك وفصولك ، ووقفت على نتائجها الصحيحة[١٧٦] ، فأحببت أربعة : الراحة بالبلغم ، والفرح بالـــدم ، وعلو المجد[١٧٧] بالصفراء ، وحسن التدبير بالسوداء ، فرأيت بذر الراحة فى فراغ القلب ، وغراس الفرح فى طرب النفس ، وعلو الهمة فى استحقار أدنى الغرض ، وحسن التدبير فى درك (سوء)[١٧٨] العاقبة بالنظر .

ثم أصبت النظر فى العواقب شاغلا للقلب ، باستحقار[١٧٩] أدنى الغرض مذهبا للطرب ، وفراغ القلب منافيا حسن التدبير ، وطرب النفس واضعا علو الهمة ، فتضادت أحكام عللك ، فخسرت دون منهلك ، ثم رجعت الى حكمتك ، واستخرجت الدفائن بفكرتك .

---

(١٦٨) اى : وهم لا يملكونها، بل يتمنونها .
(١٦٩) فى (ب) : والتحيز .
(١٧٠) الغنج : الدلال .
(١٧١) فى (م) : المملوكة . من نسخة ثانية . ولا يقبله السياق .
(١٧٢) فى (أ) : ولا امتنعت بجديد .
(١٧٣) فى (أ) : الاستطراق . والاستطراف : حب كل جديد .
(١٧٤) فى (أ) : استمتاع بالحرام .
(١٧٥) فى (أ) : التتبع للهارب .
(١٧٦) فى (ب) : قبائحها الصحيحة .
(١٧٧) فى (أ) : علو المهد .
(١٧٨) سقطت من (ب) .
(١٧٩) فى (ب) : واستحقار .

فوجدت الصفراء أميرا ، والسوداء وزيرا ، والدم أنيسا ، والبلغم نديما ، فجمعت بينهم على هذا الترتيب (ثم نظرت الى اشاراتها بقلب مصيب)[١٨٠] فرأيت الأمير : عالى الهمة[١٨١] غيورا غالبا سائسا .

ورأيت علو الهمة فى أربع : التهاون بالبعض ، وترك الرضا الا بالكل ، وطلب الكفايـة[١٨٢] للمنازعة ، والعفو عند المقدرة ، فتركت أبعاض الدنيا مستحقرا اياها ، مائلا الى كلها ، فاذا الكل فائتا فيما تركت أبعاضا على أهلها ، فحملتك الشهوة على منازعتهم للأصفاء[١٨٣] ، فاذا هم ليسوا بأكفاء ، فأكثر من حظى بها التجار والملوك وما بهم كفاءة الحكماء .

وقد امتزج بالشهوة الغضب ، فأداك الى المنازعة ، فلما قدرت عليهم حملتك الهمة الغالبة[١٨٤] على العفو عنهم ، فملت الى الحالة الأولى ، الا أن تنتقم منهم فتصير تاركا لعلو الهمة بتناكحها[١٨٥] ، ضالا عن مناهجها ، (الا أن تترك الدنيا بأسرها ، بعلو همتك عن أهلها ، مستغنيا عنهم بنفسك ، متجملا[١٨٦] بعلمها)[١٨٧] .

ثم رأيت الغيرة فى أربع : سوء الظن على الغيب ، والسخط عند العيب ، فكراهة بالشركة ، واعراض الا بالقدمة[١٨٨] .

فاذا أسأت ظنك فيما غاب عنك لم تصبر عليـه ، فسلبته[١٨٩] وأين الذى لا يعيب ، واذا سخطت على العيب[١٩٠] زهد الا فى الكامل وأين الذى هو غير معيب ، واذا كرهت الشركة ولم تنل الصفو صبرت عنه ، فاذا لم تقبل الا على ما كان لك من القديم ، وما من حظ من الدنيا الا وقد تمتع به من كان قبلك تبرأت منه ، فلا تكاد تظفر بحظ الا رأيت

---

(١٨٠) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٨١) فى (أ) : على الهمة .
(١٨٢) فى (أ) : الكفاءة .
(١٨٣) الأصفاء ما كان صفوا خالصا .
(١٨٤) فى (أ) : همتك العالية .
(١٨٥) فى (أ) : بنتائجها .
(١٨٦) فى (م) : بعملها . من نسخة ثانية .
(١٨٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٨٨) اى بالقديم من الصحبة .
(١٨٩) فى (أ) : فسبيته .
(١٩٠) فى (ب) : سخط على العيب .

الخيرة فى نقض الغيرة ، وكفى بالعاقل عارا أن يكون صبورا على حظوظ تنفيها الغيور •

ثم رأيت الغلبة فى أربع : قدرة حسية بلا عجز ، وغنى بلا فقر ، وهيبة بلا تبذل ، واعطاء بلا منع •

فالهيبة تنفى نشو المنازعة[191] ، والقدرة يقطعها الغنى عن الناس ، والغنى (عن الناس)[192] يورث الهيبة ، والاعطاء تشهده القدرة[193] • وانك لا تقدر على الكل الا بجمع البعض اليك ، ولن تقدر عليـــه الا بحيلة العاجزين قبل الامكان ، ولن تستغنى الا بالمـــال والخدم ، وفى تحصيلها الافتقار اليهم قبل الاستغناء عن الأمم ، ولن تهاب الا بانقباض وحجاب ، وتحت ذلك الانفراد ، ومن انفرد عن الكل بذاته ، هابهم قبل أن يهابوه باختيالاته • ولا اعطاء بعد الأخذ[194] ، وانه لأذم من المنع •

فلن تنصب حبالة لصيد واحد من هذه الأربع[195] الا صادك (بها)[196] ضده ، ولا نظرت الى مقصود نيل منها الا وقد نقض به قصده •

ثم رأيت السياسة فى أربع : الحذر ، واليقظة ، والمعرفة ، والعدل •

فمن لم يحذر غلبته عيناه زمان الراحة ، ومن نام غفل عن الرعية ، فظلم ونقض بنيان السياسة ، فانها (عبارة)[197] عن الرعاية بالتأديب والكفاية • فمنع الكفاية يبغضك اليهم ، والزيادة فى التأديب تنفرهم عنك ، والاعطاء فوق الكفاية يشغلهم دونك ، وترك[198] الأدب يحزبهم عليـــك • ولن يحذر[199] الوالى الكافى على رعيته وولايته بعد تيقظه الا بالغفلة عن شهواته ، وخاصة اراداته ، فلن تكفى قلنسوة رأسين ، ولن يحوى غمد سيفين ، ولن يقف على مصالح الرعية ليسوسهم بالعدل

---

(١٩١) فى (ب) : تنفى بسوء المنازعة .
(١٩٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٩٣) فى (أ) : يشهد بالقدرة .
(١٩٤) فى (ب) : والاعطاء بعد الأخذ .
(١٩٥) يريد : عناصر الغلبة .
(١٩٦) سقطت من (ب) .
(١٩٧) سقطت من (أ) .
(١٩٨) فى الأصول : فترك الأدب .
(١٩٩) فى (ب) : ولم يحذر .

الا بالجور على نفسه والولد والأهل • فمن لم يعص نفسه ولم يحرمها جميع مناها لم يسع بعض (مني)[٢٠٠] الخلق وهواها[٢٠١] •

وأما الوزير فمشير عليك بأربعة أضداد لأوامر الأمير : التواضع ، والاحتمال ، والحيلة ، والاحسان •

فالتواضع في أربع : القناعة باليسير ، والايثار بالكثير ، والمعذرة للحقير ، (والتسليم للكبير)[٢٠٢] •

والاحتمال في أربع : حسن الظن على الغيب ، والعمى عن العيب ، والرضا بالشركة ، ونسيان ما مضى من السيئة •

والحيلة في أربع : عجز حسى بلا قدرة ، وفقر بلا غنى ، وتبذل بلا هيبة ، ومنع بلا يد • على مثال من احتال بحبالته ليصيد ، فانه لا يتحين فرصة الأخذ لمثله الا عن عجز وفقد[٢٠٣] ، ولا يتوصل اليه الا بتبذل وجهد ، ومنع الناس عن التعرض (له)[٢٠٤] (بسوء)[٢٠٥] ، وما له عليــه بعد من يد[٢٠٦] •

والاحســان في أربع : التغافل ، والتنــاوم[٢٠٧] ، والتجــاهل ، والامهال • فمن غفل سكنت نفسه ونامت وجهلت فأهملت ، وهذا هو مختار العامة ، فانهم يكرهون علم الغير بحقائقهم ، والانكار عليهم في طرائقهم ، فمن أراد تتميم الاحسان اليهم تكلف الاعراض عنهم ، والستر عليهم[٢٠٨] ، فتغافل مكان عقل ، وتناوم مكان قائم ، وتجاهل اذ علم ، وأمهل ان لم يهمل[٢٠٩] ، ثم لم يقدر على هذه الا بالتجرد عن الدنيا ، اذ ما بهم صبر عن استباحة[٢١٠] ما لا يحمى ، ولا فيهم انتهاء عن[٢١١] قبيح لا ينهى •

---

(٢٠٠) سقطت من (ب) .

(٢٠١) يعنى : ان طاقة الحاكم لا تتســع لمصالح النــاس وهوى النفس معا .

(٢٠٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٢٠٣) فى (ب) : عجز وفقر . (٢٠٤) سقطت من (ب) .

(٢٠٥) سقطت من (أ) . (٢٠٦) فى (ب) : من مزيد .

(٢٠٧) فى الأصول : التناول . والسياق يقتضى ما اخترناه استنادا الى ما بعده من شرح . (٢٠٨) فى (ب) : والسير عليهم .

(٢٠٩) فى (ب) : اذ لم يهمل . (٢١٠) فى (ب) : من استباحة .

(٢١١) فى (أ) ، (ب) : من قبيح .

وسيبقى من على هذا الحال[٢١٢] ـ أعنى الحظوظ المحسوسة ـ فقيرا ، لا أميرا ولا وزيرا ، ومع ذلك ناقضت رأى أميرك فى كل تدبيرك .

وأما الأنيس فمائل الى أربعة : اللهو ، والطرب ، والسخف ، والكذب .

أما اللهو ففى أربع : الاسراف بملك الحال ، والاعراض عن المـــآل ، واستطراف الحاضر ، ونسيان الغائب . فمن (لم)[٢١٣] يسرف انفاقا لم يكمل متعته ، ولم يتم أنسه . ومن لم يعرض عن العاقبة لم تصف مسرته ، ولم تطب نفسه . ومن لم يستطرف الحاضر لم تقر عينه ، ومن لم ينس الغائب لم يأنس قلبه . وفى الاسراف اتلاف الأملاك ، وفى الاعراض عن المغبة اشراف على الهلاك ، وفى استطراف الحاضر بلا تجربة غبن ظاهر ، وفى نسيـــان الغائب هجر واصب . وهـــذه خلال[٢١٤] لا ترضى لمن أنس بالدنيا بالاخلال حتى يقلع العروق ، ويقطع الأوصال[٢١٥] ، ثم تخرجه عريانا ، ويقيمه حزينا مهانا .

وأما الطرب ففى أربع : الشرب ، والسماع ، والنظر ، والفكر . فمن عشق أنس قلبه بالفكرة فى معشوقه ، وسخن عينه للنظر اليه ، وطرب فلم يرض بالاختصاص فأطرب معشوقه بالسماع ، ثم نشط[٢١٦] من الشرب نفيا للملالة (بالشراب)[٢١٧] ، فاذا روى سكر ، وجاد وافتقر ، مع ما يغفل بعد تمام السكر[٢١٨] عن كل طربه ، ويصحب بعد الصحو ضغط الخمار[٢١٩] مكان فرحه .

وأما السخف ففى أربعة : الخسة ، والدناءة ، والجهل ، والحمق . (فمن لم يحمق لم يرض بالجهل)[٢٢٠] . ومن لم يجهل لم يرض بالدناءة ، ومن لم يدن لم يقر على الخسة ، ومن لم يخس نفسه لم يأنس بالسخف .

---

(٢١٢) فى (أ) : من على هذه الخلال .

(٢١٣) سقطت من (أ) . (٢١٤) فى (أ) : وهذه خصال .

(٢١٥) اى : يقطع عروق اللهو ويمزق أوصاله . وهذا هو علاج اللاهى . (٢١٦) فى (ب) : ثم نشطا .

(٢١٧) سقطت من (ب) .

(٢١٨) فى (ب) : بعد مقام السكر .

(٢١٩) ضغط الخمار ــ بضم الخاء ــ ما يعقب الشراب من خمول وكزازة فى النفس . وفى (ب) : ضغا لخماره .

(٢٢٠) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

وتحت ذلك سقوط الحشمة ، وذهاب الهيبة ، وجراءة الخسيس عليه ، والانبساط بالجواب ، وانها لأسباب الوحشة ، متى أفاق عن الدهشة .

وأما الكذب ففى أربع : الملق ، والنفاق ، والغدر ، والسفه . فمن سفهت نفسه استحلى الغدر ، فسبب له النفاق ، وتمكن منه بالملق ، ونطق بالكذب ، وفيها زوال ثقة العامة به ، ونفرة الخاصة عنه ، وبعد عن القلوب ، وسقوط عن العيون ، وانها لكئوس وحشة الأمير ، لا يصحو عن خمارها[٢٢١] برأى الوزير ، مع ما طمس أنوار حكمة السوداء ، وآثار همة الصفراء .

وأما القديم[٢٢٢] فداعيك الى أربعة : فراغ القلب عن الأشغال ، واليد عن الأعمال ، والظهر عن الأثقال ، والسكون الى المحال .

وفراغ القلب بأربعة : نسيان الفائت ، والغفلة عن الحاضر ، والجهل بالغائب ، والنوم الدائم[٢٢٣] . ومن نسى ما فات لم يلحق بغرضه ، ومن غفل عن الحاضر خرج عن يده ، ومن جهل بالغائب لم يشتغل بطلبه ، ومن نام فقد غاب عن بدنه[٢٢٤] . ويستنبيه وهو يريد الدنيا[٢٢٥] جائعا ، والى ما فى يد غيره نازعا ، ويشتغل قلبه بالسبب ، واليد بالطلب ، والظهر بالتعب ، وينتقل عن المحال لدرك الأرب ، فيعود على ما شيد بالنقض حتى لا يبقى له أساس ، مع ما خالف الأمير والوزير والأنيس بما قاس[٢٢٦] ، فهؤلاء قوام فيك[٢٢٧] ، وقد تناقضت آراء كل واحد منهم فى ذاته ، مع ما ناقض برأيه صاحبه فى ارادته .

اذا طلبت عاجله ، ونازعت فيه طالبه ، وتعاونت الآراء وتعاونوا ، حتى استدللت بها على تركه الا لمتعة[٢٢٨] ، فيترك بعلو همته الأمير الحقير[٢٢٩] على الخسيس ، وبالغيرة القحبة المشروك فيها على الديوث ،

---

(٢٢١) فى (ب) : على خمارها .

(٢٢٢) فى (م) : المراد بالقديم : البلغم .

(٢٢٣) ليس المراد النوم الحقيقى ، بل المراد لازم النوم وهو سلب ارادة الانسان وتسليمها لله بارئها ومصرفها .

(٢٢٤) فى (أ) : عن يده .

(٢٢٥) فى (أ) : مريد للدنيا .

(٢٢٦) فى (ب) : لما قاس .

(٢٢٧) فى (ب) : فهو لاقوام لك فيك . مضطرب .

(٢٢٨) فى (ب) : الا لمنعة بملكه .

(٢٢٩) فى (ب) : الأيسر الحقير .

وكررت بالغلبة علي نفسك ان عصتك لتهون ، وسستها بالعدل ان أسأت الأدب لتلين •

ثم تصغى الى آراء الوزير فهو مصيب ، ورأيه عجيب ، فتتواضع للورى ، وتحتمل منهم الأذى ، وتحتال لصيد نفسك وتوثيقها ، محسنا اليها بعد أسرها فى تثقيفها •

ثم تصغى الى رأى الأنيس ، فما أنت فى استعماله بمحبوس[٢٣٠] ، فتلهو عما لا يعنيك ، طربا بتثمير ما عناك ، ساخفآ بمناك ، كاذبا نفسك اذا حدثتك بطلب دنياك[٢٣١] •

ثم تصغى الى رأى النديم ، فهو عليم حكيم ، فتفرغ قلبك عن الملاهى ، ويدك عن العوارى ، وظهرك عن المنن ، راضيا بما يكون ، فصار فى كل ذلك نصيب التأديب والسياسة لنفسك ، ونصيب الترك والايثار للناس • فلا تقلبن القسمة[٢٣٢] بالهوى ودرك الحواس ، فيتناقض عليك البناء بالأساس ، بل امض[٢٣٣] على ما أريناك بالاستنباط والقياس ، تكن الأمير عند ذلك وأنت بذاتك[٢٣٤] مطاع ، والناس بحكمتك لك أتباع ، وبوزيرك اقتداء واتباع ولقول أنيسك سماع ، ولسمت قديمك أشياع (والله الموفق) •

* * *

* ذكر الدنيا على أن فى الآخرة ثوابا بلا عذاب :

المدنيا فى مقابلة الآخرة : نموذج ، وحجاب ، وزاد ، وحساب •

أما النموذج فلأن الله تعالى لما خلقها سجنا للامتحان ، ووعد للترغيب الملكة والجنان ، ولن تقع الرغبة بوعد شىء الا بعد معرفته بالعيان أو القياس ، ولا معرفة للنفس بالنعيم الا من طريق الحواس ، فعجل فى السجن من أنواع الموعود ما يكون نموذجا تحقيقا لحكمة الموعود • ولولا ذلك لم يستقم كل هذا النعيم فى دار المحنة ، الا أنها متى رأيت نموذجا[٢٣٥] لم تكن نعمة •

---

(٢٣٠) فى (أ) : بمحبوس •
(٢٣١) فى (أ) : بطلب دنياك •
(٢٣٢) فى (أ) : تلقين القسمة •
(٢٣٣) فى (أ) : بل امضين •
(٢٣٤) فى (ب) : وأنت بذلك •
(٢٣٥) فى (ب) : متى رات نموذجا •

وأما الحجاب فلأن الله تعالى خلق الخلق لتمييز الخبيث[٢٣٦] من الطيب بأوامره[٢٣٧] على الغيب ، اذ لو كانت الآيات عذابا ، ما عصاه عبد ايقانا ، وما غابت الايات القاهرة الا بالدنيا ، فكانت حجابا بين العبد والمولى ، ولولا ذلك لكانت من النعماء[٢٣٨] ، وما هو جائز فى الحكمه ، فالدار للابتلاء .

وأما الزاد فلأن الله تعالى خلق الجسوم محتبسين فى الدنيـــا ، والأرواح مسافرين الى العقبى بالجسوم مدة حياتها ، وقرن الحياة بأقواتها ، فخلق الدنيا زاد ليتم معها حكم الحكيم ، ولولاه[٢٣٩] لكانت الدنيـــا من النعيم .

وأما الحساب فلأن الله تعالى خلقها لتكون زادا ومتاعا زمان سفره ، لا ملكا وكنوزا ليده ، فصار فى الدنيا بين أمر ونهى ، والثواب فى مقابلة الصـــواب ، ولن يتبين ذلك الا بالحســـاب ، ولولاه[٢٤٠] لكان ملـــكا بلا ارتياب .

فكونها نموذجا دليل على الترك من وجوه أربعة : النموذج للأرغاب لا للطلاب ، وللذوقة[٢٤١] لا للشبعة ، وللرؤية لا للقنيـــة ، وللسائل[٢٤٢] لا للتاجر ، لأنه لا يقدم[٢٤٣] للعرض الا اليسير الدال على الكثير ، الهين الذى لا ينقص من الكل ولا يزيد ، وذلك تأويل قول النبى صلى الله عليـــه وسلم : « لو كانت الدنيـــا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » .

فدل الحكيم عزت قدرته عباده بما عجل لهم من النعيم حال حبسهم للمحنة على ما أعد لهم من جنسه حال جزائهم بعد ظهور الطيبة ، فكان الموعود من المشهود على مقابلة صفتى العبد من الخبث فى الدنيا ، والطيبة فى الآخرة ، وعلى مقابلة المملكة من السجن ليرغبوا بهذه فى الأخرى[٢٤٤] التى هى المقصود[٢٤٥] ، (ويرموا بهذه)[٢٤٦] فانها مردودة

---

(٢٣٦) فى (أ) : ليميز . وفى (م) : ليتميز . من نسخة ثانية .
(٢٣٧) فى (أ) : بأوامر .
(٢٣٨) فى (أ) : من النعمى .
(٢٣٩) فى (أ) : ولولا هو .
(٢٤٠) فى (أ) : ولولا هو .
(٢٤١) فى (أ) : وللذوق .
(٢٤٢) فى (ب) : وللسالك .
(٢٤٣) فى (ب) : لا يقوم .
(٢٤٤) فى (أ) : فى الاخرة .
(٢٤٥) فى (أ) : المقصودة .
(٢٤٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

لا تصلح للتجار لهوانها ، الا للمفاليس الذين ما عندهم للسلع شيء من أثمانها .

فهذه أعلى وجوه الترك . فقد تركها استحقارا ، ترك التاجر النموذج القليـــل اختيارا ، على طواعية من النفس فى تركه ، ورغبة فى الكثير وملكه .

وأى عاقل يستجيز من نفسه بعد ما صدق صاحب الشرع فى أنها أقل من جناح بعوضة (وعرف)[٢٤٧] بالعقل أنها نموذج معروضة لن يرضى[٢٤٨] بكلها لنفسه حظا ، أو ينازع الناس عليها بعضا فبعضا ، على يقين أنه غير آت على كلها ، ولا قادر على أهلها . بل من عقل أدنى عقل سفه المنازعين فى الجناح ، ولو سلم له تركه للرياح .

وأما الحجاب فدليـــل عقلى (على الترك)[٢٤٩] من وجوه أربعة : فرار عن استخفاف الحاجب ، وأنفة عن مقام الحجب ، ورغبة فى دار المملكة ، وشوقا الى لقاء الملك .

فلن ينجو المحجوب[٢٥٠] عن الأولين ، ولم يظفر بالآخرين الا بأخذ الحجاب للرفع ، دون الامساك والنفع ، فان الحجاب لا يعدو الباب ، ولا يلفى عنده الا البواب ، الا أن يرضى بالمقام فيه ، وما يرضى به الكامل ، ولا يقف عنده العــاقل ، فهذا هو الترك الثــانى[٢٥١] للوجه الفانى[٢٥٢] .

فقد لزمك الترك بغضا وان ثبت لنفسك ، فالترك لباعثة فيك فوق الترك لباعثة فى المتروك[٢٥٣] ، لأنه اذا كان لداعيـــة فيك تركته قبل الخطرة ، ومتى كان لباعثة فى غيرك لم تبصر بنظرة ، وتركت النموذج وهو معروض[٢٥٤] ، وتركت الحجاب وهو محفوظ ، فتركت النموذج وهو منبوذ ، وتركت الحجاب وهو مأخوذ (اذا كان الترك لباعثة فيك)[٢٥٥] .

---

(٢٤٧) سقطت من (ب) . (٢٤٨) فى (أ) : ان يرضى .

(٢٤٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٢٥٠) فى (أ) : المحبوب . (٢٥١) فى (أ) : التالى .

(٢٥٢) فى (أ) : الغالى . وفى (م) : العالى . بالمهملة . من نسخة ثانية .

(٢٥٣) لأن الترك لباعثة فيك ترك اختيارى ، والترك لباعثة فى المترك اضطرارى . (٢٥٤) فى (أ) : وهو معروض .

(٢٥٥) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

وأما الزاد فدليل على الترك الا قدر المتعة[٢٥٦] من وجوه أربعة : جمعه ، وتعب حمله ، وخوف الكلال بسببه ، والاستغناء عنه عند المنزل فلن يحصل من الدنيا حظ الا بعوض ، ولن يحمل فى السفر الا بتعب ، وخيف عند الزيادة هلاك الراحلة ، وبقاء المسافر حسيرا ، أو قصد اللصوص وصيرورتـه أسـيرا ، وان سـلم وفضل لم يطب قديد الأسفار[٢٥٧] مع نعيم الأمصار[٢٥٨] .

فهذا هو الترك التابع ، فقد لزمك اضطرارا خوفا من الهـلاك وفرارا ، والثانى[٢٥٩] لزمك اختيارا ، وتركت فضل الزاد ومعك منه مقدار ، وتركت الحجاب أصلا وأنت مختار ، وتركت الحجاب فكان مأخوذا[٢٦٠] ، وأكلت الزاد قدر ما كان محمولا .

وأما الحساب فدليل على الترك من وجوه أربعة : حاجتك الى طلب الصواب ، وتحرير الكتاب ، واشهاد العدول ، والاثبات عند القاضى يوم أنت مسئول .

وانها كلها فضل[٢٦١] ، الا أن تغفل الى يوم تسئل ، فهو الترك الرابع ، وانه لبعد التابع ، فقد لزم ترك (فضل)[٢٦٢] الزاد وهو للحال متعة لضرر فى المـآل ، والحساب مما يجب تركه لضرر (فى)[٢٦٣] الحال ، فما الأمر بمبنى على الاغفال . وتركت فضل الزاد وهو لك ، وتركت الحساب وهو عليك ، وتركت الفضل وقد ذقت حلاوته ، وتركب الحساب وقد استبشعت مرارته .

* * *

فصـل فى التجـارة

ثم انا عفونا لك عن هـذه الخلال[٢٦٤] التى هى للترك فى مقابلة الآخرة لخصال[٢٦٥] حميدة ، رزقها[٢٦٦] لجميع الحاضرة ، فانك أمين

---

(٢٥٦) فى (ب) : قدر المنعة .
(٢٥٧) فى (ب) : فريد الأسفار .
(٢٥٨) فى (ب) : نعم الأمصار .
(٢٥٩) فى (أ) : والتالى .
(٢٦٠) فى (أ) : وكان مأخوذا .
(٢٦١) فى (ب) : رمضاء .
(٢٦٢) سقطت من (ب) .
(٢٦٣) سقطت من (ب) .
(٢٦٤) فى (م) : الخصال . من نسخة ثانية . والمراد بها : النموذج ، والزاد ، والحساب ، والحجاب .
(٢٦٥) فى (أ) : بخصال .
(٢٦٦) فى (أ) : رزقتها .

مشهود ، تاجر كبير ، حازم يقظ ، سليم مجدود ، فما يوصف التاجر الا بهذه الخصال ، ولن ينال الا (بهذه)[٢٦٧] التجارة جم الأموال .

وأما[٢٦٨] عند الملوك فمغصوب ، وما عند العملة فكفاف ، وقد عفونا لك[٢٦٩] عن الزهد ، فانه عزيز على العبد ، وسلمنا[٢٧٠] (أنك)[٢٧١] اشتهرت بالأمانة فازدحم عليك الناس للتجارة فتيقظت لها وحزمت ، فسلمت عن الآفات مجدوداً[٢٧٢] بالأرباح .

وان أمانة التاجر فى أربع : فى الصدق ، والنصح ، والحفظ ، والرد . لأن التاجر المشهور بالأمانة لا تخلو يده عن ملك ووديعة ، وحكم الملك : ما لا يزال عن يد المالك الا به[٢٧٣] طوعا . والوديعة : ما يلزمه ازالة يده الى غيره كرها[٢٧٤] . وعليه فيما يتصرف بحق الملك : الصدق والنصح[٢٧٥] ، وفيما يتصرف بحق الوديعة : الحفظ والرد . والصدق فى ألا يروج الزيف بثمن الجيد مدحا ، والنصح فى ايثار المشترى على نفسه بأجود السلعتين عرضا ، وحفظ الوديعة فى حفظها عن الناس أجمعين ، وعن نفسه لصاحبها ، والرد : اعادة اليد فيها كما طلب لطالبها[٢٧٦] .

عدنا اليك يا تاجر الدنيا ليلا ونهارا ، وجامع أموالها أوقارا وقنطارا ، أيدك[٢٧٧] فيما ظننت ملكا لك احتوت على ما لا يزال عنك الا بك اختيارا ، وما يزال عنك[٢٧٨] منك[٢٧٩] اضطرارا ؟

---

(٢٦٧) سقطت من (أ) . (٢٦٨) فى (أ) : فأما عند الملوك .

(٢٦٩) فى (ب) : عفوناك . وهكذا ما قبلها .

(٢٧٠) فى (ب) : ومثلما . (٢٧١) سقطت من (ب) .

(٢٧٢) مجدودا . أى : محظوظا .

(٢٧٣) أى : بوساطته ورضاه .

(٢٧٤) وذلك تبعا لشح النفوس وشراهتها ورغبتها فى التملك .

(٢٧٥) النصح هو : حب الخير للناس ، وانت تحب لغيرك ما تحب لنفسك . (٢٧٦) فى (أ) : لصاحبها .

(٢٧٧) فى (ب) : اريدك . (٢٧٨) فى (ب) : عندك .

(٢٧٩) فى الأصول : منك . واخترنا ما فى (م) . وفى (م) : مثل الزكاة اداء بالمال على الساعى وغيره .

فأما الأول فما صرفته[٢٨٠] الى مصالح بدنك مما دفع[٢٨١] عنك شرا ينشأ عن باطن ، من نحو الجوع والعطش والشبق والمرض ، أو دفع (عنك)[٢٨٢] شرا يلحقك من خارج من نحو البرد والحر وأنواع الضر ، أو اكتسبت به جمالا للعيون من الحلى والزخارف (والنجود)[٢٨٣] ، (وادخرت جمالا للنفوس بالاحسان الى الخلق ، ومكارم الأخلاق)[٢٨٤] فهذه أربعة أنواع من الوجوه تزول يدك عن مالك فيها باختيارك ، فأنت فيها مالك ، والفضل (الزائد عليه)[٢٨٥] مما تزول عنه يدك الى الوارث كرها يوم أنت هالك ، فأنت فيها مودع ، وذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول ابن آدم : مالى ، مالى ، وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » . وما سوى ذلك فهو مال الوارث .

فاذا اقتصر ملكك مما فى يدك[٢٨٦] على ما صرفته الى حوائج نفسك دون ما بايعت به العباد ، وضربت بسببه فى البلاد ، فعليك بالصدق لنفسك فيما تصرفه اليها ، والنصح لها فيه بالكف عن ترويج الزيف وترك الايثار عليه ، فانك مبايعه بذلك ، وهو مبايعك هنالك ، تؤتيه من مالك ، وهو يرد عليك فى عوضه قوى تتوصل بها الى جميع آمالك . وان صرفتها على التحصيل[٢٨٧] فقد زدت على العيون قرة ، وان صرفتها الى مكارم الأخلاق زدت على[٢٨٨] القلوب بالذكر الحسن مسرة .

فهذه مبايعة تتحقق بها يد ملكك ، ولا يزول منك قهرا الى غيرك يوم هلكك فاصدق نفسك ، ولا تيمم الخبيث بتملكه ترويجا بقولك من لسان بخلك ، ثم انصح فآثر بأطيب الأصناف عند الخلق ، فما حرم الله تعالى الطيبات من الرزق .

---

(٢٨٠) فى (ب) : فما صرت .	(٢٨١) فى (ب) : بما دفع .
(٢٨٢) سقطت من (أ) .
(٢٨٣) سقطت من (ب) . والنجود : ما يعلق للزينة .
(٢٨٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢٨٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢٨٦) فى (ب) : بما فى يدك .
(٢٨٧) فى (ب) : التحصيل . والتحصل : التجمل .
(٢٨٨) فى (أ) : ردت على القلوب .

أتستجيز أن تتخذ الخبيث ملكا ، والطيب وديعة وأنت فى القسمة مختار ؟ أما[289] أن تغش نفسك بما تصرفه اليها من لباس وطعام وتأخذ منه عوضه وما بك اضطرار ؟

وأما الاحسان الى الناس فمبايعة مع ربك[290] عزت قدرته ، وذخيرة لنفسك[291] اذا اينعت ثمرته ، فان الله تعالى آمرك به وسماه فرضا على نفسه ، وضمن لك عوضه فى الثانى بضعفه ، فتخلص منفعة العائد ذخرا لنفسك فى الأخرى ، ما لغيرك فيه من جدوى .

فبأى عقل تتجوز الغش فى مثله الا لأن الله تعالى غافل عن أصله ؟ أم لأنك[292] آيس من خيره ، أو لرجل سخرى عامل لغيره ؟ [293] .

ألم تسمع قول الله تعالى : **« ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون »**[294] .

وقال : **« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »**[295] .

ألم يبلغك قول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : « أتطعمين تكرهين » ؟

فان لم تجد نفسك تجعل الكل ملكا فكن فى الفضل أمينا ، ولا تحفظ لنفسك فتصير ضمينا ، ولا تمنع صاحبه عند الطلب فتكون خئونا ، بل ظالما لنفسك بتحميلها[296] شقة الحفظ والاسترباح ، ولا محالة يأخذه صاحبه فى صباحك أو الرواح ، فان شق عليك حفظ مالك لغيرك ، أو ايثارك اياه عليك بخيرك ، فاصرف الكل الى مصالحك قبل تبدل حالك[297] ، ليصير الكل من مالك ، فما يفضل عنك شىء ولو ملكت الدنيا ذهبا اذا صرفتها الى معالى الأمور ، وعملت فيها بمكارم الأخلاق ، فان البخل وان كان مذموما على كل حال ففى حق نفسه أذم ، والجود وان كان محمودا بكل مال فبمال نفسك[298] أتم .

---

(٢٨٩) فى (ب) : أم أن تغش .
(٢٩٠) فى (ب) : من ربك .
(٢٩١) فى (ب) : ذخيرة نفسك .
(٢٩٢) فى (ب) : أو لأنك .
(٢٩٣) فى (ب) : علمك لغيره . والسخرى : الأجير المسخر .
(٢٩٤) البقرة : ٢٦٧
(٢٩٥) آل عمران : ٩٢
(٢٩٦) فى (ب) : بتحميلها .
(٢٩٧) فى (ب) : نبذك حالك .
(٢٩٨) فى (م) : فبملك نفسك . من نسخة ثانية .

كيف ولو بخلت على نفسك فحرمتها[٢٩٩] طيبات الرزق ، ولم تذقها طيب ثناء الخلق ، وكنت حافظا أمينا على شرطه كنت فيه أخسر من المستودع أموال غيره ، فانه راجع بعهدة الحفظ على الأرباب ، وأنت لازمك[٣٠٠] عهدة حفظه يوم الحساب ، بل ذلك المودع حافظ بمنة وحسبة ، فائز بثناء[٣٠١] وثواب ، وأنت حافظ بلا منة ولا احتساب بأى حساب أو عذاب ، وان شر المحتسبين من أتى به على سبيل الاكتساب ، فيحرم للحال فائدته ، وفى الثانى عائدته • فما لك وجه الا أحد طريقين : حفظ الفضل على سبيل الحسبة[٣٠٢] فيسلم الى صاحبه اذا جاءت المطلبة ، فتصير يدك صفرا ، أو الأخذ على سبيل الملك فتصرفه الى وجوهه[٣٠٣] ، فتبقى دون الدنيا فقيرا •

فان قلت : لعلى أعيش فأحتاج • [قلت] : فقابل بعد شبعتك توهم حلول جوعتك بما تخاف أو ترجو بعد صرعتك ، ثم اعمل بأهم الأمرين حلولا ، وأخوفهما نزولا • ألست قد أمت[٣٠٤] شر الجوع الى عشائك ، ولم تأمن حلول الموت متصلا بغذائك ، فمالك ان صدق[٣٠٥] رأيك تبخل بما تحتاج اليه بعد الصرعة ، لما تحتاج اليه بعد الجوعة ، وقد أمنتها ولم تأمن الأخرى ، مع أن[٣٠٦] حاجة الجوع مما تزول[٣٠٧] بمال غيرك ، وحاجة ما بعد الموت لا تزول[٣٠٨] الا بما قدمت من خيرك • فان سامحت نفسك وقلت : الغالب أنى أعيش يوما فأنت مغرور[٣٠٩] ، فمالك تبخل عن نفسك[٣١٠] بقوت الشهور ؟ فان سامحت نفسك[٣١١] وقلت : الغالب أنى أعيش شهرا أو سنة ، فمالك تبخل بحفظ قوت الدهور ؟ ما نراك ترجع فى حفظك الى ما ترضى به القلوب التى فى الصدور •

---

(٢٩٩) فى (أ) : فحرمته . (٣٠٠) فى (أ) : فانت لازمك .
(٣٠١) فى (ب) : فائز بثناء .
(٣٠٢) فى (ب) : على سبيل الحمية .
(٣٠٣) فى (أ) : الى وجهه . (٣٠٤) فى (أ) : اليس .
(٣٠٥) فى (ب) : مع صدق . (٣٠٦) فى الاصول : مع ما أن .
(٣٠٧) فى (أ) : لا تزيد . وفى (م) : لا ترتد . من نسخة ثانية .
(٣٠٨) فى (م) : لا تنقضى . من نسخة ثانية .
(٣٠٩) فى (أ) : فانت معذور .
(٣١٠) فى (ب) : من نفسك .
(٣١١) فى (أ) : سامحت بنفسك .

ما بقى لك الا أن تقول : الجوعات فى العادات تترادف فى العمر ، وعلى العادات الغالبة (ما)[312] ينبنى الأمر[313] • فنقول : أليست العادات الغالبة أن المرء لا يعيش فوق كل أقرانه ، ولا يختص بعمر زائد فوق أهل زمانه ؟ [314] فعد سنى أقرانك ، وعامة أهل زمانك ، واحفظ ذلك القدر وأنفق البقية ان صدق الأمر •

وانا لنراك وقد أضعفك المشيب على حفظ وامساك ، عجيب[315] لم تكن عليه وأنت صبى ، ومدة حياتك مديدة ، وشباب شهواتك شديد[316] •

أو رده على الأولاد ، فانك تحفظه[317] لهم فى أكباد ، وانك تنازعهم اذا طمعوا فى قليل منه (عظيما)[318] وقديما كان الملك عظيما • فما أنت فى ملكك الا سفيه ، وفى وديعتك خئون[319] ، وانما كلمناك على أنك تاجر أمين •

وأما التجارة فمحتاجة الى اختيارات أربعة[320] : اختيار السليم عن العيب اذا اشترى ، واختيار الملىء الوفى اذا أسلم[321] أو داين ، واختيار الأمين اذا أودع أو أبضع • واختيار المأمن اذا سافر تاجرا ، أو جهز مضاربة •

وان رأس العيوب آفة الفوت ، فما دونها ينقص البعض ، وهذه تأتى على الكل ، فليشتر التاجر الجيد الاختيار ما يأمن هلاكه ، وليجمع من هذا الجنس بجنس التجارة أملاكه ، ثم ليختر اذا أسلم ولم يصل الى ما يبغى من لا يخاف عجزه عن الايفاء ، فعسى العجز يضطره الى مماطلة فى الأداء ، والضرورة (فيه)[322] تحمله على انكار القضاء •

---

(٣١٢) سقطت من (ب) . (٣١٣) فى (أ) : ما تنبنى الأمور .
(٣١٤) فى الأصول : دون أهل زمانه . واخترنا ما فى (م) .
(٣١٥) فى (ب) : وامساك عجب .
(٣١٦) فى (أ) : شديدة . (٣١٧) فى (أ) : تحفظها .
(٣١٨) سقطت من (ب) .
(٣١٩) فى (ب) : خائن . من نسخة ثانية .
(٣٢٠) فى الأصول : اربع . خطأ .
(٣٢١) سبق تفسير السلم . (٣٢٢) سقطت من (أ) .

فاذا ظفرت بمن أمنت عجزه فأسلم عليـــه[٣٢٣] وداينه بما شئت ، واعتمد ما لديـــه ، فقلما يكافئك القادر على حق ، أو يقابلك[٣٢٤] بمطل ، ثم اختر لوديعتك وبضاعتك — ان لم تجد من قدر فى كل وجه — من لا يحتاج الى ذلك القدر[٣٢٥] ، فلعل الحاجة تطمعه فيها وعسى .

فاذا اتفق لك ذلك أودعته أو أبضعته غير خائف ، فليس المستغنى عن شىء من وجه بمشتغل به[٣٢٦] عن قلب عاقل .

واذا سافرت أو ضـــاربت ولم تتيقن بالمـــأمن فاختر موضـــع (عون)[٣٢٧] وغوث . وتناصر وعون على الحق يحكم لك الصدق بوجوده يقينا ، فقلما يقطع عليك الطريق ، حيث عليـــه من الرصد فريق .

فهذه اباحات لك بالتجارة[٣٢٨] خارجة عن وجوه الحزم ، منبئة عن حسن النظر ، وغلبة الوهم ، فرب غوث يلحق التاجر ، ولكنه عاجز غير ناصر ، ورب غنى عن شىء ومشتغل به (عبثا)[٣٢٩] وفاعل سفها ، ورب ملىء مماطل ، وقادر متكاسل ، ورب باقى حقك معيب ، وسهم مرمى غير مصيب .

ومع ذلك ناهيك عن التجارة الا مع المولى جل جلاله ، فما فى الدنيا حظ يرجى دوامه[٣٣٠] ، ولا مداين فيها يؤمن عجزه ، ولا مثبت يده على ما يتيقن بغناه عنه ولا طريق لم تتشبك فى غوثك فيه ، ألا تشترى منه[٣٣١] حظا من الآخرة ؟ فحظوظها سليمة عن العيوب باقية ، وتسلم الى المولى جل جلاله ؟ فهو القادر الذى لا يوصف (وتودعه فهو الغنى

---

(٣٢٣) فى (أ) : فاسلم اليه .
(٣٢٤) فى (م) : يقابلك — يكافئك . من نسخة أخرى .
(٣٢٥) اى الى ذلك القدر من الوديعة أو البضاعة لمهام حياته .
(٣٢٦) فى (أ) : يشغله به .
(٣٢٧) سقطت من (ب) مع حرف العطف .
(٣٢٨) فى (م) : بالتجارة . من نسخة ثانية .
(٣٢٩) سقطت من (أ) .
(٣٣٠) فى الأصول : دونـــه . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية ، وفيه أيضا : دومه .
(٣٣١) اى من الله تعالى .

تبارك وتعالى أن يوصف)[٣٣٢] بضده[٣٣٣] ، وتجهز مالك الى العقبى ؟ فان الله تعالى عونك ضامن رده عليك بأرباح ، وما بينك وبين الالتحاق بها غير صباح أو رواح •

وأما الحزم فناهيك عن البناء على غالب الظنون ، الى أن تقطع الشبهة باليقين فى الأنواع الأربعة[٣٣٤] التى بها تقوم التجارة ، وتسد[٣٣٥] أبوابا فتحناها عليك بتلك العبارة ، حتى لا يبقى للوهم مجال فى ترخيص التجارة مع أهل الدنيا الا التسليم أو الاسلام[٣٣٦] الى المولى جل وعلا[٣٣٧] ، فذلك الحزم والأمر والعزم •

وأما السلامة ففى أربع : سلامة الصفقة عن الخسران ، والعوض[٣٣٨] عن الحدثان ، واليد عن الفقدان ، والنفس عن الحرمان •

فاختر اذا عاقدت من يستكثر قليلك مرحمة عليك ، ويستقل كثيره[٣٣٩] كرما واحسانا اليك ، واختر لرأس مالك عوضا لا تناله الآفات السماوية ، ولا يزول عن يدك بالأحوال الاختيارية ، ولا تحرم متعته بعوارض نفسية •

وانك لن تجد فى الدنيا من أبنائها من يتاجرك الا مستربحا ولا تأمن[٣٤٠] معه الخسران ، ولا تنال عوضا[٣٤١] الا مرهونا بالاقرار عرضة[٣٤٢] للحدثان ، مع ما أن للعبيد اباقا عن يدك ، وللحيوانات ضلالا عن قيدك ، ولسائرها اغتصابا عن يدك ، الى بخل فيك ، وسوء اختيار ، يمنعانك التمتع به مع القرار •

---

(٣٣٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٣٣٣) فى (ب) : بفقده .

(٣٣٤) فى (أ) : أنواع أربعة . والمقصود بها الخصال التى تقوم بها التجارة فى أول الفصل : أمين مشهود ، تاجر كبير ، حازم يقظ ، سليم مجدود .

(٣٣٥) بياض فى (أ) ، وفى (ب) : وساد .

(٣٣٦) اى : ابرام عقد سلم مع الله تعالى .

(٣٣٧) فى (أ) : جل جلاله .

(٣٣٨) فى (م) : والغرض . من نسخة ثانية .

(٣٣٩) فى (أ) : ويستقل كثيرك .

(٣٤٠) فى (أ) : الا مشتركا فلا تأمن معه .

(٣٤١) فى (ب) : عوضا . (٣٤٢) فى (أ) : غرضا .

فمل الى صفقة هى طاعة ، ومعاقد هو رب الساعة ، وخالق الجماعة ، ما عاقدك الا ليظهر لك[٣٤٣] احسانه وجلاله ، ولا كونك قبل أن عاقدك الا لتعرف كرمه وأفضاله ، فيأخذ منك قليلا مما ليس لك الا عاريـة منه بكثير ، ليصير لك خالدا من لدنه لا تصيبه آفة ، ولا تحول بينك وبينه مسافة ، ذللت قطوفها لمتعتك ، وخلدت لقضاء شهوتك .

ألا تدع أيها الأخ اللطيف لسان التأليف الى لسان التعنيف[٣٤٤] ، فقبيح ترك الانكار بعد التعريف . الى كم هـذا الكلام ، كأنى بين نيـام موتى ، لحوم وعظام ، أما انك عبد أسير شهوات أربع : شهوتى باطن : الفرج والبطن ، وشهوتى ظاهر : مما تراه العيون من الزينة ، وتعيه القلوب من نفاذ الأمر فى طاعة . مبتلى بها من الله تعالى بأربع صواد لها[٣٤٥] : المعرفة ، والايمان ، والاحسان ، والاسلام .

فالمعرفة : علمك أن الله تعالى واحد لا شريك له ، والايمان تصديقك ، واعتقاد[٣٤٦] حجج الله التى أوجبت العلم به ، والاسلام تصديقك الله تعالى باستسلامك لأوامره ونواهيه ، بحسن الطاعة .

والاحسان فى ألا تشغل قلبك الا بشكره ، ولسانك الا بذكره ، وبدنك الا بعبادته ، وسرك الا بذاته[٣٤٧] ، فما جزاء الاحسان الا الاحسان ، والله قد أحسن اليك ابتداء بتخليق قلبك وتنويره ، وانطاق لسانك ، واقدار بدنك بعد تصويره ، واراءة سرك ملكوته بنوره .

وعلامة المعرفة : الشكر على جميع أقسامه ، فلا يجده العبد بعد أن عرفه الا محسنا بحكمه .

وعلامة الايمان : الرضا بكل أحكامه ، فلا يلزمه منها وقد صدقه الا عائدا عليـه (بنعمة)[٣٤٨] .

وعلامة اسلامه : الصبر عن الشهوات[٣٤٩] (عند تتابع المواهب ،

---

(٣٤٣) فى (أ) : ليظهر اليك .

(٣٤٤) فى (أ) : التعفيف . (٣٤٥) فى (أ) : ضوادها .

(٣٤٦) فى (ب) : والاعتقاد .

(٣٤٧) وشغل السر بالذات لا يكون على صورة من الوهم بل يكون فى الهيبة والجلال والعظمة والعجز عن الادراك . انظر باب الصمت والفكرة من « أعمال القلوب والجوارح » للمحاسبى . ففيه تفصيل لطرق الفكر المشروعة . (٣٤٨) سقطت من (ب) .

(٣٤٩) فى (ب) : على الشهوات .

وعن الشكوى)[٣٥٠] عند ترادف المصائب ، فلا يلقاه اذا استسلم اليه الا مريد شفاء بدواء ، أو مقيم بقاء بغذاء .

فان لم تصبر عن شهوتك فى أكلك ، نكست فى عللك ، وان لم تصبر على شهوتك لم تعد الى صحتك[٣٥١] .

وعلامة الاحسان : الجود بقدر الامكان ، فمن أحسن اليك فخلقك لا يقتلك جوعا ، وسيرزقك .

فالمعرفة والايمان فى مقابلة شهوتى باطنك ، والاسلام والاحسان فى مقابلة شهوتى ظاهرك ، فمن ملأ قلبه[٣٥٢] معرفة لم ينل المرأة سكنا ، ومن روى من شراب التصديق لم يجد من الخبز شبعا[٣٥٣] ، ومن رأى سربال الاسلام لم يلتفت الى سرابيل أهله ، ومن عرف وجوب الاحسان عليه جزا لم يعمل معجبا بفعله .

قال الأخ : كلام حسن لولا أنه خلاف الشريعة ، بعد أن كان خلاف الطبيعة ، فان الله تعالى أمر بالنكاح ، ونهى رسوله عن البسط كل البسط ، وأمر الرسل عليهم السلام بالتصرف فى الدنيا ، وولاهم أمر الورى .

قلنا : بشر الله تعالى عبدا سمع القول فاتبع أحسنه ، وما أول على ما ظنه[٣٥٤] ، أما علمت أنى لم أقصد بما ذكرت سوى[٣٥٥] معاملتك مع ربك عزت قدرته على سبيل العزلة ، كأن ليس معك أحد سواه ، وذلك فيما بيناه .

فأما اذا آل الأمر الى الجمع بين معاملة الله بالتصديق على سبيل العشرة مع الخلق فلابد من نظر أربعة : نظر لخاصتك ، ونظر لأهل زمانك ، ونظر للنسل ، ونظر للمــال . والأنبياء عليهم السلام[٣٥٦]

---

(٣٥٠) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٣٥١) الفرق بين الصبر عن الشيء ، والصبر على الشيء ، أن الاول : الصبر على منعه وعدم تناوله ، والثانى الصبر على مدافعة النفس اذا سولت بالافراط ، أى : الصبر المؤدى الى الاعتدال .

(٣٥٢) فى (أ) : قبلك .

(٣٥٣) فى (ب) : من الخير شبحا .

(٣٥٤) فى (ب) : على باطنه .

(٣٥٥) فى الأصول : الا سوى معاملتك .

(٣٥٦) فى (أ) : صلوات الله عليهم أجمعين .

كانوا قدوة للخلق ودعاة ، ومتبوعين هداة ، فما كان لهم بد من موالاة الله تعالى على سبيل العشرة مع البشر ، واستجماع هـذه الوجوه من النظر ، فعندها تمام الابتلاء ، وفيها تظهر مراتب الأنبياء ، فيكون النبى عليـه السلام مع الله تعالى فى خاصة ما لزمه[٣٥٧] كأنه لا شىء سوى الله ، ومع الناس كأنه لاحظ لنفسه ، ومع النسل كأن الله تعالى ما علق حكم وجودهم الا به ، ومع المـال كأن الله تعـالى ما علق الوجود الا بغيره ، وكأنه ممن لا يحظى بخيره .

فانه متى رأى مع الله تعـالى غيره لم يأمن الشرك عقـدا أو فعلا[٣٥٨] ، فلا أمن الا فى العمى عما سواه عينا وقلبا .

ومتى طلب من الناس حظا لنفسه كان ناظرا لهم ولحظه[٣٥٩] ، والله تعـالى ما ابتلاه بهم وبترك التحلى بعبادة الله تعـالى[٣٦٠] لخلقه الا ليهديهم اليه مجاهدا فى الله (تعالى)[٣٦١] بصدقه .

وأما النسل فالله تعالى علق وجودهم بالميـاه التى فى الأصلاب والأرحام ، ولابد للعبد من اقامة حكم الله تعالى فيه ، وانه لباب لا تجرى فيه النيابة بين الأنام ، فما يتصورون علق بمائه من ماء آخرين ، فكان[٣٦٢] البدار اليه أولى من التفويض (الى سائر العالمين ، وان جاز حصول التفويض)[٣٦٣] لحصول النسل بسائر الناكحين .

وأما المـال فمعلق بأسباب تجرى فيها النيابة من التجارة والزراعة وبغير أسباب كالأشياء المباحة ، فكان التفويض الى الغير أولى من توليها ، لوصوله بغيره الى معانيها .

وأما رسول الله صلى الله عليـه وسلم فما نهى عن البسط الا لاحتباسه فى بيته عن حوائج الاسلام وأهله[٣٦٤] ، لا لافتقاره بذلك

---

(٣٥٧) فى (أ) : فى خاص ما لزمه .
(٣٥٨) فى (ب) : عقدا وفعلا . (٣٥٩) فى (أ) : وبحظه .
(٣٦٠) فى الأصول : بالعبادة لله تعالى .
(٣٦١) سقطت من (أ) .
(٣٦٢) فى (أ) : وكان البدار .
(٣٦٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٣٦٤) أخرج البخارى والترمذى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل ولم يكن لديه شىء فتصدق بثوبه ولم يستطع الخروج الى الصلاة . فنزلت : ((**ولا تجعل يدك مغلولة ..**)) الآيـة (الاسراء : ٢٩) .

بذلك البسط عن ماله وملكه ، وما للداعي صلوات الله عليـه أن يشتغل بما يخل بالدعوة وان كانت حسنة خاصة ، فالدعوة حسنة عامة ، وانه لمقام عزيز .

وانما دعوناك الى العزلة ـ فهي المقام[٣٦٥] اليسير ـ لتفك روحك بما دعوناك عن وثاق نفسك ، ثم تقبل على فك الوثاق عن غيرك ، فان الصعود الى الذرى بمدرج ، والفكاك عن أسر الهوى[٣٦٦] بحجج ، فان شق عليك التحلى (فما لقلبك عن غطاء الشهوات التجلى)[٣٦٧] فعليك بمقام العامة بين خوف ورجاء[٣٦٨] ، ولا تقم بين مغالبة ورجاء ، فهلاك العامة فى ذلك والعياذ بالله من اشتباه المسالك .

فقال الأخ : ان المسالك اذا اشتبهت ضل فيها بدون الأميال[٣٦٩] السالك ، ومن ضل[٣٧٠] فهو الهالك ، فما الأميال على هـذه الطرق من الأمثال ؟

قلت : التوفيق من الله تعالى لبيان الطريق . أما علامة الخوف فالامتناع عما قصدته لشر عرفته ، فمن لم يمتنع دل على عدمه ، أو خطأ الفاعل لسفهه ، فما نفع خوف[٣٧١] بلا حذر ، والخوف بلا نفع سفه .

وعلامة الرجاء : الاقدام بحسن الظن على المقصود ، ملابسا فيه سبب الوجود ، فمتى لم تقدم فررت آيسا[٣٧٢] ، ومتى لم تلابس السبب أقدمت متمنيا أو هاربا[٣٧٣] ، فتارك البعض خوفا ، والمقدم بملابسة البعض رجاء بين خوف ورجاء قد أسس للنجاة البناء[٣٧٤] .

---

(٣٦٥) فى (أ) : فهو المقام .

(٣٦٦) والعزلة فى هذه الحالة ليست عملا سلبيا ضد مجتمع الاسلام ، بل هى عمل ايجابى عظيم ، اذ هى اعداد سليم لرجل الحضارة الاسلامية ومحاولة لاصلاح الغير ، فلا خير فى العمل مع فساد الانسانية .

(٣٦٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) . وفى (م) : الشبهات بدل الشهوات . من نسخة ثانية .

(٣٦٨) فى (أ) : بين مغالبة وارجاء .

(٣٦٩) الأميال : أعلام الطريق التى يهتدى بها السالكون .

(٣٧٠) فى (أ) : ومن مل .

(٣٧١) فى (ب) : فما يقع خوف .

(٣٧٢) فى (ب) : فررت أسى .

(٣٧٣) فى (ب) : متمنيا أو هازئا .

(٣٧٤) العبارة مضطربة جدا فى (ب) .

أما علامة المغالبة : فالاقدام على المراد وان خاف شرا على المعتاد •

وعلامة الرجاء[٣٧٥] المذموم : رجاء الاصابة دون المنهل المشروع ، فمن أطاع الله تعالى ولو واحدة بعد أن كانت صحيحة رجاء ثوابه ، وفر عن معصيـــة ولو واحدة خوفا من عقابه ، ثم أقام على ذلك يرجو ثمرة ما عمل ، ويخاف عقاب ما فعل فهو من الراجين والخائفين •

ومن قال : نلت الدنيا ، ولئن رددت الى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا ، وهو خليع بسبب ثواب الآخرة عقدا وفعلا فمغالب ربه طلبا ، ومن قال : آمنت بربى عزت قدرته فلا يعذبنى بمعاصى وان لم آنزجر ندما[٣٧٦] ، فمرجىء قصد الحلول بالمنزل ولمـــا يقض[٣٧٧] له سببا •

الا أن المنهل البعيد ما عليـــه ورد الا بعزيمة صحيحة ، وسير شديد ، وسوق قوى ، ألا وان المنهل الجنة ، والعزيمة الايمان ، والسير الاستقامة ، والسوق بالمخافة[٣٧٨] ، وما للعازم بغير[٣٧٩] السير وصول الا من طريق الكرامة •

قال الله تعالى : **((ان الذين قالوا ربنا الله ثم آستقاموا تتنزل عليهم الملائكة))**[٣٨٠] •

وقال : **((أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء))**[٣٨١] •

وقال : **((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره • ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره))**[٣٨٢] •

فالكرامة من الله مرجوة وليست بمحكومة ، انما حقك العدل ، وما يأس عن الفضل ، تعالى الله من قادر لا يخاف الا عدله ، وقاهر لا يرجى الا فضله ، وحاكم لا يستحق عليه الجزاء الا أهله ، له الحمد والثناء ما اتضعت الأرض ، وارتفعت السماء •

* * *

---

(٣٧٥) فى (أ) : وعلامة الارجاء •

(٣٧٦) العبارة مضطربة فى الأصول ، فقد وردت هكذا : وأن أنزجر ندمـــا •

(٣٧٧) فى (أ) : ولمـــا قضى •

(٣٧٨) فى (أ) : بالخوف •

(٣٧٩) فى (ب) : غير السير •

(٣٨٠) فصلت : ٣٠

(٣٨١) النساء : ٤٨

(٣٨٢) الزلزلة : ٧ ، ٨

فصل [فى] العـامل

قال الأخ : انك أدام الله توفيقك لاصابة الحق ، وارادة الصدق ، لقد بالغت فى معاملة الدنيا على سبيل العزلة فيها والخلوة ، وما لكل انسان على ذلك قدرة ، فبين لنا وجوه المعاملة على سبيل المتعة بها والمعشرة •

قلت : انه باب[٣٨٣] اتسع حتى لم ير سالكوه (الا)[٣٨٤] فى كثرة ، ولقد وصفت لك منها فيما مضى وجوها جمة ، ولأزيدن لك من بيـان طرقه[٣٨٥] ، سينجو[٣٨٦] بعملهـا متأملوها عن فطنة[٣٨٧] •

ان المعاشرين أقسام أربعة : غاش ، ومحتال ، وناصح ، وناصر • فالأولان طالبا الدنيا ، والآخران طالبا الأخرى ، ومعاشران للمولى •

أما الغاش فله أربع خصال : استرسال ولباقة ، وحسن الاجابة قولا ، والخلف فعلا ، لأنه عاشر الناس[٣٨٨] ليسلموا اليه دياهم[٣٨٩] — وانها لمعشوقتهم ، وغايـة مناهم — فاذا لم يغالبهم عليها لم يكن بد من استرسال اليهم متصنعا[٣٩٠] ليقبلوه ، ثم لباقة مرائيا ليحبوه ، ثم حسن اجابة أبدا ليعتمدوا عليـه[٣٩١] ، ثم الخلف اذا ظفر بمعشوقتهم حال التفويض اليه ، وقد أتعب بدنه بتحميله أسباب الغش ، وما له عنها من براح ، فقد روج عليهم وما يروج المطل الا بمقدمات واصلاح ، مع ما يخاف [على] قلبه فى صدره [من] عاقبة أمره •

فلا يزال يعيش عليها خائفا تعبا ذليلا ، حتى يحل به الموت حلالا ، وقلبه فقيد الأنس بخوف العاقبة ، وجسمه فقيد الراحة بأسباب واجبة • وأما المحتال فله أربع خصال : الاطماع ، والاغراء ، والتخويف ،

---

(٣٨٣) فى (أ) : انها باب • (٣٨٤) سقطت من (ب) •

(٣٨٥) فى (ب) : من البيان طرفة •

(٣٨٦) فى الأصول : ما سينجو •

(٣٨٧) فى (أ) : عن فتنة • (٣٨٨) فى (ب) : غاش للناس •

(٣٨٩) ومن هؤلاء نوع من العمال بالعلم يزهدون الناس فى الدنيـا ليأخذوها منهم فى المجلس • انظر (الوصايا للمحاسبى ٦٧) نشر صبيح بالقاهرة •

(٣٩٠) فى (أ) : متضعا • من التواضع •

(٣٩١) فى (ب) : ليعهدوا اليه •

والايذاء ، لأنه عاشر الناس[٣٩٢] ليسلبهم معشوقتهم بغلبة[٣٩٣] ، وهو جزء من كلهم ، ما له عليـه[٣٩٤] من قدرة ، فيميل أولا الى الحيلة[٣٩٥] ، فيطمع الناس فيه ليصير له تبع ، ثم يغريهم على الباقين فهو المعداوة سبب ، حتى اذا بدت بينهم العداوة والبغضاء خوف من خالفه بابداء قوة من تبعه ووافقه ، لينزجروا عن شره انزجارا ، فيسلبهم المعشوقة عند ذلك جهارا ، لكنه سلب قلبه الراحة بأسباب الحيلة ، وما لتركها وجه ، فقد آثر الجملة[٣٩٦] ، وما له منهم من أمان ، حتى تخفيه عنهم يد الحدثان .

فهذا أهدى (الى)[٣٩٧] قلبه نصبا بنصب حبائل الحيل ، وحمل (خوف)[٣٩٨] عاقبة الحيلة جسمه أعباء[٣٩٩] مغالبة الحمل[٤٠٠] .

وأما الناصح فله أربع خصال : وقار ، ولين ، وايثار ، وصدق ، لأنه عاشر العبيد بمعنى المولى[٤٠١] ، ليميلهم اليه عن الدنيا ، رحمة عليهم فى قنوعهم بالسجن عن الملكة ، وبالذواق عن الشبعة ، وبالمرض عن الصحة ، وكان ذلك اختيارا ، ورثهم [اياه] آباؤهم[٤٠٢] ، وورثوه أبناءهم ، فصار عقده لهم طبيعة ، ورد مخالفيه شريعة ، وانه طبيب قصد شفاءهم بدواء منه تنبو عنه العيون[٤٠٣] والصدور ، وما رام سقيهم اياه بقهر ، فلابد له من وقار وعلم[٤٠٤] ، ليصير منظورا اليه ، فى لين ليكون مرغوبا فيه ، وايثار ليصبح محبوبا ، وصدق فيمسى مقبولا ، فيستريح لسانه عند ذلك عن المحاجة ، وقلبه عن الملاجة ، ويكون شمس يومه ، وبدر قومه .

---

(٣٩٢) فى (ب) : غاش للناس .
(٣٩٣) فى (ب) : بقلبه .
(٣٩٤) فى (ب) : عليها .
(٣٩٥) فى (ب) : الى الحية .
(٣٩٦) فى (أ) : وقد آثروا .
(٣٩٧) سقطت من (ب) .
(٣٩٨) سقطت من (ب) .
(٣٩٩) فى (ب) : جسمه اعياء .
(٤٠٠) فى (أ) : الجمل . بضم الجيم .
(٤٠١) اى : راقب الله فى معاشرة العبيد فكأنه يعامل الله فيهم . او : تولى أمرهم ليكون لهم اماما الى المولى الأعلى .
(٤٠٢) فى الأصول : ورثوهم آباءهم .
(٤٠٣) فى الأصول : العين . والسياق يقتضى ما اخترناه .
(٤٠٤) فى (ب) : وقار بعلم .

غير أن العبد لا يثبت على وقار فى عشرته مع الناس ، وهم أطوار الا بصحبته[٤٠٥] على اعتقاد الغدر منهم ، حتى لم يستفزه عن أصل[٤٠٦] الأمر أن جوزى على احسانه بالشر ، وان ندر منهم وفاق احسان فى جزاء عده ربحا ، وزاد لهم بسببه نصحا ، ولن يلين لهم الا بعد اعتقاد منة الله (تعالى)[٤٠٧] عليه بأن خصه بفضل رجع الناس بسببه اليه ، ولن يدوم على الايثار الا بالعمى عما دون[٤٠٨] الواحد القهار ، ولن يوجد على الصدق الا بمشاهدة (الحق)[٤٠٩] .

وأما الناصر فله أربع شمائل : العدل ، والاحسان ، والثبات[٤١٠] ، والقوة ، لأن هـذا عاشرهم على أن يسقيهم الدواء قهرا ، ويشفيهم طوعا وكرها ، وما لهم يد عليه[٤١١] ، فهو فرد ، والناس كلهم على ضد ، الا أن يعدل فى سيرته ليأمن الناس شره فيرمقوه ، ثم احسان فيميلوا اليه ويعشقوه ، ثم ثبات عليه للشكر وافى محبته ، ثم القوة ليرد على السفيه ، وينتصر للضعيف .

فيستتبع[٤١٢] الناس بسلب قلوبهم ، ويعز مطاعا بين ضروبهم ، ولن يقدر على العدل الا بالغفلة عن (الخصوم بالحجج ، ولا على الاحسان الا بالغفلة عن)[٤١٣] حظه بحظوظ الناس ، ولا على الثبات الا بالغفلة عن الجزاء بشكر الامكان[٤١٤] ، ولن يقوى الا بالغفلة عن نفسه بالمولى .

فعليك أيها الأخ بالنصح للورى مكان الغش لمعنى الدنيا ، ونصرة المولى مكان الحيلة للأولى[٤١٥] ، فما الغش والحيلة فى العاجل

---

(٤٠٥) فى (ب) : وهو أطوار الا بصحبة .
(٤٠٦) فى (ب) : على أصل الأمر .
(٤٠٧) سقطت من (ب) .
(٤٠٨) فى (أ) : عن دون .
(٤٠٩) سقطت من (ب) .
(٤١٠) فى (أ) : والثناء . وما بعده ينقضه .
(٤١١) فى (ب) : وما له يد عليهم .
(٤١٢) فى (ب) : فليستتبع .
(٤١٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٤١٤) اى : بشكر الله على نعمة تمكينه من العمل فى الايمان .
(٤١٥) فى (ب) : الحيلة الأولى .

بمثمرين الا تعبا وهلـكا ، ثم عذاب الخلـود ، وما النصح والنصرة الا موليين للحال أنسا وعزا ، ثم نعيما لا يبيد .

أيقظ الله تعالى نواظر قلبك ، ونور مشاعل لبك ، ومهد لك سهول النصح والنصرة ، ووعر عليك عقاب الغش والحيلة ، فما التوفيق لنـا الا بالله ، عليـه توكلنا واليه ننيب ، وما التضرع الا اليه فهو الوهاب السميع المجيب .

ونسأله أن يصلى على رسوله محمد وآله ، فقد هدينا بأقواله وأفعاله ، ولزمنا شكره الى الله ، شكرا لله[٤١٦] على أفضاله . (والحمد لله رب العالمين)[٤١٧] .



---

(٤١٦) فى (أ) : ولزمنا شكر الله على أفضاله .

(٤١٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

كتـــاب المـــيـــزان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل الكتاب والميزان بالحق ليقوم الناس بالقسط ، ثم وضعه ليوم الحساب لئلا تظلم نفس شيئا فى ثواب أو عقاب ، فبدأ جل جلاله الأمر به ، وختم عليـــه ، وأشار فى كل أحواله اليه .

وبعث الرسول الخاتم بالدين الميزانى ، والميزان الفرقانى ، صلى الله عليـــه وسلم تسليما ، وعلى آله وكرم تكريما .

فسبحانه من رب جليل جعل الدنيـــا[1] للميزان كفة ، والآخرة [كفة] أخرى ، وما فى الدنيا كلها مما تشتهيه النفس[2] سنجات الميزان فى كفة الدنيـــا ، وجعل علاقاتها الحس وشهوات الطبع ، والتقوى عنها[3] ، والطاعة لله عز وجل بمنزلة الذهب المصفى ، والدرة الكبرى [فى كفة الأخرى] ، وجعل علاقاتها موجبات العقل ، ومسموعات الشرع ، وجعل الجسم عمود الميزان ، والنفس لسانه ، والقلب منجمه ، والروح وزانـــه .

فبين اللسان والعمود (بعضيـــة وامتزاج ، وبين العمود)[4] والسنجات تجانس وازدواج ، وبينها[5] وبين الذهب مباينة مكانا ، ومفارقة معنى وعيانا ، وبين اللسان والمنجم اتصال بحيلة فى مجانسة[6] ، وبين الميزان والوزان وصلة مجاورة[7] .

---

(١) فى (ا) : جبل الدنيا . (٢) فى الأصول : تشتهيها النفس .

(٣) فى (ب) : والتقوى عينها .

(٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٥) فى (ب) : وبينهما .

(٦) أى هناك صلة بين النفس والجسم والقلب .

(٧) أى بين النفس والجسم والقلب من جانب والروح من جانب آخر صلة مجاورة كما سبق بيان الجميع فى كتاب جهاد النفس .

فلا يزال هوى اللسان [وهو النفس] فى الميل الى كفة جنسه ، مخيلا للعمود [وهو الجسم] الحق من نفسه ، ولا يزال الوزان [وهو الروح] يأمر العمود بالعدل ، ويثبت على اللسان الميل بالمنجم[8] [وهو القلب] ، فقد عرف أن معدنه[9] ما بين جانبيه ، وقد بان فى ميله الى السنجات [وهى الدنيا] حافتيه ، والعمود وجهه الى السنجات فى حال ميل اللسان[10] ، يرى تجانس ما بينهما معرضا عن الوزان ، غافلا عن فراق المنجم الذى هو العلم على الحق ، والشاهد بالصدق .

فان غلب اللسان ، وصم عن نداء الوزان ، طفف وزنا ، ونال من المنجم عليه عونا ، والوزان فى ندائه يقول : أيها العمود ، ملت مع اللسان تظن أنه الوالى[11] ، فقف ، فما أنت فى مذهبك الا غالى .

أما تراه لا يقدر على مقصوده من التطفيف الا بك ؟ ولا قدرة لك الا بحيلة من المنجم ؟ أفلا تعلم[12] أنه أولى من اللسان بالائتمار ؟ أما لك من استبصار ؟ واللسان ما هو الا كاذب ، فما أنت الا منى ، وما لنا فيه غير السنجات من نصيب .

وليعجب العمود كلامه ، فبينهما اتصال قريب ، فان خذل ولم يلتفت الى المنجم ، وغفل عن الميل مالا الى السنجات ، لتكون الرؤية وصالا ، ومالا على اعتقاد أنهما لم يركبا ضلالا ، فلا يزال يهوى مطففا طمعا فى الوصال ، وما لهما ذلك الا بعد مفارقة الوزان ، وعندها يبطل الوزن ، ويخلو عن السنجات الميزان .

وان وقف العمود لالتفاته الى العدل ، وأبصر المنجم ، ووقف على الميل ، أمسك عن مساعدة اللسان ، ورجع واللسان تابعه الى قول الوزان ، الى أن يقوم الوزن بالحق ، ثم بالرجحان ، الى ألا يبقى لكفة الدنيا قوة تحريك لكفة التقوى ، ويبقى اللسان أسيرا تحت رأى الوزان بعد أن كان أميرا .

والمنجم فى الأحوال كلها على اعتداله ، (به)[13] يعرف فعل اللسان فى تردده وانتقاله ، فصارت الأحوال للسان وهى النفس أربعا :

---

(8) فى الاصول : بالمنجم الميل . وما اخترناه أوضح .

(9) فى (م) : معرفته . من نسخة ثانية .

(10) فى (ب) : مثل اللسان . (11) فى (ب) : انه الدانى .

(12) اى : الوزان ، وهو الروح ، والقلب حالة خضوعه للروح .

(13) سقطت من (ب) .

حال غلبة واستعباد للجسم ، فهى النفس الملكة[١٤] ، تأمر وتنهى ، ما تأتيها[١٥] معارضة من جنب التقوى ، قال الله تعالى : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا »[١٦] .

ثم حال تيقظ الجسم فى رجوعه عن عبودية النفس الى أمر الروح برأى القلب ، فهى النفس اللوامة ، تلومه فى رجوعه ، وتعاتبه فى خضوعه ، قال الله تعالى : « ولا أقسم بالنفس اللوامة »[١٧] . فيحتمل هذا الحال[١٨] ، ثم يحتمل حالها يوم القيامة .

ثم حال تمام يقظة النفس[١٩] وسكونها عند طاعة الروح فهى النفس[٢٠] الأمارة بالسوء . فاللسان فى تلك الحالة[٢١] أشد ما يكون اضطرارا ، فقد قام فى العدل ، وما انقطع بعد طمعه عن الميل ، قال الله تعالى : « وما أبرىء نفسى ، أن النفس لأمارة بالسوء »[٢٢] .

ثم حال رجوع الجسم الى طاعة الروح فى الارجاح ، والميل الى ما فيه النجاح ، فهى النفس المطمئنة ، لفقدها قوة المعارضة ، لسكون الجسم الى الذهب الذى أخبره الروح بخبره ، فقد تجلى له اذ مال اليه بمنظره ، ومن الذى أبصر الحديد ثم أبصر النضار[٢٣] فمالت عينه الى الحديد على اختيار ؟ قال الله تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى الى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى »[٢٤] .

فهذا تفسير الميزان ، والحق فى الوزن لله تعالى على العبد ، وهو مخاطب بالأداء ، والله تعالى ضامن للجزاء[٢٥] .

أم أنت عميت عن الذهب بالحديد ، فلم تر فراقه برشيد ؟ أما علمت أن السنجة (لم)[٢٦] توضع فى الكفة (لتوزن ، ولكن)[٢٧] ليوزن بها

---

(١٤) وهى الأمارة بالسوء .

(١٥) فى (أ) : ما تأتيه .

(١٦) الفرقان : ٤٣

(١٧) القيامة : ٢

(١٨) فى (أ) : هذه الحالة .

(١٩) فى (أ) : يقظة الجسم .

(٢٠) فى (ب) : فهو النفس .

(٢١) فى (أ) : فى تلك الحال .

(٢٢) يوسف : ٥٣

(٢٣) النضار : الذهب الخالص .

(٢٤) الفجر : ٢٧ — ٣٠

(٢٥) فى (أ) : الضامن للجزاء .

(٢٦) سقطت من (ب) .

(٢٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

الذهب ثم يخزن ؟ الا أن السنجة معيار ما لها من مقدار ، وما صنع لها الميزان ، ولا جاء لأجلها الوزان ، وما لك بها من متعة الا قدر ما تصل بها الى السلعة[٢٨] .

فلا تفتننين عينها[٢٩] ، فلن ترد بها الجوعة ، ولا تنال بها الكسوة ، بل ارم[٣٠] بها . ان أعطيت الذهب بغير الوزن فهو المقصود ، والا فزن بالعدل فهو الطريق المورود .

أم أنت صيرفى أستاذ اذ عرفت الموازين بحقائقها ، ووقفت فيها على طرائقها ، وجمعت بالميل الى السنجات من الذهب[٣١] كثيرا ، وكنزت بالموازنة كنزا كبيرا[٣٢] .

أما علمت أن هــذا ميزان البعض ، ولكل بعض كلام ، (أم)[٣٣] غفلت بالفرع عن الأصل ، أم نفسك ملكة ، زينت[٣٤] لك الحديد بقرب النسب ، وأغفلتك[٣٥] عن الدر والذهب ، فما أحرزت لو حققت الا حديدا ، ولن تنــال به اذا رجعت عن الوزن الى الدار عيشا حميدا .

فالحياة الدنيــا يوم وزنك[٣٦] والعقبى[٣٧] دار مقامك ، ولن يصحبك اليها ما جمعته بأيامك ، بل تبقى حيث كان الوزن .

ثم النفس المــالكة[٣٨] نفس الكافر الجاهل ، والنفس اللوامة نفس الكافر العالم[٣٩] ، والنفس الآمرة بالسوء نفس العالم المؤمن ، والنفس المطمئنة نفس المقل[٤٠] العامل .

فمتى جهل العبد بربه جل جلاله اشتغلت نفسه[٤١] فى استعباده عن ترغيب أو انذار[٤٢] ، فما عرف لمتعته غير هذه الدار من دار .

---

(٢٨) فى (ب) : الى الساعة .

(٢٩) فى (ب) : تفنين . وفى (أ) : تعتبر ، وفى (م) : تفتن ، والسياق يقتضى ما اثبتناه .

(٣٠) فى (ب) : ارض بها . خطأ .

(٣١) ليس المقصود بالذهب هنا : التقوى كما مر فى أول البحث ، بل المراد الذهب الحقيقى او مقابله من المــال .

(٣٢) فى (أ) : كنزا كثيرا .

(٣٣) سقطت من (ب) .

(٣٤) فى (ب) ، (م) : زين لك .

(٣٥) فى (أ) : واعمتك .

(٣٦) فى (ب) : يوم وردك .

(٣٧) فى (م) : والعقبى . من نسخة ثانية .

(٣٨) فى (أ) : النفس الملكة .

(٣٩) أى : العالم بالايمان .

(٤٠) فى (أ) : نفس المقر .

(٤١) فى (أ) : استغنت نفسه .

(٤٢) أى : انذار بقرب حلول الأجل دون نيل ما يشتهى من المتعة .

وإذا عرف ربه عزت قدرته احتاجت النفس الى اللائمة[٤٣] ، وقامت عليـــه تنذره وترغبه ، قائمة (دائمة)[٤٤] تلبس عليــه بطريق اباثه[٤٥] ، وبضعف حاله[٤٦] ، بخلاف نظرائه (ثم تلومه)[٤٧] يوم القيامة على كفره ، فهى اللوامة أبدا .

فاذا أقر العبد بما عرف ، وكذب[٤٨] النفس فيما افترى واقترف ، كان عدلا ، وغسل ثوبه عن نجاسة الكفر غسلا ، يرى الدنيــا بالعين ، والآخرة بالقلب ، والنفس معزولة لم تغب بعد عن مكان الولاية ، فظلت أمارة بالميل تحت اقامة العدل ، أو أمارة بالسوء فى تلقينه الخير[٤٩] ، وتريه العجب ، وتزين له الرخصة ، وتوقعه فى البدعة[٥٠] ان عجزت عن التصريح بتعاطى القبيح[٥١] رجاء أن يعود اليها بجد وعنايــة ، تدعوه الى الغوايــة بلسان شرع وهداية ، فاذا عمل[٥٢] العبد بما اعترف ، نادما على ما جار وأسرف ، جاء حال عمى العين عن الدنيــا ، ومشاهدة القلب الحق والأخرى ، واذا النفس مشخصة عن الولاية بجنود[٥٣] ، مأسورة فى قيود ، فكانت مطمئنة ليأسها عن الفكاك ، مطيعة للروح مخافة الهلاك ، فعندها[٥٤] تتساقط السنجات ، ويخلص الذهب بلا وزن ، وتصل الى المقصود بلا ظن .

فان لم تقف أيها الأخ على هــذا الميزان بالاستدلال فكيف غفلت عن السماع والله تعالى يقول : **« وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا**

---

(٤٣) فى (أ) : الى الائمة . (٤٤) سقطت من (ب) .

(٤٥) فى الأصول : اباثه . وفى (م) : أمثاله . من نسخة اخرى . وما اثبتناه أوضح .

(٤٦) فى (أ) : وبضعف رأيه .

(٤٧) سقطت من (ب) . (٤٨) فى الأصول : تكذب النفس .

(٤٩) أنظر تفاصيل الأمر بالسوء فى تلقين الخير فى باب مكابدة الهوى من « أعمال القلوب والجوارح » للمحاسبى ، من تحقيقنا . نشر عالم الكتب بالقاهرة . وكذلك باب الشيطان ، من نفس المرجع ، وكتاب « بدء من أناب الى الله » له أيضا ، من تحقيقنا .

(٥٠) تفاصيل دور النفس فى نشر البدعة ، انظرها فى كتاب « عدة المريد الصادق » لزروق . خط رقم ٥٨٧٠ دار الكتب المصرية .

(٥١) فى (ب) : تبعا على القبيح . تحريف .

(٥٢) بياض فى (ب) . (٥٣) يعنى : جنود الروح .

(٥٤) فى (ب) : ففيها .

الميزان »[٥٥] فحال النفس المـالكة[٥٦] على لسان السفر يسمى حال نوم ، و (حال)[٥٧] اللوامة حال يقظة ، وحال الأمارة بالسوء حال مسير ، وحال الطمأنينة حال الوصول •

وذلك لأن نفس الكسلان[٥٨] فى السفر تقضى منيتها اذا نـام المسافر ، ومتى تيقظ للمسير خوفته بالليل وصعوبة الطريق ، ولامت على مساعدة الرفيق[٥٩] ، حتى اذا سار الى القافلة أمرته بالوقوف ، وأملته النجاة والراحة فى العكوف • حتى اذا وصل المنزل ، واستطاب المنهل ، اطمأن •

وعلى لسان الطب تسمى الأولى : حال شهوة ، والحالة الثانية : حال مرض ، والثالثة : حال دواء ، والرابعة : حال شفاء •

لأن الشهوات لا صبر بها[٦٠] على الوجود عن الاسراف ، حتى يخامره المرض ، فيندم حال ضعفه على سرفه ، والنفس تلومه على هـذا المرض فتقول[٦١] : قوامك بغذائك ، وباقتضاء الشهوات تصل الى شفائك ، وما تلفك الا فى دوائك ، وانما هـذا هيج طبيعة الاقرار له ، وكشف طبيعة[٦٢] لا فرار (له)[٦٣] عنه ، والطبيب يذكره عاقبة ما جرب آمرا بحميـة[٦٤] وبشربة من الدواء قويـة ، وبالطبع عن رائحتهـا فرار[٦٥] ، وما للنفس على مرارتها اصطبار •

حتى اذا أيقن بفساد حاله شربها طلبا لاعتداله ، فقامت النفس مضطربة فى ضعفها ، تأمر بتناول الغذاء ، وفى عطشها تشرب[٦٦] كل ماء ، والطبيب يذكرها الدواء ، ويؤملها[٦٧] فى الصبر الشفاء[٦٨] •

---

(٥٥) الرحمن : ٩

(٥٦) فى (أ) : فحال النفس الملكة •

(٥٧) سقطت من (ب) • (٥٨) فى (أ) : النفس الكسلان •

(٥٩) فى (ب) : على توفيق الرفيق •

(٦٠) فى (أ) : لها • وفى (م) : له ـ به • من نسخ أخرى •

(٦١) فى (أ) : على هـذا المرض تقول •

(٦٢) فى (أ) : وكشوف طالع • (٦٣) سقطت من (أ) •

(٦٤) فى (ب) : امرا يحميه •

(٦٥) فى (ب) : فر به الطبع عن رائحتها فرارا •

(٦٦) فى (أ) : بشرب • (٦٧) فى (أ) : يذكره ـ ويؤمله •

(٦٨) فى (م) : فى المصير الشفاء • من نسخة ثانية •

حتى اذا صبر وشفى وقويت طبائعه ؟ اطمأنت وزالت عنه فجائعه .
وعلى لسان الدين تسمى الحالة الأولى : حالة غفلة(٦٩) ، والثانية : حالة دعوة(٧٠) ، والثالثة : حال اجابة(٧١) ، والرابعة : حالة قبول .

لأن الجاهل لا ينعم وان ملك الدنيا بحذافيرها ، الا اذا غفل عن أحوال الحكماء ، ومراتب العلماء . حتى اذا حركه عقله عن نوم غفلته(٧٢) ، ودعاه الى التأمل فى فطرته ، أقبلت النفس لائمة(٧٣) على سماعه ، والعقل يحركها(٧٤) عن مهادها ببيان الدعوة(٧٥) ، ويمزجها بالشريعة(٧٦) ، حتى التفت اليه ليرده(٧٧) رأى تلك المراتب ، وعاين ما لديه من المواهب ، فاختار ، والنفس فى اضطرار ما لها (من)(٧٨) قرار ، حتى لما استحكمت الاجابة ، وتمت الاصابة اطمأنت النفس عنده ، وحمدت هنالك رغده .

فالحالة(٧٩) الأولى للتراب ، والثانية للسلالة من طين ، والثالثة للاعتدال القابل للتصوير ، والرابعة للصلصال الذى تم تصويره(٨٠) .

فما التراب بمدعو للبناء ، وانما دعى حين مزج بالماء ، لكنه غير قابل للصنعة حتى يعتدل ، فلن يحكم(٨١) الصنعة حتى ييبس(٨٢) ، وما ذلك من الله بعجيب . له الحمد واياه أسأل التوفيق ، فهو السميع المجيب .

قد ذكرنا لك من حكم أصل الفطرة بتوفيق الله ما صار لنظيره عبرة(٨٣) ، يهتدى بها ذوو التأمل بالعقول ، ويضل عنها ذوو الغفلة

---

(٦٩) فى (ب) : حال فعل .
(٧٠) فى (ب) : اجابة .
(٧١) فى (ب) : حال حيرة .
(٧٢) فى (ب) : يوم غفلته .
(٧٣) فى (م) : تقلن . من نسخة ثانية .
(٧٤) فى (أ) : يحركه .
(٧٥) فى (أ) : بنيان الدعوة . وفى (م) : بعلى الدعوة . من نسخة ثانية .
(٧٦) فى (م) : بالشنعة . من نسخة ثانية .
(٧٧) فى (م) : ليراه . من نسخة ثانية .
(٧٨) سقطت من (ب) .
(٧٩) فى (أ) : فالحاجة الأولى .
(٨٠) فى (أ) : تم صورة .
(٨١) فى (أ) : ولن يحكم .
(٨٢) فى (أ) : حتى يبس .
(٨٣) جاءت العبارة فى (ب) مضطربة هكذا : ما صار ليصير به غيره .

بالتأميل ، ولسنا وان تقصينا بمستقرئين[٨٤] أصلهـا بفرعهـا ، ولا بمستنبطين[٨٥] جنسها بنوعها ، فقد جبل العبد على العجز والجهل الا ما أثله الله[٨٦] من الاقتدار والعلم ، وسنذكر بعد هـذا من أقسام الناس فى الاعتقاد ان شاء الله تعالى ما لا يخلو عنها عبد ، ولا يعدوها من أحد فضل[٨٧] وبالله التوفيق ، وله الحمد .



(٨٤) فى (أ) : بمستنفدين .
(٨٥) فى الاصول : بمستقر . بمستنبط .
(٨٦) فى (أ) : آتاه الله . وأثله الله ، أى : أصله .
(٨٧) فى (أ) : قصد .

كتاب أقسام الناس فى الـدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن خلق الخلق أطوارا ليعبدوه اعلانا (واسرارا)[1] ، وخلق الجزاء جنة ونارا ، وما ترك غيرهما للعالمين بعد الحيـاة الدنيـا دارا ، وعرفهم الطريقين بالعقول ، وألزمهم الحجة على المعرفة بالكتاب والرسول ، ليهلك من هلك عن بينـة ، ويحيى من حى عن بينـة ، وان الله لسميع عليـم .

والصلاة والسلام على من تمت به الدلالات ، وختمت عليـه الرسالات ، واختير سيدا لمن مضى من الأئمة ، واختير له من الناس خير الأمة ، فقال جل جلاله : **« كنتم خير أمة أخرجت للناس »**[2] .

فوضع الله تعالى عنهم فى الدنيا الأغلال والاصر ، وضاعف لهم فى الآخرة الثواب والأجر ، فقال جل وعز : **« ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم »**[3] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « فكنتم أقل عملا ، وأكثر أجرا »[4] .

وبين لهم صدور المجالس[5] فى دار الخصومة بالوساطة ، ثم أكده منها[6] لهم فى دار الحكومة بالشهادة فقال : **« وكذلك جعلناكم أمـة وسطا لتكونوا شهداء على الناس »**[7] .

حكمة من الله بالغة بحجج من لدنه واضحة . ولست أيها الأخ بعد ما تلوت عليـك من كتاب الله ما يجب له التصديق بمطمئن قلبا الا بما يوجب التحقيق من المعقول الضرورى ، والدليل النورى ، وذلك فى معرفة أقسام الناس ومنازلهم ، وأحوالهم فى خصائلهم ، فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) سقطت من (ب) .　　(٢) آل عمران : ١١٠

(٣) الأعراف : ١٥٧

(٤) أخرجه الدارمى وابو يعلى عن سعد .

(٥) فى (أ) : صدر المجالس .　　(٦) فى (أ) : ثم أعده .

(٧) البقرة : ١٤٣

ان الحكيم القديم الذى خلق الخلق من أربعة عناصر ، سلكهم فى أربع طرائق ، فكانوا : صديقين ، وفاسقين ، وجاحدين ، ومنافقين . فالصديق : المطيع عقدا وفعلا ، والفاسـق : المطيع عقدا لا فعـلا ، والجاحد : العاصى فعلا وعقدا ، والمنافق : العاصى عقدا لا فعلا .

* * *

فصـل [فى] الصديقين

الحمد لله الذى اصطفى رهطا من أولى الألباب ، فخصهم بوراثة الكتاب ، وقادهم بنوره الى الطريق ، كما يقود الأعمى الهادى الرفيق ، حتى استقاموا على سواء السبيل ، وساروا الى المنزل بين قائد ودليل ، آمنين عن الضلالة وحلوا بالمستناخ الرحب ، والمكان الخصب ، مطمئنين تحت الظلال .

والصلاة على السراج المنير ، البشير النذير ، وآله الطيبين ، المقتدين بأقواله وأفعاله[٨] .

اعلم أن الصديقين[٩] أربعة أقسام : الأنبياء صلوات الله عليـهم ، والأوليـاء ، والمقتصدون ، والظالمون . قال الله تعالى : **« ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله »**[١٠] .

غير أن السـابقين قسـمان : الأنبيـاء صلوات الله عليـهم (أجمعين)[١١] ، ثم الأوليـاء .

وللأنبياء أربع مقامات : مقام الخيرة ، ثم مقام الرؤية ، ثم مقام العصمة ، ثم مقام النصرة .

لأن الأنبياء عليهم السلام هم الرهط الذين اختار الله تعالى فى الأزل لهم أطيب بذر ، وأخصب منبت ، وأسعد وقت ، وأهنأ غذاء .

فكان ابتداء الوجود على الطهارة بحكم طيبة البذر[١٢] ، وعلى الزكاة

---

(٨) فى (أ) : افعاله واقواله .
(٩) فى (ب) : ان الصديقين . وسقطت (اعلم) .
(١٠) فاطر : ٣٢
(١١) سقطت من (ب) .
(١٢) فى (م) : طيب البذر . من نسخة ثانية .

بحكم خصب المنبت ، وعلى الجد[١٣] بحكم سعادة الوقت ، وعلى الصفاء بحكم عذوبة المـاء ، وموافقة الغذاء . فنشـأوا مطهرين مزكين ، مجدودين[١٤] أصفياء منة من الله تعالى ، قد وقوا خبثا يكون من البذر ، وقسوة تعدى من المنبت ، وحرمانا ينشأ من نحوسة الوقت ، وفسادا يتولد من الغذاء ، وما معهم فى أصل الفطرة عقل يهديهم (الى)[١٥] المحل ، ولا خبث فيهم يدعوهم الى المضل ، فبقوا على المكان المختار متحيرين كالسفر[١٦] لحقهم الليـل ، وأعماهم الظلام وهم على الطريق ، فحلوا منتظرين .

فكانوا ما شاء الله فى عناية المولى ، الى أن جاء أوان الرؤية والهدى ، وذلك فى قول الله تعالى والله أعلم : **« ووجدك ضـالا فهدى »**[١٧] . أى : فى مقام الحيرة[١٨] ضالا عن الطريق بالوقوف على المنزل . فهداك بالعقل والكتاب المنزل .

ثم فجر الله لهم أنوار العقول ، وأيقظ لهم أبصار القلوب ، فأراهم ملكوت السموات والأرض ، فكانـوا من المهتدين ، فسـلكوا الطريق المستقيم[١٩] الى مولاهم آمنين . وذلك فى قوله تعالى : **« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين »**[٢٠] .

وقولـه : **« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »**[٢١] .

وقولـه **« ووجدك ضالا فهدى »**[٢٢] .

فصاروا ما شاء الله بهدايته بعد ما أقاموا مدة بعنايته ، فرأت نفوسهم والشياطين سلوكهم طريق الآخرة[٢٣] ، عميا من الدنيا بأسرهـا فاضطربت لاسماعها أحلى صوتها ، وأرتهم أبهى زهرها ، هـذا على

---

(١٣) الجد : بفتح الجيم : الحظ .
(١٤) اى : سعداء مسعودين .
(١٥) سقطت من (ب) .
(١٦) فى (أ) : كالمسافرين . وهما بمعنى .
(١٧) الضحى : ٧
(١٨) فى (ب) : مقام حير .
(١٩) فى (م) : الصراط المستقيم . من نسخة ثانية .
(٢٠) الأنعام : ٧٥
(٢١) فصلت : ٥٣
(٢٢) الضحى : ٧
(٢٣) فى (أ) : طرق الآخرة .

يمين الصراط ، وهـذا على الشمال ، وترويحهم[٢٤] على الجانبين[٢٥] بالصبا والشمال ، الى نصب شبك المهالك ، على سواء المسالك[٢٦] ، حتى هموا لولا ان عصموا ، وزاغوا لولا أن ثبتوا ، قال الله تعالى : ((وهم بها لولا ان رأى برهان ربه))[٢٧] .

وقال : ((ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا))[٢٨] .

فقووا بالتأييد والتوفيق ، وما خافوا شبك المحن على (الطريق)[٢٩] المضيق ، ولا التفتوا الى جانبى الطريق ، الا للدعوة الى الحق الدعاة الى الزيغ ، والله تعالى من ورائهم بالتأييد بالرصد والجنود .

فما أجابوهم الا مستهزئين[٣٠] ، الا قليلا من المساكين ، فثبتوا على الدعوة نذرا وبشرا ، فكابروهم متعنتين ، وقصدوا استفزازهم من الطريق متغلبين ، فنصرهم الله تعالى بجنوده ، فصاروا غالبين قاهرين للضلال[٣١] عن الصراط الى جانبيه بالعدول الى سوائه (محذرين ما على حافتيه ، مبشرين بما لهم عند انتهائه ، حتى ازدحموا بهم على الصراط)[٣٢] المستقيم[٣٣] ، وتبعوا الأنبياء صلوات الله عليهم (أجمعين)[٣٤] مطمئنين ، فجوزوا بما صبروا فى الدنيا بالولاية ، وبما صدقوا فى الآخرة بالشهادة .

وللأنبياء عليهم السلام ورثة ، وهم العلماء أحسن الله اليهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء »[٣٥] . وقال : « علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل » .

---

(٢٤) فى (ب) : وتروحهم .　　(٢٥) فى (أ) : من الجانبين .

(٢٦) فى (ب) : سد المسالك . وفى (م) : سوء المسالك . من نسخة ثانية .　　(٢٧) يوسف : ٢٤

(٢٨) الاسراء : ٧٤　　(٢٩) سقطت من (ب) .

(٣٠) فى (أ) : الا المستهزئين .

(٣١) فى (أ) : قاهرين الضلال .

(٣٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٣٣) فى (أ) : مستقيمين .　　(٣٤) سقطت من (ب) .

(٣٥) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير وضعفه ويعضده فى المعنى ما أخرج الديلمى بمعناه ، وفى الطبرانى : العلماء ورثة الانبياء يحبهم أهل السماء .

وهـــذا والله أعلم لأن الأنبياء كانوا لله وللعقبى[٣٦] وان كانوا فى أصلاب البشر ، ونشأوا من نعيم الدنيـــا فلم يورثوا الا ما كان لله من العلم والحكمة ، وكان ما تركوا من نعيم الدنيـــا صدقة (كمال)[٣٧] لا مالك له ، من نحو اللقطة ، ولم يرثهم الا من اتصل اليهم بالرب دون من اتصل اليهم بالصلب • ثم نص الله تعالى لنوح عليـــه السلام فى ابنه فقـــال : « **انه ليس من أهلك ، انه عمـــل غير صالح** »[٣٨] • فأخرجه من جملة الأهل بما كان منه من فاسد الفعل ، وقال الله تعالى فى أهل بيت رسوله صلى الله عليـــه وسلم ورضى عنهم : « **انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** »[٣٩] •

وصف أهل البيت بالطهارة لتكون الصفة على أعيانهم علما ، ولا يدعى الأهليـــة لنفسه من انتسب اليهم ممن عدم الصفة عدما ، ثم أكد هـــذا المعنى الرسول صلى الله عليـــه وسلم بلسانه فقال : « العلماء ورثة الأنبياء » • ليعلمنا بارث الأهليـــة[٤٠] ، ويصرفنا عن الوصلة الصلبيـــة ، فما يحرم الابن ميراث أبيه لأجل أخ أو لعم أو لأبعد منه[٤١] الا بكفر أو قتل أو برق ، وما يرث الزوج امرأته على بعد من النسب الا لقرب السبب •

فالسبب للميراث سبب بدعى[٤٢] ، والولاية والارث منه المقصود والمعنى ، وما فى سبب دون المسبب من جدوى •

أتعلم أيها الأخ العالم ما تفسير الوراثة وحكمها ؟ أم أنت ممن غاب (عنك)[٤٣] علمها ؟

ألا ان الوراثة خلافة عن الميت فيما كان له ممن انتقل اليه كأن الميت حى ، واعتمد فى حقوقه بالأمر عليـــه •

أيها المسكين ، فلا (تسرن باسم الارث)[٤٤] واغتنم لحكمه[٤٥] ،

---

(٣٦) فى (ب) : والعقبى •
(٣٧) سقطت من (ب) •
(٣٨) هود : ٤٦
(٣٩) الأحزاب : ٣٣
(٤٠) فى (أ) : بالارث الأهلية •
(٤١) فى (ب) : لأخ أو لعم ولا أبعد منه •
(٤٢) فى (أ) : يدعى ــ بضم الياء وفتحها وفتح العين •
(٤٣) سقطت من (ب) •
(٤٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(٤٥) فى (ب) : واغتنم لحكمه •

فقد لزمك الأخذ[٤٦] بسمت الرسول بما ورثت من علمه ، ولست فى أصلك على صفوتهم ، وحرمت اذ لم يؤدك الوحى[٤٧] كنه قوتهم ، كانوا معلمين بالوحى وانت متعلم ، وكانوا معصومين وأنت معتصم ، وكانوا مقومين وأنت متقوم ، وليس ما حصل بتكلف كالحاصل طبعا ، ولا ما عرف بالاجتهاد كالذى عرف سماعا[٤٨] .

هل وقفت على الطريق حين هديت ؟ وهل عصمت عن الميل اذ دعيت ؟ وهل دعوت الخلق الى الحق اذ أريت ؟ أم زغت عن الطريق فأخذت الدنيـــا[٤٩] وقلت : سيغفر ويوهب ، وهديت الناس الطريق بقولك وأنت يرد عليك بفعلك وتكذب .

وكذبت فضللت وأنت عالم ، فضل بسببك عالم ، فكنت قائدا كما عرفت الرسول عليـــه السلام[٥٠] قائدا ، ولكن أنت الى الجحيم ، والرسول عليـــه السلام[٥١] الى دار النعيم .

يا من عبت صاحب النسب على اكتفائه بالسبب قد دخلت تحت هـــذا الحكم بقنوعك بالاسم واللقب ، فالمقصود من الاسم معناه ، كما أن المطلوب من السبب عقباه .

أما علمت أن العلم زيادة حجة من الله عليك للهداية[٥٢] ، فما تزداد به الا عذابا عند الغواية . أما سمعت الله تعالى يحكى عن قارون جمعه بعلمه ، ثم منعه بوهمه ، ثم أخبرك بحكمه ، فلم يرض مجموعه بسبب العلم لأحد من الأنام[٥٣] ، ورضى مال فرعون وأهلكه وأهله على دعوى الربوبية لأهل الاسلام[٥٤] .

---

(٤٦) فى (أ) : الاحتذاء . وفى (م) : الاقتداء . من نسخة ثانية .

(٤٧) فى (أ) : يؤيدك الوحى .   (٤٨) فى (أ) : عرف سمعا .

(٤٩) فى (أ) : واخذت الدنيـــا .

(٥٠) فى (أ) : صلى الله عليـــه وسلم .

(٥١) فى (أ) : صلى الله عليـــه وسلم .

(٥٢) اى الهداية ابتداء من نفس العالم ، بعمله بعلمه ، ثم هدايـــة الآخرين بنشر العلم .

(٥٣) لأنه خسف به وبداره وبماله الأرض فلم يرض أن يكون ماله نهبا للناس من بعده ، لأنه مال قد ادعى فيه قارون جمعه بعلمه .

(٥٤) اى : المؤمنين بموسى من أهل مصر فقد اعترفوا بالاسلام .

أما علمت أن الذى ضل عن عمى ليس كالذى ضل على بصيرة[٥٥] وهدى . أما علمت أن الذى نام والليل سيار ، ليس كالذى نام والوقت نهار ، شاور فى ضلالك قلبك ، وحكم فيه لبك ، ثم عد لحكمه على الطريق ، وعد فاستغفر[٥٦] ذنوبك ربك ، تجده غفورا رحيما ، ثم اثبت على الاستقامة تكن سيدا كريما ، فما بينك[٥٧] وبين الرسول عليه السلام الا أنك ممن وصل اليك الوحى بواسطة من البشر ، والنبى عليه السلام بلغه بواسطة من الملك ، اذ لم تعرف[٥٨] قدرك هذا ولذلك هلكت .

فما فرق بينك وبين الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين الا أنهم كانوا مطاعين ببيعة من الخليقة ، وأنت مطاع بنور من الله تعالى لو كنت على الطريقة ، وكانوا مطاعين بأنصار من الانس ، وأنت مطاع بأنصار من الذات والنفس ، وكانوا مكلفين بزيادة أعمال[٥٩] ، وأنت مخفف عنك[٦٠] كثير من الأثقال ، الا أنه كانت لهم ولاية الالزام كرها ، وعليك الصبر اذ لم يقبلوا منك قولا ، وييسير عليك هذا الصبر اذا أمرتهم بحق الأمر ، فما أمر الله تعالى قبلك بعد الرد عليك الا الاعراض[٦١] ، والاعراض أيسر من الالزام ، فانما بقى عليك تهذيب أعمالك ، وتحسين أخلاقك ، وذلك بحسن الرياضة منك ، والتوفيق من الله تعالى موعود . قال الله تعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** »[٦٢] .

ثم دعوة الخلق الى الله تعالى والنصر مضمون كما كانت الرسل عليهم السلام ، وبذلك نطق أصدق الكلام : « **انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** »[٦٣] . « **ان تنصروا**

---

(٥٥) فى (أ) : على بصر وهدى .
(٥٦) فى (ب) : واستغفر . (٥٧) فى (ب) : ما بينك .
(٥٨) فى (أ) : ان لم تعرف .
(٥٩) فى (ب) : مطاعين زيادة أعمال .
(٦٠) فى (أ) : خفف عنك .
(٦١) يعنى لم يتوجه امر الله تعالى اليك بشىء بعد أن يردوا عليك دعوتك الا بأن تعرض عنهم . فلست مكلفا بالالزام كالخلفاء الراشدين .
(٦٢) العنكبوت : ٦٩ (٦٣) غافر : ٥١

الله ينصركم))[٦٤] • وانما الهلاك من قبل جهل المرء بقدره ، فوضع نفسه عنده على أنه دافع[٦٥] ، وغفلته عن ربه وطلب غيره على حسبان أنه ضائع[٦٦] •

ومقامات الأنبياء عليهم السلام فى النصرة أربعة[٦٧] • قال القاضى الامام رضى الله عنه ورحمته عليـه : القوى العلمية فى العباد من غير شرع و (لا)[٦٨] ايمان لصيانة أو لغلبة أربعة أنواع : علم التنجيم والهندسة ، وعلم الطب والفلسفة ، وعلم التعزيم والكهانة ، وعلم السحر والشعوذة •

فالأولان للصيانة (الطب للصيانة)[٦٩] عن الآفات الداخلة بعلمه ، أما الطب فلعلمه بتغيير طباعه عن الاعتدال[٧٠] ، والنجوم للصيانة عن الآفات الخارجية[٧١] لعلمه[٧٢] بتغيير[٧٣] ما على الفلك من الأحوال • والعلمان الآخران للغلبة ، فبالتعزيم يزداد قوة بالجن ، وكذلك بالسحر ، غير أن قوة علم السحر ترجع الى الذات ، والتعزيم الى الغير[٧٤] ، لأن نصرة المعزم بالجن وهم على اختيار ، ونصرة الساحر بآلات تخيل على اجبار[٧٥] ، أو علامات يسحر بها[٧٦] الأبصار • وما وراء هـذه من القوى معدودة فى الحسية ، خارجة فى عادات الناس عن العلمية •

فزمن ابراهيم عليـه السلام كان زمن علم النجوم والايمان بها ، فنظر ابراهيم عليـه السلام فيها بالعقل فوجدها مسخرة لا تمتنع عن الأفول ، فتبرأ عنها الى القدير الذى أجراها على تسخير ، فنصر بآية من ذلك الطريق فوقى آفة[٧٧] الحريق وهو فى الحريق ، فكانت وقايـة

---

(٦٤) محمد : ٧

(٦٥) فى (أ) : رافع •

(٦٦) يعنى : أن الداعى قد اغتر بنفسه فاعتقد أنه قادر على الدفع ، فلما عجز غفل عن الله ، وانتصر بغيره على حسبان أنه ضائع بين قومه • وهو سبب الهلاك •

(٦٧) فى الأصول : اربع •

(٦٨) سقطت من (أ) •

(٦٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •

(٧٠) فى (أ) : من الاعتدال •

(٧١) فى (أ) : الآفات الخارجة •

(٧٢) فى (ب) : بعلمه •

(٧٣) فى (أ) : بتغير •

(٧٤) فى (ب) : الى الخير •

(٧٥) فى (ب) : تخيل على العباد •

(٧٦) فى (أ) : يسحر به •

(٧٧) فى (ب) : فى آفة الحريق •

قومه عن النار اذا خافوها بالاحتراز عن سبب الوقوع لا بالبرد[٧٨] ، فلما وقى (ابراهيم)[٧٩] عليــه السلام بتغير النار عليه وهو فيها الى سلام وبرد لانوا له بالعجز وهو فرد .

ولمــا تبرأ[٨٠] ابراهيم عليــه السلام عن السبب الى المسبب ، والى الله تعالى عن الشهب ، أكرم بالوقاية دون السبب .

وكان زمن عيسى عليــه السلام زمن الفلسفة والطب وعلم الطبائع ، والايمان بها ، فأرى عيسى عليــه السلام ، فرآها ضواد لا تنشىء[٨١] الا باجتماع ، ولا اجتماع الا بقهر ، فهى ضواد على امتناع ، فتبرأ عنها القاهر الجامع ، الواحد الصانع ، فنصر بآية من ذلك الباب ، فأحيا الميت ، وأبرأ الأكمه ، وما عنده أدوية ولا أسباب[٨٢] .

فلما تبرأ عن الطبائع الى خالقها وقاهرها أكرم بايجاد المعدوم حياة فى الميت ، ونورا فى الأكمه ، وما كان ذلك من الطبائع فموهوم ، خصوصا بلا شرب دواء ، ولا تناول[٨٣] غذاء .

وكان زمن سليمان عليــه السلام زمن التعزيم والكهانة ، والايمان بالجن والشياطين ، فعرف الله تعالى سليمان ألا سلطان لهم على الانس الا من اتبعهم عن اختيار ، وما بهم قدرة تدفع عن أنفسهم ما توجبه[٨٤] الأقدار ، فتبرأ عن الجن[٨٥] الى خالقها ، فنصر بآية من ذلك الجنس لم تكن معهودة لأولئك الأمة فى طرائقها ، فحشر له الجن والشياطين والانس طوعا وكرها ، وبنى على المــاء صرحا ، وهبت الريح بعرشه هبا .

وكان زمن موسى عليــه السلام زمن السحر (فأبصر موسى حاصل ما يرجع اليه السحر)[٨٦] ، فعلمه ضعيفا من الأمر ، فتبرأ عن الانتصار بالتهويل والتخييل ، الى خالق الأهوال والخيال ، ومغير الذوات بعد

---

(٧٨) فى (أ) : لا بالبرء . (٧٩) سقطت من (أ) .
(٨٠) فى الأصول : فلما . واخترنا ما فى (م) .
(٨١) فى (ب) : لا تنشأ .
(٨٢) فى (أ) : الأدوية ولا الأسباب .
(٨٣) فى (ب) : أو تناول . (٨٤) فى (أ) : لمــا توجبه .
(٨٥) فى (أ) : تبرأ عن الجن .
(٨٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

الأحوال ، فنصير بآية من ذلك المثال : عصا تسعى حقيقة (لا)[87] تخييلا ، وتلقف ما أفكوا يقينا لا تهويلا .

فلما تبرأ[88] عن مخيل الصفات الى مخيل الذوات نصير بتبدل الذات بلا أسباب وآلات .

فكانت الآراب كلها للأنبياء صلوات الله عليهم (أجمعين)[89] على معتاد قواهم ، ولكنها فوق ذلك عيانا بلا أسباب عهدوها ايقانا .

ثم الله تعالى لما أراد ختم الرسالات بمحمد عبده عليه السلام لفضله[90] ، ونصرة دينه على الدين كله ، أخرجه من بين قوم أعطوا فضل قوة [فى] اللسان ، وهى من فضائل الرأس ، و (فضل)[91] قوة الجنان ، وهى من فضائل الصدر ، وهما راجعان[92] الى قوى النفس المعروفة بالحسن[93] .

وفى قوة اللسان من الكلام قوتا علم الطب والنجوم ، فان الكلام يدفع شر داخلى البلد من الحاضرين بحجة الخطاب[94] ، وشر الخارجين[95] من الغائبين بحجة الكتاب[96] ، وانه فى الدفع والالزام أبلغ من الطب والنجوم [على] ما عليه مبنى أمور عقلاء الأنام .

وفى قوة الجنان من البسالة قوتا علم السحر والكهانة : غلبة الأدنين بضرب السيف الباتر ، وغلبة الأقصين ببعث الجيش الزاجر ، وكلا الأمرين[97] ينشآن من بسالة الصدر ، وأثرهما فى الغلبة فوق أثر الكهانة والسحر ، على ما يدور عليه (فى)[98] الشاهد الأمر[99] .

ثم قوة البسالة وقوة الفصاحة وان كانت فى قالبى قوى الطبع فانهما فى المزاج من قوى العلم ، فلا الزام باللسان الا بعد الوقوف

---

(٨٧) سقطت من (ب) .

(٨٨) فى (ب) : فكما تبرأ .

(٨٩) سقطت من (ب) .

(٩٠) فى (أ) : بفضله .

(٩١) سقطت من (ب) .

(٩٢) فى (م) : وهو راجع . من نسخة ثانية .

(٩٣) فى (أ) : المعروفة بالحس .

(٩٤) فى (ب) : لحجة الخطاب .

(٩٥) أى : الخارجين عن طاعة الامام من خارج البلد .

(٩٦) فى (ب) : لحجة الكتاب .

(٩٧) فى (أ) : فكلا الأمرين .

(٩٨) سقطت من (ب) .

(٩٩) فى (ب) : للأمر .

على الحجـــة[١٠٠] ، ولا غلبة بالجنـــان الا بعد الوقـــوف[١٠١] على العورة[١٠٢] ، (مع ما رجع الكلام فى المعنى الى حقيقة علم الحساب ، فانه بنى على حروف مجموعة ، وموازين معدودة ولا وقوف بدون الحســـاب على حدودهـــا المحـــدودة ، ولأجزاء الحســـاب أســـامى موجودة)[١٠٣] وترجع[١٠٤] الى علم الفلسفة والطبائع ، فلهذه الحروف مخارج عجيبة ، وللسان فى اخراجها مجارى لطيفة ، وللقلب قوى بديعة فى ضبطها والقائها على اللسان فى وقتـــها ، لا تعرف حقائق ذلك الا بعد عـــلم[١٠٥] الفلسفة ، كما لا يعرف الضرب الأول الا بالهندسة .

فصار ذانك العلمان[١٠٦] بعض ما دخل تحت اللسان ، وكذلك فى حيل أصحاب الجيوش وذوى النجدة من التهويلات والاراءات[١٠٧] فى الحروف[١٠٨] ، وما أربت على تهويلات السحرة ، وتمثيلات المعزمين ، بعد الرجوع الى أمر فاصل وهو السيف (القاتل)[١٠٩] .

فشاهد النبى صلى الله عليـــه وسلم — وهى[١١٠] أعلا أسباب الدرك — القوتين من عضوين ضعيفين[١١١] : اللسان ، والقلب . ثم رأى دخولهما تحت حس البصر بشيئين عاجزين : القلم ، والسيف . فتبرأ عن الحول بهما[١١٢] الى خالق الحول والقوى ، فنصر بآية من ذلك الجنس على الورى ، فحاجهم[١١٣] بكلام داعيـــا الى أحـــكام

---

(١٠٠) فى (أ) : وقوف على الحجة .
(١٠١) فى (أ) : وقوف على العورة .
(١٠٢) اى : على مواطن الضعف فى جيش العدو .
(١٠٣) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٠٤) فى (أ) : ورجع . وفى (م) : فرجع . من نسخة ثانية .
(١٠٥) فى (أ) : الا بعلم .
(١٠٦) فى (ب) : ذلك العلمان . وهما : الحساب واللسان . أو : الفلسفة والطبائع .
(١٠٧) فى (ب) : والاراب .
(١٠٨) فى (أ) : فى بالحروب .
(١٠٩) سقطت من (ب) .
(١١٠) اى : المشاهدة ، لانها من اليقين الذى يجعل غير المحسوس محسوسا ، وكأنه حاضر .
(١١١) فى (أ) : عضوين صغيرين .
(١١٢) فى الأصول : من الحول بها . واخرنا ما فى (م) .
(١١٣) فى (ب) : فجاءهم .

أعجزهم عن مثله[١١٤] ، ولم يكن قارئـا على أحد ، ولا كاتبا بقلم ، وما دون القراءة والكتابة سبب لعلمها .

ثم قاد الكافـة كما يقاد البعير الأنف[١١٥] الى قبول الشريعة بالبسالة ، وهى مجمعة على نبذهـا ، وما معه رجال ولا مال[١١٦] ، وما دونهما سبب لقهرها ، فنصر يوم بدر بكف من تراب[١١٧] ، وفى غيرها من المواضع[١١٨] بالارعاب ، قال الله تعالى : « **(وما أفاء الله على رسوله منهم)**[١١٩] **فما أوجفتم عليـه من خيل ولا ركاب** »[١٢٠] .
فكما تبرأ[١٢١] الى الله من قوة اللسان والقلب والقلم والسيف ، نصره الله بمعجزة وهى : كلام من غير قراءة ولا قلم ، وبقاهرة وهى : ارعاب من غير سبب ولا أمم ، بل قامت نفسه فوق مقام السيوف والزحوف فنصر بالرعب مسيرة شهرين ، وقام القرآن فوق مقام الكتب والخطب ، فنصر بالعجز على الثقلين ، وانهما[١٢٢] لجامعتا كل القوى ، لكنهما (فى غير قالب القوى العلمية عند الورى فكانت أبلـغ فى الانجـاز لظهورها)[١٢٣] فى غير ذلك الطراز ، مع ما شاركها فى الوجود بدون السبب ، وزاد عليها بعد الاحتواء على جميعها فى الرتب[١٢٤] .

ثم الرسول عليـه السلام لمـا تبرأ الى الله تعالى عن اللسان والقلب ــ وفيهما كل القوى ــ وهما كل الآدمى فى المعنى[١٢٥] ــ ألزم بجميع ما نصر به أنبياء الهدى[١٢٦] ، بل فوقها رتبة وأعلى .

---

(١١٤) فى (أ) : عن مثلها .
(١١٥) الأنف : الذى لا يقاد بسهولة .
(١١٦) فى (أ) : الرجال ولا المـال .
(١١٧) فى (أ) : من التراب .
(١١٨) فى (أ) : وفى كثير من المواضع .
(١١٩) صدر الآية سقط من (ب) .
(١٢٠) الحشر : ٦
(١٢١) فى (أ) : وكما تبرأ .
(١٢٢) أى : المعجز والقاهرة .
(١٢٣) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٢٤) فى (ب) : على جميع الرتب .
(١٢٥) فى ذلك يقول الشـاعر العربى :
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وفى حكمهم : « المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه » .
(١٢٦) فى (ب) : الزم لجميع ما نصر اليه أنبياء الورى .

فان ابراهيم عليــه السلام ان وقي شر آلة من آلات[١٢٧] اللعين [فقد] عصم محمد عن شر الناس أجمعين[١٢٨] ، ولئن أكرم بعد السؤال بلسان صدق فى الآخرين ، [فقد] أكرم محمد (صلى الله عليه وسلم)[١٢٩] بلا سؤال بقرآن ذكره بذكر رب العالمين •

وان نصر سليمان عليــه السلام بالجن والشياطين ، [فقد] نصر محمد عليــه السلام (بأربعة)[١٣٠] آلاف من الملائكة مسومين ، وان أكرم فسارت الريح بعرشه مسيرة شهرين يوما لتنفيذ ارادات[١٣١] [فقد] أكرم محمد عليــه السلام فأسرى الله تعالى به مثل تلك المدة ليلا لاراءته آيات •

وان نصر موسى (عليــه السلام بالرعب)[١٣٢] بواسطة العصا مد بصر العين ، وانفلاق البحر ، [فقد] نصر محمد (عليه السلام)[١٣٣] بالرعب بلا واسطة مسيرة شهرين ، وانشقاق البدر[١٣٤] ، وان أكرم بطور سيناء للتكليم [فقد] أكرم محمد عليــه السلام بالمعراج للنجوى والتسليم •

وان نصر (عيسى)[١٣٥] عليــه السلام بروح حيوانى يحيى العظام ، وينور العيون ، فقد نصر محمد عليــه السلام بروح فرقانى يحيى القلوب ، وينور العقول ، ثم الحياة بروح عيسى عليه السلام اذ رفع ذاهبة ، والحياة بهذه الروح بعد محمد (عليــه السلام)[١٣٦] باقية • وتلك الحياة كانت للدنيــا ، وهــذه الحياة للعقبى والمولى ، حكمة من الله تعالى بالغة ، اذ محمد عليــه السلام[١٣٧] كان مبعوثا الى الناس

---

(١٢٧) فى (ب) : شر الدمن الأبى •

(١٢٨) مصداق ذلك قوله تعــالى : « **والله يعصمك من الناس** » (المــائدة : ٦٧) . وقوله : « **فسيكفيكهم الله** » (البقرة : ١٣٧) •

(١٢٩) سقطت من (ب) •   (١٣٠) سقطت من (أ) •

(١٣١) فى (ب) : لتنفيذ ارادته •

(١٣٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) •

(١٣٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •

(١٣٤) حديث انشقاق القمر •   (١٣٥) سقطت من (أ) •

(١٣٦) ما بين الحاصرين سقط من (أ) •

(١٣٧) فى (أ) : صلى الله عليه وسلم •

كافة ، وفيها الطبقات عامة ، ولن يغلب الجزء الكل الا بخالق الكل ، ولن تحصل الغلبة بالخالق جل جلاله الا بالتبرى عن المخلوق ، ولن تنفع البراءة عامة الا بالتبرى عن النفس خاصة .

فأخرج الله تعالى محمد عليه السلام من قوم ما رأوا الا نفوسهم ، وما نفروا الا بألسنتهم وقلوبهم ، حتى لم يقع بصره[١٣٨] اذ أرى الحق الا فيها ، ولزمه اذ عرفه التبرى الى الله تعالى منها ، فنصر بالقوى عامة ، على حسب البراءة فى عمومها ، ونصر سائر الأنبياء عليهم (الصلاة و)[١٣٩] السلام بقوة خاصة[١٤٠] على حسب البراءة فى خصوصها .

ثم ان محمدا عليه السلام حقق تبريه عن النفس بأخلاقه ، فعاش مشفقا بقلبه على الأعداء حتى عوتب فقيل له : **« لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين »**[١٤١] . فجوزى على شفقته عليهم بالشفاعة للظالمين .

وعاش مؤثرا بما فى يديه حتى نهى فقيل [له] : **« ولا تبسطها كل البسط »**[١٤٢] . فجوزى على ايثاره بالكوثر يوم الدين[١٤٣] .

وسكن الدنيا غير ملتفت اليها استهانة بها ، فجوزى بقوة العين فى نجوى رب العالمين .

وأقام فيها مقام مجم[١٤٤] فى سفره تحت ظل ، فجوزى باقامة شريعته أبد الآبدين .

فخالف بالخلق الأول الصفراء ، وبالثانى السوداء ، وبالثالث الدم ، وبالرابع البلغم[١٤٥] .

---

(١٣٨) فى (أ) : لم يقع نظره .
(١٣٩) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٤٠) فى (ب) : نصرة خاصة .
(١٤١) الشعراء : ٣ (١٤٢) الاسراء : ٢٩
(١٤٣) وذلك قوله تعالى : **« انا اعطيناك الكوثر »** (الكوثر : ١) .
(١٤٤) اى : مستريح .
(١٤٥) الخلق الأول : الشفقة ، والثانى : الايثار ، والثالث : عدم الالتفات الى الدنيا ، والرابع : عدم الاستراحة اليها وفيها .

فلم يعط نفسه رضا طلبا لرضا الله تعالى ، فجوزى باعطاء الله اياه حتى يرضى ، وآثر بحسن الخلق على نفسه فجوزى بتوليـه امامة الورى ، واطمأن على المكاره والناس مفوضا أمره الى الله تعالى فجوزى بالعصمة من الناس ، وتجاسر على الجميع غير خائف من دون الله ، فجوزى بتخويف الله الناس بقلبه .

وقد دلت هـذه الأخلاق على انخلاق محمد[١٤٦] من الجزء القلبى ، فما يوجد قلب العاقل الا قلقا على خطأ النفس[١٤٧] فى معاداة النفس اياه ، رادا عليـه وعلى هواه[١٤٨] ، ولا يوجد الا مؤثرا بما عنده (من عنده)[١٤٩] من الحكمة ، لا يتم سروره[١٥٠] الا ببثها على الأمة ، ولا يوجد قلبه فى الدنيـا الا مستوحشا ، وعن طلبها متوحشا ، ولا يوجد القلب من الحكيم فى اقامة الجسم بموضع خبيث[١٥١] بسبب الا مسافرا عنه ، طائرا الى معالى الرتب[١٥٢] .

ثم الله تعالى دل على هـذه المعانى ببعثه من مكة ، فهى أم القرى ، و (هى)[١٥٣] بمنزلة الرأس لسائر الدنيا . فأول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا ، وأول جزء ظهر من الأرض تلك البقعة ، كما يظهر أول شىء من الانسان عند الوقفة[١٥٤] ، وأمره بالهجرة الى المدينة ، وانها كالصدر لهذه الأرض على ما وردت [به] الأخبار[١٥٥] : أن الله تعالى أمر جبريل عليـه السلام أن يقبض من قلب الأرض قبضة فكان منها محمد عليـه السلام ، ثم أمره[١٥٦] فقبض قبضة أخرى من أديم الأرض ، وجعل القبضة الأولى فيها ، ثم خلق آدم عليـه السلام .

---

(١٤٦) فى (ب) : اخلاق محمد .
(١٤٧) فى (ب) : على حظ النفس .
(١٤٨) فى (ب) : وعلى هداه .   (١٤٩) سقطت من (أ) .
(١٥٠) فى (ب) : لا ينام مسرورا .
(١٥١) فى (ب) : موضع خبث .
(١٥٢) اى : انه صلى الله عليـه وسلم يمثل قلب الأخلاق العالية بهذه الأدلة التى تحقق رأى المؤلف الذى انفرد به فى عرضه لشخصيـة الرسول الأعظم صلى الله عليـه وسلم فلم يسبق اليه فيما نعلم .
(١٥٣) سقطت من (ب) .   (١٥٤) اى حال وقوفه .
(١٥٥) انظر « المعـانى المستطابة فى محاسن طابة » لمجد الدين الفيروزآبادى ص ٧٩ . نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .
(١٥٦) فى (أ) : ثم أمر .

و (قد)[١٥٧] دفن رسول الله صلى الله عليــه وسلم بالمدينة ، فدل على أنها موضع خلقــه على ما جــاءت به الأخبار ، حتى اجتمع فى رسول الله صلى الله عليــه وسلم قوى الرأس والصدر من طريق المنبت والمنشأ والمولد والموضع الذى أراد الله نصرته فيه[١٥٨] .

وقد دل ما ظهر علينا من الأعضاء وفينا من القوى وقد خلقنــا من أديم الأرض أنها موجودة فيها كذلك من طريق المعنى وان غاب عنا مرأى[١٥٩] .

فمكة[١٦٠] والله أعلم بمنزلة الرأس ، لأنها كانت أول شئ[١٦١] وجودا ، وبيت الله بمنزلة الدماغ منه ، والحرم بمنزله ما وراءه من الوجه الى العنق ، والمدينة بمنزلة الصدر ، وبيت رسول الله صلى الله عليــه وسلم (الذى دفن فيه)[١٦٢] بمنزلة القلب ، وسائر الأجزاء كسائر الأعضاء مما ينتفع به ولا ينتفع به ، ويتأذى به ولا يتأذى[١٦٣] .

ولهذا[١٦٤] والله أعلم سميت مكة : أم القرى ، كما يسمى موضع الدماغ : أم الرأس ، ولأن مرجع الولد الى الأم ومنها كان المبدأ ، ومرجع البدن الى الرأس ، ومرجع القرى الى مكة ومنها كان الابتداء (والله أعلم)[١٦٥] ، كان الحرم آمنا ، يأمن فيه من التجأ اليه من مباح (الدم)[١٦٦] الا اذا تعدى فيه بما أوجب حداً ، والرأس الى العنق كان آمنا من الآدمى اذا استبيحت نفسه بجلد ، الا اذا تعدى فى الوجه عينــا .

ثم الله (تعالى)[١٦٧] خلق آدم عليــه السلام من أديم الأرض ، وجمع فيه[١٦٨] أجزاء النسل كله من أجزاء الأرض ، فكان حظ آدم والله

---

(١٥٧) سقطت من (أ) .
(١٥٨) فى (ب) : نصرته به .
(١٥٩) فى (ب) : عنا امرا .
(١٦٠) فى (ب) : فمثله .
(١٦١) فى (أ) : أول جزء .
(١٦٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٦٣) هذه المقارنة بين الأرض والانسان وصلتها برسول الله صلى الله عليــه وسلم رغم ما فيها من التكلف فهى وجهة نظر قابلة للبحث .
(١٦٤) فى (ب) : وبهذه .
(١٦٥) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٦٦) سقطت من (ب) .
(١٦٧) سقطت من (أ) .
(١٦٨) فى (أ) : فجمع فيه .

أعلم من القبضة الجزء الرأسى اذ كان أول الناس ، وقواه بالقوى الدماغية والله أعلم ، وخلق سائر الأنبياء (غير نبينا)[١٦٩] عليهم السلام من الأجزاء الوجهية ، وما يتصل بها من دون الرأس الى الصدر ، وقواهم بقوى السمع والبصر والذوق والشم ، فهى من جنس القوى الأربع التى نصروا بها ، فقوة السمع والذوق تنسبان الى علم (التنجيم والطب ، وقوة البصر والشم تنسبان الى علم)[١٧٠] التعزيم والسحر ، وخلق محمدا نبينا عليــه السلام من الجزء القلبى ، وقد وردت الأخبار بذلك والله أعلم ، ونصره بقوة اللســان واليد ، فهما عامــلا القلب[١٧١] ، اللسان بحجة لا يوقف عليها الا بالاستدلال (والقياس)[١٧٢] ، واليد بغلبة يوقف عليــها من طريق الحواس .

هــذا من طريق الظاهر ، ثم جعل قوى الحواس تابعة لقوى القلب من طريق الباطن ، فنسخ الشرائع كلها بشريعة محمد عليــه السلام[١٧٣] ، وصارت الأنبياء كلهم عليهم السلام أتباعا على ما قال تعــالى : « **واذ أخذ الله ميثاق النبيين لمــا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمــا معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى ، قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** »[١٧٤] . وقال النبى عليــه السلام : « لو كان موسى حيا ما وسعه الا اتباعى »[١٧٥] .

ثم جعل ميلاده الظاهر من مكة ، وكان ميلاده الباطن من المدينة ، ليدل على سيادته لولد آدم ، فالقوام الظاهر للآدمى برأسه ، و (فى)[١٧٦] الباطن بقلبه ، ولذلك كان ابتداء سكناه بمكة ، ومآله بالمدينة ، كما أن

---

(١٦٩) سقطت من (ب) .
(١٧٠) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٧١) فى (ب) : حاملا القلب .
(١٧٢) سقطت من (ب) .
(١٧٣) فى (أ) : صلى الله عليه وسلم .
(١٧٤) آل عمران : ٨١ .
(١٧٥) أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند عن جابر ، وفيه : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، فانكم اما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق فانه لو كان موسى حيا .. » الخ .
(١٧٦) سقطت من (ب) .

مآل الرأس الى القلب[177] ، ولهذا كانت مكة نافيـة[178] ، والمدينـة ناصرة ، على حسب مخالفة قوى الرأس بالطبع لقوى القلب[179] الا بعد حسن رياضة ، وضرب من القهر[180] ، ولهذا فرض الله المسير الى مكة للحجة وهى ظاهرة ، والمسير الى المدينة للحجة وهى نصيب القلب (وهى باطنة)[181] .

فدل الله تعالى عباده بهذه الحكم على جمع[182] شرف الرأس والقلب فى محمد صلى الله عليـه وسلم ، واعطاء كل القوى اياه ، فما قوة النفوس [للبشر] الا بألسنتهم وأيديهم ، ولا قوة حواسهم نافعة الا [بجرأة] بقلوبهم .

ثم دل على هذه الجملة بابتدائه جل جلاله الرسالة بآدم عليـه السلام ، واختتامها بمحمد عليـه السلام . اذ ابتداء قوة الآدمى برأسه ، وانتهاؤها بقلبه ، والنور الذى به تهتدى القوى : العقل ، وهو مخصوص بالقلب[183] ، وهو المقصود من الدماغ و [من] القوى كلها ، فان العقل بمنزلة نور السراج ، والدماغ (بمنزلة)[184] الزيت ، والأرض على مثال منارة صنعها حكيم لعبيد له وطلب منهم معرفتهم اياها لحكمة أراد ، والوقت ليـل لا سبيل اليها الا بسراج ، فصنع منارة للمسرجة ، ثم اتخذ للمسرجة أفواها وملأها زيتا ، وحشاها فتائل ، ثم نورها ، فكانت

---

(177) باعتبار حواس الراس تخدم علم القلب ، وتوصله اليـه المدركات .

(178) والدليل على ذلك : انه لا يستحب للحاج أن يقيـم بها بعد مناسك الحج ، وكان عمر رضى الله عنه يفرق الحجيج بعد أداء المناسك . قالوا : انه للاحتفاظ بهيبة البيت فى القلوب ، ورأى المؤلف فى غاية الوجاهة ، فهى نافية حتى بجوها الشديد الحر . وسيأتى له تعليلات أخرى جليلة المقدار .

(179) فى (ب) : قوى القلب .

(180) أى : ان الرياضة والقهر تصالح بين قوى الرأس وقوى القلب .

(181) ما بين الحاصرين سقط من (أ) . والمراد بحجة المدينـة الزيارة . وكونها نصيب ظاهر من أنها سنة لا فرض ، فلا يذهب اليها الحاج الا بدافع من قلبه .

(182) فى (أ) : على جميع .

(183) فى (أ) : مخصوص للقلب .

(184) سقطت من (ب) .

المقدمات للنور ، والنور للمعرفة[١٨٥] ، واللقاء للخدمة ، ثم الجزاء[١٨٦] .

فالله تعالى طلب منا ذلك ، فخلق الأرض للمسرجة وهي القبضة التي خلق منها آدم عليه السلام ، فكان[١٨٧] المخصوص به منها الزيت ، وكانت[١٨٨] الأفواه الأنبياء عليهم السلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتيلة ، ونوره السراج ، والمطلوب منه المعرفة واللقاء . وهذا تأويل الأخبار في أن نور الأنبياء كان من نور محمد عليه السلام[١٨٩] ، فما للمسرجة نور الا بنور السراج .

فعلى ذلك مثال الجسم ، خلق له الرأس والوجه ، ومآله الى القلب ، ونوره العقل ، والمقصود به معرفة الله تعالى[١٩٠] .

(ثم الله تعالى)[١٩١] أكرم رسوله بنور ظاهر وهو القرآن ، وورث هذا النور علماء أمته ، حتى استناروا بنوره من بعده وراثة الى يوم الدين ، كما استنار بنوره الباطن من كان قبله من الأنبياء عليهم السلام مؤتمنين ، بل كان به من قبل آدم نور السموات والأرضين ، فما بنور السماء يكون اللقاء ، وانما هو مخصوص بهذا الضياء ، وهو المطلوب من كل البناء .

لا أطفأت عنا نيران الهوى هذا النور ، ولا بعثنا الا وهو محيط بنا يوم النشور . والحمد لله على ما شرح به الصدور ، والصلاة على محمد صاحب النور .

وأما الأولياء — والمعنى بهم أولياء العزلة — فالعلماء الزهاد أولياء العشرة ، وقد ذكرناهم في بيع أصحاب الدعوة — فلهم مقامات

---

(١٨٥) في (ب) : بالمعرفة ، وكذا في (م) .

(١٨٦) يعني : كما كانت المسرجة والزيت والفتائل مقدمات للنور ، كان الأنبياء من لدن آدم عليه السلام مقدمات للنور الأعظم : محمد صلى الله عليه وسلم ، وبه تمت المعرفة .

(١٨٧) في (ب) : وكان .

(١٨٨) في (ب) : وكان من الافواه .

(١٨٩) في (أ) : صلى الله عليه وسلم .

(١٩٠) وعليه صارت دراسة المؤلف لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم قائمة على المقارنة بين الكون والانسان ، وتركيز قوى الكون في انسان كامل هو محمد صلى الله عليه وسلم . وهي مقارنة لم يسبق اليها الامام القاضي الدبوسي فيما نعلم كما قلنا .

(١٩١) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

أربعة[192] : مقام الغفلة ، ثم مقام اليقظة ، ثم مقام الجهاد ، ثم مقام الحيرة .

وذلك لأنهم قوم منزلتهم دون منزلة الأولين ، فقد اهتدوا وما هدوا غيرهم ، وجاهدوا نفوسهم وما جاهدوا سرائرهم ، فرحموا ذواتهم ولم يرحموا أغيارهم ، وأنسوا[193] بقرب الحال ، ولم يصيروا لمختلف الاحوال[194] ، وكانوا مخلوقين من بذر طيب فى منبت زكى فى وقت سعيد ، وغذوا بغذاء لطيف .

لكن لم تصف هـذه الأربع فى أصل الجبلة عن شوب وان لم يظهر لقلته العيب ، فدعاهم (ذلك الشوب)[195] الى الميل (الى الدنيا)[196] وما فيـهم مانـع من الاجابة ، فما[197] فى أصـل الجبلة من عقـل ، فأجابوا[198] غافلين ، فمن الله تعالى (عليهم)[199] بالعفو عنهم بعذر فقدان العقل ، وان كانوا من جنس المتحنين .

فلما عقلوا واستنارت بقدر الصفاء [فى] صدورهم ، شعروا بالضلال فى مسيرهم ، وخافوا فسلب الخوف نوم الغفلة ، فانتقلوا الى مقام اليقظة خائفين ما فى عاقبة الضلال من الردى ، راجعين الى دعاة الهدى ، فأكرمهم الله تعالى بتأييد دعاة الحق (فيهم)[200] وهم الأرواح ، على دعاة الميل وهم النفوس ، فأقبلوا عليهم مجاهدين .

فانتقلوا الى مقام الجهاد متضرعين الى الله (تعالى)[201] متأيدين به ، فأكرمهم الله تعالى بالظفر على نفوسهم ، فتحيروا عند ذلك فى منن الله (تعالى)[202] عليهم فى كل مقام ، فبقوا عند الله تعالى فى مقام الحيرة ، يؤنسهم الله تعالى بقرب المكانة ، ويلهيهم عن الدنيـا وأهلها

---

(١٩٢) فى الاصول : اربع . (١٩٣) فى (أ) : فانسوا .

(١٩٤) يعنى : بحالهم فى عزلتهم ، ولم يصبروا للاحوال المختلفة التى تنشأ عن معاشرة الناس . أما من حيث الحال الروحى ، الذى هو نتيجة العلم أو العمل كالقبض والبسط والهيبة والحبور والاصطلام وغيرها فانهم خاضعون لها كغيرهم من العاملين فى طريق العبودية والعبادة .

(١٩٥) بياض فى (ب) . (١٩٦) سقطت من (ب) .

(١٩٧) فى (ب) : مما . (١٩٨) فى (أ) : فأجابوه .

(١٩٩) سقطت من (ب) . (٢٠٠) سقطت من (ب) .

(٢٠١) سقطت من (ب) . (٢٠٢) سقطت من (ب) .

بكأس المحبة ، فصاروا الى الحيـاة الطيبة التى وعدها الله تعـالى للمجاهدين فى سبيله على سرير الولاء فى اكرام ، مكان الولاية للأنبياء عليهم السلام .

فكان هؤلاء الرهط فى المنن مجازين ، والأنبياء عليهم الســلام مسبوقين[٢٠٣] ، فانهم غفلوا فعذروا كرامة لفقد العقول[٢٠٤] ، وخافوا العدو فى ضلالتهم فتيقظوا ، فهدوا باراءة العدو كرامة على تيقظهم ، ثم جاهدوا فأكرموا بالظفر ، والأنبياء عليهم السلام سلبوا الدعاة الى الزيغ فلم يزيغوا[٢٠٥] ، ثم أكرموا بالاراءة فأبصروا ، ثم عصموا فلم يجيبوا الباطل[٢٠٦] ، ثم نصروا فانتصروا ، وجوزوا بالولاية حتى كانت مراتب الأنبياء الحيرة بحكم الفطرة .

وأقصى مراتب الأولياء : الحيرة بحكم السكرة ، الا أن حيرة الأنبياء[٢٠٧] عليهم السلام كانت على الطريق[٢٠٨] ، وحيرة الأولياء عند المنزل ، عاشوا فى الدنيـا لم يشغلهم شىء عن الله تعالى ، وسيحشرون فى الآخرة لا يحجبهم شىء عن الله تعالى .

ومقام الحيرة بالسكرة أربعة : سكرة للمحبة ، وسكرة الخشية ، وسكرة الحمية ، وسكرة المنة . فسكرة المحبة تتولد من معرفة الله تعالى حق معرفته ، وسكرة الخشيـة تتولد من معرفة العبد نفســه بصفته ، وسكرة الحمية تتولد من اعتقاد فرضيـة الطاعة لأوامره ونواهيـه بحقه ، وسكرة المنة تتولد من اعتقاد الاحسان من الله تعالى فى أقسامه لديـه بصدقه .

ومع السكر بأى سبب ما كان من هـذه الأقسام لم يلحق العبد ان زل فيه لولا السكر عتاب ، فقد قال الله تعالى فى قصة موسى وهارون

---

(٢٠٣) أى : سبقت لهم الحسنى والهداية ، بحكم أصـل المنبت والاختيار الالهى .

(٢٠٤) فى (أ) : بفقد العقول .

(٢٠٥) يتفق هؤلاء مع الانبياء فى ان كليهما لم يكن لديه فى أصل الفطرة عقل يهديه المحل كما ذكر المؤلف فى اول المبحث ، ولكن الأنبياء عصموا شر النفس ، وهؤلاء وقعوا فيه ابتداء ثم حفظوا حيث عصم الأنبياء ابتداء .

(٢٠٦) فى (أ) : للباطل .

(٢٠٧) فى (ب) : حياة الأنبياء .

(٢٠٨) فى (ب) : على طريق .

(عليهما السلام)[٢٠٩] : « **وأخذ برأس اخيه يجره اليــه** »[٢١٠] .
ومثل هــذا الصنع بغير ذنب بمسلم غير جائز ، فكيف بنبي وقد فعله في حال سكر الحميه لامر الله تعالى ، وكذلك روى أن عمر بن الخطاب آخذ برداء رسول الله صلى الله عليــه وسلم يجره مانعا اياه من الصلاة على المنافق[٢١١] ، وما روى فيه من انكار ، لانه فعله في [حال] سكر المحبة لله تعالى الواحد القهار ، وكذلك روى أن أبا ظبية الحجام شرب دم رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، وشرب الدم حرام ، وحرم أبو ظبية بشربه على النار بشهادة النبي المختار ، فانه شرب في [حال] سكر المحبة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليــه وسلم ، فسقط عنه الحظر الثابت بدليله .

فكيف أشكل[٢١٢] على بعض الناس هــذا الحكم والخطاب قد يسقط عن النائــم بالنوم[٢١٣] ، والنوم بمنزلة السكر ، ولكنه سبب غير محظور ، وذلك السكر بسبب مأمور .

ألا ترى ابراهيم عليــه السلام[٢١٤] ترك الاستعانة بجبريل عليه السلام وقد عرض نفسه عليــه حين رمى به الى النار على ما جاءت به الأخبار الا لسكره في محبة المنعم القهار ، وشغله بمعرفة احسانه في كل أحكامه عن تفاوت معاني أقسامه ، فجوزي بما اعتقد مكان الجحيم نعيما ، والنار بردا سليما ، ولولاه لمــا حل ترك الاستعانة بمن ينجيــه عن الجحيم ، فقد عرفها قاتلا ، ولم يجز تأويــل الترك على أنه كان غافلا .

---

(٢٠٩) سقطت من (ب) . (٢١٠) الأعراف : ١٥٠

(٢١١) لمــا مات عبد الله بن ابى بن سلول رأس النفاق جاء ولده عبد الله يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه ، فأمسك عمر بثوبه ومنعه واحتج بقوله تعالى : « **ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** » (التوبة : ٨٠) ، فقال صلى الله عليه وسلم : « سأزيد على السبعين » . فنزل قوله تعالى : « **ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره** » الآية (التوبة : ٨٤) انظر « ارشاد الرحمن » للأجهوري . خط تفسير رقم ٥١٣ . دار الكتب المصرية ورقة ١٨٧ .

(٢١٢) في (ب) : وكيف .

(٢١٣) في (أ) : قد سقط بالنوم عن بالنوم .

(٢١٤) سقطت من (ب) .

وعلى هـذا الطريق ـ والله أعلم ـ تعلم الأكلة المسمومة فى معدة رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، والسم أحرق النارين ، والمعدة اضعف المحلين ، وعليـه يخرج قول ابى بكر رضى الله عنه حين مرض فقيل له : ألا ندعو لك طبيبا ؟ فقال : « الطبيب أمرضنى »[٢١٥] . أى : حالى فيه كحال صحيح سقاه الطبيب دواء فضعف ، والطبيب عالم شهيد قد عرف .

وهـذا على ما قلنا لك : ان من غفل عن أسباب الرزق بالرزاق أتاه الرزق من حيث لم يحتسب ، وكان العيش رغداً وان لم يكتسب ، ومن غفل عن الأمكنة بالمولى حمله البر والبحر ، ومن غفل عن الأقسام بالقسام نفعه الخير والشر ، ومن غفل عن الأوامر والنواهى بالآمر تأخر عنه الأمر والنهى[٢١٦] .

غير أن هـذا السكر مما لا يجوز دوامه فى الأنبياء عليهم السلام ، ويجب الاستغفار عما زلوا فيه[٢١٧] حتى لا يقتدى بهم[٢١٨] الأنام . قال موسى عليـه السلام بعد ما أخذ برأس أخيه : **« رب اغفر لى ولأخى »**[٢١٩] . ولأن الحيرة بسكر[٢٢٠] شراب المحبة بمنزلة الحيرة بسكر الخمر والغفلة ، وما فى السكر مقصود من الشراب ، وانما المقصود منه الأنس والنشاط ، والأنبياء عليهم صلوات الله وقوا السكر مع ما حصل لهم من الأنس والنشاط بشراب المحبة كرامة من الله تعـالى عليهم ، وتحقيقا لمـا أعطاهم من الامامة ، فعاشوا أئمة ، وينشرون أمة ،

---

(٢١٥) الخبر مروى فى سير السلف للحافظ اسماعيل الأصبهانى . خط ١٣١٥ تاريخ . دار الكتب المصرية . وفيه : قالوا له : الا ندعو لك طبيبا ؟ فقال : قد رآنى . قالوا : فماذا قال ؟ قال : قال انى فعال لمـا أريد . ورقة ٤٣ .

(٢١٦) لا يتأخر الأمر والنهى الا حال سكر المحبة حسب ، ولا يجوز تأخر الأمر والنهى بالكلية الا مع فقدان العقل ، هذا اذا كان حالا يعترى المحب ويزول كشأن الأحوال الأخرى ، أما اذا صار مقاما فان العقل يغيب لا محالة ، وعلى اى فهى احوال ومقامات قد يدعيها الكثيرون ، ويمكن التمييز بين المدعى والصادق بالمعاملات المـالية ، فضبطها والحرص عليها دليل لا دليل وراءه على كذب المدعى .

(٢١٧) فى (أ) : زلوا فيها .　　(٢١٨) فى (أ) : بها .

(٢١٩) الأعراف : ١٥١

(٢٢٠) فى (ب) : ولأن حيرة سكر شراب المحبة .

وغيرهم حرموا هــذه الكرامة بيانا أن ليست لهم زعامة[٢٢١] ، فعاشوا عبادا ، وينشرون أفرادا •

فصارت الآيات على خلاف العادات من طريقين ، أحدهما : الغفلة عما دون الله تعالى ، وذلك فيما يشارك الأوليــاء فيه[٢٢٢] الأنبيــاء صلوات الله عليهم أجمعين ، وأكثرها للأولياء • والأخرى بالحاجة الى اثبات الدعوى حال التجاحد[٢٢٣] والخصومة ، اما خصومة تكون من العبد مع نفسه ليعرف أنها من الله تعالى حقا ، أو خصومة العباد معه ليعرفوا أن الأمر صدق ، وهــذا مما يختص به الأنبياء صلوات الله عليهم (أجمعين)[٢٢٤] •

ثم هــذه الغفلة متى كانت بطاعة النفس لم يرد على نفســه الا حجة ، لأنها[٢٢٥] معصية ، فلا ينال بها خفة[٢٢٦] ، كالغفلة بسكر الشراب المحرم لا يزداد بها الا عظم المــأثم ، بخلاف سكر النوم • فصارت أنواع السكر أربعة : سكر يعارض مفتر لقوى النفس كالنوم[٢٢٧] والأدوية (المرقدة)[٢٢٨] ، وسكر بعارض رقة تأتى على قوى القلب ، وهى المحبة ، وسكر بغلبة النشاط والشرب من الخمر ، وسكر بغلبة شهوات النفس من الهوى •

وللأوليــاء العزلة ورثة هم الصوفية ، فالموروثون خلوا عن الدنيــا وأهلها لهوانها وغدرهم[٢٢٩] ، واعتزلوا الى ربهم لعظم حقه ، ووجوب شكره ، والورثة خلوا عن الدنيــا وأهلها بالرياضة والصبر ، واعتزلوا الى الرب جل جلاله بحكم الأمر •

أيها المتصوف[٢٣٠] ، هل علمت أنــك فى حالك متــكلف ؟ أخليت

---

(٢٢١) فى (ب) : ليست لهم دعامة •

(٢٢٢) فى الأصول : فيها • وهكذا بقية الفقرة •

(٢٢٣) فى (ب) : حال الحاجة • (٢٢٤) سقطت من (أ) •

(٢٢٥) فى الأصول : لأنه • وذلك لأنها نابعة من هوى النفس لا من سبحات الروح ، ومثاله : الغفلة بالغناء أو بالسماع بوجه عام ، أو بمجالسة المحرمات ، أو بالتفكير فى ملذات الحياة عامة •

(٢٢٦) فى (ب) : جنة • (٢٢٧) فى (أ) : نحو النوم •

(٢٢٨) سقطت من (ب) • (٢٢٩) فى (ب) : وعذرهم •

(٢٣٠) فى (ب) : المنصرف •

بدنك[٢٣١] عن الدنيـا ، فهل أخليت قلبك ؟ اعتزلت ببدنك الناس ، فهل واصلت ربك ؟ أم استغنيت بالاسم دون المعنى ، فصرت بالاعراض عن الخلق بدنا بلا دنيـا ، وبالاشتغال بهم قلبا بلا مولى ، ثم قمت فى مقام الخوف ، والرجاء ، خفت الجوع فى فقرك ، فكشفته بالسؤال ، ورجوت (نيل)[٢٣٢] ما فى أيدى الناس فتذللت لهم للنوال[٢٣٣] فجوزيت فى حظوظ[٢٣٤] الدنيـا بالحرمان ، وفى حظوظ الآخرة بالخذلان .

لزمت أيها المتصوف سمت الولى ظاهرا ، فاعرف سبب سمته فالزمه باطنا ، فعلى حسب اتحاد العلل تتحد الأحكام[٢٣٥] ، وبقدر ضياء الشمس تنجلى الأيـام[٢٣٦] .

وأما المقتصدون فلهم مقامات أربعة : مقام الاقتصاد ، ثم مقام الندم ، ثم مقام الانابة ، ثم مقام الخوف والرجاء .

لأنهم فى الأصول الأربعة فى الصفاء دون صفوة الأولياء ، فتنبهوا على زيغهم بقلوبهم ، ولكن لم ينزجروا فى شرة[٢٣٧] حداثتهم عن شر نفوسهم ، فكانوا فى مقام الضلالة ، ولكن مقتصدين بنور صدورهم[٢٣٨] وان أقاموا فى غرورهم حتى لمـا بلغوا أشـدهم ، وتهذبت الآراء ، وازدادت البصيرة انتقلوا الى مقام الندم معتذرين الى الله تعالى عن أنفسهم ، ممسكين عن الغوايـة ، متأملين فى عواقب وقفتهم على غير هداية ، فأنابوا الى الله تعالى مسرعين بعناية ، حتى بلغوه فوقفوا عنده خائفين ، حذرا عما كان من ضلالهم ، راجين نظرا فى كرم الله تعالى وجلاله[٢٣٩] ، قد حال الخوف بينهم وبين العود[٢٤٠] ، وآمنهم الرجاء من الرد .

حتى لمـا استقاموا بين الخوف والرجاء أكرموا بهيبة لهم فى قلوب العصاة ، ومحبة من قلوب الهداة ، فسحة من الأمن ، قال الله تعـالى :

---

(٢٣١) فى (أ) : أخليت يدك . (٢٣٢) سقطت من (ب) .
(٢٣٣) فى (أ) : للسؤال . (٢٣٤) فى (أ) : فى حظوظك .
(٢٣٥) فى (ب) : اتخاذ العلل تتخذ الأحكام .
(٢٣٦) هـذا النقد موجه للمتصوف دون الصوفى ، فالمتصوف هو مصطنع سلوك الأولياء دون حقيقته . وأمثال هؤلاء كثيرون فى هـذا الزمان .
(٢٣٧) فى (ب) : شدة شبابهم . والشرة : فورة الشباب وشره .
(٢٣٨) فى (ب) : بزور صدورهم .
(٢٣٩) فى (ب) : وجلالته . (٢٤٠) فى (ب) : العد .

« أن الذين قالــوا ربنـــا الله ثم استقامــوا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢٤١] .

وقـــال : **« ومن يتوكل على الله فهو حسبه »**[٢٤٢] .

وقال النبى عليــه السلام : « من خاف الله خافه كل شيء »[٢٤٣] .

جوزوا فى الدنيا على الخوف بالأمن عن الشرور ، وعلى الرجاء بمحبة الصدور ، وفى الآخرة جوزوا على الخوف بالأمن عن الحساب والنار ، وعلى الرجاء بالجنان وصحبة الأخيار .

ولهم ورثة وهم المتقشفة . فالمورثون أقبلوا على الله تعـــالى خوفا من عدل الله ، وقاموا على الباب رجاء لفضله ، والورثة رجعوا الى الباب متكلفين بدعاء الأمر ، فقاموا متقشفين بوفاق الزجر ، تركوا طيبات الدنيـــا للحال ، فحرموا لذتها وخسروا طيبات الآخرة ، فقد أحبت القلوب فيهم الدنيا ونفقتها[٢٤٤] .

أما علمتم أن التكلف لا دوام له ، والتقشف لا محمدة فيه ، وانما تشبهتم بالمقتصدين ظاهرين ، فاعرفوا سبب[٢٤٥] اقتصادهم ، وباشروه معتقدين ، فما يلتحق لاحق بالسابق وان ظفر بمركبه[٢٤٦] ، الا اذا سار على مذهبه[٢٤٧] ، ولا ورث ولد والدا لوعن[٢٤٨] فى نسبه .

وأما الظالمون فلهم مقامـــات أربعة : مقـــام الظلم ، ثم مقـــام الارجاء[٢٤٩] ، ثم مقام اللوم ، ثم مقام العذر .

---

(٢٤١) الأحقاف : ١٣ (٢٤٢) الطلاق : ٣

(٢٤٣) أخرجه الطبرانى مرفوعا عن ابن عمر ، وروى مثله من قول الحسن البصرى وسفيان الثورى وابى سعيد الخزاز .

(٢٤٤) فى (أ) : ومتعتها .

(٢٤٥) فى (م) : أسباب . من نسخة ثانية .

(٢٤٦) فى (أ) : لمركبه .

(٢٤٧) ليس هذا نقدا لمذهب الزهد ، وانما التقشف غير الزهد . فالزهد هو برودة وقع الأشياء على القلب ، وعدم الحرص على الدنيـــا ، فان ملك الزاهد فكأن لم يملك ، وان لم يملك فكأن قد ملك ، وكم من غنى زاهد ، وكم من فقير حريص طامع . اما المتقشف فهو مصطنع للزهد ظاهرا ، متعلق بالمتاع باطنا .

(٢٤٨) فى (م) : ادعى . من نسخة ثانية .

(٢٤٩) فى (أ) : الرجاء .

لأنهم فى الأصول الأربعة فى الخبث فوق المقتصدين ، فلم ينزجروا عن ضلالتهم وقد عاشـوا أربعين ، فكانوا[٢٥٠] فى تماديهم على الغى ، وقد بلغوا أشدهم ظالمين ، اذ قد تمت عليهم الحجج ، ووضح لقلوبهم النهج •

فكان الظلم أول مقاماتهم ، حتى لمـا فترت شهواتهم ، واستثقلهم أبنـاء الدنيـا ، وفركتهم غوايتهم[٢٥١] ، وهجرهم فتيـانهم[٢٥٢] ، فتأملوا كسادهم[٢٥٣] فى رأس مالهم ، فاذا هم نسيئة على مفاليس ، منكرين بأقوالهم وأفعالهم ، وما لهم عليهم لسان تقاض ولا يد اقتضاء ، فألقى فى قلوبهم التحول الى وصف الملأ[٢٥٤] تتميرا لمـا بقى من رأس المـال ، واشتعلت[٢٥٥] النفوس بنيران الشهوة ، وحالت بدخانها بين القلوب ونور تلك الخطرة ، وترجى ما خطر بالفكرة ترغيبا فى قضـاء ما بقى من الشهوة ، وتأميلا فى تدارك تلك الصفقة •

حتى اذا شاخ العبد ونام[٢٥٦] على فراش اللحد ، تفكر فى فراقه ، فوجده لا يرافقه جليس ، ولا يوافقه عليـه أنيس ، أقبل باللائمة على نفسه ، وضن بما بقى من نفسه ، يتفكر فى عيبه ، ويتذكر كرم ربه ، فتخرس الفكرة لسانه ، ويقوى الذكر[٢٥٧] جنانه ، فيقبل بقلبه على باب التوبة (يسوقه الندم ، وتدعوه الرغبة ، حتى يقف على الباب)[٢٥٨] فاذا هو عريض رفيع ما عليـه حجاب ، ولا دونه بواب ، فيقدم مستغفرا معتذرا ، فيكرم بالقبول ، ويؤذن له بالدخول[٢٥٩] ، فالذنوب مغفورة ، والعيوب مستورة ، حتى مر[٢٦٠] بين صحائف الحساب ، وعن قلوب كرام الكتاب ، قال الله تعالى : **« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم**

---

(٢٥٠) فى (أ) : وكانوا •
(٢٥١) امرأة فروك : أى مبغضة لزوجها •
(٢٥٢) فى (أ) : فيناتهم • (٢٥٣) فى (أ) : كساد سوقهم •
(٢٥٤) الملأ • المراد بهم الأغنياء •
(٢٥٥) فى (أ) : فاشتعلت • (٢٥٦) فى (ب) : وقام •
(٢٥٧) فى (ب) : وتقوى الذكرى •
(٢٥٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(٢٥٩) فى (ب) : ويؤذن للدخول •
(٢٦٠) فى (ب) : حتى من بين •

لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا » الى قولـه : **« تنصرون »**[261] .

فالتائب عن الذنب هو الظالم المصطفى ، وقد يسمى بهذا الظلم الأنبياء . قال الله تعالى فى قصة آدم : **« ولا تقربا هـذه الشجرة فتكونا من الظالمين »**[262] .

وفى قصة موسى : **« رب انى ظلمت نفسى »**[263] .

وفى قصص الأنبياء : **« والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا ..»** الآيـة[264] .

وبدأ الله بذكر الظالمين لأنهم أكثر ، ثم بالمقتصدين ، ثم بالسابقين لأنهم أعز .

ولهم ورثة وهم عامـة الجهلة ، فالموروثون عركوا أنفسهم[265] بالملائمة ، والتمسوا كرامة ربهم بحسن المعذرة ، وأنت أيها الوارث عركت نفسك على ما كان عليك بحكم العجز ، والتمست قبل العذر من الله (تعالى)[266] النجز ، وتخشعت بلا عقيدة ، واستغفرت بلا انابة ، فكنت بقلبك على الأسوار ، وان دخلت ببدنك فى هـذا المضمار ، فما أنت فى تركك الا على سخرية ، ولا فى طلبك الا على أمنية ، وما جزاء السخرية الا فوت الايمان عند حلول المنية ، ولا جزاء الأمنية الا العدم وقت العطية ، قال الله تعالى : **« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليـا ولا نصيرا »**[267] .

* * *

[فصل فى الفاسقين]

وأما الفاسق[268] فأربعة : مصرون غير متفكرين ، ومتفكرون غير نادمين ، ونادمون غير واقفين ، وواقفون غير راجعين .

لأنهم متى رجعوا الى الحق فقد تابوا ، وزالت عنهم سمة الفسق .

---

(٢٦١) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ (٢٦٢) البقرة : ٣٥

(٢٦٣) القصص : ١٦ (٢٦٤) آل عمران : ١٣٥

(٢٦٥) فى (م) : عركت نفوسهم . من نسخة ثانية .

(٢٦٦) سقطت من (ب) . (٢٦٧) النساء : ١٢٣

(٢٦٨) فى (م) : الفساق . من نسخة ثانية .

فالمصر له أربعة مقامات : طاعة النفس ، والتهاون بالعقل ، والغطاء ، ثم العمى .

هـذا أطاع نفسه ، وتمسك بالمراد عن اعراض عن[٢٦٩] المصادر ، فجوزى بالتسليط عليـه ، فأطاعها بقوله وفعله ، متهاونا بعقله[٢٧٠] ، فجوزى بالغطاء ، فصار كأنه أرخى على بصر قلبه سجف ، وذلك فى قوله تعالى : « **قلوبنا غلف** »[٢٧١] .

فأمعن فى طريقه على خلاف عقله طاعة لنفسه ، غير مرير[٢٧٢] لرفع حجاب[٢٧٣] ، ولا واقف ولا مرتاب ، فانتقل الى مقام العمى ، فصار لا يبصر شيئا ، كأن ما بين عينيه سد ، قال الله تعالى : « **وجعلنـا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون** »[٢٧٤] .

فجوزوا بالضلال عن المسالك ، والوقوع فى المهالك ، ومعهم نور الايمان يرجون به الأمان ، على مثال البصير وسط البحار ليل السرار ، يخاف الهلك ، ويرجو النجاة بمجىء النهار ، وربما أدركه الغرق قبل نور المشرق . أو على مثال من ابتلى بغشاوة فكل بصره ، فاستهان بها ، فصارت لحما (حائلا عن الانتفاع بالبصر كأنه)[٢٧٥] لا ينفعه نظره كأنه أعمى ، وبه رجاء العود بعلاج وربما بقى[٢٧٦] عليـه ، ففسد المزاج .

فنور البصر مما يزول بامتداد زمان الظلمة ، كنور الايمان مما يسلب تحت ظلمات المعصية ، قال الله تعالى : « **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** »[٢٧٧] .

وقال النبى عليـه السلام : « ان العبد اذا أذنب ذنبا بعث الله ملكا فنكت فى قلبه نكتة سوداء » . ثم لا يزال يسود ــ أى يسود[٢٧٨] اذا أصر ــ حتى لا يبقى معه نور الايمان ، بخذلان يلحقه من الرحمن ،

---

(٢٦٩) فى (أ) : فى التمسك بالموارد على اعراض .
(٢٧٠) فى (ب) : متهاونا بعقل .
(٢٧١) النساء : ١٥٥
(٢٧٢) فى (ب) : مريد .
(٢٧٣) فى (أ) : الحجاب .
(٢٧٤) يس : ٩
(٢٧٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢٧٦) فى (ب) : وبما بقى .
(٢٧٧) البقرة : ١٠
(٢٧٨) سقطت من (أ) .

فلا يبقى بعده موضع رجاء[٢٧٩] ، يقول الله تعالى : **« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »**[٢٨٠] .

وأما المتفكر فله مقامات أربعة : حب الدنيـــا ، ثم المكابرة ، ثم الجهل ، ثم طاعة النفس .

هــذا تفكر فى أمور نفسه فلم يطعها ، فعرفه بجهله[٢٨١] ، غير أنه حبب اليه الدنيـــا ، فقام فى مقام المحبة ، فجوزى بالعمى عن عيوبها ، والصمم عن خطوبها ، فانتقل الى مقام المكابرة ، فقابل علمه بعماه ، وانهمك (بعد)[٢٨٢] فى دنياه ، فجوزى بالنسيان ، فقام فى مقام الجهل .

فكر لنيل المنى غير منزجر ، واستدر أخلاف الدنيـــا على تهور فصار فى مقام طاعة النفس ، الذى هو أول مقامات المصرين[٢٨٣] .

وأما مقامات النادم فأربعة[٢٨٤] : أولها[٢٨٥] الطمع ، ثم الرق ، ثم الضريبة ، ثم المحبة .

هــذا تفكر فى أموره ، ولم يحب الدنيـــا حبا بقلبه ، فأبصر بعض معايبها ، ووقف على عجائبها ، غير أنه خذل بالطمع ، وشرب من شرابه ، فتذلل به للمعيب[٢٨٦] ، فخالف رأيه وهو غير مصيب ، فجوزى بالهوان والهلع ، فقام (لهوانه فى)[٢٨٧] مقام الرق لادراك الطمع ، وسعى له بسعى الرقيق ، فجوزى بالاستعباد وعمل بلا أجر[٢٨٨] وانه لخليق .

حتى لمـــا أعياه داؤه[٢٨٩] ، ضرب عليـــه بعد الرق الضرائب ، فقام لأدائها قيام المكاتب ، وسعى على جد واشتياق ، لشمه فى الأداء رائحة الاعتاق[٢٩٠] ، ولم يشعر أن عتقه فى قناعته ، وأنه لمتعجل له بها[٢٩١] من ساعته ، فجوزى بالاصابة استدراجا ، فأنس بالجزاء وجد لجمعه حبا ، وأحب جمعها عجبا ، وهو أول المقام لمن مضى سببا .

---

(٢٧٩) فى (أ) : موضع الرجاء .
(٢٨٠) النسـاء : ٤٨
(٢٨١) فى (ب) : نعرفها بجهله .
(٢٨٢) سقطت من (ب) .
(٢٨٣) فى (أ) : مقامات المصر .
(٢٨٤) سقطت من (أ) .
(٢٨٥) فى الأصول : فأولها .
(٢٨٦) الكلمة مضطربة فى (ب) .
(٢٨٧) سقطت من (ب) .
(٢٨٨) فى (أ) : وعملا بلا أجر .
(٢٨٩) فى (أ) : لمـــا اعتلاه داؤه .
(٢٩٠) فى (أ) : رائحة العتاق .
(٢٩١) فى (أ) : ليتعجل له .

وأما مقامات الواقف (فأربعة)[٢٩٢] : الريبة ، ثم الرخصة ، ثم الاستحلال ، ثم الطمع .

هــذا تفكر كثيرا ، فما أحب الدنيا الا يسيرا ، ونظر الى معايبها بصيرا ، فزهد فيها ، ثم رأى مقامه منها[٢٩٣] فوقف مرتابا ليروى رأيه ، ويحكم أمره ، حذر نفسه[٢٩٤] للفرار[٢٩٥] عنها بضروب[٢٩٦] فتنتهــا ، فحدثته نفســه[٢٩٧] بالهلاك دونها ، لتعلق قوامه بها ، فجوزى فى امتداد وقفته بانتقاد نار الجوع[٢٩٨] ، والنفس تنادى : ما المــال عنك بممنوع ، ويقرأ ما فى التمتع بالدنيــا من الرخص ، فأعطاها منتهزا للفرص ، فصار فى مقام الرخص راضيا من نفسه بالتخنس من الحرام ، والتجنب عن الآثام ، فجوزى بالتزيين ، فزين له[٢٩٩] سوء عمله فاتبع هواه فى الرضا بالمقام على الرخصة ، فهى (من)[٣٠٠] حمى المحارم ، وشــفا هار[٣٠١] لأودية المــآثم .

فما لبث الا (أن)[٣٠٢] انهار به فى وادى الاستحلال ، فسلكه (سلوك مستحل)[٣٠٣] واجتنى جناه غير متأول كأنه حلال ، فجوزى بالبخل ، وساءت به الحال ، كما قال الله تعالى : « **ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا** »[٣٠٤] . لا ينتفع بماله ــ والله أعلم ــ بخلا ، وان استوى على الدنيــا ملكا ، ثم بالحرص طالبا لنفسه[٣٠٥] بالزيادة نفعا . فاذا هى بعد الحرص فى مقام الطمع[٣٠٦] فيما فى العالم ، وهو أول مقامات النادم قال الله تعالى : « **ومنهم من عاهد الله لئن آتانــا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين** »[٣٠٧] الآيــات .

* * *

(٢٩٢) سقطت من (أ) .
(٢٩٣) فى (أ) : قوامه منها .
(٢٩٤) فى (أ) : ويحذر نفسه .
(٢٩٥) فى الأصول : بالفرار عنها .
(٢٩٦) فى (أ) : لضروب .
(٢٩٧) فى الأصول : فتحدثه نفسه .
(٢٩٨) فى (ب) : باتفاق نار الجوع .
(٢٩٩) فى (ب) : زين له .
(٣٠٠) سقطت من (ب) .
(٣٠١) الشفا : الحافة .
(٣٠٢) سقطت من (أ) .
(٣٠٣) سقطت من (ب) .
(٣٠٤) طه : ١٢٤
(٣٠٥) فى (ب) : طلبا لنفسه .
(٣٠٦) فى (أ) : مقام الطبع .
(٣٠٧) التوبة : ٧٥

[فصل فى الجاحدين]

وأما الجاحدون[٣٠٨] فأربعة : الجهال غير المتأملين ، والمتأملون غير المبصرين ، والمبصرون غير العارفين ، والعارفون غير المهتدين .

فالجاهلون لهم مقامات أربعة : النبوة ، ثم القسوة ، ثم الشدة ، ثم الخيبة .

لأنهم رهط جبلوا على مضادة الأنبياء ، عليهم السلام[٣٠٩] ، من أخبث بذر ، فى أرذل منبت ، فى أنحس[٣١٠] وقت ، وغذوا بأفسد غذاء ، فكان ابتداء الوجود على الخبث بحكم البذر ، وعلى الشدة بحكم المنبت ، وعلى الحرمان بحكم الوقت ، وعلى الغش بحكم الغذاء . فنشأوا خبثاء أشداء محرومين غاشين فى مقام هـذه الخصال ، وعقولهم مغلوبة بنفوسهم فلم ينتهوا بها على الحال .

فقاموا مقام النبوة[٣١١] عمن يأتيهم طريقة ، وما رافقهم حقيقة ، فجوزوا[٣١٢] بقوى النفوس ، وكثرة الأولاد والأموال ، فصاروا فى مقاماتهم كمثل الأرزة فى الأرض المجدبة على ما قال النبى صلى الله عليـه وسلم ، لا يميلهم عقل ، ولا يحركهم قول .

ثم انتقلوا الى مقام القسوة[٣١٣] ، فقست قلوبهم بطول المباينـة نهجا ، واختلاف المكالمة حججا ، فجوزوا بالعمى عن الوعظ ، والصمم عن النصح ، فصارت كالحجارة أو أشد قسـوة ، لا ينفجر منهـا مـاء الرحمة[٣١٤] ، ولا تهبط أو تميل لحكمة .

ثم انتقلوا الى مقام الشدة ، فاشتدوا على مخالفيهم بألسـنة لـد[٣١٥] ، وسـيوف بتر ، متهورين غير مكترثين ، معجبين بقولهم متكبرين ، فجوزوا بالخذلان وخطأ التدبير ، ووهاء الأساس والتقدير ، فصاروا عند ذلك فى مقام الخيبة .

---

(٣٠٨) فى (م ٦) : الكافرون . من نسخة ثانية .
(٣٠٩) فى (أ) : صلوات الله عليهم أجمعين .
(٣١٠) فى (ب) : أنجس وقت .
(٣١١) النبوة والنباوة : ما ارتفع من الأرض .
(٣١٢) فى (ب) : فجوزى .
(٣١٣) فى الأصول : القسوة . والسياق يقتضى ما أثبتناه .
(٣١٤) فى (أ) : لا يتفجر منها ماء رحمة .
(٣١٥) اللد : جمع الد ، وهو : شديد الخصومة .

خاب عن رشدهم نذيرهم[٣١٦] ، وعن فوزهم كبيرهم ، على ما قال الله تعالى فى خيبة الرسل عنهم : **« أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن »**[٣١٧] .

وقال : **« ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا »**[٣١٨] .

وقال : **« ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم »**[٣١٩] .

فقال الأخ : كيف استقام القول باليأس عن الايمان مع قيام الدعوة ؟

قلت : كما استقام القول بتكليف السكران مع اليأس للحال عن القدرة ، لأنه عجز بسبب السكر وكان منهيا عنه ، وانما ارتكبه باختياره ، فلم يصر عذرا عند ربه ، فكذلك قلب الآدمى فى الأصل على جبلة قابلة للحجة ، مهتديا بها بنور السر ، وان خلق على هذه الهيئة ، وانما غشى السر ، وأظلم القلب بمعصيته التى نهى عنها ، وارتكبها باختياره ، فلم يعذر وان أيس بفرط العشى عن أنواره . وقد ورد بمصداقه الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم[٣٢٠] ، ونطق به الكتاب العزيز . قال الله تعالى حكاية عنهم : **« قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب »**[٣٢١] .

« ما نفقه كثيرا مما تقول »[٣٢٢] .

« أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن »[٣٢٣] .

« اخرجوا آل لوط من قريتكم ، انهم أناس يتطهرون »[٣٢٤] .

وأما المتأملون فلهم مقامات أربعة : الغشاوة ، والكسل ، والاستدراج ، والنبوة .

وهؤلاء قوم دون الأولين فى حظ الخبث ، فوقهم فى حظ الطيبة ، فحملتهم هذه المزية على التأمل فى أفعالهم بقلوبهم ، وطلب العواقب

---

(٣١٦) فى (ب) : تدبيرهم . (٣١٧) هود : ٣٦

(٣١٨) نوح : ٢٧ (٣١٩) يونس : ٨٨

(٣٢٠) سبق فى هذا المعنى حديث الأرزة فى الأرض المجدبة .

(٣٢١) فصلت : ٥ ، وما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٣٢٢) هود : ٩١ (٣٢٣) هود : ٣٦

(٣٢٤) النمل : ٥٦ ، وما بين الحاصرين سقط من (أ) .

بعقولهم ، لكن خبثهم لم يدعهم يتأملون الا الأمور الدنيا ، فجوزوا بالحجاب عن الأخرى ، فقاموا فى مقام الغشاوة ، وصاروا بفرط معرفتهم سادات قومهم ، وشموس يومهم .

فلما رأوا ذلك انتقلوا الى مقام الكسل ، فأراحوا قلوبهم عن جد التأمل ، وطلبوا جسامّ الأمور بالهوينى ، وأرادوا عظام الحظوظ بالمنى ، فجوزوا بالاصابة ، فاغتروا به ، وانتقلوا الى مقام الاستدراج . قال الله تعالى : **« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتـــة »**[٣٢٥] .

وقـــال : **« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم ، ان كيدى متين »**[٣٢٦] .

فركبوا عند ذلك مطى التحكم ، لا يخطر ببالهم زوال ، ولا يوهمهم تغير حال[٣٢٧] ، فجوزوا بانسداد أبواب المصائب ، وارتداد أسهم المكاره ، لا تعى قلوبهم وعظا ، ونبت[٣٢٨] عيونهم عما يعنيهم[٣٢٩] لحظا فانتقلوا الى مقام النبوة الذى كان للذين دونهم فى الصفوة .

وأما المبصرون فلهم مقامات أربعة : الغلبة ، والعجب ، والقصور ، والغشاوة .

وهؤلاء قوم سبقوا الأولين عقلا ، فسبقوهم فضلا ، وأدركوا الأمور أكثر من دركهم ، لكن الخبث فيهم أصل ، فجرهم بذلك الدرك الى هلكهم ، فغالبوا الناس بتلك الفضيلة ، وقصدوا صيدهم بالقوة أو بالحيلة ، فجوزوا بالظفر ، وفراغ القلب عن الحذر .

فأصبحوا معجبين بأفعالهم ، مستأنسين بأحوالهم ، لا يرون لأحد فضلا ، ولا لاستحقاق مكرمة أهلا ، فجوزوا بمقت القلوب ، وملابسة العيوب ، فأمسوا فى مقام القصـــور ، وان غلبتهم القبائـــح ، وبدت منهم[٣٣٠] الفضائح .

---

(٣٢٥) الأنعام : ٤٤ — (٣٢٦) الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣
(٣٢٧) فى (ب) : حالهم . — (٣٢٨) فى (أ) : وتنبو .
(٣٢٩) فى (أ) : عما يعيبهم .
(٣٣٠) فى (م) : فبان منهم . من نسخة ثانية .

فجوزوا بستر بينها[٣٣١] وبين نواظرهم ، حتى غفلوا عنها بسرائرهم ، كأنما على عيونهم غشاوة ، وقلوبهم فى غلاف من الغباوة ، وهو أول مقام من قبلهم ممن حرموا فضلهم .

وأما العارفون غير المهتدين فلهم مقامات أربعة : الكبر ، والأنفة ، والحمية ، والغلبة .

هؤلاء قوم تجلى صفاؤهم ، واختفى غشهم ، حتى كادت تتلاشى ظلمة الغش فى نور الصفاء ، وحتى لم يروا من أنفسهم الا الضياء ، ففتحوا عيون قلوبهم ، فعرفوا الصراط المستقيم الى النعيم المقيم ، فسلكوه ، والخبث[٣٣٢] الباطن يلقنهم عقد السبق لأنفسهم على جميع الخلق .

فقاموا فى مقام الكبر ، فابتلوا بسابق دونهم بظاهره ، وانما فضله الله تعالى بنور باطنه ، وأمروا بالاقرار لسبقه ، والطاعة اياه بحقه ، انقياداً لحكم الله تعالى على جميع خلقه ، فأنفوا اذ عموا فى حالهم عن فضل الله تعالى عليهم ، وأبصروا الفضل لأنفسهم ، فتكبروا عند ذلك ، فحملهم [الكبر] على الأنفة عن طاعة من دونهم فى عقدهم ، وحاجوا ربهم عزت قدرته فى ردهم ، كابليس حيث قال اذ تكبر على آدم عليه السلام : « **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** »[٣٣٣] .

فابتلوا بالرد عليهم من الحاكم النافذ حكمه ، الماضى أمره ، فحملتهم حمية الجاهلية بعد انقطاعهم فى المحاجة[٣٣٤] الى الوقاحة والملاجة ، كابليس اللعين حيث قال : « **لأغوينهم أجمعين** »[٣٣٥] .

« **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** »[٣٣٦] .

وفرعون اذ قال : « **أنا ربكم الأعلى** »[٣٣٧] ، « **ما علمت لكم من اله غيرى** »[٣٣٨] . بعد ما ثبتت المعرفة بقوله : « **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** »[٣٣٩] .

---

(٣٣١) فى (م) : بيننا . من نسخة ثانية .

(٣٣٢) فى الأصول : والخبيث .

(٣٣٣) الأعراف : ١٢

(٣٣٤) انقطاعهم فى المحاجة : انهزامهم والزامهم الحجة .

(٣٣٥) سورة ص : ٨٢

(٣٣٦) الأعراف : ١٦

(٣٣٧) النازعات : ٢٤

(٣٣٨) القصص : ٣٨

(٣٣٩) النمل : ١٤

وبقولــه : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر »[340] .

ونحو علمــاء أهل الكتاب فى انكار رسالة محمد خوفا على ذهاب رئاستهم ، واعتقادهم الفضل لأنفسهم على العرب[341] بما عندهم من علم الكتب . فجوزوا بالامهال[342] ، ودرك الآمال ، فثاروا هنالك الى غلبه العباد بقوة أو بحيلة[343] ، وهو أول مقامات من كان دونهم فى الفضيلة .

ثم صاروا وان كانوا خير هؤلاء الأقسام صفوة شرهم بهــذه الصفوة ، فأولئك ضلوا (غافلين وهؤلاء ضلوا)[344] عالمين ، وهؤلاء كفروا بالله العظيــم مكابرين منعنين[345] ، وأولئــك كفروا مغرورين جاهلين ، فكان الجهل أساس الضلالة والكبر ، بنــاء على أساس الجهالة ، وما النجاة عن استطابة هــذا البناء الا بالله العظيم فهو القادر على ما يشاء .

* * *

[فصل فى المنافقين]

وأما المنافقون فأربعة أقسام : المستهزئون غير المبالين ، والمبالون غير المنزجرين ، والمنزجرون غير الموالين ، والموالون غير الراضين .

فأما المستهزئون فلهم مقامات أربعة : المرض ، ثم الدنف ، ثم النزع ، ثم الموت .

هؤلاء قوم مرضت قلوبهم ، ففقدوا الصحة فى غرضهم ، ولم يطلبوا شفاء من مرضهم ، فصحبوا الناس على عقد المخالفة مستهزئين بظاهر المؤالفة ، غير مبالين من فساد القصد ، وقبح اظهار خلاف العقد ، فأصابوا له رواجا حتى اعتادوه ، فصار المرض لطباعهم مزاجا .

فانتقلوا الى مقــام الدنف ، وهم جاهلون بقول الله تعــالى : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا »[346] . فاستحسنوا الزيادة على أصل [ما] اعتقدوه حسنا ، وسكنوا الى ثمرة عرفوا أصلها سكنا ،

---

(340) الاسراء : 102
(341) فى (ب) : على العيوب .
(342) فى (ب) : بالأموال .
(343) فى الأصول : أم بحيلة .
(344) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(345) فى (ب) : منثنين .
(346) البقرة : 10

فجوزيت أبدانهم بحسن ألوان من التهاب الحمى ، وألسنتهم بلطف قول فى الشكوى ، وعندهم أن حسن اللون من آثار الصحة ، ولطف القول من أنوار الحجة ، فعدوا السالمين عند ذلك مرضى ، وأمر الصادقين هنالك فوضى ، فأبدلوا[٣٤٧] الهزؤ بالمغالبة ، وأرادوا تحقيق القول بالمحاربة ، وقالوا : نحن الملوك والأجلة ، ولنخرجن من بلدنا الأذلة[٣٤٨] .

فقاموا فى مقام النزع مغالبين ، بقدر ما كانوا مخاتلين[٣٤٩] ، يظنون أن عرق جبينهم من قوة يمينهم ، وما شعروا أنه لانقطاع وتينهم ، فكادوا[٣٥٠] ولما يفعلوا[٣٥١] اذ جوزوا بسقوط القوة ، وظهور آيات المنية ، فأنكروا ما قالوا متشكين فى البلية ، ومتى نفع المريض شكواه الى الطبيب ، وقد جذبت نفوسهم الى القلوب الا تعلة[٣٥٢] ساعة ، ثم الموت قهرا بلا اذن فى رجفة ، ثم الدخول قبرا بسرعة .

وأما المبالون[٣٥٣] غير المنزجرين فلهم مقامات أربعة : الشبهة ، ثم الشك ، ثم اللبس ، ثم المرض .

هؤلاء قوم شاب مرض قلوبهم صحة ، فنالوا[٣٥٤] عندها بمرضهم[٣٥٥] غير أن المرض غالب فلم يلحق دونهم بعرضهم ، فسحاب[٣٥٦] المرض مطبق ، والصحة برق مشرق .

فقاموا فى مقام الشبهة لا ينزجرون عن هزؤ مرضى الصدور[٣٥٧] ، لكنهم لا يتلذذون بتلك الأمور ، فامتحنوا بقيام المعارضة بين الحجتين ، فوقفوا للتأمل وقفة أو وقفتين .

ثم انتقلوا الى مقام الشك ، وعاضدوا فيه أهل الافك ، فامتحنوا بترائى الرجحان كفة المرض ، فمالوا اليه ، وقاموا فى مقام اللبس ،

---

(٣٤٧) فى (ب) : فأيدوا .

(٣٤٨) اشارة الى قول المنافقين عن النبى صلى الله عليه وسلم وهم معه فى احدى الغزوات : **« لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل »** (المنافقون : ٨) .

(٣٤٩) فى (م) : مخادعين . من نسخة ثانية .

(٣٥٠) كادوا . من الكيد .

(٣٥١) أى : لم يستطيعوا تنفيذ كيدهم لضعفهم .

(٣٥٢) أى تسلية .

(٣٥٣) فى (ب) : المتأملون .

(٣٥٤) فى (ب) : فنالوا .

(٣٥٥) فى (ب) : بمرض يمرضهم .

(٣٥٦) فى (ب) : فينجاب .

(٣٥٧) فى (ب) : مرض الصدور .

فقد طبع عليها بكفرهم ، كما قال تعالى : « **وللبسنا عليهم ما يلبسون** »[358] . فلم يروا بعد اللبس كفة الصحة بشيرهم ، فحلوا بمقام المرض مقام الأولين ، وان كانوا رهطا آخرين .

وأما المنزجرون غير الموالين فلهم مقامات أربعة : الرؤية ، ثم الحذر ، ثم الجبن ، ثم الشبهة .

هؤلاء قوم قسمت قلوبهم للمرض والصحة قسمين ، فأضاءت كالقمر وقد خلت سبع ليالى ، فرأوا ما عمى عنه المستهزىء (والمبالى)[359] ، فقصدوا فراقهم ، ثم حذروا فراق الجماعة ، فوقفوا بينهم يتأملون فى عواقب أمورهم ساعة بعد ساعة ، فابتلوا بالتهدد والشناعة ، والخديعة والشفاعة ، فجبنوا (بين)[360] ذلك وسلبوا قوة الشجاعة ، فجوزوا بظلمة الصدور ، وانكشاف البدور ، فحلوا بمقام الشبهة ، وهو أول مقام من قبلهم من الفرقة .

وأما الموالون غير الراضين فلهم مقامات أربعة : خطأ التدبير ، (ثم التقدير)[361] ، ثم التفكير ، ثم الرؤية .

هؤلاء[362] قوم غلب نور عقولهم مرض الصدور[363] ، فأضاء كالقمر ليلة العشر ، فأبصروا الطريق والضلالة[364] ، فوالوا أهل الحق منزجرين عن أهل الجهالة ، غير أنهم انما أخطأوا التدبير فى الموالاة بمرض وان قل فى الصدور ، وضلوا عن الصدق بنقصان ما انتقص من النور ، فلم يصبروا بعد الموالاة عن افشاء[365] الأسرار ، وابلاغ الأخبار ، على تقدير أنهم لو ظفروا عليهم[366] كانت لهم يد لديهم ، فأفشوا الى قومهم ما كان فى الصدور لما كان للآخرين ظهور .

فانتقلوا الى مقام الفكرة ، يبعدون منهم سرا خطرة بعد خطرة[367] ، فازداد نقصان نور البدر[368] ، فصار كسوفا حتى امتحق[369] ، فقاموا

---

(358) الأنعام : 9
(359) سقطت من (ب) .
(360) سقطت من (ب) .
(361) سقطت من (أ) .
(362) فى (أ) : فهؤلاء .
(363) فى (ب) : مرض الصدر .
(364) فى (ب) : وأفضاله .
(365) فى (ب) : اقسام .
(366) فى (أ) : ظهروا عليهم .
(367) فى (أ) : خطوة بعد خطوة .
(368) فى (ب) : نور البدن .
(369) فى (أ) : حتى انتصف .

بين عمى ورؤية ، ما فى صدورهم من ولاية[٣٧٠] ، وهو مقام الذين كانوا دونهم فى الضياء .

فالقلب من العبد بمنزلة القمر ، والصدر بمنزلة العالم ليلا ، فالقمر فى أصله لا نور له الا برؤية الشمس ، والعالم لا نور له ليلا الا بنور القمر ، فالقلب[٣٧١] لا نور له الا برؤية الرب ، والصدر لا نـور له الا بنور القلب ، ولا يأس[٣٧٢] مع أدنى[٣٧٣] نور الهلال ، فانه لا يزال الى كمال ، ولا اعتماد على تمام نور البدر ، فانه لا يزال الى زوال .

فالايمان الهلالى ايمان المقصر (المقر)[٣٧٤] بقصوره ، والايمان البدرى ايمان المرائى بنوره ، فالرياء انحراف الناس عن الله (تعالى)[٣٧٥] كانحراف القمر بعد التمام عن الشمس ، وربما أعجب فكان كسوفا للجال[٣٧٦] .

فالعجب برؤية النفس ، ولن ترى النفس الا بين القلب والرب ، كالأرض بين البدر والشمس ، فينكسف القلب بظلمة النفس ، كما ينكسف البدر بظل الأرض . قال الله تعالى : « **أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه** »[٣٧٧] الآيــة .

وقال فى المنافق : « **فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** »[٣٧٨] .

* * *

أقســام النــاس
على ما تشتمل عليــه مصالح الدنيــا

أقسام الناس على ما تشتمل عليــه مصالح الدنيا أربعة : العمال ، والتجار ، والأمراء ، والعلمــاء .

فأما العمال : فطلاب الأموال بمنافعهم ، والأموال فى أصلها تبع

---

(٣٧٠) فى (أ) : من ولاء .
(٣٧١) فى (ب) : فالقمر .
(٣٧٢) فى (أ) : فلا يأس .
(٣٧٣) سقطت من (أ) .
(٣٧٤) سقطت من (ب) .
(٣٧٥) سقطت من (أ) .
(٣٧٦) هذا اعتبار واقعى صادق ، لأن الآفة دائما لا تعترى الا الكمال . فالايمان الكامل عرضة للريــاء ثم العجب ، والقلب المنير عرضـــة لنزغ الشيطان ، وكل ما كمل من شئون الدنيـــا عرضة للنقص أو للحسد .
(٣٧٧) الزمر : ٢٢
(٣٧٨) البقرة : ١٧

ان وجدت . وهم : الحراثون ، والغواصون ، والحفارون ، والصيادون ، والصناع ، والأجراء .

وأما التجار[٣٧٩] : فطلاب الأموال بأموالهم ، ومنافعهم تبع فيها ان وجدت .

وأما الأمراء فهم : الرعاة للخلق بالحق .

وأما العلمـاء فى هذا القسم فهم : الهداة الى المصالح ، كمفاتيح الأبواب ومصابيح البيوت .

قال رضى الله عنه : ان الحكيم جلت قدرتـه جعل الناس على هذا التقسيم[٣٨٠] ، وعلق[٣٨١] صلاح بعضهم ببعض فى دنياهم ، ثم علق بعافيتهم[٣٨٢] صلاح عقباهم ، فجعل النفوس أصلا لا يقوم الا بالمـال ، والمـال فرعا وأداة لا يوجد الا بالعمال ، وبعد الوجود لن تحصـل المصالح الا بالنقل من بلد الى بلد ومن يد الى يد ، ولن يتهيأ النقل بغير كلفة الى المحتاج اليه الا بطمع التجار فى الأرباح ، ولا تتناسخه الأيدى الا بأخذ واعطـاء على اصـلاح[٣٨٣] ، ولن يتيسر النقـل والاصلاح[٣٨٤] الا بسكون الناس ، فلن يسكن الناس وهم أطوار الا براع سواس ، ولا سياسـة الا بالانصاف والمعدلة ، ولن تعرف وجوه العدل والانصـاف الا بالشرع[٣٨٥] ، لأن الله تعـالى أعرف[٣٨٦] بمصالح العباد ، وأكرم المحسنين اليهم ، فكان الوجه الأجدى[٣٨٧] ما شرع لهم وعليهم ، ولن يعرف مشروع الله تعالى الا بالعلمـاء ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، لبعث همتهم عليـه ، واعذابه لديهم[٣٨٨] ، لولاه

---

(٣٧٩) فى (أ) : فأما التجار .

(٣٨٠) فى (أ) : على هـذا القسم .

(٣٨١) فى (ب) : وجعل .

(٣٨٢) فى (ب) : بعاقبته . وفى (أ) : بعاقبتهم . واثبتنا ما هو اصح واوضح .

(٣٨٣) فى (أ) : على اصطلاح .

(٣٨٤) فى (أ) : والاصطلاح .

(٣٨٥) فى (أ) : الا بشرع .

(٣٨٦) فى (أ) : أعلم بمصالح العباد .

(٣٨٧) فى (ب) : الوجه الأحرى .

(٣٨٨) اعذابه لديهم ، أى : كونه عذبا لديهم سائغا محبوبا .

لصاروا أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، ولذلك خلقهم . قال الله تعالى : « **وقليل من عبادى الشكور** »(٣٨٩) .

قال العبد رضوان الله عليه : ان التجار والعمال : طلاب الأموال ، وأوفر الأسباب ربحا ، وأقلها كدحا ، وأعلاها قدحا : التجارة ، ثم الصناعة ، ثم الزراعة . وأنكدها : الصيد . وآكدها : الاجارة .

أما الزراعة فتلجىء الى خدمة البقر ، وتبعث طول الأمل ، ثم يفنى ما جمع بها قبل ادراكه ما زرع منها .

وأما الصائد فيبتلى بمرافقة السباع ، ومواظبة الخداع . ثم ان أصاب فكفاف ، وان أخطأ فاتلاف .

وأما الاجارة ففيها ارقاق النفس ، واجتلاب التعس(٣٩٠) ، وتذهب أجرة يومه فى ليلته ، ويبقى دائما فى عيلته(٣٩١) .

وأما الحفار وهو : صاحب المعادن ، فيأوى(٣٩٢) الجبال ، وينشط للآمال(٣٩٣) ، وينفق(٣٩٤) الأموال ، وربما نبع مكان الدفين(٣٩٥) مـاء معين .

وأما الغواص فيخاطر البحار ، ويتحمل المضار ، فكم أصاب(٣٩٦) آجرة مكان درة .

---

(٣٨٩) سبأ : ١٣

وصلة هـذا الاستشهاد من المؤلف بما قبله أن الناس مع اختلافهم على طرائق ومناهل ، وفرحهم بما لديهم فان القليل منهم هو الراضى الشاكر . أى : ان خلافنا بين طوائف الناس مركوزا فى طبائع الناس كافة ، وخلافنا فى داخل كل فرد مركوزا كذلك . والسر فى هـذا الخلاف عامة هو قيام العمران فى كل جوانب النشاط الانسانى ، لأن الخلاف حركة ، والحركة حياة ، والوفاق سكون ، والسكون موت أو قريب منه .

(٣٩٠) فى (أ) : اجلاب التعس .

(٣٩١) عيلته ، أى : فقره وكونه عالة .

(٣٩٢) فى (أ) : فيتأوى الجبال .

(٣٩٣) فى (ب) : ينشط الآمال . وفى (أ) : ويبسط الآمال . واخترنا ما فى (م) . من نسخة أخرى .

(٣٩٤) فى (ب) : ويتعنى الأموال .

(٣٩٥) فى (ب) : تبع المكان الدفين . وفى (م) : الرقين ، وهى : الفضـة .

(٣٩٦) فى (أ) : وكم أصاب .

وأما الصانع فيعيش بين الناس ، ويعمل بقياس ، ويجد الكفاية من غير جد عناية .

وأكسب المكاسب تجارة حاضرة بيده ، تدر الربح فى يومه وغده ، بلا تقدير ولا تقتير ، وينمو المـال نمو الزرع أيام الربيع[٣٩٧] ، بين غيث[٣٩٨] وريح وطلوع فيجتمع أوقارا ، ثم ينقلب أحكارا[٣٩٩] ، على راحة من الجسم ، وامتداح من الاسم ، وسكون من النفس ، حتى لا تكاد توجد الأموال الجمة الا عند هذا الجنس .

وأما الشركة فافتضاح واتضـاع ، وفى الأبضاع ضياع ، وفى الاقراض اعراض ، والنسيئه منسية .

ولن تجتمع الأموال الا بعد محافظة ومحاسبة فيما بينه وبين طالب مناسبة ، وفى الاجتماع غناء ، وفى الغناء طغيان ، وفى الطغيان استحقاق النيران ، وقبل النار ذهاب المروءة ، و [ما] بيع الحرية فى المروءة الا فى الايثار ، وما الغناء الا بالاستئثار ، ولا حرية حيث لا تواضع واجلال ، ولا كنز ولا استخفاف الا مع المـال ، ففروا عن مال[٤٠٠] أنفق[٤٠١] المرء عمره وراحته فى حيازته . حتى لمـا جمعه فى خزانته حجبه عن الاستمتاع به طول الآمال ، وخوف الزوال ، وأثقل ظهره بالآثام ، وكسب له مقت الكرام ، ومنزلة بين الأنذال[٤٠٢] من الأنام ، قد أجل له أمله ، وعاجله أجله ، فترك[٤٠٣] ما جمع بالأنفاس لعدوه من الناس ، وارتحل الى عذاب الله مع الأنجاس .

* * *

---

(٣٩٧) فى (ب) : لأيام الربيع .
(٣٩٨) فى (أ) : بير وغيث .
(٣٩٩) الاحتكار : حبس الشىء من المصلحة العامة .
(٤٠٠) بياض فى (ب) . وفى (م) : ففرا ـــ ففر . من نسخ أخرى .
(٤٠١) فى (أ) : ينفق المرء عمره .
(٤٠٢) فى (أ) : الرذل . وفى (م) : النذل . من نسخة ثانية .
(٤٠٣) فى (ب) : وترك ما جمع .

[فصل فى الأمير]

وأما الأمير فعبد راع للمولى ، وهو الملك الأعلى ، والعضى وزيره ومعتمده ، وبشيره ونذيره ، والكلاب جنده وعونه[٤٠٤] ورفده ، والغنم رعيته ، وهم خلق الله وبريته •

وأهل البغى ذئاب يرعاهم عنهم (بالكلاب)[٤٠٥] ، والدنيا قحبة ذات دلال ، والشيطان قائد ودلال ، والعقل رقيب مراقب ، والملك شهيد وكاتب ، وأجر العمل دار النعيم ، وجزاء الزلل نار الجحيم[٤٠٦] ، ورزقه مدة عمله له مضمون ، ومقدار أجله لرعيه عنه مكنون[٤٠٧] •

فهذا عبد حمله الله رعاية أغنامه مدة لم يقدرها له من أيامه ، وعضده بعصا قوية ، وأرفده بكلاب جريئة ، وكرر عليه : اياك والقحاب ، وغنمك والذئاب ، وضمن له رزقه ، وطلب منه[٤٠٨] حقه ، ووعده الجزاء على الوفاء ، وأوعده بالنيران[٤٠٩] على الكفران ، وجعل عليه رقيبا يقاربه ، وشهيدا يراقبه •

فذهب العبد الراعى يفى بوصية[٤١٠] سيده ، قانعا بما قسم له رغبا فى موعده ، ورهبا من توعده[٤١١] ، فى مفازة لا فوز فيها بأمل بين رجاء ووجل •

فجاءه الشيطان وأوحى اليه : ارق من هـذا الوادى يهب عليك الشمال فتقوى ، والغنم بين عينيك (فتحفظها)[٤١٢] كما أمرك ربك ، ولا تقم بين الوادى فيصيبك ضر من الحر عسى تمرض وتضيع الغنم ، ثم لا ينفعك الندم[٤١٣] •

---

(٤٠٤) فى (أ) : جنده وغوثه . (٤٠٥) سقطت من (ب) .
(٤٠٦) فى (ب) : دار الجحيم .
(٤٠٧) فى (ب) : لرعيته عنه مكنوز .
(٤٠٨) فى (أ) : فطلب منه .
(٤٠٩) فى (ب) : وواعده بالنيران .
(٤١٠) فى (أ) : يفى وصية سيده .
(٤١١) فى الاصول : رهبا عن توعده .
(٤١٢) سقطت من (أ) . (٤١٣) فى (أ) : لا ينفعك ندم .

فرآه العبد قريبا من الصواب ، فجعل يصعد بتفكر وارتياب ، وعيناه الى الشاء ، وهو يخاف عاقبة الافشاء[٤١٤] ، فانه خلاف صورى ، فانه يترخص بما يرى من وفاق سرى .

فلما أستوى على المتن هبت عليـه الشمال والصبا ، من جانب اليمين والقفا ، وتنسم نسيما زاد فيه من القوة جسيما ، وطاب له بينهما الروح ، فألهمه الشيطان التفاتة الى مهب الريح ، ليعرف المتنسم[٤١٥] ، فما فيها ضياع النسم ، فأطاعه بها ، فاذا البساتين[٤١٦] فيها أنهار جوارى ، ورياض وجوارى ، ودساتين وميادين ، وكئوس من معين ، وقصور ومغانى ، وألحان الأغانى ، من خيرات الغوانى ، ينظرن اليه بأعين مراض[٤١٧] ، ويؤملنه الوصال بلا اعراض ، يسحرنه بكسر الألحاظ ، ويأسرنه بلطف الألفاظ ، يمشين بغنج ودلال[٤١٨] ، ويبدين بهيج جمال[٤١٩] ، يرتعن فى نعيم ، قد أحس منه بالنسيم ، فصوب لالتفاته (اليهم نظرا ، ووقف)[٤٢٠] لا يخطو نحوهن[٤٢١] حذرا ، ينهاه الرقيب ، وهو بين أن يرجع أو يجيب .

(ووقف اليهن)[٤٢٢] والشيطان يقول : ان هـذه شجرة الخلد وملك لا يبلى ، وان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، ومالك بعدها الى ربك من اياب ، ولا عليك فيما تذره من حساب ، ولئن رجعت فهو كريم وهاب .

فلم يزل به حتى أزله وسكن الى ما أبدت له كأنها لم تزل له[٤٢٣]

---

(٤١٤) فى الأصول : الانشاء . والسياق يقتضى ما اثبتناه . والمعنى : انه يخشى عاقبة ذيوع ما نوى أن يفعله ، وشرع فيه ، خوفا من أن يقال : خالف ربه وشريعته .

(٤١٥) فى (ب) : ليعرف للتسنيم .

(٤١٦) فى (أ) : فاذا بساتين .

(٤١٧) الأعين المراض : اللحظ الفاتر المتكسر فيه اغراء .

(٤١٨) الغنج والدلال بمعنى واحد .

(٤١٩) فى (ب) : بهجة وجمالا .

(٤٢٠) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٤٢١) فى (أ) : اليهن .

(٤٢٢) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٤٢٣) فى (ب) : اضطربت العبارة هكذا : الى ما ندب اليه كاذبا ثم نزل له .

فأقبل نحوها ، ثم رجع وأرسل نفسه ثم منع ، والرقيب يذكره الضمان ، ويحذره عاقبة العصيان •

فلاحظ الشاء ، فاذا هي بين النجم[٤٢٤] والمـاء ، ورحله عند عصاه ، فقابله بقفاه ، على أن يقضي مما رأى مناه ، ثم يعود الى مرعاه ، فتكون الأوطار من النعيم مقضيــة ، والأنعام بعد ذلك مرعيــة ، وسيعاين الكلاب عصاه ورحله ، فيظنوه معها ، فيثبتوا حراسا ، ويخشى الذئاب كلابه ، فلا تجترىء افتراسا ، ورجا عفو المولى عما عصى ، اعتمادا على الكلب والعصا ، واتكالا على لعل وعسى •

فانصبت قدماه الى الصبب ، يتخطى بهما سببا بعد سبب ، حتى اطلع على باب البستان ، فاذا ازدحام وجدالٌ واضطرام ، وقتالٌ بين أمثاله من العبيد ، أولى بأس شديد ، كل كاد يرتعيها وحده ، (فيزاحم الكل بما عنده ، وقد اشتعلت فيه نار الشهوة)[٤٢٥] ، وسلب رقيبه كل قوة •

فجادلهم بنفســه ، وقاتلهم ببأســه ، تأسيــا من ربه ، وشغلا بخطبه[٤٢٦] ، فجاعت الكلاب ، فأتت الرحل والعصــا ، فما ظفرت بالطعام ، فتجردت وطمعت فى الأغنام ، وسارت فيها كالذئاب ، ومرقت وندت[٤٢٧] منها كالوحوش ، وتفرقت وضاعت أى ضياع ، وصارت نهبة للسباع •

وانتهى أجل العبد عند سيده ، فبعث اليه رسولا بموعده ، وهو بعد فى جد النزال ، وما حظى مما رأى بجد وصال ، فشمت به من ببأسه جادلهم ، وخذله من بنفسه جاد لهم ، فندم على أول قدم ، ولات حين ندم •

ومر بمكان الشاء ولا شاء ولا رغاء ، ولا نباح ولا ثغاء[٤٢٨] ، واذا فيــه زئيــر وعواء ، فتحسر وتــاب ، ولات حين متــاب ،

---

(٤٢٤) النجم : النبات أول ظهوره •

(٤٢٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •

(٤٢٦) فى (أ) : ومشتغلا بخطبه •

(٤٢٧) فى (م) : وحردت • من نسخة ثانية • اى : غضبت او قصدت •

(٤٢٨) الرغاء : صوت الابل ، والثغاء : صوت الغنم ، والنباح : صوت الكلب • والزئير للأسد ، والعواء للذئب •

حتى انتهى الى مولاه ، فسكت حذرا عن فعلـه ، فشـهد الشـهيد بكله ، فأمر الأشداء بحبسه ، وتعذيب نفسه ، فقالوا له : وما سلكك فى الحبس ؟ (قال : طاعة النفس ، ولعل وعسى وأنى ومتى)[٤٢٩] . قالوا : ألم يأخذ الله عليك ميثاقا أكيدا ؟ ألم يبعث معك رقيبا شهيدا ؟ قال : بلى . فقالوا : اخسأ فيها ولا تكلمنا ، فأنت من أهل لظى .

ألا ينظر الأمير أنه من أى العبدين ؟ والى أى الوعدين ؟ هل اعتصى بوزيره ، وسها عن أموره ؟ هل خلى بين الرعية وجنوده ؟ هل تفرقوا خوفا من عبيده ؟ هل لها[٤٣٠] بالملاهى ومعه رقيب ناهى ، وشهيد غير ساهى ؟ وهل قدر له أشياع مدته ؟ هل طمع فى امتناع بعدته ؟ هل له اصطبار على عذاب النار ؟

ألم يأن أن يعلم أنه سكن مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين له ما فعل الله بهم وضرب له الأمثال ، فلا يمكر فيمكر الله[٤٣١] به وان كان مكره لتزول منه الجبال . ولا يحسبن الله غافلا عن عمله ، انما يستدرجه بالامهال ، ويؤخره ليوم تشخص فيه الأبصار ، وتتهتك فيه الأستار .

أليس من كان قبله كان أوفر منه عددا ، وأكثر عددا ، فاستمتعوا بخلاقهم قليلا ، ثم تدرعوا[٤٣٢] لفراقهم رحيلا ، أو طمع فى خلود وهيهات ، فان الموت لابد آت ، وما هو كائن فكأن قد كان ، والله المستعان وعليـه التكلان .

* * *

فصـل فى الوزير

الوزير عصا للأمير ، لا يصلح للاعتماد عليـه الا بعد قوة وأمانة وكفاية وسداد ، وعقل وذكاء ، ورفق واحتمال ولطف ودهاء ، وجراءة واحتيـال ، وايثـار وحلم ، واشـفاق وحكم . فان الضعيف يخبب بصاحبه[٤٣٣] ، والخائن عون عليـه[٤٣٤] لطالبه ، والعاجز قاصر عن

---

(٤٢٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٤٣٠) لها يلهو . فعل من اللهو .

(٤٣١) فى (أ) : فيمكره الله .　　(٤٣٢) فى (ب) : ثم اندرسوا .

(٤٣٣) فى (أ) : يخب . والكل من الخبب وهو ضرب من السير . وفى (م) : يجب . من نسخة ثانية . وهو من القطع .

(٤٣٤) فى (أ) : عين عليـه .

بلوغ واجبه ، والمعوج يضل عن مطالبه ، والعقل كالشهاب لا تمييز بدونه ، والذكاء صفاؤه ، ولا ضياء الا بعونه ، والاحتمال لدرك الآمال رأس المــال ، والدنيــا قدر ، والناس فيه والشهوات تحته نار ، والرفق محراك لولا العلاج به لفار[٤٣٥] ، واللطف كالمــاء يوافق كل غذاء ، والدهاء تسوية الصدور على الأعجاز ، (وانه الآية والاعجاز)[٤٣٦] ، ولا قوة الا بجراءة ، والحيلة ردا لخطة الصماء بزحف الآراء[٤٣٧] . والايثار بترك الاختيار وهو فرع الجود ، وأصل الزهد ونفس الكرم ، ولا عمل الا بالعلم ، وما عمل به بغير حلم ، وفى الانشقاق أمان من النفاق ، وايذان بالوفاق .

أشق برجل جمع هــذه الخصال ، فتسربل بالكمال ، وتجلل بالجمال ، ثم اختار[٤٣٨] الوزارة ، وهى عصا الامارة ، ان أطاع أميره باع بدنياه دينــه ، وزهى[٤٣٩] بشكه يقينه ، ويأمن الأمير بمين نابه[٤٤٠] ، وبغضب من الله شابه ، قد أفرغ له وسعه فى تهذيب الملك والولاية ، وبذل جهده لجمع الزحف[٤٤١] واجراء الكفاية ، فما له راحة لازدحام الأشغال ، ولا به أنس لاضطرام[٤٤٢] الأوجال ، واعتاض لنفسه بعد بيعه الأخوة ملاحاة[٤٤٣] الرجال ، من ند له[٤٤٤] راغب فى مكانه ، أو ضد لأميره طــامع فى سلطانــه ، وخامل علــومه منشورة ، أو ميت فى تدبيره (لنشوره)[٤٤٥] وفى اجلال هذا اذلال مثله (وفى انشاء هــذا تبار[٤٤٦] شكله ، وكان حرا فصار عبدا ، ومطلقا فاكتسب قيدا)[٤٤٧] ، هــذا حظه ما استقامت الوزارة واعتدلت الامارة .

---

(٤٣٥) فى (ب) : افار .
(٤٣٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٤٣٧) العبارة مضطربة جدا فى (أ) .
(٤٣٨) فى (أ) : واختار الوزارة .
(٤٣٩) فى (ب) : ورهن .
(٤٤٠) فى (ب) : بمنن نابه . والمين : الكذب .
(٤٤١) الزحف : الجند .
(٤٤٢) فى (أ) : الاصطدام .
(٤٤٣) الملاحاة : المنازعة والمشاقة .
(٤٤٤) فى (ب) : من بذله .
(٤٤٥) سقطت من (ب) .
(٤٤٦) التبار : الهلاك .
(٤٤٧) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

وربما كثرت الأطماع ، وما بيده اتساع ، فهاجت الأتباع ، فنظر الأمير اليه واليهم نظرا ، فأسلمه اليهم حذرا ، فمثلوا به انتقاما ، وبدلوا عدوه به اكراما ، ثم مزقت تركتــه تمزيقا ، وفرقت أسرتــه تفريقا[٤٤٨] ، وهو رهين رمس ، وقرير تعس ، أوبقته الأوزار[٤٤٩] ، وحشرته الى النار ، وخذله الشقيق ، وخانه الصديق ، ومركبه الهملاج تخب بمناوئه[٤٥٠] ، وحليلته المغناج[٤٥١] زفت الى معاديــه .

هــذا ان أطاع رأى الصاحب ، وان رده بنوره الثاقب ، غضب فسبق (الاساءة)[٤٥٢] الاحسان والنقمة والغفران ، وعذبه بصلب أو قتل أو حبس أو عزل ، ثم لا يجد بعد العزل أمانا من أمثاله ، خوفا منهم على طلوع سعده عسى واقباله ، فيظل خائفا بعد الأمن ، مخذولا بعد الرفعة ، فقيرا بعد اليسر ، حسيرا بعد الدعة ، الا فكاك[٤٥٣] عن أسر الهوى ، والامساك بالتقوى ، فتلك العروة الوثقى التى لا انفصام لها والله سميع عليــم .

* * *

فصــل فى العلمــاء

وأما العالم فهو خليفة الله القدير ، كالوزير الذى تقدم ذكره مع الأمير ، فيحتاج الى تلك الصفات ، بعد العلم بالسنن والآيات ، وانه حافظ فى الدنيــا ، ودليل (الى)[٤٥٤] العقبى ، والناس كلهم بمنزلة القافلة ، والطرق عادلة وجائرة[٤٥٥] ، والمنزل منزلان : خراب وعمران ، وطريق العمران[٤٥٦] قفر مسالكه ، باد مهالكه ، ويزهر على طريق الخراب

---

(٤٤٨) فى (ب) : وصرفت أسرته تصريفا .
(٤٤٩) فى (أ) : أوبقته أوزار .
(٤٥٠) فى (ب) : العملاج تحت مناوئه ، والهملاج : الفاره من الخيل .
(٤٥١) فى (ب) : الغناج .
(٤٥٢) سقطت من (ب) .
(٤٥٣) فى (ب) : بلا فكاك .
(٤٥٤) سقطت من (ب) .
(٤٥٥) الطرق العادلة : السوية المستقيمة .
(٤٥٦) فى (ب) : فطريق العمران .

رياض غذاها جود الرباب[٤٥٧] ، ونمير العذاب ، بين غدران تدفقت ، وميادين اتسعت[٤٥٨] .

فكيف حال دليل غرته الرياض والغدران ، فعدل عن (طريق)[٤٥٩] العمران ، وأحب العاجلة ، وترك الآخرة ، والعيون اليه ناظرة ، فاقتدوا بفعله ، وان زجرهم بقوله ، فساروا فيها صباح يومهم ، فعاد النبات للرواح هشيما تذروه الرياح ، والمنزل خراب يأوى اليه الذئاب[٤٦٠] ، ولا وجه للرجوع فقد صاف الربيع[٤٦١] ، وفاقت الربوع ، فليم[٤٦٢] على الضلال والاضلال ، ولم ينفعه السلوك تحت الظلال .

ما أشق سلوك صراط مستقيم ، بين جنبتيه ستور فيها أبواب[٤٦٣] مفتحة على النعيم[٤٦٤] ، وعليها سرر لا تحجب عيناك عما فيها ، سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وحور عين ، وخمر لذة للشاربين ، وولدان كدر مكنون ، وغناء وثراء مكان ثوى ، ولو ودد ، مكان عم ونكد ، وما على الأبواب من بواب ، ولا دونها حجاب ، غير داع[٤٦٥] على (رأس)[٤٦٦] الصراط يقول : اسلكوه ولا تميلوا ، وجوزوه ولا تقيلوا ، ولا ترفعوا الستور ، فما ترون الا الغرور ، وانما لله حدود ، ووراءها أخدود ، يقعون فيه[٤٦٧] قبل الوصول اليه .

ولكم لدى منتهى الصراط من النعيم المقيم ، بساط عرضه كعرض السموات والأرض ، فأسرعوا ولا تضيعوا بالوقوف أيامكم ، وأوصفوا والسالكون بين أصم[٤٦٨] وسميع ، وعاص ومطيع ، ولا طاعة الا بعد سماع ، ولا نفع فى سماع على ابتداع[٤٦٩] .

---

(٤٥٧) فى (ب) : عذارها حور الرباب . والجود : المطر .
(٤٥٨) فى (ب) : اتسقت . (٤٥٩) سقطت من (أ) .
(٤٦٠) فى (أ) : مأوى الذئاب .
(٤٦١) صاف الربيع : أى : صار صيفا .
(٤٦٢) فى (ب) : فقام على الضلال .
(٤٦٣) فى (أ) : سور فيه ابواب .
(٤٦٤) فى (أ) : بالنعيم .
(٤٦٥) هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم .
(٤٦٦) سقطت من (ب) . (٤٦٧) بياض فى (أ) .
(٤٦٨) فى (أ) : من أصم . (٤٦٩) فى (ب) : على ابتداء .

وفقنا الله لاتباع الداعى ، وصبرنا عن الدواعى ، ولا وكلنا الى قلب ساه لاه ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

* * *

فصل فى الزهد

ان الزاهد للعالم بمنزلة العالم لولى هذا العالم[٤٧٠] ، فما استقامت الامارة الا بمشورة أهل العلم والرشد ، ولا استنار العلم الا بقدوة أهل التقوى[٤٧١] والزهد ، ولا زهد فى شىء لشىء الا بعد معرفة معايب المزهود فيه ، ورغائب المرغوب اليه ..

آه ، بئس الزهد بلا علم ، سلكه فى وادى الردى ، فهو[٤٧٢] يظنه طريق الهدى ، فانهمك[٤٧٣] فى الدنيا وهو يحسبه التقوى ، وخب[٤٧٤] على سبيل اللظى على أنه يبلغ جنة المأوى .

كلا ، سيسئل عما قدم وأخر ، وسيستقر فى سقر ، حرمه الزهد خير عاجلته ، وحرمه الجهل (أجر)[٤٧٥] آجلته ، ظل فى عذاب ، وحل بعقاب ، فكان أخسر الأخسرين وأشقى الأولين والآخرين .

ثكلت الدنيا أمها ، فهى أم الورى ، وبئست الأم الدنيا ، لا ترضع الولد الا بأجر ، ولا ترضى بأجر دون العمر ، فالولد يشفق عليها لرضاعة ، ويقلق على امتناعها ، وفى الطمأنينة اليها هلاك ثم عذاب ، وفى التزود منها[٤٧٦] ملاك ثم ثواب .

آها على نفس[٤٧٧] ساهية عن أجرها ، طامعة فى درها[٤٧٨] ، تحسبها أما وهى تسقيها سما .

---

(٤٧٠) الزاهد : العالم العامل . والعالم : العامل بغير علم . هذا هو المراد هنا .
(٤٧١) فى (أ) : أولى التقوى .
(٤٧٢) فى (أ) : وهو يظنه .
(٤٧٣) فى (أ) : وانهمك .
(٤٧٤) فى (ب) : وحث .
(٤٧٥) سقطت من (ب) .
(٤٧٦) فى (أ) : التزود فيها .
(٤٧٧) فى (ب) : أما على نفس .
(٤٧٨) طامعة فى درها : أى فى خيرها .

قلت شفقة الظئر على الرضيع ، والولد يظنها أعطف الجميع ، لولا الوصى لآثرت الظئر ماله[٤٧٩] ، وجلبت عليــه بالجوع احالة ، غير أن الصبى يبغض الوصى ، ويخالها وادى الولى[٤٨٠] ، وربما غلبا عليه ، حتى اذا جاء أوان فصاله انفصل عن درها (وماله)[٤٨١] ، ونادا ها فبخلت عليــه بالجواب ، فندم ولات حين اياب •

فبقى فى عذاب الجوع[٤٨٢] ، يتمنى خروج الروح[٤٨٣] ، لا تنجيه وفاة ، ولا تطيب له حياة •

ألا ان الوصى : العقل ، والمــال : العمر ، والظئر : الدنيــا ، والولد : كل الورى ، والفصال : المنيــة ، والندم : يوم حشر البرية ، والجوع[٤٨٤] : النار ، وما له غيرها دار لا يموت فيها ولا يحيــا ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ، وأطاع عقله فلا يؤثر الدنيــا •

حتى اذا فصل عنها واتصل بأرباح الطاعة ، وانفصل عن أهوال الساعة ، طاب مع الربح محياه ، ويساق اليه مناه •

ألا ان الطاعة : فى التقوى ، والربح : جنة المــأوى ، تحت سدرة[٤٨٥] المنتهى ، والمنى : ما تشتهى النفوس[٤٨٦] ، وتلذ العيون ، بل ما لم تسبق اليه الظنون • خلود ولا موت ، ووجود ولا فوت •

نبه الله القلوب على منام الغفلة ، وأقــام النفوس على فراش العطاء[٤٨٧] ، ووفقنا لتجارة لا خسر فيها ولا خسار ، وألحقنا بالصالحين الأبرار ، انه كريم بار ، (وصلى الله على سيدنا محمد النبى المختار ، وعلى آله وأصحابه الأبرار)[٤٨٨] •

* * *

---

(٤٧٩) مكان الكلمة بياض فى (ب) •

(٤٨٠) فى (أ) : أولى الولى •

(٤٨١) سقطت من (ب) •

(٤٨٢) فى (ب) : عذاب الجزع •

(٤٨٣) فى (أ) : خروج الروع • أى : القلب •

(٤٨٤) فى (ب) : الجزع •

(٤٨٥) فى (م) : تحتها سدرة • من نسخة ثانية •

(٤٨٦) فى (أ) : تشتهى الأنفس •

(٤٨٧) فى (أ) : عن فراش العطلة •

(٤٨٨) ما بين الحاصرين سقط من (أ) •

فصل [فى تبعات الامارة]

ما سعى عاقل الا لفوز ، ولا فاز الا متقى ، ولا تقوى الا بالعلم ، ولا علم بغير عقل ، ولا عقل تحت أسر الهوى ، فنعوذ بالله من الردى ، ونسأله التوفيق والهدى ، انه رب كريم ، وملك رحيم .

وليست التقوى[٤٨٩] كلها فى الاعراض ، واجتناب الأعواض[٤٩٠] ، فما حرم الله تعالى على عباده طيبا (ولا طيبا)[٤٩١] ، ولا أنزل الا للخصب صيبا[٤٩٢] ، وما خلق صنوف الأموال الا للخلق ، وأحل لهم ما أخرج من الزينة وطيبات الرزق ، وانما تعبدك بترك الربا الى بيع حلال ، ونهاك عن الامساك بمواساة فضل المال ، فغنى لا يطغيك كبرا[٤٩٣] محمود ، ومال يكسوك مجدا محسود .

لك من مالك هنىء الغذاء ، ولذيذ الغداء والعشاء ، وألوان الشراب ، وحسان الثياب ، وأبكار الحور[٤٩٤] ، وتشييد الدور ، وبث العبقرى ، وصف النمارق ، وخرق الأنهار فى ملتف الحدائق ، واستخدام العبيد ، ومفاكهة الأحرار ، واستعباد الرقيق ، ومنادمة الأخيار ، وأفراه[٤٩٥] الدواب ، وتقوية الأسباب ، واسترقاق العتاق بالمواهب ، واستحقاق الاعتاق[٤٩٦] بالرغائب ، والعتاق من النار ، والتلاقى بالأبرار .

فلا حسب مثل الجود بالموجود ، ولا غنى مثل احسان الظن بالمعبود ، بخ بخ ، بمال صالح[٤٩٧] أولى عبدا صالحا ، فلم يجعل يده مغلولة الى عنقه ، فأصبح مذموما مهجورا ، ولم يبسطها[٤٩٨] كل البسط فيقعد ملوما محسورا ، فصار حسبا لنسبه ، وشرفا لعقبه ، واستبدل الرفعة مكان الخمول ، وابتذل المتعة بمحل الذبول ، ووقفت فيه الظنون ، ونظرت اليه العيون .

---

(٤٨٩) فى (أ) : وليس التقوى .
(٤٩٠) فى (أ) : الأغراض .
(٤٩١) سقطت من (ب) .
(٤٩٢) الصيب : المطر .
(٤٩٣) فى (ب) : كبيرا . تحريف .
(٤٩٤) فى (أ) : وابتكار الحور .
(٤٩٥) الأفراه جمع فاره .
(٤٩٦) فى (أ) : الأعناق .
(٤٩٧) فى (ب) : مال صالح .
(٤٩٨) فى (ب) : ولا يبسطها .

ولعمرى ان لذته فيما يعطى ويفنى أشهى من لذة غيره بما يحوى ويستغنى ، ان طيبة[٤٩٩] الاعطاء أصفى من طيبة العطاء ، مع ما يعقبها من كريم الأحدوثة ، وجسيم المثوبة ، ولن يخلد من المرء وان علا أمره فى الدنيــا الا ذكره ، فأما المــال فعن قليل سيزول (عنه)[٥٠٠] ، وعمره (ثم)[٥٠١] يبقى حديثا ، فالحسن فى الدنيا حسن فى الأخرى ، والقبيح فيها هو الطامة[٥٠٢] الكبرى ، وليس للانسان[٥٠٣] الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى .

فانما المــال[٥٠٤] أوجب جميل الثناء ، وجزيل الجزاء ، وشرفا فى دار الفناء والبقاء ، هــذا لك من المــال ، وان اتفقت لك امارة بغير جدال وأنت من أهلها ، فخذ برأسها ورجلها ، واطمع فى خيرها ، ولا تقنع بغيرها ، فانها أعلى مراتب الدنيــا بعد الرسالة ، ولا تصغ الى من عابها بجهالة ، أمهرها بأمانة وشفقة ، وزفها اليك بلين وقوة ، وقم عليها بجد ويقظة ، فانك متى لم تشفق على الرعيــة تهاونت بهم فيما يجرى ، وخنتهم من حيث لا تدرى ، وأنقصتك[٥٠٥] الرعية ، وخالق البريــة ، وهنت من كل ناحية شكية[٥٠٦] ، وأطمعت فيك الأعادى ، وأشعلت نارا بكل نادى[٥٠٧] .

ومتى لم يتيقظ لهم من قبلك بصر ، ما نفعك حذر ، وظفر بك عدوك فى أقبح (أفعالك)[٥٠٨] وأحوالك ، ونزعك عن ملكك وملكك ومالك ، ومتى لم تلن لهم[٥٠٩] تفرقوا عنك ، ومتى لم تقو[٥١٠] تغالبوا عليك ، ومتى خنت لم تكن راعيا ، ومتى لم تحذر بت ساهيــا ، وان لم تجد كنت واهيــا ، واستشعر الحزم أمنت أو خفت ، واكتحل بالعزم أردت

---

(٤٩٩) فى (ب) : قد طيبه .
(٥٠٠) سقطت من (ب) .
(٥٠١) سقطت من (ب) .
(٥٠٢) فى (ب) : على الطامة .
(٥٠٣) فى (أ) : فليس للانسان .
(٥٠٤) فى (ب) : نماء المــال .
(٥٠٥) فى (أ) : وانتقصتك .
(٥٠٦) اى : من كل ما هو شك فى سلوكك .
(٥٠٧) فى (أ) : بكل واد .
(٥٠٨) سقطت من (ب) .
(٥٠٩) فى (ب) : تكن لهم .
(٥١٠) فى (ب) : لم تعد . من العدوان .

أو رددت ، ومن بالجزم نهيت أم ألزمت ، وعليك بالصدق أوعدت أو وعدت ، واياك والدعابة فانها تسقط المهابة ، ودع الخرق[٥١١] فانه فرع الحمق .

وعليك بالرفق فانه طول الخلق ، وجانب الخلاف فانه حب الفشل ، و (ادرأ)[٥١٢] التواني فانه اخو الكسل ، واياك والميل لقرابة ، أو العفو لمكانة ، فان الله تعالى أعلى مكانا ، وأقرب شأنا ، واتخذ لنفسك وزيرا فى الفضل كبيرا على ما قدمنا ذكره مشيرا ، فلابد من مستشار ، فالبناء على الاعجاب برأيك تأسيس على شفا جرف هار ، ينهار بك[٥١٣] فى يد من قام لك بالمرصاد ، وكمن لعترتك من كل باغ وعاد ، ولا تتكل عليه فما فى قوة الوزارة ما يقوم (بها)[٥١٤] قناة الامارة ، مع ما أن العبد غير مأمون خيانته ، وان ظهرت أمانته ، وديانته .

وعليك [فى] جباياتك[٥١٥] بذوى الأحساب ، فانهم ان لم يتقوا تكرموا ، و [فى] أماناتك[٥١٦] وخزائنك[٥١٧] بذوى العلوم والآداب ، فان لم يقنعوا تعظموا ، وأعد لأعدائك من أشدائك كهولا وفحولا وشبابا شجعانا ، فتثبت أقدام الشبان بالشيب ، وتقوى بذوى الشباب أولو المشيب ، وأجر الكفاية عليهم ، وأحسن بعثها[٥١٨] اليهم .

وأرجح كفة الخوف على الأحداث ، وآنسهم بألطاف بعد تغيير ، وأرجح كفة الرجاء على الشيوخ ، وطيب نفوسهم بتوقير ، واتخذهم مواكب ، وقدها بأيدى مقانب ، وملك أزمة امورهم أدهاهم ، فلا يبقوا شورى اذا فجأهم سجال ، أو يتفرقوا أيدى سبا ان تفرقت لهم حال .

واجعل لك أربعة بيوت أموال تضع فيها ما جبى اليك العمال ، فى أحدها الخراج وما فى معناه[٥١٩] ، مما وجب بقوة السيف لأهل السيف والقتال ومن بمعناهم ممن فرغ نفسه للدين من الأنام ، أو عمارة دار الاسلام .

---

(٥١١) الخرق : الغلظة .
(٥١٢) سقطت من (ب) .
(٥١٣) فى (ب) : فيهار بك .
(٥١٤) سقطت من (ب) .
(٥١٥) فى الاصول : بجباياتك .
(٥١٦) فى الأصول : ولأماناتك .
(٥١٧) فى (أ) : وخزائنك .
(٥١٨) فى (أ) : وأحسن بعدها .
(٥١٩) فى (أ) : وما بمعناه .

وفى الآخر الزكاة وما هو بمعناها ، مما أوجبه الله تعالى للفقراء ومن بمعناهم من الضعفاء ، من الأموال المعدة للنماء[٥٢٠] .

وفى الثالث خمس الغنائم وما فى معناه[٥٢١] من خمس الركاز والمعادن .

وفى الرابع المجهولة من نحو اللقطات والتركات[٥٢٢] .

ونصيبك من المـال نصيب غيرك من الرجال ، كفاية بالمعروف ، لا سرف ولا تقتير ، فان المـال للناس وأنت قيـم ، فلا تحبسه ملكا أو ملكا ، فيورثك فى الآخرة هلكا .

ثم سس طبقات حشمك وطبقات الرعيـة بالعدل ، فالى العدل انتهت السياسة ، وأسىء ظنك فيهم فهو الحزم ، وعنوان الكياسة ، وذلل رقابهم بهيبة عن اقتدارك ، وأسر قلوبهم بمحبة من ايثارك[٥٢٣] ، ولا تدع الوزير أميرا ، ولا صاحب الجيش الا مأمورا .

وأوصد المقانب بالخير لأهل المواكب ، واحفظ عليهم المراتب ، فما هلك امرء عرف قدره ، و (لا)[٥٢٤] سـلم قـوى تعدى طوره ، ولا ترخص لأحد فى الرعيـة فانها مرعيـة ، وآمن الأسفار على التجار ، والأمصار على العمال ، تنفسح فيك الآمال ، وتتسع عليـك الأموال ، ولا تأذن للعامة عليـك لرأى أو منزلة[٥٢٥] ، ففيه سقوط الحشمة ، وأدنهم للانتصاف ، ففيه بقاء النعمة ، وقرب العلمـاء وأطعهم على أمورهم ، تهتد بنورهم ، واياك وعالمـا عصى مولاه لدنياك ، وباع آخرته بأولاك ، فانه هالك مخدوع ، وتابع وليس بمتبوع .

واياك والبغى ، فانه أصرع لصاحبه ، ووزير السوء فانه أفضح شىء لخاطبه ، واقنع من الامارة بنفاذ أمرك ، وعلو قدرك ، وعظم أجرك[٥٢٦] ، فلن يصلح لها من همتـه بطنه وماله ، أو قصره وعياله ،

---

(٥٢٠) فى (ب) : المعتمدة للنماء .

(٥٢١) فى (أ) : وما بمعناه . والركاز : ما يوجد مدفونا فى الأرض من المـال .

(٥٢٢) الكلمة غير واضحة فى (ب) .

(٥٢٣) فى (ب) : عن ايثارك .   (٥٢٤) سقطت من (ب) .

(٥٢٥) فى (ب) : لدانى المنزلة .

(٥٢٦) فى (أ) : أمرك .

ولم يكن قضاء نحبه فى ارضاء ربه ، أو امتطاء ظهر للعلو والرفعة ، فى رداء العز[٥٢٧] والمنعة .

واعلم بأن الذى أنعم بها عليك يراك فيما آمرك ونهاك ، ويحاسبك ولو مثقال ذرة يوم الدين ، ويسألك عن ظلم من تحت ولايتك[٥٢٨] بيقين ، فانهم لا يخلون عن ظالم بأمرك فعليك وباله ، أو غاشم بسكوتك وتقريرك فعليــك أثقالــه ، أو سامع لنهيــك ، متأيد على ظلمه بعونك ، فأنت (من)[٥٢٩] المستهزئين ، أو مفترس رعيتك وأنت من الغافلين ، أو آمن بقوته عن تعميرك[٥٣٠] فتكون من العاجزين ، فتحشر لتوكيلها وأنت غير صالح لها مع الظالمين .

ومتى لم تتفق لك الامارة وأنت على كمال ، ورب خصال ، وظفرت بمثله أميرا فقم اليــه[٥٣١] وزيرا ، يقوى[٥٣٢] بارشاداتك[٥٣٣] جناحه ، ويثمر بدلالاتك[٥٣٤] صلاحه ، واكتس بالصيانة ، وتحل بالأمانة ، وضم أوصافا مر ذكرها الى الديانة ، ولا تغتب لديــه خلقا ، ولا تسىء لديــه خلقا ، ولا تفش لديــه سرا ، ولا تلقنه الا خيرا .

ولا تخف ذهاب منزلتك بصواب لا يهواه ، فهو رأس الخيانة ، ولا تطعه على معصية ربك ، ففيه ترك الديانة ، ولا تقرب من طلب منزلة بخدمة[٥٣٥] نفس أو مال ، فقل من بذلهما[٥٣٦] لمثلك وهو على كمال[٥٣٧] .

واطلب الكامل ولو فى سم الخياط ، ولا تقنع بالأذلــة عندك لعزك[٥٣٨] ، فانهم سقاط ، وان ميلك هذا غبن الكمال[٥٣٩] على بساط رث تحت فسطاط غث واهى الأطناب والأوتاد ، ذليل القامة والعماد .

---

(٥٢٧) فى (ب) : رد العز .
(٥٢٨) فى (أ) : لمن تحت ولايتك .
(٥٢٩) سقطت من (ب) .
(٥٣٠) فى (أ) : عن تغييرك .
(٥٣١) فى (ب) : فضم اليه .
(٥٣٢) فى (ب) : يقر .
(٥٣٣) فى (أ) : باشاراتك .
(٥٣٤) فى (ب) : لآلائك .
(٥٣٥) فى (ب) : لخدمة نفس .
(٥٣٦) فى (ب) : من بذلها .
(٥٣٧) فى (ب) : على كمالك .
(٥٣٨) فى (أ) : لعزتك .
(٥٣٩) فى (ب) : لذا عين الكمال . خطأ .

واياك والكذب فانه قبيح وطراز أقبح من السلطان[٥٤٠] ، أو التغافل عن أمر خولفت فيه فانه عجز وما أقبح العجز مع الامكان ، واياك ثم اياك أن تطلب حمدا بما فعلت ، أو شكرا على ما بذلت[٥٤١] ، فما نجا من أحب من الناس محمدة ، أو خاف منهم مذمة ، فانه واد حم[٥٤٢] المسالك كلها الى المهالك .

واياك والحسد ، فما كمل من حسد ، ولا أضر بمن قصد ، وسيبعثه ذلك على جفاء أولى الكمال ، وانه أقوى أساس الاخلال ، مع ما يحترق باطنه بشرره ، ويتأذى داخله بضرره .

واجعل عوضك فى الدنيا عن راحتك وقضاء شهوتك أن يشار اليك بحسن الاشارة ، وتعتدل على يديك أسباب الامارة ، وغرضك الجسيم من أمانتك ودينك أن تحشر مع المتقين الى الرحمن وفدا ، ولا تساق مع الظالمين الى جهنم وردا ، فما صلح للوزارة من جعلها سببا لقضاء الشهوات ، وأكل الطيبات ، والتسلط على الأنام ، والاحسان الى مادح والاساءة الى ذام .

وفقنا الله تعالى لتهذيب الأعمال ، وبلغ بنا منزلة الكمال ، انه ذو الاكرام والجلال .

يا ابن آدم ، بشرى لك بشرى ، فقد خلقت لك العاجلة والأخرى ، غير أن الدنيا للزاد ، والعقبى للمراد[٥٤٣] ، وان ربك لبالمرصاد ، ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فما له من هاد .



---

(٥٤٠) فى (ب) : بطراز قبيح من الشيطان .
(٥٤١) فى (أ) : أو شكرا بما بذلت .
(٥٤٢) فى (ب) : فانه ناد يرجم المسالك .
(٥٤٣) فى (أ) : للمزاد .

كتاب المحنة والحيلة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى خلق الدنيا للابتلاء ، والآخرة للجزاء ، فصفت الآخرة عقابا أو نعيما ، ولم يكن أحد الوجهين فى الدنيا عن الآخر سليما ، بل كان فى النعيم[1] معانى العقوبة ، ولصور العقوبة معانى محبوبة ، وفى الحظ الدينى حظ[2] الدنيا (مبين ، وفى الدنياوى)[3] ضرب من الدين ، تثبيتا للامتحان ، على كل انسان .

والصلاة على من تم بشريعته هذا البيان .

قال رضى الله عنه ورحمة الله عليه : كنا ذكرنا لك أيها الأخ فى مبدأ كتابنا هذا أن الآدمى ممتحن فى ذاته بين نفس أمارة بالسوء ، وروح أمارة بالخير ، وأن الابتلاءات مبنية عليهما . وتكلمنا بقدر الكفاية فيهما ، وهذا الكتاب منا لبيان المحنة مما قسم للآدمى وعليه فى العاجل من دنياوى أو دينى . وانا بادئون[4] بالأقسام الدنياوية للنفوس ، فهى ثابتة من طريق محسوس ، فنقول وبالله التوفيق :

ان للنفس[5] أقساما يتصلن بها من المكروه والمحبوب ، وان المحبوب ضربان : سلامة أجزاء البنية المحسوسة عن الآفات التى تنقص الكمال ، من كمية[6] أو فوات طرف أو اختلال ، وسلامة معانى البنية عن الآفات التى تنقص الاعتدال ، من زمانة ومرض واعتلال .

وان المكروه ضربان ، وهما للمحبوبين[7] ضدان ، فكانت الأقسام فى حق النفس أربعة فى الأصل ، وسائرها بناء عليها .

---

(١) فى (م) : النعم . من نسخة ثانية .

(٢) فى (أ) : حظ للدنيا .

(٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٤) فى (أ) : لبادئون .

(٥) فى (م) : للنفوس . من نسخة ثانية .

(٦) فى (ب) : من كمه . (٧) فى (ب) : للمحبوب .

فالضرب الأول من المحبوب تعلق به نوعا نعمة دنياوية . أحدها لا صنع لنا فيه ، وهو سرور القلب برؤية ذلك الكمال الذى هو محبوب ومطلوب ، (بالقلوب)[8] فان حصوله أمر طبيعي لا صنع لنا فيـــه ، وانما يكون دفعه بتكلف . والآخر[9] لنا فيه صنع ، وهو استعمال ذلك الكمال لمـــا يصلح له ، وتقوم به منافع بدنه .

وفيه نوعا ضرر فى مقابلة النفع : صداع يلحقه بطلب الناس منه ما صلح له ، فعلى هـــذا جبلة الخلائق ، لا صنع للكامل[10] فى قصده الناس طمعا فيه اذا لم يكن بدعوة منه اليـــه ، وضرب آخر لنا فيـــه صنع وهو ضرر الاجابة لهم أو الرد .

وكذلك هـــذا فى ضرب كمال المعنى فى النفس[11] فى غير الدنيـــا دعوى . وفيه أيضا من الحظوظ الدينية مثل ذلك .

أما النوعان اللذان هما نفع فأحدهما : لا صنع لنا فيـــه : محبة من قسم له (ذلك ، فان محبة المحسن من جبلة القلوب ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو طلب القاسم)[12] ، لأن المحبة تبعث على طلب المحبوب ، وقلما يصبر على فراق الحبيب .

وأما النوعان اللذان هما ضرر فأحدهما لا صنع لنا فيـــه ، وهو : الوقوع فى فتنة الكبر برؤية نفسه قويـــة سوية ، والآخر لنا فيـــه صنع وهو : طاعة النفس فى موجب الكبر ، ليصير الى انكار العبودية .

وأما الضرب المكروه الذى هو ضد المحبوب ففيه نوعا ضرر فى حق الدنيـــا ، أحدهما لا صنع لنا فيـــه ، وهو : مخامرة الغم لحلـــول النقصـــان ، فانه من دواعى جبلة الانســـان ، وانما الاخراج بدفع (لنا)[13] . والآخر لنا فيه صنع وهو : العمل بذلك ، من التأسف على ما فاتـــه .

---

(٨) سقطت من (ب) . (٩) فى (ب) : والاخرى .
(١٠) المقصود بالكمال هنا : الغنى .
(١١) فى (أ) : للنفس .
(١٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٣) سقطت من (أ) .

وفيه ضربا نفع : الراحة عن صداع الناس[14] لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : تتبع نعم الراحة بزوال سبب الصداع ، ليستديمه راضيا به ، غير مبدل بحيلة ، أو كاسرا (خمار)[15] غم النقص بترجيح عوضه من الراحة ، عاصيا حكم الجبلة[16] .

فأما نصيب الدين ففيه ضربان [من النفع] ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : النجاة عن فتنة الكبر[17] ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : تعرف نعمة النجاة بالاستدلال ، وترجيحها على منافاة من الكمال .

وفيه [ضربا] ضرر ، بغض من قسم له ذلك بموجب طبعه ، والآخر لنا فيه صنع وهو : العمل بما عمى عن نفعه[18] .

وأما الحظوظ المنفصلة عن الأنفس من الأشياء المخلوقة فى العالم لنا فضربان : مكروه ، ومحبوب . وانما الأصل من المحبوب ما يتعلق به البقاء ، فان البقاء رأس المـــال فى الباب ، وانه لضربان : ما يتعلق به بقاء الأنفس[19] من الأغذية ، وما يتعلق به بقاء الجنس من الاناث للذكور (والذكران للاناث)[20] ، فالأغذية مما تتقوى بها الحيـــاة الموجودة ، وكذلك سائر الأموال مما يرغب فيها بالشهوة طبعا لها[21] ، والاناث مما يستفاد بهن حياة (الدنيـــا)[22] معدومة ، والمكروه ما يضاد الضربين : الأدوية فى مقابلة الأغذية ، فانها مما يضعف القوى ، ويغير الحلى ، وأسباب المنية فى مقابلة النساء والنسل ، فانها تفوت الحياة[23] من الأصل .

وهـــذه الأقسام على هـــذه المعانى[24] انما تخرج بعد التناول .

---

(١٤) فى (ب) : عن صراع الناس .
(١٥) سقطت من (ب) .
(١٦) اى : انه لا يستطيع عصيان حكم الجبلة التى تحزن للنقص ، فهو محزون رغم تتبعه لوسائل الترفيه عن نفسه .
(١٧) فى (ب) : عن فتنة الكفر .
(١٨) فى (ب) : العمل به أعمى عن نفعه .
(١٩) فى (ب) : بقاء النفس .
(٢٠) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٢١) فى (ب) : مما يرغب فيه بالشهوة تبعا لها .
(٢٢) سقطت من (ب) . (٢٣) فى (أ) : تعنت الحياة .
(٢٤) فى (ب) : فى هذه المعانى .

فأما قبل التناول فالأموال كلها سواء محبوبة ، وكذلك النساء ، وضدها عدمها بأعيانها ، وانا بادئون بأقسام الوجود ، ثم بأقسام التناول وبالله التوفيق فنقول :

* محنة وجود المــال :

ان فى الأموال كلها نوعى نفع فى حق الدنيــا ، أحدهما لا صنع لنا فيه [وهو] : قوة النفس بالغنية ، وحاجة النفس اليه[٢٥] ، فانه من عمل الجبلة ، والآخر لنا فيه صنع وهو : الانتفاع بالغنية بالتناول تنعما ، والبذل تكرما .

وفيه ضربا ضرر ، أحدهما لا صنع لنا فيه وهو : الوقوع فى حاجة الحفظ ، فان من عمل الطبع حفظ المحبوب ، والتألم على زواله ، ووقوع الرغبة فى طلب الزيادة[٢٦] منه . والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الاجابة الى ما دعا اليه الطبع من الحفظ ، حتى يحفظه من نفسه ، فتلزمه مرارة العدم ، وانها : لأمر مع الوجود ، فيزداد عليــه[٢٧] غم الزوال مع بقاء غم الطلب ، فان الطلب مع المــال لأشد ، وأنواعه أكثر منه بغير مال ، مع ما ربح فيه [من] بغض الناس بأن سألوه فرد السؤال .

وفيها ضربا ضرر دينى : الوقوع فى فتنة المــال ، فانه شاغل للقلب ، مطغ للنفس[٢٨] ، ما لنا فيه صنع ، فانه محبوب[٢٩] الطبع ، وفى شغل القلب وطغيان النفس أعظم ضرر بالدين ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : طاعة النفس على طغيانها ، وتسليم القلب لأشغاله .

وفيه ضربا نفع [دينى] ، أحدهما : لا صنع لنا فيه : حدوث الرغبة فى خدمة من أوجب له ذلك ، فانه من طبع حاله ، ونفوذ حكم الله فى حياة من تعلق فى الأزل حياته بماله . والثانى [لنا فيــه صنع] :

---

(٢٥) فى (أ) : وحاجة الناس اليه .
(٢٦) فى (ب) : طلب الرفادة .
(٢٧) فى (ب) : فيزاد عليــه .
(٢٨) فى (ب) : مطيع للنفس .
(٢٩) فى (ب) : مجلوب الطبع .

التأمل فى معرفة من أوجب له (ذلك)[٣٠] ، واقامة حكم الله تعالى بالبذل .

* * *

* محنة وجود النساء :

وأما النساء ففيهن ضربا نفع فى حق الدنيا : سكون النفس بالالف ، فانه من دواعى الجبلة [لا صنع لنا فيه] ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : العمل بمقتضى السكن ، وما يوعو اليه من اتيانها مهواها طمعا فى زيادة الخلة .

وفيهن ضربا ضرر [دنيوى] : الوقوع فى ميدان الغيرة ، وغم الفراق ، لا صنع لنا فيه ، فانه من مقتضيات الفحولة والمحبة ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع وهو : العمل بموجب الغيرة حتى يغار[٣١] عليها من نفسها ، وبموجب المحبة حتى يصون نفسه عنها ، فان نهاية الغيرة فى حبس المغير عليه حتى لا يرى ، ويفقد خوفا من مكروه ، ونهاية المحبة توجب من التعظيم للمحبوب حتى لا ينال ، بل يعبد[٣٢] رغبة فى التعظيم[٣٣] .

فاذن الغيرة تعدم السكن[٣٤] ، والمحبة تحرم الغرض ، والمكروه الذى هو سبب الغيرة[٣٥] مما تسلبه نعمة المحبة .

وأما فى حق (الحظ)[٣٦] الدينى ففيهن ضربا ضرر . أحدهما لا صنع لنا فيه ، [و] هو زيادة العدو بزيادة نفس أخرى ، فان أصل النفس عدو بخلق الله (تعالى)[٣٧] [اياها] لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع وهو : طاعة نفسها على ما تدعو اليه كطاعة نفسه .

وفيهن[٣٨] ضربا نفع [دينى] ، أحدهما لا صنع لنا فيه وهو : انغماض العين عن سكن الغير بسكون القلب الى الفه[٣٩] ، فان ذلك من

---

(٣٠) سقطت من (أ) .
(٣١) فى (ب) : حتى يغير .
(٣٢) فى (ب) : بل يعذر .
(٣٣) هذا لا يحدث الا عند الوثنيين الذين عبدوا المرأة كما عبدوا غيرها من الحيوان .
(٣٤) فى (ب) : تعدم السكر .
(٣٥) فى (ب) : تسبب الغيرة .
(٣٦) سقطت من (أ) .
(٣٧) سقطت من (ب) .
(٣٨) فى الأصول : وفيه .
(٣٩) فى (ب) : الى مألوفه .

باعثة طبعه ، والآخر لنا فيه صنع وهو : العمل به من حيث الامساك بالمعروف ، فان الألفة داعية الى ذلك .

* * *

* محنة عدم المال :

وأما المكروه وهو العدم ، ففى عدم المال ضربا ضرر فى حق الدنيا ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : مسكنة النفس ، ولزوم الخضوع . بلزوم الحاجة ، فانه من بواعث الجبلة ، الا أن يرد بالتكلف . والآخر لنا فيه صنع وهو : كشف الحال عن نفسه بالسؤال والتكفف .

وفيه ضربا نفع [دنيوى] ، أحدهما لا صنع لنا فيه وهو : راحة القلب عن حفظ المال ، والثانى لنا فيه صنع وهو : التأمل الى أن يرى رجحان نعمة الراحة على نعمة الثروة[٤٠] ، فيتسلى فيه بالحظ الأوفر شاكرا ، ويستديم الحال مختارا .

وفيه ضربا نفع فى حق الدين ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : النجاة عن فتنة المال ، والآخر لنا فيه صنع وهو : التأمل فى نعمة النجاة عن الشكوى[٤١] بالعدم ، فيهل بالشكر لله تعالى مكان الشكوى ، ويقوى فيه مستغنيا مكان المال بالمولى .

وفيه ضربا ضرر دينى ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : حرمان ثواب انتفاع الناس بماله ، والآخر لنا فيه صنع وهو : الشكوى فيه والجزع الى كسوف بباله .

* * *

* محنة عدم النساء :

وفى عدم النساء ضربا ضرر فى حق الدنيا . أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : وحشة التعذر عن الالف ، فانه (من)[٤٢] موجب الطبع ،

والآخر لنا فيه صنع ، وهو : القلق فى الوحشة ، وطلب ردها بما ليس له[٤٣] ، فيكون سببا لهلاكه .

---

(٤٠) هذه النعمة مفصلة فى كتاب الفقر وكتاب العبودية من هذا الكتاب .

(٤١) فى (أ) : الشكية .

(٤٢) سقطت من (ب) .

(٤٣) فى الأصول : مما ليس له . واخترنا ما فى (م) . من نسخة ثانية . والمراد بردها بما ليس له : الزنا .

وفيه ضربا نفع [دنيوى] أحدهما لا صنع لنا فيه : خفته على أعباء المحبة والغيرة ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : التأمل فى فساد غرضه فى طلب السكن من النساء .

وفى هــذا العدم ضربا نفع فى حق الدين : النجاة عن شر النفس الثانية[٤٤] وعداوتها ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : التأمل فى نعمة النجاة ، فيؤدى به ذلك الى تحصيل غرض السكن بما لا يفتنه ولا يخدعه ، وهو : العلوم ، والتأمل فى ضروبها ، وعبادة الله تعالى .

وفيه ضربا ضرر [دينى] أيضا . أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : حرمان ثواب صلة النكاح ، والآخر لنا فيه صنع وهو : ترك التصبر عليــه[٤٥] .

* * *

*** محنة تناول الغذاء :**

فأما أقسام (المحظوظ فى)[٤٦] التناول ونبدأ بالأموال[٤٧] ، ونخص الأغذيــة منها[٤٨] ، فان بها بقاء الحياة الموجودة فنقول :

أن فى تناولها ضربا نفع فى حق الدنيا ، أحدهما لنا فيه صنع ، وهو : قضاء شهوة البطن بالتناول ، والآخر لا صنع لنا فيه ، وهو : قوة النفس ، وانقلاب المتناول لحما ودما ، بمنزلة أجزاء المتناول ، فانه من عمل الطبع .

وفيه ضربا ضرر [دنيوى] أحدهما لا صنع لنا فيــه ، وهو : انقلاب خبث الغذاء نجاسة تنفر عنها الحواس ، وتستقذرها النفوس ، حتى يصير به بمعنى الكنيف ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الاخراج بضرب فعل بقصده[٤٩] .

---

(٤٤) وهى : الزوجة كما قال تعالى : **« ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم »** (التغابن : ١٤) .

(٤٥) اى : التصبر على تبعاته ومؤنته .

(٤٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٤٧) فى (ب) : ونبدا بالأموال .

(٤٨) فى (ب) : ونخص الاغذية فيها .

(٤٩) فى (ب) : يقصده .

وفيه ضربا نفع في حق الدين ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : قيام حكم الله تعالى في بقاء النفس الى أجله متعلقا بما يحصل من القوة بالغذاء ، فلذلك علق الله التناول بشهوة البطن ، لتكون داعية اليه من كل نفس مؤمنة أو كافرة ، فيمضى حكم الله تعالى باختيار من العبد على ما أمضاه[50] ، أقر به العبد أو جحده . والثانى لنا فيه صنع ، وهو : استعمال تلك القوة في طاعة من قواه وأيده .

وفيه ضربا ضرر دينى ، أحدهما : الوقوع في فتنة قوة النفس ، لا صنع لنا فيه ، فانه من فعل الطبع ، والآخر لنا فيه صنع وهو : طاعة النفس على ذلك بسوء الاختيار .

* * *

* **محنة تناول الدواء :**

وأما أقسام تناول المكروه وهى الأدوية ففيها ضربا ضرر في حق الدنيـــا ، وهو نصيب النفس ، أحدهما متعلق بفعله وهو : لحوق مرارة الدواء بالشرب ، والآخر لا صنع لنا فيه ، وهو : سقوط القوى الغريزية بغلبة ضدها ، وهو طبع الدواء .

وفيه ضربا نفع [دنيوى] أحدهما لا صنع لنا فيه ، [وهو] : طهارة الطبائع بمزايلتها فضول القوى الفاسدة . والآخر لنا فيه صنع وهو : الانزجار عما ألزمه[51] شرب الدواء من الاسراف في التناول ، وتعدى حدود الطبع[52] فيه بما ذاق من المرارة كراهة للعود فيـــها . وهـــذا النفع انما يحصل بصنعنا ، وهو التأمل في السبب الذى ألزمه شرب (الدواء)[53] المر[54] ، ثم الكف عما أمسه الضر ، وان النفع الذى يكون بالانزجار عن السبب المفسد أكثر من النفع الذى أصلح بعد الفساد ، مع ما ربح النجاة عن مرارة الدواء .

وفيه ضربا نفع في حق الدين ، وهو نصيب الروح ، أحدهما لا صنع لنـــا فيه ، وهو : النجاة من دعوة النفس[55] الى اقتضاء الشهوات

---

(٥٠) أى : على ما قدره الله تعالى .

(٥١) فى (ب) : عما لزمه .

(٥٢) فى (أ) : حدود الطبائع .

(٥٣) سقطت من (أ) .

(٥٤) فى (أ) : شرب مر .

(٥٥) فى (ب) : من دعوى النفس .

لفترة الطباع[٥٦] وسقوط الشهوة[٥٧] بالدواء ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الاقبال على قهر النفس وخلافها حال ضعف قواها ، ووجوب طلب الصانع ، اذ لو كان الأمر بيده أو الى طباعه ما التزم شرب ما يضاد طباعه تحريا لنجاتها عن فساد لحقها من تناول ما دعته اليه الطباع ، ومتى علم أنه مقضى عليــه ، وألا أمر بيده ، وجب عليــه طلب الحاكم ، لتكون اقامة أمر الحاكم ووجوب الانقياد لحكمه عن معرفة بحكمته .

وفيه ضربا ضرر دينى : نفرة الطبع عن الحاكم ، مثــل نفرة الطبع[٥٨] عن الطبيب ، ان عرف أن المريض شافيه[٥٩] ، لا صنع لنــا فيه ، فانه من عمل الطبع ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : طاعة الطبع عليها حتى تحمله على الرد عليــه تعنتا ، ونعوذ بالله من الخذلان .

* * *

* محنة تناول النساء :

وأما أقسام التناول من الضرب الآخر من المحبوب وهو النساء فيتعلق به نوعا نفع فى حق الدنيا ، أحدهما متعلق بفعلنا ، وهو : اقتضاء شهوة الفرج ، والآخر لا صنع لنا فيه ، وهو : انخلاق المــاء نفسا مثله ، لتقوم به حياة العالم ، وعمارة الدنيــا .

وفيه ضربا ضرر [دنيوى] أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : انكسار قوى الفحل ، وانخلاق الولد فى بطنها ، وفيه الى أن تلد ضروب ضرر كثيرة لا صنع لنا فيها للمرأة ، وضرر آخر لنا فيه صنع ، وهو : ما يلزم الرجل من النفقة ، والقيام بالمرأة ، و [ما] يلزمها[٦٠] من الاحتباس عند الزوج والرضاع ، والتذلل بالتمكين من ذلك الفعل .

وفيه ضربا نفع فى حق الدين ، [أحدهما] : تأدى حكم الله فى بقاء هــذا العالم من طريق (اتيان المرأة)[٦١] ، فانه متعلق بهذا الفعل ، حكم من الله تعالى به ، ولذلك علق بالشهوة لتكون داعية اليه ، فيقع لا محالة ، على ما قلنا فى فصل تناول الغذاء ، ولهذا لم يحل اقتضاء

---

(٥٦) فى (أ) : بفترة الطبائع . وفى (ب) : بفتوة الطباع . وأثبتنا ما هو أوضح .
(٥٧) فى سقوط الشهوة .
(٥٨) فى (أ) : تتع .
(٥٩) فى (ب) : بشافيه .
(٦٠) فى الأصول : ويلزم المراة .
(٦١) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

هذه الشهوة من الأدبار التى لا تكون سببا للنسل وان كانت من حيث قضاء الشهوة سواء ، كما لا يحل تناول ما لا يتغذى به وان اشتهاه ، بخلاف موجب العقل • والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الوقوف على معرفة الصانع اذ عجزه[٦٢] عن ايجاد الولد ، يعرفه حال عجز آبائه فيه ، ولأنه[٦٣] لابد من قادر سواهم يجوز اضافة الايجاد[٦٤] اليه •

ولن يحصل نفع هـذا الضرب[٦٥] الا بضرب من الاستدلال والنظر ، لذلك يلزمنا دعوة الأولاد الى الله تعالى وهدايتهم •

وفيه ضربا ضرر دينى ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، هو : زيادة العدو بزيادة نفس ثالثة[٦٦] ، فانها منه دعوى ، وشر الأولين[٦٧] فى المعنى •والآخر لنا فيه صنع بجهاد زائد •

* * *

*** محنة تناول أسباب المنايا :**

وأما أقسام الضرب المكروه فى مضادته وهو أسباب المنايا من مغالبات الناس والأسباب التى لا تتم الا بالقتال والقتل ففيها ضربا ضرر فى حق الدنيا ، [أحدهما لنا فيه صنع] وهو : فوت الحياة التى هى رأس المـال بالقتل والقتال ، والآخر ما لنا فيه صنع ، وهو : انزجار النفس عن الطلب[٦٨] خوفا من المنية قبل اقتضاء الأمنية ، والبقاء تحت الفقر والعيش المز •

وفيه ضربا نفع [دنيوى] أحدهما لا صنع لنا فيه [وهو] : اتساع الدنيـا عليه بالقتل[٦٩] ، وصيرورة الدنيا من الأصل • والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الولاية والملك ، والأمر والنهى •

---

(٦٢) فى (أ) : او عجزه .　　(٦٣) فى (أ) : وانه .

(٦٤) فى الأصول : احالة الايجاد . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .　　(٦٥) فى (ب) : الضرر .

(٦٦) تصديقا لقوله تعالى : « **ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم** » (التغابن : ١٤) .

(٦٧) اى : الولد شر من الوالدين ، لانهما قد كبرا ، وارتاضت طباعهما ونفساهما بخلاف الولد .　　(٦٨) فى (أ) : من الطلب .

(٦٩) المراد فتح البلدان .

وفيه ضربا نفع فى حق الدين ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : ظهور قهر الله تعالى على كل انسان ، حتى لم يتمن متمن من العقلاء لنفسه الخلود ، ولا ادعى التأبيد ، والثانى لنا فيه صنع ، وهو : التأمل فى القاهر ، ليصل اليه ، فيعرفه ويقوم فى مقام المقهورين ، والعمل فى محل المأمورين ، وقطع الأمل بتذكر حلول الأجل .

وفيه ضربا ضرر [دينى] فوق ضررى شرب الدواء(٧٠) من جنسه ، فان هذا المكروه عند العبد فوق(٧١) ذلك فى نفسه .

* * *

* محنة سلامة ظاهر البنيـة عن الآفات الظاهرة :

وأما الأقسام التى (هى)(٧٢) للأرباح مما يوجد فى الدنيـا (فهو على)(٧٣) تلك المراتب والأنواع ، أما التى هى متصلة بنـا فسـلامة ظواهر البنية عن الألوان الكريهة ، والهيئات السمجة ، الى جمال وحسن وملاحة ونحوها . وسلامة معنى البنية عن الآفات المكروهة من الجنون والعته والغباوة ، الى عقل وذكاء وفطنة ونحوها . فضربا السلامة محبوبان ، وضربا الفوت مكروهان .

فالمحبوب الأول فيه نوعا نفع فى حق الدين (أحدهما لا صنع لنا فيه)(٧٤) : صفو المحبة(٧٥) لمن صور فأتم ، ثم ألطف ، فانه من حكم الجبلة . والآخر لنا فيه صنع ، وهو : طلب هـذا الصانع ، والعمل بما تدعو اليه المحبة على ما ذكرنا فى سلامة قسم النفس ، فانه ذلك بعينه ، الا أنه الى اللطف أقرب(٧٦) .

وفيه ضربا ضرر فى حق الدين ، [أحدهما لا صنع لنا فيه] :

---

(٧٠) فى (ب) : ضرر شرب الدواء .

(٧١) اضطربت العبارة فى (أ) هكذا : فان هذا المكروه عند ذلك فوق ذلك فى نفسه .

(٧٢) سقطت من (أ) .

(٧٣) سقطت من (ب) .

(٧٤) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٧٥) فى (أ) : صفوة المحبة .

(٧٦) لانه جمال ظاهر ، وذاك جمال معنوى .

حدوث الكبر نظرا الى كماله ، فانه من عمل الطبع .والآخر لنا فيه صنع : الارتداء بالكبرياء ليؤدى (به)[٧٧] الى دعوى الربوبية .

وفيه نوعا ضرر فى حق الدنيا (أحدهما لا صنع لنا فيه وهو)[٧٨] : صيرورته غرضا[٧٩] لأنواع ما يشتهى من مجالسة ومصافحة[٨٠] ونظر وغيرها ، وتأذيه[٨١] بها ، لا صنع لصاحب القسم فيه ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الاجابة لتحصيل الغرض أو الرد .

وفيه ضربا نفع [دنيوى] : سرور يلحقه طبعا بكماله وكونه مقصودا ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : التصدى لما طلب منه ليجمعهم عليه ، ويصرفهم تحت رأيه ، ويجعلهم أتباعا لنفسه[٨٢].

* * *

* محنة فوت السلامة الظاهرة :

وأما المكروه منه ففيه ضربا نفع فى حق الدين ، أحدهما لا صنع لنا فيه (النجاة عن دعوى الكبرياء ، والآخر لنا فيه صنع وهو : التأمل فيها)[٨٣] ليرى نعمة النجاة خيرا مما فات .

وفيه ضربا ضرر فى حق الدين : شوب يقع[٨٤] فى المحبة بما فات مكان الصفرة المتعلقة بالوجوه[٨٥] ، ولا صنع لنا فيه ، وانه[٨٦] من عمل الطبع ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : التكاسل فى طلب القاسم عملا بالشوب الواقع فى المحبة ، فيؤدى به الجهل الى الكفر .

وفيه ضربا ضرر فى حق الدنيا : انكسار القلب بعدم السرور[٨٧] المتعلق بالقسم الأول ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع : اعتقاد الخسران والتأسف عليه أو السخط .

---

(٧٧) سقطت من (أ) .
(٧٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٧٩) فى (ب) : صيرورته عوضا .
(٨٠) فى (ب) : مجالسة ومصالحة .
(٨١) أى : انه يكون محلا لنظر المحرمات ، وهيجان الغرائز عند الاستجابة اليهن ، او القصد اليه فى المجالسات وغيرها .
(٨٢) فى (ب) : أبناء لنفسه .
(٨٣) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٨٤) فى (ب) : شوب نفع .
(٨٥) فى (أ) : بالجود .
(٨٦) فى (أ) : فانه .
(٨٧) فى (أ) : لعدم السرور .

وفيه ضربا نفع [دنيوى] : الراحة عن فتنة الوجود ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : التأمل فيما رزق من الراحة بسبب العدم ، ليكون سببا للرضا به[٨٨] ، ثم ترجيح هـذا العوض[٨٩] الذى خلص له على ما فات بما كان نفعه للناس لا له ، ليكون سبيلا الى الشكر للقاسم جل جلاله .

* * *

* محنة السلامة عن الآفات المعنوية :

وأما المحبوب الآخر ففيه ضربا نفع فى حق الدين : تمييزه[٩٠] عن البهائم به ، وكمال حد الانسانية فيه ، وصيرورته أهلا للجزاء والبقاء ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع : العمل بما دل عليـه العقل حتى يعرف نفسه وخالقه ، وسبب النجاة عن الغباوة[٩١] ، والترقى الى درجة الولاية والملك ، وترك[٩٢] الدنيا بالأخرى ، وطلاق النفس (والرضا)[٩٣] بالمولى .

وفيه ضربا ضرر [دينى] ، أحدهما لا صنع لنا فيه ، وهو : صيرورته حامل أمانة الله تعالى ، مبتلى بأدائها ، مجازى على وفاق عمله . والآخر لنا فيه صنع ، وهو : الخيانة فيما ائتمن ، والفرار عن أدائها .

وفيه ضربا نفع للدنيـا ، أحدهما لا صنع لنا فيـه ، وهو : الصلاح لمـا ينال بالآراء[٩٤] من حظوظ الدنيا ، والثانى لنا فيه صنع وهو : استعمال العقل فى حظوظها ، فانها استفيدت بالحيلة[٩٥] العقلية ، لا بالقوة النفسية .

* * *

---

(٨٨) فى الأصول : للرياضة . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .
(٨٩) فى (ب) : الغرض . (٩٠) فى (أ) : تميزه عن البهائم .
(٩١) فى (م) : عن العبادة . من نسخة ثانية .
(٩٢) فى (أ) : فى ترك الدنيـا .
(٩٣) سقطت من (أ) . (٩٤) فى (ب) : ينال بالأداء .
(٩٥) فى (ب) : بالجبلة العقلية .

* محنة عدم السلامة عن الآفات المعنوية :

وأما المكروه ففيه ضربا ضرر للروح[٩٦] : خروجه عن حد الانسانية و [عدم] أهليته[٩٧] لأن يخاطبه الله تعالى بأداء عبادته ، لا صنع لنا فيه ، وحرمان ثمرة ما يتعلق بأداء الأمانة لصيرورة فعله هدرا قبل آلة العلم •

وفيه ضربا نفع [دينى] : سقوط أثقال الأمانة عنه ، وراحته عن العمل والحفظ[٩٨] والأداء ، لا صنع لنا فيه ، والآخر لنا فيه صنع ، وهو : أن يفعل ما يشاء فى المدة ، بلا اثم ولا عهدة •

وفيه ضربا نفع للدنيا : الفراغ عن غم التكسب والتحفظ ، وهذا لا صنع لنا فيه ، والآخر بصنعه : التمتع بالموجود بلا فكرة •

وفيه ضربا ضرر [دنيوى] : أن يحجر عن ماله : أن يتلفه[٩٩] بفاسد أعماله •

* * *

الحظوظ المنفصلة عن الجسم

وأما التى هى منفصلة فنصيب الأرواح مما فى العالم : الأعمال المشروعة ، دون الأعيان المخلوقة • والحياة فى حق الروح : حياة القلب بنور العقل ، لا حياة الجسم بالقدرة على الفعل ، والله تعالى سمى هذه الأعمال أمانة ، وقد عرضت[١٠٠] على الانسان فحملها ، كما خلقت [له] الدنيا بما فيها فقبلها •

وهذه المشروعات نوعان : محبوب ، ومكروه • وأصل المحبوب ما تتعلق به (بقاء)[١٠١] حياة القلب من نفسه ، من معرفة الله ، وما تتعلق به (بقاء)[١٠٢] حياة قلوب (بنى)[١٠٣] جنسه من التعليم والتبصير ، والعظة والتذكير •

---

(٩٦) فى (ب) : للدين •

(٩٧) غمضت العبارة فى (أ) اكثر من غموضها فى (ب) • فجاءت هكذا : واهل ان يخاطبه ، وهما عكس المعنى المراد •

(٩٨) فى (أ) : الحمل والحفظ •

(٩٩) فى (أ) : بأن يتلفه • خطأ •

(١٠٠) فى (أ) : فقد عرضت •

(١٠١) سقطت من (ب) •

(١٠٢) سقطت من (ب) •

(١٠٣) سقطت من (أ) •

فمعرفة الله تبقى القلوب الحيــة بنور الفطرة أحيــاء فى نصيب الأرواح ، وتزداد بفروع الايمان نورا وايقانا بعد ايقان ، وبالتعليم تحيــا قلوب موتى فى حق الأرواح والمولى .

والمكروه ما يضاد الضربين من الأفعال التى نهينا عنها ، وهى ضربان : ما يضعف هــذه الحياة من المعاصى بالفروع أو الهوى فى العقود ، وما يضادها من الجهل والكفر . قال الله تعالى : « **أو من كان ميتا فأحييناه** »[104] . أى : كافرا فأحييناه بالايمان أو كان ميتا[105] بالجهل فأحييناه بنور المعرفة .

وهــذه الأقسام لا تصير لك بالتنــاول منها كالأقســام فى حق النفوس التى هى منفصلة عنها ، وتناول القلب هــذه الأقسام بالنظر والاستدلال كالأقسام التى مضت كان تناولها بالاستعمال والابتذال . فنقول وبالله التوفيق :

*** محنة معرفة الله بالقلب :**

ان القلب اذا استدل بالحجج حتى عرف الله تعالى وما شرعه أصاب نوعى نفع للحال [دنيوى] : التقوى بالله القوى لصدره[106] ، والعزة فى الناس لعلو قدره ، وهــذا مما لا صنع له فيه ، فالجبلة عليــه . والآخر : استعماله[107] قلبه لاستنباط الحكم مما علم حتى يفقه ويكمل ، وينتشر شعاعه فيمن قرب منه أو بعد .

وفيه ضربا ضرر دنيوى[108] : الوقوع فى محافظة حدود الله ، فانها لازمة بأمر الله تعالى ، والمحافظة على التعدى طبعا بعد التزام الأول شرعا ، [لا صنع لنا فيه] . والآخر بصنعنا ، وهو : حمل النفوس الطاغية على الوقوف على الحد ، وبعث القلب على النظر بجد (حتى يميز الهوى عن الهدى)[109] .

فالدنيــا دار حجة ودار شبهة ، والنفس كيادة تشوب وتروب ، وصيادة تبدو وتغيب ، وان التعب بهذا النظر فوق النظر لأصل العلم ، ودائم الى أن يموت وتتعلق به منازعات الورى معه ممن هم منسوبون

---

(١٠٤) الانعام : ١٢٢
(١٠٥) فى (ب) : اذ كان ميتا .
(١٠٦) فى (أ) : بصدره .
(١٠٧) فى (أ) : باستعماله .
(١٠٨) فى (ب) : بدنى .
(١٠٩) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

الى الهدى ، لوقوعهم فى شىء من الهوى ، وانها أضر من منازعات (من)[١١٠] جهل بالله وكفر .

وفيه ضربا ضرر دينى [لا صنع لنا فيه] : الوقوع فى فتنة العلم ، فقد ذكرنا أنه يزداد بالعلم الباطن[١١١] قوى يصلح [بها] لكسب الأولى ، كما يصلح للأخرى ، وبتجلى الظاهر (بمعنى)[١١٢] يقبل الورى عليه راجعين فى أمورهم اليه ، وفتنة الناس والجاه فوق فتنة المال والباه[١١٣] . والآخر بصنعنا : اختيارنا للامامة بينهم ، والزعامة عليهم ، حتى نكون أربابا ، والعياذ بالله من فتنة العلم ، فهى أقوى من المال أسبابا .

وفيه ضربا نفع دينى للحال أحدها : بلا صنع : وقوع الرغبة فى طاعة الله تعالى على الاستقامة طبعا ، فقد أعلا الله منزلته بين خلقه بما أفاد له من العلوم شرعا . والآخر من صنعنا : نشره (ما علم)[١١٤] على الناس حتى يصير مولاهم واستحق عليهم طاعتهم فى أمور آخرتهم[١١٥] وأولاهم .

* * *

* المحنة فى الأتباع :

وأما الجنس الذين هم بمنزلة النساء فى الباب الأول ففيهم ضربا نفع بدنى ، اذا أقبل عليهم بالدعوة الى الله تعالى بعد الاستقامة فى نفسه لله تعالى سكنت[١١٦] النفس فى صحبة الجنس طبيعة ، والآخر [لنا فيه صنع] : معاملته اياهم عمل أب بر ، وسيد حر ، فقد أحبهم باحسان مولاهم اليه ، أطاعوه كما أنهم عبيده ، بأمر الله ، وبعثهم عليه .
وفيه ضربا ضرر [دنيوى] : الوقوع فى ميادين الأسى على (زيغ)[١١٧] من زاغ ، وميل من راغ[١١٨] ، فقد أراد استقامتهم

---

(١١٠) سقطت من (أ) .
(١١١) فى (أ) : للباطن . وفى (م) : للناظر . من نسخة ثانية .
(١١٢) سقطت من (ب) . (١١٣) فى (ب : المال والجاه .
(١١٤) سقطت من (ب) . (١١٥) فى (أ) : أخراهم .
(١١٦) فى (ب) : سكن النفس .
(١١٧) سقطت من (ب) . (١١٨) فى (ب) : من زاغ .

بحق[119] ، ودعا لاقامتهم على الصدق ، فليأس طبعا من ارتدت اليه ارادته ، وفاتته من سعيه[120] بغيته ، [لا صنع لنا فيه] ، والآخر : بخعه نفسه بعد الأسى على ضلالتهم ، وتحسره على سوء أفعالهم ، كما قال الله تعالى : « **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** »[121] .

وفيه ضربا ضرر دينى ، احدهما [لا صنع لنا فيه] : ازدياد حمل الأمانة ، فقد كان عليــه حمل نفسه ، وصار عليــه بحكم الله تعالى حمل جنسه ، والآخر بصنعه من أدنى مداهنة لامكان العشرة ، كما يكون من نفسه لاقامة المعيشة ، كما قال تعالى : « **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا** »[122] .

وفيه ضربا نفع دينى ، أحدهما : اشتغال يصرف القلب[123] عن النظر فيما لا يعنيه ، بالنظر فيما يعنيه من أحوال جنسه عن محبة فيه ، فالنفس عند الخلوة فى الأغلب تورث الوساوس الردية ، وتوقعه فى كل بليــة ، وكذلك قال النبى صلى الله عليــه وسلم : « الواحد شيطان ، والاثنان شيطانان ، والثلاثة ركب » . والله تعالى حرم الرهبانية فى الاسلام ، وهــذا نفع طبيعى ، والآخر بعلمنا ، وهو : النصيحة على حقيقة ، حتى يثبتوا على طريقة ، فيصيروا له أتباعا ، خادمين أشياعا ، الى كفاية بأعمالهم ، ثم ابقاء الذكر ، واحراز الأجر بمن اقتدى بأفعالهم على ما قال النبى صلى الله عليــه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » .

* * *

* محنة الجهل بالله تعالى :

وأما المكروه وهو الجهل بالله ففيه ضربا ضرر بدنى : استكانته طبعا اذ وجد نفسه محتاجة الى ما فى أيدى الورى ، متمنية اصابة ما تهوى ، عاجزة عن تنفيذ المراد الا بالرجوع الى العباد ، [لا صنع لنا فيــه] ، والآخر بصنعه : شكواه الى من يبغضه بطمعه ، أو يشمت به فى دفعه .

---

(119) فى (ب) : استقامتهم لحق .

(120) فى (ب) : وفاته .

(121) الشعراء : 3

(122) الاسراء : 74

(123) فى (أ) : بصر القلب .

وفيه ضربا نفع بدنى للحال : اصابة الحرية عن رق العبودية ، وليس من عمله ، والآخر عمله بما يهوى فى نعمة الدنيا وصحبة الورى [وهو من عمله] ، وفيه ضربا نفع شرعى للدنيا : البراءة عن ضمان ما أتلف من المـــال ، أو قتل من الرجال ما دام حربا [لا صنع له فيه] ، والآخر بصنعه : المعاهدة مع أهل القوة بالاسلام ، ليصير منهم فى حق أحكام (أهل)[124] الدنيـــا بشرع المولى[125] ، على أن يترك وما يهوى مما ليس للمسلمين فيه أذى .

وفيه ضربا ضرر شرعى : هدر نفسه ، وصيرورته عرضة للتملك ، فى جهله بحكم الله بحبسه لا صنع له فيه ، والآخر بصنعه ، من ايذاء المسلمين وتكذيبهم الرسل ، والخصومة عن دينه ، والنصرة لقومه .

* * *

*** محنة ترك الدعوة الى الله :**

وأما النوع الآخر وهو ترك الدعوة الى الله تعالى مع الامكان ، وتقرير الناس بالترك على معاصيهم ، بايثار العزلة عنهم ففيه ضربا ضرر بدنى : الوحشة فى الخلوة عن الجنس ، فانها من نتائج طبع النفس ، والآخر بصنعه : قلقه فى الوحشة حتى يصير الى الدهشة . وفيه ضربا نفع بدنى : الراحة عن احتمال متباين الأخلاق لا صنع لنا فيه ، والآخر بصنعنا[126] ، وهو : اسكان قلق الوحشة بعوض الراحة .

وفيه ضربا ضرر دينى ، أحدهما : الوقوع فى وساوس النفس[127] على ما مر ذكره ، وانه أمر طبيعى ، والآخر بصنعه : استحسانه لحاله عجبا بخلوته[128] ، وعيبه الناس[129] على العشرة حتى يصير ممقوتا .

وفيه ضربا نفع دينى ، خفة أمر الجهاد ، فقد بقى مع نفس واحدة ، والنجاة عن فتنة النفس[130] لا صنع لنا فيه ، والآخر بصنعه : صحبة الله تعالى بالعبادة والذكر مكان صحبة الداعى بالتعليم والنشر .

* * *

---

(١٢٤) سقطت من (ب) .
(١٢٥) فى (ب) : شرع المولى .
(١٢٦) فى (أ) : بصنعه .
(١٢٧) فى (أ) : وسواس النفس .
(١٢٨) فى (ب) : استحسان لحاله عجبا لخلوته .
(١٢٩) فى (ب) : وغيبة الناس .
(١٣٠) فى (أ) : فتنة الناس .

* محنة العمل بما فيه حياة القلب :

وأما أقسام ثمرات المباشرات[١٣١] عملا بما علم فعلى نحو أقسام المباشرة من الأول تناولا لمـــا ملك .

أما النوع الذى فيه حياة القلب[١٣٢] فاذا عمل به حتى استقام لربه أصابت الروح نوعى نفع : تفكه الروح[١٣٣] بمنيته مكان تفكه الناس بتناول المـــال بشهوته ، وصيرورة العالم مرآة لقلبه مزية أينما التفت وجه ربه[١٣٤] . وهـــذا كرامة من الله تعالى بغير صنعه ، فصار العالم له قلبا ان ازداد الجسم بتناول الغذاء طولا وعرضا .

وفيه ضربا ضرر ، أحدهما بطبع ، وهو : تولد خبث العجب بقرب المنزلة ، كخبث النجاسة من الأغذية (والآخر ضرر بصنع)[١٣٥] ، وهو : الجهاد لاخراج العجب بالدخول تحت ايوان المنة .

وفيه ضربا نفع للبدن ، قيام الله تعالى بايتائه رزقه من حيث لا يحتسب ، ولم يتعن له ولم يكتسب ، والآخر بصنعه وهو : أكله كيف يشاء رغدا ما عاش أبدا .

وفيه ضربا ضرر للبدن : عزوفه عن الغذاء ، والعشاء بسكرته[١٣٦] فى اللقاء ، (لا صنع له فيه)[١٣٧] ، والآخر بصنعه[١٣٨] ، وهو : التصبر على محبته لمـــا هو فيه .

* * *

* محنة مباشرة المكروهات :

وأما أقسام تبعات مباشرة المكروه من هـــذا الباب فعلى ضروب أقسام الأدوية مكان الطعام والشراب ، فتبعات مباشرة المكروه عقوبات عجلت فى الدنيا للزجر كالأدوية المرة فيما مر ، فنقول وبالله التوفيق :

---

(١٣١) فى (أ) : ثمرات المباشرة .
(١٣٢) فى (أ) : حياة قلبه . (١٣٣) فى (ب) : نقلة الروح .
(١٣٤) فى (أ) : وجه ربه .
(١٣٥) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٣٦) فى (أ) : بسكوته .
(١٣٧) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٣٨) فى (أ) : بصنع .

للبدن ضربا ضرر فيما يستوفى من التبعات • أحدهما : الألم بلا صنع منه ، بضرب الامام جبرا ، والآخر بصنعه : السخط على حكم الله ليزداد به آله جهلا[١٣٩] •

وله ضربا نفع : السلامـــة على مثله بالانزجار عن ســـببه طبعا بضعفه[١٤٠] ، والتنبه للتأمل ليقف عن قبح فعله ، فلا يعود الى أصله •

وفيه ضربا نفع للروح : أحدهما بلا صنعه ، وهو : النجاة عن هوى النفس بخمود ناره بما لحقه من الألم وضراره ، والآخر بصنعه وهو : الظفر عليه وقد خمدت ناره ، وسكنت أشراره •

وفيه ضربا ضرر للروح : نفرة القلب طبعا عمن أذاقه الضرب شرعا ، كنفرته فى الباب الأول عن الطبيب الذى سقاه الدواء ، وان عرف فيه الشفاء ، لا صنع له فيه ، والآخر بصنع لنا[١٤١] وهو : خروج النفس مكابرا اذا وجد القلب نافرا حتى يرده عن الله مجاهدا •

❋ ❋ ❋

❋ محنة مباشرة العشرة والدعوة :

وأما أقسام الناس من المحبوب الآخر بالعشرة والدعوة ففيـــه ضربا نفع للروح : اصابة الجاه فى الورى ، والآخر بلا صنع منه : هداية القلوب بعلمه حتى صاروا أحياء كقلبه •

وفيه ضربا ضرر حالى : ضعف قوة الخلوة بالمولى ، وسخن العين بعشرة الورى طبعا ، ثم الجهاد فيه بأمر الله طاعة له طوعا ، وحمالة مؤنتهم كرها •

وفيه ضربا نفع للروح : بقاء حياة القلوب بالتعلم خلفا بعد سلف الى يوم القيامة ، ولذلك علق الله التعليم بضرب شهوة فى النفوس ، ليكون داعيـــا الى الله ، وباعثة عليـــه ، كشهوة الجماع فيما مضى من الفصل الذى هو لهذا مثل التعليم بصنعنا ، وحياة القلوب بصنع الله ما لنا فيه صنع كحياة النطفة فى الأرحام ، لقول الله تعالى : **« انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشـــاء »**[١٤٢] • والآخر بصنعنا : وهو

---

(١٣٩) لانه اذا سخط ولم يرض كان عليه نوعان من الألم : المكروه ، والم عدم الرضا .

(١٤٠) فى (أ) : لضعفه .

(١٤١) فى (أ) : بصنع منا .

(١٤٢) القصص : ٥٦

شكر الله تعالى على ما يرى [من] نفسه سببا لحياة القلوب بالدين والمعرفة •

وفيه ضربا ضرر للروح ، ثبوت العداوة بينه وبين مخالفيه دينا ، فانها تتبعث[١٤٣] طبعا ، والآخر لنا فيه صنع من الجهاد •

* * *

*** محنة العلماء المنافقين :**

وما أقسام مباشرة ضد ما قلناه : فدعاة الخلق الى الله تعالى من العلماء الذين هم علماء اسما لا فقها وعلما ، أو علماء حقيقة لا عقيدة وطريقة ، لا العالم اسما لا معرفة وعلما لا تكاد تقع دعوته الا على سبيل الاضلال ، لأنه ما عرف الحق ، وما بعد الحق الا الضلال ، والذى يعلم ولا يعتقد العمل به ، بل هو على العمل بهواه وان علم أنه خلاف هداه ، فهو شر من الجاهل ، لأنه يضل قصدا أو عمدا[١٤٤] ، والجاهل يضل غفلة وسهوا •

وكان ابليس حيث عرف أن الله تعالى هو الحق ، ولكن اعتقد العمل بهواه ، وكذلك فرعون على ما أخبر الله عنه وحكى •

فهؤلاء قوم قد جعلوا العلم ذكر الله آلة لدعوة الناس الى أنفسهم ، ليتخذوهم أربابا ، كما قال الله تعالى : **« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »**[١٤٥] •

وقال : **« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله »**[١٤٦] •

فهؤلاء ما فسدت الأديان ، ولا تبدلت السنن الا بهم ، وانهم من الشياطين الظاهرين والعياذ بالله ، فيموت القلب بالعلماء اسما ، وينير[١٤٧] بالعلماء الآخرين •

وفيه ضربا ضرر : الجهاد بالحيل لصيد الناس ، وضرر موت القلب بذهاب نور العلم بظلم الوسواس •

---

(١٤٣) فى (ب) : تبعث طبعا •

(١٤٤) العمد ابلغ من القصد ، لأن العلم بالمقصود داخل فى العمد دون القصد •

(١٤٥) التوبة : ٣١

(١٤٦) آل عمران : ٧٩

(١٤٧) فى (ب) : ويلين •

وفيه ضربا نفع للنفس : أن يكون ربا عاليا موقرا بين العامة الذين ظنوه عالمـــا بلا صنع منه ، والآخر بصنعه : يأمرهم وينهاهم ويستعبدهم كأنه ربهم .

وفيه ضربا نفع للروح : عرفان عجزها عن الهداية الا بربه ، وانه نفع له بغلبة النفس عليـــه بلا صنع منه . والآخر له فيه صنع : الالتجاء الى الله تعالى مستغنيا ، فذلك سبب اصابة الظفر .

وفيه ضربا ضرر : ضرر اليأس(١٤٨) والقنوط فى حاله فانه طبيعى ، وضرر العقيدة على ما أشار اليه طبعه ونفسه فيكون كفرا ، وكان لو رد ما أشار اليه الطبع وقع ما وقع بهمة النفس عفوا .

هذا ليعلم العبد أن الأحوال التى تختلف عليـــه جبرا فى الخير والشر سواء ، فيرضى(١٤٩) بها كيفما دارت ، فلا يضيق قلبا بالسخط ، ولا يخسر عاقبة بالقلق والأعمال(١٥٠) فى النفع والضر سواء للحال ، فلا يخاف ربه بلا فائدة ولا يحرم نفسه خير الطاعة بلا عائدة وما التوفيق الا بالله .

*** * ***

فصـــل فى الحيـــلة

أما بعد ، فقد علمت أيها الأخ أنك عبد فقير مأمور مسجون ، وأن حظوظك من الدنيا كلها مشوب(١٥١) خيرها (بشرها)(١٥٢) ، ومدفوع نفعها بضرها ، وأنك قد علت (بك)(١٥٣) همتك فسعيت للأمد الأقصى من الحرية والامارة والملك والغنى ، لتخرج عن نقصان الحال الى ذروة الكمال ، وتصفى حظوظك من الشوب ، ولم تنل(١٥٤) الا بعد زوالَ الدنيـــا ، وعملْ على الطاعة للمولى(١٥٥) .

---

(١٤٨) فى (ب) : ضرر الناس .
(١٤٩) فى (ب) : فيرجو .
(١٥٠) فى (ب) : بالقلق لأعمال .
(١٥١) الكلمة مضطربة فى (ب) .
(١٥٢) سقطت من (ب) .
(١٥٣) سقطت من (ب) .
(١٥٤) فى (ب) : ولا تنالْ .
(١٥٥) فى (ب) : وعملَ عملَ الطاعة على المولى .

فأقبلت على العمل ، واستهنت بالزائل الى أجل ، فأبشر بالأمد الأقصى ، فقد استمسكت بالعروة الوثقى .

واحتل لستر[١٥٦] ما هو للحال بتسمية الشرع اصر وأحمال ، فما الحيلة بفسحة اذا لم تكن غدرا[١٥٧] ، ولا لستر[١٥٨] بدميم اذا لم يكن كفرا .

فاحتل لستر العبودية بحسن الرضا بالقسمة ، فلا يظهر معه أثر القهر ، وتنقلب الى رحمة[١٥٩] .

واحتل لستر الفقر بضمان (كفايتك)[١٦٠] مولاك البر كفايتك ، فذلك أجدى وأكفى مما يعده الجاهل من الغنى .

واحتل لما عليك من الأمر بالمسارعة اليه قبل حينه ، فتكون ساعيا عن مشيئته[١٦١] ، والنظر الى ما فيه من الكرامات فتكون واصلا الى كل أمنية .

واحتل لستر الحبس[١٦٢] بما فى الفكاك عنه من الأنس .

واحتل لستر ما فى الحظوظ من الضر بترجيح جانب النفع ، فالترجيح يعمل عمل التفرد[١٦٣] فى الدفع .

واعلم أيها الأخ أن العالم كله خلق للمخاطبين ، وهم : الانس والجن والملائكة والشياطين ، والانس من بينهم أضعفهم حياة[١٦٤] ، وأظلمهم طينة ، وقد أمروا بالسجود لآدم لفضله ، فازداد الملائكة قربا من الله تعالى بحسن الانقياد للأمر ، ولعن الشياطين بما أظهروا من الكبر ، وأما الجن فهم أمة لرسل الانس ، وما أظهر الله (تعالى)[١٦٥] فضل آدم الا لعلمه[١٦٦] ، والعلم كسبى بنظر القلب فى نور العقل ،

---

(١٥٦) فى (ب) : واحتمل بستر .
(١٥٧) فى (ب) : اذا لم يكن عذر .
(١٥٨) فى (ب) : ولا السير .
(١٥٩) الرخمة : الحجاب .
(١٦٠) سقطت من (أ) .
(١٦١) فى (ب) : عن مشيئة .
(١٦٢) المراد بالحبس : الدنيا .
(١٦٣) فى (ب) : والترجيح لعمل التفرد .
(١٦٤) فى (م) : جبلة . من نسخة ثانية .
(١٦٥) سقطت من (أ) .
(١٦٦) فى (أ) : بعلمه .

والنفس (بظلماتها)[١٦٧] حجاب ما يقدر العبد على رفعه[١٦٨] الا بحيلة .

فالنفس بهواها غلابة جبلة ، فكانت الحيلة رأس مال الآدمى للظفر على أطوار البشر ، بها تقهر[١٦٩] المتعبدين[١٧٠] من الأقوياء ، وتفضل المقربين من الأولياء ، وبها يروض نفسه ، (ويسود جنسه)[١٧١] ، ويتيسر عليه أمره ، ويشرح بالنور صدره ، ويملك للحق قلبه ، ويرضى بالصدق ربه .

ولن يملك العبد عنان الحيلة الا بجهاد النفس على خلاف عادة عامة الجنس ، وبذلك العناء والغناء[١٧٢] فضل سائر العالمين فى الجزاء ، فمنهم من لم يستغنمها فعملت[١٧٣] بهواها ، ومنهم من استغنى[١٧٤] عنها بصفاء جواهرها وقواها .

فالجزاء على العمل فى الحكمة بقدر العناء له ، والفناء فيه ، ولهذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس[١٧٥] بلاء ، كما كانوا أعظمهم (أجرا و)[١٧٦] جزاء .

فهذا بيان أن الحيلة للآدمى (هى)[١٧٧] رأس المال ، للترقى الى ذروة الكمال ، غير أن النفس الأمارة بالسوء تشارك الروح الأمارة بالخير فى الاستعمال ، وتخلط الخير بالشر ، خلط الخمر بالماء الزلال .

فاياك أن تغفل عن خلطها ، فالتمييز بعد الخلط عسر ، والحفظ أيسر منه بكثير ، وكما يفضل الآدمى الملائكة بغلبة روحه نفسه بحيل عقلية وشرعية ، تفضله البهائم بغلبة نفسه روحه بحيل عقلية وبدعية ، ولست بقادر على ما دعوناك[١٧٨] اليه الا بربك الكريم ، فدواعى النفس ظاهرة ، ودواعى الروح باطنة .

---

(١٦٧) سقطت من (أ) .
(١٦٨) فى (ب) : دفعه . وكذا فى (م) من نسخة ثانية .
(١٦٩) فى (ب) : بما تقهر . (١٧٠) فى (ب) : المعتدين .
(١٧١) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٧٢) الغناء : الكفاية .
(١٧٣) فى (أ) : ومنهم من لم يستعملها وعملت .
(١٧٤) فى (أ) : استغنت . وفى (ب) : استغنيت . والسياق يقتضى ما أثبتناه . (١٧٥) فى (أ) : أعظم الناس .
(١٧٦) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(١٧٧) سقطت من (أ) . (١٧٨) فى (ب) : دعوتك .

فعليك بجهادها بدا ، عارفا بعجزك ، متأيدا بربك ، مجاهدا بأمره ، موقنا[179] بنصره ، فقد ضمنه الله تعالى لمن أخلص له بسره ، واطمأن اليه بصدره ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

يقول الله تعالى : **« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين »**[180] .

ويقــول : **« انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيــا ويوم يقوم الأشهاد »**[181] .

ويقــول : **« ومن يتوكل على الله فهو حسـبه ، أن الله بالــغ أمــره »**[182] .



---

(179) فى (ب) : موفقا .

(180) العنكبوت : ٦٩

(181) غافر : ٥١

(182) الطلاق : ٣

كتـاب الدعـوة والرؤيـة والبشـارة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أكرم عباده بالطينة الطيبة الصافية ، والصورة السوية الوافية ، وخصهم بالدعوة اليه بحجج داخلة فيهم خفية ، وحجج خارجة دونهم جلية ، وهداهم اليه برؤية الملكوت قلبا ، وأقر قلوبهم برؤية الملك[1] سرا .

والصلاة (والسلام)[2] على الرسول المكرم بمنزلة المشاهدة ، بعد منزلة المجاهدة ، بنور كان الماضون به عروقا له أشياعا[3] ، والباقون فروعا ، فأصبح[4] به قلبا تطيعه الرجل ، ولا تخالفه الرأس ، وعلى قرابته[5] سببا ، وعترته نسبا .

قال العبد وما توفيقه الا بالله : انى ذكرت لك أيها الأخ من حديث النفس والروح وكيفية الجهاد الذى امتحنا به فى الدنيا للوصول الى الأمد الأقصى ما كان مدخلا لهذا الباب الذى انتهى اليه فصل الخطاب ، فالقلوب صادفناها وحشية عن الأرواح ، تألف النفوس ، ما يمكننا صيدها للأرواح الا بسحر ، ولا تسحر عيونها الا بتقريب ولطف ، متبركين بدعوة خالق الخليقة ، فقد نقلهم عن منزل الى منزل (الى)[6] الحقيقة .

قال : لقد علمت القصد من الطريقة ، وأقلقتنى بما قلت ، وقد كنت على أنك ذكرت لى كل دقيقة .

---

(١) الملكوت هو : العالم الباطن غير المدرك بالحواس ، والملك : العالم الظاهر .

(٢) سقطت من (أ) .

(٣) المراد بالماضين الأنبياء السابقين . عروقا له ، أى : أصولا . وأشياعا : أى مأمورون بمؤازرته ونصرة دينه طاعة لأمر الله فى قوله : « **واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم** » الآية (الأحزاب : ٧) .

(٤) فى (أ) : فأضحى .

(٥) القرابة هنا : الورثة من العلماء العاملين بسنته .

(٦) سقطت من (ب) .

قلت ولله المنة : ان الله تعالى خلق الدار دارين : الدنيـا دار شبهة وحجة ، وفناء وعمل على سبيل الابتلاء عن تدبر واختيار بلا مشيئة البشر ، بل بأمر الله الأكبر ، مقدر بقدر ، وحكم ماض عليهم فى أصل القسمة ، واجب فى الحكمة • والآخرة دار يقين وخلود ، وجزاء على وفاق عمل العبيد ، للمتقين على ما يشاءون ويشتهون ، وللكافرين على ما يشاء الله تعالى مما يكرهون •

فالداران خلقتا لأصناف أربعة[٧] : الملائكة ، والشياطين ، والجن ، والانس • والانس والله أعلم هم المفضلون اذا أقاموا (الحقوق)[٨] واستقاموا على الطريق[٩] على ما قلنا من قبل ، وجرى عليـه الكلام[١٠] فصلا بعد فصل ، فصار اذن خلق العالم كله للانسان ، والانسان خلق وعليـه معرفة الرحمن بلا شك عن تصديق وايمان وايقان ، عن نظر واستدلال بالآيات لا عن جبر ، حق عليه ذلك شاء (العبد)[١١] أم أبى ، بحكم الله (تعالى)[١٢] الأعلى ، ثم اسلام لأمره بلا تمنع[١٣] ، واخلاص له بعمله بلا تصنع ، ثم دعوة خلقه اليه للعبادة بلا كسل ، ولا فشل ولا هوادة •

وذلك لأن الصنع بلا عاقبة حميدة عبث ، وعلى فناء بعد ما حمدت عاقبته عجز أو سفه ، وتعالى مبدع هـذا العالم عن العبث والعجز والسفه ، وما للصنع فى الشاهد عاقبة حميدة عقلا الا قوام مصلحة الصانع به[١٤] فى حاله[١٥] ، أو ظهوره بذلك الصنع ليعرف بجلاله ، وتعالى الله عن الأولى ، فتيقنت الأخرى •

ولن تقع المعرفة الا اذا تفكر بقلبه ، واستدل بخطبه[١٦] ، ولن تتم المعرفة الا اذا أيقن ، ولن تثمر الا اذا أسلم ، ولن تطيب الا اذا أخلص ،

---

(٧) فى (ب) : للأصناف الاربعة .
(٨) سقطت من (ب) .
(٩) فى (ب) : الطريقة .
(١٠) فى (أ) : وجرى الكلام فيه .
(١١) سقطت من (ب) .
(١٢) سقطت من (أ) .
(١٣) فى (أ) : بلا تمتع .
(١٤) فى (م) : له . من نسخة ثانية .
(١٥) فى (ب) : فى مجاله .
(١٦) فى (ب) : لخطبه .

ولن تعم الا اذا دعا ، وما لغير الانسان من تخصه آلة معرفة الغائب عن الحواس[١٧] ، فعلم أن هــذه المعرفة مطلوبة من الناس ، وغيرهم خلق[١٨] لهم كرامة ، لئلا يكون الخلق بلا حكمة عبثا وسفاهة .

ثم هذه المعرفة وجدناها حاصلة لبعضهم دون بعض ولن تثبت ، والله لا ينال بالحواس ، الا بنظر عقلى فيما هو حجة ، ولن تفوت وهم عقلاء[١٩] الا بشــبهة ، ولن يتنوع الفعلان والأمر واحد الا بعدم الجبر[٢٠] .

ومن تأمل فى نفسه وجد لها دعوة الى موافقة الهوى ، ومخالفة الهدى ، فيعلم أنه مبتلى ، ولمــا أيقن الانسان بفنائه ــ والدار مخلوقة له ــ عــلم أنها على سبيله ، ولمــا تغيرت الأحوال وفاتت الأغراض بغير رضاه[٢١] أيقن بقدر ماض بدليله ، ولمــا علم أنه مخلوق للمعرفة وقد فاتت عن البعض بشبهة ، وساوى العارف فى النعمة ــ وهو قبيح فى الحكمة ــ أيقن بدار أخرى ذات حجج ظاهرة ، فنفى الشبهة[٢٢] ، و [بث الله] آيات قاهرة تبطل التعنت والمتعة ، ليكونوا كلهم عارفين اياه ، كما خلقهم لها الله .

وهى جزاء أعمالهم على الوفاق على ما توجبه الحكمة ، وتدل عليــه الحجة ، وباقية على ما تقتضيه القدرة ، نعمة للمتقين (فتكون مما يشتهون ، ونقمة من الله للكافرين فتكون مما يكرهون ، فلا صبر للمتقين)[٢٣] عن تعظيم الله تقديسا وتمجيدا وثناء ، ولا بالكافرين عن تعظيم الله تضرعا واستكانة ودعاء ، فهما جهتا التعظيم ما لهما ثالثة .

فتمت البغية المطلوبة ، والعاقبة المحمودة ، بما حكم الله ، فما كان

---

(١٧) فى (أ) : وما لغير الانسان ممن تحسه آلة معرفة الغائب عن الحواس . وفى (ب) : وما لغير الانسان ممن تخص به آلة معرفة الغائب عن الحواس . وما اثبتناه أوضح وأصح .

(١٨) فى الأصول : خلقوا لهم .

(١٩) فى (ب) : وهم عقل .

(٢٠) اى : الأمر بالمعرفة ، وحصولها بالنظر العقلى فيما هو حجة ، وفواتها بالشبهة . فصار الفعلان اثنين ، والأمر واحد . وفيه دلالة على عدم الجبر .

(٢١) فى (ب) : أنفق .

(٢٢) فى (أ) : تنفى الشبهة .

(٢٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

يوجد من التعظيم بالاكرام الا باب[٢٤] ، وما كان يحسن على الابتداء بالحمل[٢٥] على التعظيم بالعقاب ، وما كان تنـوع[٢٦] الاعمال لولا الابتلاء بالهوى والهدى ، ولمـا صح الجزاء لولا ابزام الأمر بلا كره فى الأداء ، ولا جبر من المولى •

قال الأخ[٢٧] : فكم الشبهات بين سر القلب والمعرفة ؟

قلت : أربع : قدرة أوتيت النفس فعلا ، وولاية ثبتت على الدنيا يدا وملكا ، وزينة ونعمة أصيبت[٢٨] بالمـال عينا وحسا ، وعزة وقدرة بالرجال تناصرا وبأسا •

فادعى بالقدرة لنفسه الألوهية ، وبالملك الامرة ، فاتخذ الدنيـا بالمـال الجنة ، والرجال بالغلبة العبيد والجنة ، فعمل بما يهوى ، كأنه الملك الأعلى •

فقال : وكيف المخلص ؟

قلت : أما عن القدرة فبالنظر الى عجزه عن دفع هلكه ، وأما عن الولاية فبتغير الأحوال المرضية عليـه وان جد فى العناية ، وأما عن التنعم والزينة ففضيحة ما يؤول اليه من البول والغائط وكشف العورة ، وأما عن العزة والقدرة بالرجال ، فلما يلزم[٢٩] قلبه من الهموم والأوجال بحفظ الولاية[٣٠] ومجىء خبر الانعزال[٣١] ، ليعلم أنه ازداد حاجة برجاله ، وفضيحة بماله ، وأنه محكوم عليـه فى ولايته ، هالك فى قدرته ، تبارك الله من رب أزلى دبر ليظهر بجبروته لعبيده ، باراءة آثار صنعه •

فحكم بالوجود على العدم لفضل الوجود عليـه ، فكان الموجود شيئا رتقا ، ثم فتق بين السماء والأرض ، فرفع السماء وزينها ، ونورها وسخرها ، لاقامة مصالح الأرض ومنافعها لفضل الأرض عليها •

ثم سل[٣٢] من الأرض قبضة آدم فصورها على أحسن تقويم ، ثم جعل الأرض بما فيها له اظهارا لفضله العظيم ، وبين أن فضله

---

(٢٤) فى (ب) : بالآيات •
(٢٥) فى (ب) : بالحمد •
(٢٦) فى (ب) : بتنوع •
(٢٧) فى (أ) : فقال الأخ •
(٢٨) فى الأصول : اصابت •
(٢٩) فى (أ) : فيما يلزم •
(٣٠) فى (ب) : لحفظ الولاية •
(٣١) فى (أ) : حين الانعزال •
(٣٢) فى (م) : ثم مثل • من نسخة ثانية •

لمضغة فيه سلها من القبضة وهو القلب ، فقد أهله بمعرفة الرب[٣٣] ، وانه هو الأمير على جسمه وعلى كل العالم تصويرا بعد تصوير .

فانتهى تدبير الصنع برابع الدرجات الى القلب ، ثم تجلى جل جلاله بجبروته لسر القلب بآياته ، وهى : العاقبة الحميدة المطلوبة من مخلوقاته .

السر فى وسط القلب ، والقلب فى وسط الفؤاد ، والفؤاد فى وسط الصدر ، والصدر فى وسط الجسم ، والأرض مهاده ، والسماء بناؤه ، والآخرة جزاؤه ، والله ربه ، منه خوفه ، وفيه رجاؤه .

فالسر سويداء القلب كالناظر للعين ، خلقه[٣٤] أسود بذاته فى حصون أربعة كلها مظلمة بذواتها ، ثم ظهر[٣٥] له بآياته ، ولا ظهور الا بالنور ، ليدلنا بالظهور للأسرار على أنها هى العزيزة المرادة من بين الأنوار ، قد فجر الله نورها وهى سوداء بين الظلمات ، ليكون الضد من الضد من الآيات ، وليكون الانتهاء على وفق الابتداء .

ففجر النور من الظلم ، كما خلق الوجود عن العدم ، وكما فجر نور العين الظاهرة من سويدائها الناظرة ، سل الله[٣٦] الوجود من العدم ، والأرض من السماء ، والقبضة عن الأرض ، والقلب عن القبضة ، فظهر له بآياته ظهورا ، وجعله بسبب المعرفة[٣٧] أميرا ، فصارت السماء والأرض للقبضة ، والقبضة للصدر ، والصدر للقلب ، ووضع أمانته عليه[٣٨] ، وسلم الولاية اليه ، وهو أخفى عضو ، وأضعف خلق .

حتى اذا نظر القلب الى نفسه[٣٩] ، ووقف على صنعه ، ثم وجد العالم تحت أمره ، (عرف[٤٠] أنه لم يملكه بذاته ، فطلب من ملكه بآياته ، مصغيا الى أمره)[٤١] مثنيا عليه بشكره ، ثم نظر الى سائر المخلوقات من الأرض والسماء ، فوجد نفسه مخصوصا بقدرة أصابها

---

(٣٣) فى (ب) : لمعرفة الرب .
(٣٤) فى الاصول : خلقها .
(٣٥) فى الأصول : ظهر لها .
(٣٦) فى الأصول : فسل الله .
(٣٧) فى (ب) : لسبب المعرفة .
(٣٨) المراد بالأمانة : الايمان .
(٣٩) فى (ب) : على نفسه .
(٤٠) فى (م) : علم . من نسخة أخرى .
(٤١) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

بالحياة حتى فعل مختارا ، وبقدرة أصابها بالعقل حتى سخر سائر الحيوانات جهارا ، فجعل القدرة الحياتية لاقامة الأمر ، والقدرة العقلية لاقامة الشكر ، وعلم بما وجد فى نفسه من أصل القدرة (والتدبير)[٤٢] والامرة[٤٣] وفقد فى غيره : أن غيره خلق له جبرا وقهرا ، وأنه خلق لعبادة الله ابتلاء وأمرا .

فعلمت أيها الأخ : أنك خلقت لمعرفة الله تعالى وعبادته بالأمر لا بالقهر والجبر[٤٤] ، ودعيت اليها لوقتها بخطاب فصل ، وأنت عاجز عما خلقت له قبل العقل ، وولدت على جهل ، ثم قدر القلب على النظر فى المستور ، اذا انفجر العقل بالنور ، وأنت على شبهة حال نظره وحرج صدر ، ثم تقف على الآيات ، وتعرف الرب بلا شك فى الأمر .

لكنك فى باطنك على اضطراب بوساوس من نفسك ، وخوف من الزوال ، حتى يصير الاستدلال عيانا عند البأس[٤٥] ، وبحياة الآخرة لأصحاب الآيات الباهرة ، كما قال ابراهيم عليه السلام : **« رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »**[٤٦] .

فتمت حالة معرفة العبد[٤٧] من ابتداء الدعوة برابع درجاته[٤٨] ، وقد علمت أنك خلقت وعليك حقوق الله وأمانته ، وابتليت بأدائها لأنك خلقت على حياة وقدرة وعقل وامرة .

ثم انك تجد نفسك على فقد قدرة العقل قبل الحياة ، وفقد قدرة الرأي والامرة قبل العقل ، وفقد قدرة الصواب قبل العلم ، ثم تحت الأمر والنهى بعد العلم ، وتحت الحكم بعد الائتمار ، وللانتهاء[٤٩] بتغير الأحوال وحلول الفناء ما يتم لك ما أوتيت من القدرة الا بعد

---

(٤٢) سقطت من (ب) . (٤٣) فى (ب) : والأمر .

(٤٤) الفرق بين الأمر وبين القهر والجبر : أن الأمر يكون للعبد فيا كسب وميل واختيار فى الفعل او الترك ، بخلاف الجبر والقهر ، ولو كان جبرا لكان الكل عابدين .

(٤٥) فى (ب) : الناس . (٤٦) البقرة : ٢٦٠ .

(٤٧) فى (م) : حال معرفة العبد . من نسخة ثانية .

(٤٨) يحتمل أن يكون ابتداء الدعوة فى قوله : وقد دعيت اليها ، والثانى قوله : ثم قدر ، والثالث : ثم تقف . والرابع : حتى يصير الاستدلال عيانا .

(٤٩) فى (أ) : والانتهاء .

الموت والبعث للجنة ، كما لم تتم المعرفة بلا اضطراب وأمن من الفوات ألا بالحياة بعد الممات •

فسبحانه من محسن بالتكوين ، ومحسن بالتفضيل ، ومحسن بقدرة الحياة والعقول ، ومحسن بالارسال والتنزيل ، ثم مفضل على من عرفه باتقريب اليه باقامة أمره ونهيه ، ثم مكرم بايتاء الملك الابدى على سعيه ، ومتفضل[٥٠] على من جحده بالامهال فى نعمه[٥١] الى آخر عمره ، ثم عادل بالانتقام منه بالنار اذ لا يزال على كفره •

فقال الأخ : كيف استحق العبد الجزاء على الله ، والله تعالى خالقه حقا ، ومالكه رقا ، وانا لا نوجب للعبد المملوك على مالكه اذا عمل له أجرا ؟

قلنا[٥٢] : ان الجزاء للعبد على الله تسمية وشرعا ، وهو فى الحقيقة صفته قد أوجبتها حكمته • فالديان صفة من صفات الله تعالى كالرحمن ، وذلك أنه غير جائز أن يوصف الله تعالى بعبث ، كما لا يجوز أن يوصف بسفه ، والبناء لعاقبة الفناء من عمل الصبيان عبث ، والتسوية بين المحسن والمسىء جزاءا من عمل المجانين سفه ، والله تعالى عليم بما أمضى من تدبيره ، حكيم فيما أمضى من تقديره ، فسوى بين المؤمن والكافر فى دار الابتلاء بالقدرة والنعمة ، وفرق فى دار الجزاء على بقاء حتى صار الصنع حكمة •

ثم أخبر بذلك فى كتابه فقال : **« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون »** • أى : أفحسبتم أنا عبثا نخلقكم ، تحيون وتموتون ولا ترجعون الينا للبقاء ؟ **« فتعالى الله الملك الحق »**[٥٣] • أى : تعالى عن العبث وخلق الخلق لعاقبة الفناء عبث •

وقال : **« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين • ما خلقناهما الا بالحق »** • الى قوله : **« ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين »**[٥٤] •

---

(٥٠) فى (أ) : ومفضل •
(٥١) فى (أ) : فى نعمته •
(٥٢) فى (أ) : قلت •
(٥٣) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦
(٥٤) الدخان : ٣٨ ــ ٤٠

ثم قال : **« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون »**[٥٥] .

أخبر أن التسوية فى الجزاء حكم سىء ، وهو السفه الذى قلناه ، والله (تعالى)[٥٦] خلق العالم بالحق لا بالسفه ، وذلك الحق فى المجازاة على وفاق الأعمال بين عدل وفضل ، بلا ظلم أو جهل ، وهو كقول الله تعالى : **« ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم ان علينا بيانه »**[٥٧] ، لأنه لما أمرنا بالعمل (به)[٥٨] ولا نصل اليه الا بعد الجمع والبيان ، وتكليف ما لا يقدر عليه من غير جبر المأمور سفه ، فصار فعل ما تثبت معه القدرة للمأمور حقا على الآمر ، ليصير أمره حكمة ، فيكون عليه تسميته ، وهو حق له حقيقة ، لأن صفة الحكمة له به تثبت .

وذلك[٥٩] كما أن الله تعالى خلقك ، وأقدرك حتى صرت (أنت)[٦٠] ، وكذلك [خلق] العالم لك ظاهرا ، وانما خلقك لعبادته ، ولتعرفه بجلاله باطنا ، فكذلك جزاؤك كان وفق ابتدائك ، لتعرف بالابتداء أنه خالق عليم ، وبالجزاء أنه جواد كريم .

واسم الجزاء لا ينفى البر على العطاء ، وانما ينفى صفة الابتداء ، كجزاء الموهوب له الواهب على هبته يكون صلة دعاه اليها[٦١] كرم طبيعته .

قال الأخ : فبين لى أحوال الانسان من (بدء)[٦٢] خلقه الى منتهى أمره على ترتيب لا يعدوه القصد ، ولا ينبوه العقل .

قلت وما توفيقى الا بالله : ان بدء (خلق)[٦٣] الانسان قبضة من بر ، وقبضة من بحر ، على ما قال الله تعالى : **« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب »**[٦٤] .

---

(٥٥) الجاثية : ٢١ ، ٢٢
(٥٦) سقطت من (ب) .
(٥٧) القيامة : ١٧ — ١٩
(٥٨) سقطت من (أ) .
(٥٩) فى (أ) : وهذا .
(٦٠) سقطت من (أ) .
(٦١) فى الأصول : دعته اليها .
(٦٢) سقطت من (ب) .
(٦٣) سقطت من (ب) .
(٦٤) آل عمران : ٥٩

وقال : « وهو الذى خلق من المـاء بشرا »[٦٥] .

مزج المـاء بالتراب فصار سلالة من طين ، ثم ترك حتى اعتدل كحمأ مسنون ، ثم أجاب المصور بعد رابع الدرجات[٦٦] كتمام العالم لصلاحه مسكنا لآدم على هـذه الحالات فكان عدما ، ثم موجودا رتقا لا يصلح للسكنى ، ثم سماء رفيعة بلا ضياء ، وأرضا بسيطة بلا نبات وماء ، ثم السموات السبعة أطباق مزينة بنجوم وأفلاك ، والأرض برا وبحرا بأنهار وأشجار ، فصلحت لآدم مأوى ، وهى بآدم حبلى ، لكنها على انكار هناك ، ودعوى أمر غير ذلك .

والمراد بانكار الجماد ما لا يصلح له عقلا ، وبالدعوى ما تصدى له أصلا ، والبر والبحر ما يصلحان لولادة البشر متصديان لمنافع أخر ، كالعدم ينكر الوجود (وعقده)[٦٧] ، ويدعى ضده .

ولمـا سلت القبضة من البر والبحر تركت القبضة دعوى الأصل لعدم ذلك الصلاح فيها ، لكنها على انكار أن تبنى صورة فيها[٦٨] ، فالمـاء مائع سيال ، والتراب متخلخل منهار ، كالعالم لمـا خلق رتقا ترك دعوى العدم ، وبقى على انكار أن يصلح مثوى .

ولمـا صارت[٦٩] القبضة طينا ينسل تركت الانكار ، فالتراب يمزج بالمـاء لعاقبة البنـاء ، لكنه ما لم يعتدل لا يجيب البنـاء[٧٠] ، فترك حتى صار حمأ حتى اعتدل فأجاب للتصوير وقبل .

وهـذا لك مسموع وليس بمعقول ، ولينا كرنك الملحد فيه من أولى المعقول ، فاعدل عنه الى ولده ، فأصله الأب والأم ، وهما ببنيتيهما مدعيان صلاحا لأمور مقصودة تأتى منهما ، منكران انخلاق ولد منهما بولاة على معقول الشهادة ، فلما سلت[٧١] النطفتان منهما الى الرحم (تركت النطفتان دعوى الأصلين ، وثبتا على الانكار ، ولمـا امتزجت النطفتان فى الرحم)[٧٢] تركتا الانكار ، وما أجابتا الى حين الاعتدال

---

(٦٥) الفرقان : ٥٤

(٦٦) فى (أ) : (بعد أربع الدرجات) والدرجات الأربع هى : العدم ، والقبضة ، والسلالة ، والاعتدال .

(٦٧) سقطت من (ب) .

(٦٨) فى (أ) : صورة منها .

(٦٩) فى (أ) : ولمـا صارت .

(٧٠) فى (أ) : لا يجيب للبناء .

(٧١) فى (أ) : ولمـا سلت .

(٧٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

كالسلالة من الطين ، ثم اعتدلتا فصارتا علقة كالحمأ المسنون ، فأجابت للمصور[٧٣] برابع الأحوال ، فصارت العلقة مضغة ، ثم عظما ، ثم لحما ، فتمت العلقة صورة برابع الدرجات •

وهذه أحوال معقولة ، وليست بمحسوسة ، وربما ناكرك فيها[٧٤] المتعنت ، فاعدل عنه الى الطير ، فأصله طيران : ذكر وأنثى ، ينكران أن يتصور منهما طير ، ويدعيان أمورا غيره حتى يسل منهما البيض ، فيترك دعوى الأصل ، لكنه على انكاره حتى تحضنه[٧٥] الدجاجة ، فيصير علقة تحسها اذا كسرتها ، ثم مضغة ، وصورة على الترتيب الذى قلناه •

والأصل : الجماد فى منازلها ، تحول عن انكار ما يراد منه ودعوى ضده الى انكار بلا دعوى ، ثم الى اقرار بلا اجابة ، ثم اجابة ، ليدل الله (تعالى)[٧٦] بأصل الوضع على سبيل التسخير والاجبار ، على الوضع حال القدرة والاختيار ، على ما يأتيك بيانه وشرحه وبرهانه •

ثم الصورة جسمان : ظاهر وهو القالب المحسوس ، وباطن وهو الفؤاد المعلوم ، ليكون الظاهر نصيب الأصل الظاهر وهو الدنيا ، والباطن نصيب المصور الباطن وهو المولى ، قسمة عادلة •

فالقبضة ما صارت صورة الا بالفعل المفعول فى ذلك الأصل المسلول ، الأصل من الدنيا ، والفعل من المولى جل وتعالى ، والأصل ظاهر ، والتفعيل باطن ، ثم الله تعالى أحياها ، وتفسير الاحياء : الاقدار على الأفعال الاختيارية ، برقيبين : النفس من عند الدنيا ، والروح من عند المولى جاءتا بأمره[٧٧] ، والله تعالى قد اختص بعلمه ، لتكون النفس رقيبا من الدنيا على نصيب الدنيا[٧٨] ، (والروح رقيبا من المولى على نصيب المولى)[٧٩] •

---

(٧٣) فى (أ) : فاجابت للتصوير •
(٧٤) فى الأصول : ناكرك فيه • (٧٥) فى (ب) : تحضنها •
(٧٦) سقطت من (ب) • (٧٧) فى (أ) : جاءت بأمره •
(٧٨) فى (ب) : من المولى على نصيب المولى •
(٧٩) ما بين الحاصرين سقط من (أ) •

قال الله تعالى : ((فنفخنا فيه من روحنا))[٨٠] .
وقــال : ((ونهى النفس عن الهوى))[٨١] .

ثم كان اهتداء الجسم الظاهر بالحواس الى مصالحه ، واهتداء الفؤاد بالعقل الى مراشده ، فصار القوام أربعا : الروح ، والنفس ، والعقل ، والحواس . وكانت الصــورة[٨٢] لأول أمرها جمادا منكرا لـمـا طلب منه من المعرفة والعبادة[٨٣] ، مدعيا غيرها على وفق العادة ، ولـمـا أحييت تركت الدعوى ، فقد قدرت أدنى قدرة ، لكنها على انكار ما وفقت له الفطرة ، فهى للحال فى حكم الأعضــاء كالكبد والطحال والأمعاء .

ولـمـا سلت بالاولادة تركت الانكار ، فقد صارت شخصا مثل أصلها ، لكنها قبل العقل غير مجيبة بفعلها .

ولـمـا انفجر نور العقــل ، وميز الوليــد ، دعــاه الرقيبان[٨٤] فأجاب[٨٥] ، أما رقيب[٨٦] الدنيــا فأخطأ ، وأما رقيب المولى فأصاب . وانتهى بهــذه الحالة وقت الحفظ بحكم الفطرة ، وجاء أوان المحنة والحيرة ، فتمت المنازل لأن يتأهل[٨٧] لـمـا طلب منه فى العاقبة أربعا[٨٨] ، فأصبح بالعقل أهلا للدعوة ، وبين الرقيبين اتفاق على الدعوة الى ما تحمد مغبته ، وتبقى ثمرته ، فرقيب المولى يدعوه الى معرفة المولى وطاعته لعاقبة الجزاء فى الدار الأخرى ، ورقيب الدنيــا يدعوه الى عمارة الدنيــا وجمعها لسيادة الورى .

وانه فى منازل الاجابة على أربعة أحوال : طفولة ، وشباب ، وكهولة ، وخرف . على نحو ما مر من المثال . وانه فى أول أحواله منكر لدعوة الرقيبين بطبعه ، مدع غيرها من اللهو والعبث بفعله ما لا عاقبة له ترضى ، ولا ثمرة تبقى .

---

(٨٠) التحريم : ١٢ (٨١) النازعات : ٤٠
(٨٢) فى (ب) : فكانت الصورة .
(٨٣) فى (ب) : والعادة . (٨٤) أى : النفس والروح .
(٨٥) فى (م) : فقد أجاب . من نسخة ثانية .
(٨٦) فى (أ) : لرقيب ، وكذا ما بعدها .
(٨٧) فى (أ) : فتمت منازل أن يتأهل .
(٨٨) وتلك المنازل هى : الصورة ، ثم الحياة ، ثم الولاء ، ثم البلوغ .

واذا شب وبلغ واعتدل ، وتوجه [اليه] التكليف من المولى ، وأهل الدنيـا ، وهو ممن أجاب رقيب الدنيـا ، ترك الدعوى[٨٩] ، فقد حجر عن العمل بطبعه ، لكنه على انكار بفعله ما لا تحمد عاقبته فى سكرة من نشاطه ، وغفلة من شهواته ، واصابة الكفاية من آبائه وأمهاته •

حتى اذا انتهى شبابه فارقه أبوه وأمه ، وأحوجته امرأته وولده ، ولزمته من فروض الحال ما لا يمكنه اقامتها الا بالنظر فى العاقبة ، ترك[٩٠] الانكار لعمل ما له عاقبة حميدة ، لكنه غير مجيب فعلا ، فنار الشهوات (بعد)[٩١] شديدة ، وقيود الهوى عليـه أكيدة •

حتى اذا أقعده خرفه[٩٢] ، وأشرف عليـه تلفه ، وانتهت قواه ، أطاع رقيب دنيـاه ، وما هى بمقبولة ، فمصالح الدنيـا لا تقـوم الا بقدرة ، والرجل قد أعجزته الفترة ، فيعيش فى بؤس[٩٣] حتى يعاين بأسه بحلول أجله ، فيجيب رقيب المولى عند انقطاع أمله وهى مردودة ، فالمطلوب منه الاجابة حال اختياره دون خروج أمر نفسه عن يده ، ووقوعه فى اضطراره ، يقول الله تعالى : « **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين • فلم يك ينفعهم ايمانهم لمـا رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون** »[٩٤] •

ثم ينتقل بعد منازل الدعوة للاجابة الى منازل السياق للجزاء ، وانها لأربع منازل : معاينة البأس لآخر العمر ، (ومنزل بطن الأرض فى القبر)[٩٥] ، ومنزل عرضة القيامة يوم الحشر ، ثم منزل النار وبئست الدار ، وما له عليها[٩٦] اصطبار ، ولا عنها فرار ، جزاء وفاق ، وخلود بلا فراق ، وانه لأول منازله للجزاء الذى عاينه ، فقد تبرأ بالايمان عن سببه ، مدعى ما أقبل بالايمان على طلبه •

حتى اذا مات وفارق أهل النعيم ، ترك الدعوى ، لكنه على انكاره لبعده عن الجحيم ، حتى اذا بعث وعاين الحقيقة ، ترك الانكار وما أجاب ،

---

(٨٩) الدعوى هنا : اللعب •
(٩٠) فى (ب) : تركت •
(٩١) سقطت من (ب) •
(٩٢) فى (ب) : ادركه خرفه •
(٩٣) فى (ب) : يعيش • وفى (م) : يعيس • بالسين المهملة • من نسخة ثانية •
(٩٤) غافر : ٨٤ ، ٨٥
(٩٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(٩٦) فى (ب) : وما لها عليها •

يوقفه[٩٧] بين الخلائق لأمر الحساب ، حتى اذا قيل لهم : امتازوا أيها المجرمون ، فما لكم من شافعين ، أجاب فى أمثاله مهطعين الى الجزاء الوفاق العظيم ، (فى)[٩٨] نار الجحيم خالدين .

ودعى الى التصوير[٩٩] جسـما لحمل الأمانـة فأجاب لتصـور برابع[١٠٠] أحواله[١٠١] ، ثم دعى الى التحول[١٠٢] أهلاً لمعرفة ما عليه فأجاب برابع أحواله[١٠٣] ، ثم دعى الى الاجابة لأداء ما عليـه فأجاب برابع أحواله[١٠٤] ، ثم دعى الى (الجزاء)[١٠٥] الوفاق لأعماله فأجاب برابع أحواله[١٠٦] ، فصارت الدعوات أربعا ، والأحوال فى كل دعوى أربعة .

فهذا بيان أقسام من أسر عقله بهواه ، ونسى آخرته بدنيـاه ، وكل البشر مجبولون على هذه الطبيعة ما لهم سبيل الى الفكاك عن هـذا الأسر الا بالوقوف على أنوار الشريعة ، وانى أيها الأخ مخبرك عن أنوار آيات لتخرج ان شاء الله عن حالات هن ظلمات ، فما بصير بمنتفع فى الظلمات ببصره ، ولا بمتحير اذا أضاء له النهار بأسره .

فقال : طاب سمعى بما سمعت من كلامك ، هات بارك الله فى أيامك .

قلت وبالله التوفيق : ان لكل جسم — أعنى الباطن — وهو الفؤاد ، والظاهر وهو القالب : علة درك ، وآلة درك ، وحال درك[١٠٧] ، وداعيا الى الدرك .

---

(٩٧) فى (أ) : لوقفه . (٩٨) سقطت من (أ) .

(٩٩) فى (ب) : الى التصور . (١٠٠) فى (ب) : بدائع أحواله .

(١٠١) الأحوال هى : العدم — القبضتان ، الترك — الاجابة فى هذه الحالة .

(١٠٢) فى (ب) : التحور .

(١٠٣) الأحوال هنا : الصبا — الشباب — الكهولة — الخرف وفيه الاجابة .

(١٠٤) الأحوال هنا : معاينـة البأس آخر العمر — بطن الأرض — الحشر — النار ، وفيها الاجابة . (١٠٥) سقطت من (ب) .

(١٠٦) الأحوال هنا : الانكار والدعوى — الانكار بلا دعـوى — لا دعوى ولا اجابة — الاجابة . (١٠٧) فى (أ) : وحالة درك .

أما الظاهر فعلة دركه[١٠٨] استعمال آلات الدرك (للدرك)[١٠٩] ، وآلات دركه : العين والأنف والفم واليد والأذن ، صارت آلات بحواسها ، والاستعمال كالنظر والشم[١١٠] والذوق والمس والاستماع ، وأحوال الدرك[١١١] نحو نور الهواء ، والرائحة فى المشموم ، والصوت والطعم ونحوهما ، والداعى الى الاستعمال النفس .

وأما الجسم الباطن وهو الفؤاد فله علة الدرك وهى المفكرة[١١٢] ، وآلة دركه[١١٣] وهو القلب[١١٤] بسويدائه[١١٥] ، التى (هى)[١١٦] يستبين به للقلب المسافة بين مبدأ الأمور وعواقبها ، كما يستبين[١١٧] بنور الهواء المسافة للناظر بالعين[١١٨] من لدنه الى المنظور اليه ، وداعى الدرك وهو الروح .

وكل جسم ممتحن بهذه الأسباب[١١٩] بطلب العاقبة الحميدة الباقيـة من أفعاله مخالفا لنهج ما لا عقل له (فى أعماله)[١٢٠] . فتمت المحنة بداع الى الرؤية ، وآلة وعلة وحالة .

وقد جعل الله تعالى الظاهر دليلا على الباطن ، ليكون العلم به حقيقيا ، ولا يخفى على الناس تعنت من أنكر ظلما وعلوا ، فخلق معانى الدرك فى آلات الدرك للجسم الظاهر على التفاوت . وربما استوت[١٢١] الآلات فى مبانيهـا ، وأحوال الدرك على التفاوت . وربما استوت الآلات بمعانيها ، فرب ناظر عين أحد من ناظر ، ورب شمع أضوأ من سراج زاهر[١٢٢] .

وجعل حال الدرك للظاهر بنورين : مسلمين اليه فى العالم السفلى ،

---

(١٠٨) فى (ب) : ففعلة دركه .
(١٠٩) سقطت من (ب) .
(١١٠) فى (أ) : بالنظر والشم .
(١١١) فى (ب) : والأحوال للدرك .
(١١٢) فى (ب) : وهى الفكر .
(١١٣) فى (ب) : درك .
(١١٤) فى (ب) : وهى القلب .
(١١٥) فى (ب) : سويداؤه .
(١١٦) سقطت من (ب) .
(١١٧) فى (ب) : كما يستوى .
(١١٨) فى (ب) : لناظر العين .
(١١٩) المراد بالأسباب الآلات .
(١٢٠) سقطت من (ب) .
(١٢١) فى (أ) : فربما استوت .
(١٢٢) فى (أ) : سراج ظاهر .

وهما : السرج والشموع • وللعبد قدرة تدبير[١٢٣] فى النقصان ، وزيادة تنوير ، ونور غير مسلمين[١٢٤] اليه من العالم العلوى ، كنور الشمس والقمر ، ما له عليهما تدبير ولا قدرة ، وقد يستغنى الجسم الظاهر بالشمع عن السراج ، وبنور الشمس عن الشمع الوهاج ، لأنه ما احتاج الى اشعاله[١٢٥] الا ليجلو[١٢٦] بها ظلمة المسافة الى مصالحه ، وبنور الشمس استنارت المسافة فوق مشاعله ، ليدل على مثله للجسم الباطن من تفاوت معانى الدرك فى الآلات ، وهى أسرار القلوب ، وان استوت الآلات ، (والتفاوت فى أحوال الدرك ، وهى العقول ، وان استوت الآلات بمعانيها)[١٢٧] •

وان النور الذى هو حال قسمان مسلمان اليه ، وهو : العقل والقرآن • ولنورهما زيادة بنظر القلب ونقصان • وقسمان غير مسلمين الى تدبير العبد ، وهو : نور التوفيق ، ونور العواقب ، كرامة من الحميد المجيد •

وان كل الأنوار على التفاوت كما فى الشاهد ، وان نور التوفيق يتناهى الى حال يستغنى العبد معه عن الاستضاءة بالعقل (النائر)[١٢٨] ، كاستغنائه عن السراج بالشمس الزاهرة[١٢٩] ، ولأنه ما احتاج الى نور العقل الا ليجلو ظلمة المسافة الى عواقب أموره[١٣٠] ، وبنور التوفيق استنارت المسافة فوق نوره ، بل لاحت لقلبه العواقب كما تلوح ليلا لعينه الكواكب •

فالعواقب المطلوبة بأمر الله تعالى (نيرة)[١٣١] أنور من نجوم الليالى على ما يأتيك شرحها ، لكنها مستترة عن القلب بغمال الغفلة ، منكسفة بصدأ المعاصى ، فاذاً صحا الصدر عن الغفلة ، وتجلت العواقب عن صدأ المعصية ، أضاءت للقلب بلا آفـة ، وأغنت القلب عن نور المسافة ، بل تجلت بها[١٣٢] المسافة عن ظلمات النفس ، تجلى الهواء

---

(١٢٣) فى (ب) : قدر تدبير • (١٢٤) فى (ب) : عن مسلمين •
(١٢٥) فى (أ) : الى الشعلة • (١٢٦) فى (ب) : الا لينير •
(١٢٧) ما بين الحاصرين سقط من (أ) •
(١٢٨) سقطت من (ب) • (١٢٩) فى (أ) : الظاهرة •
(١٣٠) فى (ب) : عواقب أمره • (١٣١) سقطت من (ب) •
(١٣٢) فى (م) : أى بنور القلب • والصواب : بنور العواقب المنعكس على القلب بعد الصحو من الغفلة •

بطلوع الشمس ، وصار النور منها محسوسا بعد ما كان النور (لها)[١٣٣] مقبوســا •

فثبت أن لكل جسم أنوارا على التفاوت ، ولكن بعد التكليف بالدرك لا يخلو أصل الفكرة عن قدر ما تقع به القدرة ، فاعطاء القدرة قدر التكليف عدل ، وقد ضمنه الله (تعالى)[١٣٤] بحكمته ، والزيادة فضل ، وقد أذن الله بالسؤال[١٣٥] من رحمته •

ثم الله تعالى امتحن الجسم الظاهر مع نوره الحالى المسلم اليه متى خرج عن حصـــنه وهو البيت بريح علوى لا قـــدرة له على رده الا بالرجوع الى حصنه • وربما عدم الانتفاع به كأنه لا سراج معه متى أصر على فعله ، ليدل فى جانب الجسم الباطن على مثله : خذلان من الله تعالى (متى خرج عن حصنه ، وهو : حدود الله تعالى)[١٣٦] فى أوامره ونواهيه لا يد له عن الاحتراز عنه ما لم يرجع الى حده • وربما عدم الانتفاع به متى أصر على عقده[١٣٧] كأنه أعمى لا نور فى صدره ، كما قال الله تعالى : **« مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضـــاءت ما حوله ذهب الله بنورهم »**[١٣٨] •

فتمت أحوال البصر فى تفاوتهـــا للمحنة أربعا : حال نور عدمى (عدلى)[١٣٩] ، ونور فضلى ، مما سلم اليه ومما لم يسلم اليه •

وتمت أحـــوال العمى للعيـــن أربـــع[١٤٠] (حـــــالات)[١٤١] : (حالان)[١٤٢] مع قيام التكليف بالرؤية ببقاء القدرة (حال عمى بعشى العين فالقدرة بعد باقية لقدرته على العلاج)[١٤٣] حال عمى لهبوب الريح على ذؤابة السراج ، وحالان[١٤٤] مع سقوط التكليف (لذهاب

---

(١٣٣) سقطت من (أ) • (١٣٤) سقطت من (ب) •
(١٣٥) فى (أ) : بالسوء ، ولعلها : بالسؤل •
(١٣٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(١٣٧) فى (ب) : على عقله • (١٣٨) البقرة : ١٧
(١٣٩) سقطت من (ب) • (١٤٠) فى (أ) : اربعا •
(١٤١) سقطت من (أ) • (١٤٢) سقطت من (ب) •
(١٤٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(١٤٤) فى (ب) : وحالات •

القدرة)[١٤٥] وعمى بزوال نور العين ، وعمى بعدم نور الحال . ولن يتحقق ذلك الا اذا انتهت الآجال[١٤٦] .

وكذلك أحوال الجسم الباطن : حال عشى القلب بغشاوة من خبث العصيان[١٤٧] ، وحال انطفاء نور العقل[١٤٨] بريح الخذلان ، وحال انطفاء نور الحال[١٤٩] أصلا بالجنون ، وحال ذهاب نور السر باذهاب الله تعالى اذا حل به المنون .

فنور القلب الذى به صار القلب آلة الدرك للجسم الباطن (أصلى)[١٥٠] من ربه لا زوال له عن أصل ما خلقه الله تعالى الا بزوال عمره ، ونور الحال عارض ، ونور الحال للجسم الظاهر أصلى ، فهو من أصل دنياه ، ونور الآلة عارض ، فلن يعدم الجسم الظاهر نور الحال الا بموته ، وقد يعدم نور الآلة مع بقاء عمره .

فبنور العين[١٥١] حياة العين ، كما بالروح حياة الجسم ، ولن يعدم الجسم الباطن نور الآلة الا بعد انقضاء الأجل ، وقد يعدم نور الحال فى مدة المهل ، ولهذا لا يسقط التكليف الا بالجنون ، فزوال النور الذى هو الآلة حال الحياة لن يكون والله أعلم ، وانما يعشى القلب مع قيام النور كعشى العين الظاهر من البصر[١٥٢] .

(فهذه)[١٥٣] قسمة من الحكيم عزت قدرته عادلة فى الظاهر بين الجسم الظاهر والجسم الباطن ، أعلاما بالمحنة ، ودلالة فى الباطن صادقة على الرجوع الى الباطن الزاما للحجة .

فالدرك بسبب النور ، وعليه تدور الأمور ، وتم الدرك مع نور الحال ، والآلة أصل للعمل ، والحالة شرط[١٥٤] .

ثم جعل النور لآلة الجسم الباطن ذاتية ، وللجسم الظاهر

---

(١٤٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(١٤٦) فى (ب) : اتفقت الآجال .
(١٤٧) فى (ب) : من حيث العصيان .
(١٤٨) فى (ب) : انكفاء نور العقل .
(١٤٩) فى (أ) : انتفاء نور الحال .
(١٥٠) سقطت من (ب) .
(١٥١) فى (ب) : ونور العين .
(١٥٢) فى (أ) : البصير .
(١٥٣) سقطت من (أ) .
(١٥٤) فى (أ) : شرطة .

صفاتية ، ليدلنا[١٥٥] على المصير الى نور القلب بالاستدلال ، فالذات اسم للهوية ، والصفات فى الشاهد أسماء الأحوال .

ثم ألزم هـذا المعنى المستدل[١٥٦] وغيره[١٥٧] باهتـداء الجسـم الظاهر الى مصالحه على عمى عينيـه بنور عقله ، وعدم اهتداء المجنون الى مراشده بنور عينيه ، وكذلك الجسم الظاهر انما يصل الى استيفاء حظه من الراحة والسكون بذهاب النور حالا ، فعادت الجسـوم فى الاستراحة ليلا ، والتعب نهارا[١٥٨] .

وكذلك جعل[١٥٩] عواقب النفس مظلمة لا ترى الا بنور ، وعواقب الروح نيرة تتلألأ متى رفع عنها الستر ، ورقمت أنوار الحال للقلب أربعا : نور العقل ، ونور القرآن ، ونور التوفيق ، ونور العواقب ، وتمت أنوار الحال للعيـن أربعا بعد السرج والشموع على زيـادة ونقصان بتدبير العبيد ، ونور آية الليـل ، ونور آية النهار بتقدير الرب قسمة عادلة فى الظاهر ، ودالة على أن الأصل للباطن[١٦٠] .

فنور الشمس والقمر فى الأصل واحد ، فآية الليـل ممحوة[١٦١] ، وانما يأخذ نورهـا بقدر مقابلة الشمس فى مسيرها ، وانما اختلف الوقت ، وكذلك نور السراج والشمع واحد من النار ، وانما اختلف دسم الفتيلة بلا اشكال .

ونور القرآن غير نور العقل بل فوقه بكثير ، ثم نور العواقب ، وما لعواقب رقيب الدنيا نور ، وبنور عواقب (رقيب)[١٦٢] المولى استنارت الصدور ، كما سوى بين آلتى الدرك ظاهرا ، وجعل آلة درك العين حالا لآلة درك القلب باطنا ، حتى بقى الدرك للقلب مع زوال معنى درك العين الا ما كان القلب يدركه حال رؤيتها ، كما يزول درك حس العين بزوال نور حالتها ، وكما جعل معانى درك القلب ذاتية ، ومعانى درك[١٦٣] العين صفاتية .

---

(١٥٥) فى الأصول : ليوقف . واخترنا ما فى (م) . من نسخة ثانية .
(١٥٦) اى : حين يكون العقل آلة للدرك .
(١٥٧) غير المستدل هو : المقلد .
(١٥٨) فى (أ) : والتعب نهارا .
(١٥٩) فى (ب) : حصل .
(١٦٠) فى (ب) : الأصل الباطن .
(١٦١) فى (أ) : فآية الليل محمودة .
(١٦٢) سقطت من (أ) .
(١٦٣) فى (أ) : ومعنى درك .

ثم هـذا[١٦٤] ليدل الله تعالى على تفاوت ما بين الدركين بتفاوت ما بين المعنيين بالحال تبعا للأصل[١٦٥] ، وكم بين التبع والمتبوع . ثم حقق التفاوت عيانا على عين المتأمل فى المعنى ، فالعين فى نورهـا ترى جسما مكيفا يغيب عنها لشدة القرب والبعد ، والقلب بلا كيف ولا حد ، فتمت وجوه الرؤية[١٦٦] أربعا : واحد للعين اذا اعتدلت (المسافة)[١٦٧] ، وثلاث للقلب اعتدلت أو قربت أو بعدت . بل القلب غير متناه[١٦٨] ، يرى بلا جهة ولا آفة ، وما للعين[١٦٩] متناه بالجهة والمسافة .

ثم الله تعالى جعل بين الجسمين اشتراكا فى الحقيقة . فالجسم الظاهر أصل ، والفؤاد تبع مرأى ، والفؤاد أصل ، والجسم الظاهر تبع معنى . وبين الرقيبين اتفاق ، على هذه الدعوى عرفه[١٧٠] كل مميز من حاله وحركته لأعماله . ثم جعل المحسوسات كلها من مرئى ومسموع ومشموم ونحوها فى الظاهر مدركات الجسم الظاهر لدرك الرغائب ، ومرآة فى الباطن للقلب لدرك العواقب .

فقد ثبت باتفاق من الرقيبين أن المقصود فى باب الرؤية هو القلب ، فالمطلوب بالرؤية نفع العاقبة ، وذلك بالعقل .

فاذا صارت المحسوسات مرآة ، والمرآة ما صقلت للرؤية ، بل للارادة ، حتى اذا قصد الجاهل بحال المرآة رؤيتها[١٧١] خاب نظرا ، ومتى قصد العالم بها اراءة الوجوه[١٧٢] منها أصاب بصرا . وكذلك المحسوسات متى قصدها الجاهل بالرؤية لدرك المواهب منها ضل فى مسالكها على ما سبق شرحها . ومتى قصدها العالم لاراءة قلبه العواقب منها اهتدى الى مراشده على ما يأتيك ذكره[١٧٣] .

---

(١٦٤) المراد من الاشارة : التفاوت التبعى والأصلى .
(١٦٥) فى (أ) : فالحال تبع للأصل .
(١٦٦) فى (أ) : فتم وجوه الرؤية .
(١٦٧) سقطت من (ب) .
(١٦٨) فى (أ) : بل ما القلب غير متناه .
(١٦٩) فى (ب) : والذى للعين .
(١٧٠) فى (ب) : اتفاق وهذه الدعوى يعرفها .
(١٧١) أى رؤيتها مرآة حسب .
(١٧٢) فى الأصول : الوجه . واخترنا ما فى (م) . من نسخة ثانية .
(١٧٣) فى (أ) : ذكرها .

وكذلك المعلومات كلهـا فى الظاهر مرئيـات للجسـم الباطن لدرك مراشده ، ومرآة فى الباطن للجسم الظاهر الى مصالحه • فالمقصود من العلم العمل الحاصل ، وذلك بعد الأعتقاد من الجسم الظاهر ، والعبرة فى الباب للمقصود[١٧٤] • وما المقدمة الا طريق مردود[١٧٥] ، فصارت المعلومات على هـذه الجملة مرآة لا مرئية ، فمتى قصدهـا المخذول بالرؤية لدرك مراشده انهمك فى وادى مهالكه ، ومتى قصدها الموفق لاراءة الطريق جسمه سلك الى مصالحه •

فالمحسوس مرآة حجج الله (تعالى)[١٧٦] للقلب لعاقبة العلم ، والمعلوم[١٧٧] مرآة للجسم لعاقبة العمل ، فالعمل بلا علم عبث ، والعلم بلا عمل سفه ، والسفه أبلغ درجات فى الانكار من العبث ، فالعبث مردود عقلا لعدم الفائدة ، والسفه مردود بقبح العائدة[١٧٨] •

ثم العلم بلا حجة جهل ، كعلم الكفرة[١٧٩] اتباعا لآبائهم ، والحجة بلا مرآة خيال على مثال ما يتخيل الانسان شيئا بوهمه[١٨٠] أو فى نومه • والاعتقاد بالخيال فوق جهل الجهال ، كاعتقاد الطبائعيين من اعتقاد جهلة الكافرين •

فذو الخيال لا يترك اعتقاده الا بفساد ما عنده ، وظهور غيره ، وذو الجهل يتركه بظهور الحجة ، والمستغنى بالعلوم عن العمل أهلك من المستغنى بالمحسوس عن العلم ، بعدما استويا فى معرفة الدنيـا والمولى ، فضرر الاعراض عن المقصود بقدر ما فى الاقبال عليـه من المحمود ، فكذلك المستغنى بالخيال عن الحجة أكفر بالله من المستغنى بالجهل عن العـلم •

فانعقدت الشركة بين الجسمين[١٨١] سـواء فى الظاهر ، والكل للفؤاد فى الباطن ، فالجسم الظاهر أحس ابتداء ، فعلم القلب بما أحس

---

(١٧٤) فى (ب) : للباب المقصود •
(١٧٥) فى (ب) : الا طريق مورود •
(١٧٦) سقطت من (أ) •
(١٧٧) أى : القلب •
(١٧٨) فى (ب) : بقبح القاعدة •
(١٧٩) كعلم كفرة •
(١٨٠) فى (أ) : للانسان شىء بوهمه •
(١٨١) أى الظاهر والباطن •

فأكمله ، ثم علم (مقصود)[١٨٢] الفؤاد فألزم الجسم بما علم انتهاء[١٨٣] فاستعمله ، فكمل بما أراه العين ابتداء ، وأطيع بما أرى الجسم انتهاء .

وبين الرقيبين اتفاق على هـذه الأحكام . فالرضا بالمبدأ دون العاقبة من عمل الأنعام ، فصارت آلات الدرك فى المعنى أربعا : العين ، والقلب ، والمرآتان[١٨٤] كالمرآة الحسية ، فانها تعمل عمل عين زائـدة ، ترد رواية[١٨٥] العين عليك عائدة .

فالقلب : الرائى[١٨٦] بالمحسوس فى نهى الجسم عن فعل البهائم ، والجسم : الرائى[١٨٧] بالمعلوم فى طاعة القلب على طلب نفع العواقب ، فمتى كان المحسوس مرآة الحجج للقلب استنار استنارة (العالم)[١٨٨] نهاراً بحجج أضوأ من الشمس ، ومتى كان المعلوم مرآة العمل للجسم استنار الجسم استنارة القلب بما أدرك على الحس[١٨٩] . فالمعلوم أنور من المحسوس بكثير ، قال الله تعالى : **« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس »**[١٩٠] .

وقـال : **« أفمن شرح الله صدره للاســلام فهو على نور من ربه »**[١٩١] .

فيصبح العبد حينئذ وهو فى ظاهره وباطنه نور فى نور بأنوار أربعة : نور الباطن ، ثم نور السر ، ثم نور الجسم الباطن كله بالعلم ، ثم نور الجسم الظاهر كله بالعمل[١٩٢] . وكلها من نور الله تعالى ، وكرامته[١٩٣] على ما قال تعالى : **« الله نور السموات والأرض ، مثل**

---

(١٨٢) سقطت من (ب) .

(١٨٣) وهنا تكمل دائرة العلم من علم وعمل ، وهذه الدائرة تدل على كثير من غرائب العلوم ليس هنا محل بحثها ، وقد أشرنا الى بعضها فى التقديم .

(١٨٤) اى مرآة العالم المحسوس ليكون مرآة القلب للحجج والعـلم ليكون مرآة للجسم الظاهر للعمل . فهما : ظاهرة وباطنة .

(١٨٥) فى (أ) : ترد ذؤابة العين . اى : نورها .

(١٨٦) فى (ب) : الراى . وفى (أ) : راى . واخترنا ما فى (م) .

(١٨٧) فى (ب) : والجسم الراى .

(١٨٨) سقطت من (ب) .

(١٨٩) فى (أ) : أدرك بالحس .

(١٩٠) الأنعام : ١٢٢

(١٩١) الزمر : ٢٢

(١٩٢) فى (ب) : بالعلم .

(١٩٣) فى (ب) : وكرامة .

نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس ، والله بكل شىء عليــم))[194] .

أى نور على نور باطن وهو نور النار قبل آن يقتبس ، ثم نور الشعلة بعدما اقتبست واشتعلت[195] بها الفتيلة[196] ، ثم نور الزجاجة وهى : القنديل ، ثم نور المسجد كله .

فهذا تفسير[197] العواقب التى كنا ذكرناها مجملة : النظر بالعين فى العالم المحسوس لعاقبة أن تكون مرآة القلب للحجج ، لا أن يكون مرئيا مقصودا ، وعلم القلب الحجج لتكون مرآة الجسم الظاهر للعمل ، لا أن تكون الحجج معلومة مقصودة .

فصارت عواقب الرؤية أربعا : رؤية العين لعاقبة أن يكون المرئى مرآة للقلب ، والرؤية بالمرآة لعاقبة العلم ، والعلم لعاقبة أن يكون المعلوم مرآة للجسم الظاهر ، والمرآة لعاقبة طاعة الجسم .

فصارت هذه العواقب الحميدة مطلوبة بالرؤية اتفاقا ، وهــذه الأنوار كلها لرؤية هــذه العواقب اجماعا ، وكل ذلك الى (أقصى)[198] مجامع الخير وأقصى غايات النفع .

غير أن بين الرقيبين اختلافا فى تحديد دار الوصــول اليها . فرقيب الدنيــا يقول : هى الدنيــا ، ورقيب المولى يقول : هى الأخرى . فجاء أوان الدعوة والخصومة ، والحاجة الى الحجة ، ثم الغلبة .

فالجسمان[199] كانا فى نوم الغفلة على شعار الفطرة ، وقد انفجر لهما صبح العقل ، وجاء أوان القيام[200] ، وأحاط بسمعيهما الأذان من خلف وأمام ، فوثبا مذعورين ، ووقفا خوفا ، وأصغيا الى الرقيبين

---

(١٩٤) النور : ٣٥
(١٩٥) فى (أ) : بعد ما تبست واشعلت .
(١٩٦) فى (ب) : به الفتيلة . (١٩٧) فى (أ) : وهذا تفسير .
(١٩٨) سقطت من (أ) .
(١٩٩) المراد بالجسمين : القلب والقالب .
(٢٠٠) فى (أ) : وآن اوان القيام . والمراد : القيام من نوم الغفلة .

سمعا ، فاذا أحدهما يدعوهما الى الدنيا ، والآخر الى المولى جل جلاله[٢٠١] ، وما لهما بالدنيا ولا بالمولى بعد من صحيح علم . فالآن قد انتبها عن النوم ، وما أسفر بعد اليوم ، فأفرخ روعهما ، فالنداء من الرقيب ، والدعاء دعاء الطبيب ، والمدعو اليه مرغوب فيه طبعا ، مطلوب شرعا .

فالنفس تدعو الى معدن النعمة ، والروح تدعو الى قاسم الرحمة[٢٠٢] ، غير أنهما واقفان بحكم غفلة الصبى ما يميزان بين الدنيا والمولى ، فالغفلة ظلمة وحجاب ، ما ترفعه يد ، ولا يطيق عليه أحد .

فمكثنا والقلب طائر ، والجسم ناشط ، متململين وراء الحجاب ، حتى أسفر النهار[٢٠٣] ، ورفعت الأستار ، وتسابقت الأبصار الى الدنيا والمولى ، فاذا الدنيا ظاهرة ، ذات نعم حاضرة للعين لا ينكرها القلب الا بتأمل ، والله تعالى باطن صاحب رحمة ، غائب عن العين لا يدركه[٢٠٤] القلب الا بتفكر . فيميلان الى الظاهر الحاضر ميلا ، فما للمشتاق[٢٠٥] بعد الظفر[٢٠٦] اصطبار ، وما للمحجوب فى مكان الحجب بعد ما رفع الحجاب قرار .

ثم يقف القلب للتأمل فى العاقبة ، فقد لزمه باتفاق من الرقيبين النظر فى العواقب ، وترك العاجل الذاهب من المواهب ، فكانت الميلة للنفس ، والوقفة[٢٠٧] للروح . فتخاصم الرقيبان عند الوقفة لما دعواه[٢٠٨] وقت التنبه عن النومة ، فما ازداد الجسمان بالخصومة الا توقفا ، فما لخصومتهما عاقبة ظهرت ، وما كانت الوقفة الا لعاقبة استترت .

---

(٢٠١) فى (أ) : المولى تعالى .

(٢٠٢) أى : أن النفس تدعو الى المعرفة سفلا ، والروح تدعو الى المعرفة علوا . وقد اختلفت طرق السلوك تبعا لجبلة النفس والروح ، فمنهم من اختار السلوك ابتداء من النفس صعودا الى الروح وهم « الخلوتية » . ومنهم من اختار السلوك ابتداء من الروح نزولا الى النفس وهم « الشاذلية » .

(٢٠٣) فى (أ) : استقر النهار . (٢٠٤) فى (أ) : لا يعرفه القلب .

(٢٠٥) فى (أ) : بالمشتاق . وفى (م) : بالميثاق . ولعله تحريف .

(٢٠٦) فى (ب) : بعد القطر .

(٢٠٧) فى (أ) : والقفه . بكسر القاف ، وفتح الفاء .

(٢٠٨) فى (أ) : كما دعواه .

فاحتاج الرقيبان الى الحجة ثم الغلبة ، فما لواحد منهما سلطان اجبار ، ولا قدرة اكراه ، والنفس عجول معجب نادى[٢٠٩] ، والروح حكيـــم متواضع نودى بنـــداء النفس[٢١٠] عجلا أو عجبا قبل الحجة بالمغالبة[٢١١] ، فما لها حجة مستقيمة ، ولا شريعة قويمة ، ثم بالتحذير فما لها غلبة[٢١٢] صادقة ، كما ليست لها حجة ناطقة ، ثم بالترغيب فما وعيدها بمحذور ، ولا عجزها بمستور ، ثم بالسرقة فما لمـــأمولها حاصل ، ولا لمرغوبها طائل[٢١٣] .

فتقبل على القلب لتسلبه ، فقد وقفت تتأمله مع الجسم مغالبا بقواه ، فهى طبائع معقولة محيطة بالجسمين ، وبجسمه[٢١٤] الظاهر (فهو)[٢١٥] محسوس محيط بالقلب وبأعوانه من جنسه ، فأكثر الورى ممن اتبع الهوى ، وبأعوانه الملاعين من خلاف جنسه : الشياطين .

والروح يشير الى القلب : أن الحكم للرب الجليل ، وما لأحد ممن ترى عليك سبيل . فأما الجسم المحيط بك فحصنك لا عليك ، والنفس المخاطب[٢١٦] حافظك لا قاتلك ، فما لهم دونك من حال ، فاثبت حتى تظهر لك العـــاقبة الحميـــدة التى كانت باتفـــاق منا مطلوبة ، فما للمناقض[٢١٧] قول مسموع ، ولا سمت مشروع .

فيثبت القلب ، وتخيب النفس . وترجع الى التحذير فتقول : أما علمت أيها القلب الذكى أنك مضغة فى هـــذا الجسم ، وليد الدنيـــا وربيبها ، وأبناؤها آباؤه[٢١٨] ، واخوانه[٢١٨] ، وما فيها من الرغائب نعمته[٢١٨] ، أفتعرض عنها بدعوة الروح الى ما لا علم لك به ، أما تخاف عاقبة اختصاصك بنهج دونهم ولا غنية لك عنهم[٢١٩] .

---

(٢٠٩) فى (أ) : معجب نارى .
(٢١٠) فى (ب) : ضد النفس .
(٢١١) فى (ب) : بالمغالبة .
(٢١٢) فى (ب) : فماله عين .
(٢١٣) الضمائر الراجعة الى النفس مذكرة فى الفقرة السابقة كلها فى الأصول .
(٢١٤) فى (ب) : وجسمه .
(٢١٥) سقطت من (ب) .
(٢١٦) فى (ب) : المخاطبة .
(٢١٧) فى (ب) : فما للمنافق .
(٢١٨) فى (ب) : آباؤك ــ اخوانك ــ نعمتك . خطأ ، لأن الضمائر راجعة الى الجسم والنفس تخاطب القلب لتحوزه الى جانبها وجانب الجسد .
(٢١٩) فى (ب) : ولا غيبة لك عنهم .

والروح تقول : انه لم يضرك بمغالبته فيضرك بمخاطبته ، فاطلب منه عاقبة ما يدعوك اليه فما الذى ذكر من الوصل بعاقبة باقية ، فانك مفارقهم ومفارقها بالموت ، وقبل الموت بوجوه من الفوت •

فيثبت القلب وتخيب النفس ، وترجع الى الترغيب ، فتزين له الدنيا وأولادها ، فتعرضها عليــه فى نقاب جمال ، ورداء دلال ، وخاتم اقبال ، وعهد وصال ، لتحببها اليه ، فتعميه بالمحبة ، وتصمه بالهوى عن اشارات رقيب المولى •

والروح تقول : وعليك أيها القلب بالنظر الى عاقبة ما يعرض لك ، فقد اتفقنا على رد ما لا عاقبة له •

فيجد لها عواقب قبيحة قد مر شرحها بفصــول فصيحة[٢٢٠] ، فيثبت على وقفته ، فتعزم النفس على السرقة[٢٢١] ، فقد خابت عن العلانية ، وانها لشر الوجوه ، فللفؤاد غفلة ، كما للعين نومة ، وانه ليغيب عن دركه بفعلته ، كما تغيب العين عن بصرها بنومته ، والشجاع الحذر يسرق اذا نام ماله ، كما يسرق الجبان الآمن ماله •

فتقوم النفس رصدا للقلب[٢٢٢] ، فاذا نعس بغفلته وذلك بنظره الى الدنيــا أو فكرة من الذى يملك الخطرة ، وثبت فسرقت[٢٢٣] سره برؤية ما فى الدنيــا من النعيم • فأتبع القلب النظرة النظرة ، وصارت النعسة نومة ، فأحرزت النفس السر عندها الى خزانتها ، وأجلسته على مائدتهــا ، وآنســته بأخدان اخوان[٢٢٤] ، وأنشــطته بألحــان حســان[٢٢٥] ، وسقته من شراب المحبة كأسا دهاقا وقالت : هــذه الدنيــا بأسرها لك على طاعتك فخذها جزاء وفاقا • فصارت النومة بشرب الكأس سكرة ، وما تناول بعد من المــائدة لقمة ، وعقله أسير ، وهواه أمير ، ونار الشهوة متوقدة[٢٢٦] ، والهواء غمام بين القلب وبين

---

(٢٢٠) فى (أ) : نضيحة . اى : مفضوحة .
(٢٢١) فى (ب) : السرعة . وفى (م) : السر . من نسخة ثانية .
(٢٢٢) فى (ب) : رصيدا للقلب .
(٢٢٣) فى (أ) : وثب نسرق . (٢٢٤) فى (ب) : اخدان .
(٢٢٥) فى (ب) : جوان ــ تحريف .
(٢٢٦) فى (أ) : موقدة . وفى (م) : موقودة . من نسخة ثانية .

العاقبة المطلوبة ، وطاعة النفس غشاوة على القلب ممدودة ، والمعروض ممتنع عليـــه قبل أداء المهر .

فيرجع القلب الى النفس وقد عمى عن الروح فيسألها الوفاء بالضمان ، فتقول : انا عرضناها عليك للخطبة ، وأريناكها مسفرة لتكون أحرى أن يؤدم بينكما ، لكنك(٢٢٧) لا تستمتع بها الا بعقد وشهود ، وصداق منقود ، ففى التعاطى بلا سبب ملك فساد فى العاقبة ، وما دعوناك الا بشرط الصبر عن الابتداء لصلاح الانتهاء .

فيقول الجسم والقلب(٢٢٨) : ومن أين لنا ذلك وانا على فقد ، وانك على علو الهمة تأنف من مقامنا لخدمة الكبراء ، وتتعالى عن سؤال الأغنيـــاء والاجارة وأخذ المباح مما لا يسعدنا بفلاح(٢٢٩) ، وما وراء هـــذه الأسباب للملك سبب لمن لا عسكر له ولا نشب .

فقال : أبشر فما مع الحيلة عجز ، وفى أبوابها كل نجز ، لنسرقن من الناس أموالهم ، ثم لنسرقن ببذلها رجالهم ، ثم لنغالبن بهم باقى الورى ، ثم لنستولين على جميع الدنيـــا ، وذلك الأمد الأقصى(٢٣٠) .

فيقولان : نعم ، فالقلب قد صار أعشى لا يبصر الا الأدنى ، فكيف لنا بالسرقة ؟

فتقول : انها سرقة من الحرز سرا ، وسرقة من الطريق جهرا ، وسرقة بالعلم قولا ، وسرقة بالزهد تركا . فالأوليان سببا الأموال بواسطة تحين الفرصة ، والأخرين سببا لا أكبر منهما بواسطة الخلسة ، فانك متى شهرت بالعلم اختلست من الناس جاههم ، واحتاجوا اليك بأموالهم متوسلين ، ومتى شهرت بالزهد اختلست من الناس قلوبهم ، وتمنوا أن يكونوا عبيدا لك بأموالهم راغبين(٢٣١) .

---

(٢٢٧) فى الأصول : لكنها . وما اثبتناه أوضح .

(٢٢٨) أى : مخاطبا النفس . (٢٢٩) فى (أ) : مما لا يشعر لنا .

(٢٣٠) وردت أحاديث كثيرة فى هذا النوع من الفقهاء خاصة . أخرج البغوى عن ابن عمر قوله صلى الله عليـــه وسلم : « أكثر منافقى أمتى قراؤها » .

وأخرج ابن ماجه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليـــه وسلم : « ان اناسا من أمتى سيتفقهون فى الدين ويقرأون القرآن يقولون : نأتى الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا » .. الحديث .

(٢٣١) عبر المحاسبى فى الباب الرابع من الوصايا عن هـــذا النوع من علماء السوء فقال : يزهدون الناس فى الدنيـــا ليأخذوها منهم فى المجلس .

فالأوليان أقرب ، والأخريان آمن ، ولكما الخيار فاختارا • فيختاران • فالله تعالى استدرجهما بفتح باب الاصابة عليهما ، وتسابق الأغراض اليهما فأصبح العبد ملكا مطاعا ، ملكيا[٢٣٢] شاكرا نفسه ، فقد وجدها ضمنيا وفيا ، فتمت دائرة جهاد النفس لأخذ القلب من غلبة الى سرقة ، ودائرة ايفاء الضمان من سرقة الى غلبة ، دائرتان حصينتان تمويها ، ومتناقضتان تحقيقا ، فما صاغ الدائرة الا لطلب العاقبة[٢٣٣] ، وما لهما من عاقبة •

فالدنيا وان ملكت زائلة ، وقد علل[٢٣٤] لامتناع الدنيا عليه ابتداء[٢٣٥] بعدم سبب الملك لعاقبة الصلاح والسداد ، ثم طرق الأخذ بالسرقة ، وانها سبب فساد ، ثم جعل عاقبة الوفاء : أن جعله على الدنيا أميرا ، وانما جعله لمصالح الدنيا أسيرا ، فما زاد فى الدنيا قصرا ، ولا أحكم لها أمرا ، الا نقص لنفسه عمرا ، الى غموم[٢٣٦] لا يعرف حدها ، ومخاوف لا يمكن ردها ، على ما سبق لك منا ذكرها ، مع ما أمر بالأخذ من الناس بعضا بعضا ، ثم الرد فيهم نقضا نقضا ، وقد استنارت الدائرتان بقوة ظاهرا ، وأظلمتا بعجز باطنا ، فقد بدأ الأمر بمغالبة ونصر[٢٣٧] فرجع بعجز وخسر ، وختم بمغالبة أبناء الدنيا فرجع بنحر وظفر[٢٣٨] ، فظهر بالأولى عجز النفس ، وبالأخرى عجز الجنس ، وظهر بالأولى على الكل اذ عجزوا عن مضغة وهى القلب قدرة المولى ، وثبت بالأخرى وقد انتقم من الظالم بالظالم[٢٣٩] قهره ، من حيث لم يشعر الردى •

فهذه نفس سلبت نصيب ربها ، وحفظت نصيب الدنيا ، وبلغت[٢٤٠] منها الأمد الأقصى •

---

(٢٣٢) فى (م) : مكفيا . من نسخة ثانية .

(٢٣٣) فى (أ) : عاقبة . (٢٣٤) فى (ب) : علمك .

(٢٣٥) فى (ب) : انتداء .

(٢٣٦) فى (ب) : الى عمومات .

(٢٣٧) فى الأصول : نصيب . وما اثبتناه أصح .

(٢٣٨) فى (ب) : بفخر وظفر .

(٢٣٩) أى : بالظالم وهو القلب من الظالم وهو النفس .

(٢٤٠) فى (ب) : وبلغه .

فتقوم الروح قيام الساحر ، والساحر محتال كالسارق ، الا أن السارق سالب مكرا[٢٤١] ، والساحر سالب علما وجهرا ، ولكنه سر عن العيون لطفا ولفظا فتقول :

أيها القلب الذكي ، والجسم الجرى ، سعيتما للعظيمة ، وفزتما[٢٤٢] بالكريمة ، وربحتـما بالنظر فى العواقب ، فحزتما على (أعلى)[٢٤٣] المراتب ، وما رأيت مثلكما من ناظر مصيب طبعا ، ثم طالب عجيب عقلا ، قد استحسنت فعلكما عن ابتداء أمركما ، الى انتهاء عمركما .

كنتما[٢٤٤] فى المهد ابتـداء والظئر تربيكما ، فظننتموها صاحبة الأمر ، وملتما اليها فى كل خير وشر ، ثم انتقلتما الى الحجر فرأيتما الأم صاحبة الظئر ، فرجعتما اليها ، ثم خرجتما الى القصر ، فرأيتما الأب قيم الأمر ، ففضلتما عليهما حسن شرعكما[٢٤٥] بصفاء طبعكما .

ثم خرجتما الى المصير فرأيتما نعيم الدنيا ، وعرفتما صاحبكما النفس بعقل مضىء انضم الى طبع صفى ، فرجعتما اليها ، فبلغتكما الأمد الأقصى .

غير أنكما قصرتما فى طلب الأول ، فنفسكما بعض نفوس الورى ، فكل الورى أبناء الدنيا ، وانما نفسكما رقيب داع الى الأول ليكون القرار لدى من لم يزل .

والنفس فى كل ذلك تقـول : نعم ، كلام صدق ، وقـول حسن فاستعملاه .

فتقول الروح : فانظرا فقد وفقتما للاصابة الى ما يتولد منه هذا النعيم ، فارجعا اليه كما رجعتما عن الأبوين الى النفس العظيم .

فيقولان : نعم ، انه المـاء والنار والتراب والريح .

فتقول : فانظرا فيما أوجب الاعتدال بين هذه الأصول ، فانها أضداد فارجعا اليه .

---

(٢٤١) فى (ب) : سالب كرها .
(٢٤٢) فى (ب) : وقربتما .
(٢٤٣) سقطت من (ب) .
(٢٤٤) فى (أ) : فكنتما .
(٢٤٥) فى (أ) : فحش شرعكما .

فيقولان : نعم ، انها الكواكب السبعة الملوك .

فتقول : فانظرا الى من سخرها ، فالمسخر لا يصلح للتدبير فارجعا اليـــه .

فيقفان[٢٤٦] مسترشدين من الروح لوقوفها على فرط معرفة[٢٤٧] ، وحسن هدايـــة[٢٤٨] .

فتقول : انه يقال[٢٤٩] : هو العلة الأولى ، أو العنصر أو الهيولى ، ولا مشاقة فى الأسماء ، فالعبرة للمعنى ، فالاسم بلا معنى فاسد من الدعوى ، والمعنى فيه : منشىء الفلك والنجوم ومدبرها على التسخير[٢٥٠]، وقاهر الطبائع على الأضداد حتى اعتدلت بالتقدير[٢٥١] ، ومعلق أمور العالم المدبر اختيارا بها[٢٥٢] حدوثا ثم هلاكا حتى يتيقن المدبر الهالك بالمسخر أنه ليس بذى قدرة ، وقد عرف المسخر أنه ليس على امرة .

فيقولان : نعم ، أين هو ؟

فتقول : لا أين ، فأين عبارة عن المكان ، والمكان[٢٥٣] هو الأجزاء الظاهرة من العالم بما عليها[٢٥٤] ، وقد ثبت حدوث كل العالم بخلق الخالق ، وكان الخالق ولا مكان ، فخلق المكان فبقى على ما كان .

فيقولان : كيف هو ؟

فتقول : لا كيف ، فكيف عبارة عن استحضار الحال ، والحال[٢٥٥] عرض حادث ، ووصف المحدث بالحدث محال .

فيقولان : متى كان ؟

فتقول : لا متى ، فمتى عبارة عن الزمان ، والزمان[٢٥٦] اســـم للساعات والأيام ، والشهور والسنوات ، وعليها دوران الفلك[٢٥٧] ، وانه مخلوق بطرائقه ، ونحن فى بيان خالقه .

---

(٢٤٦) فى (ب) : فيقولان .

(٢٤٧) فى (أ) : فرط معرفته .

(٢٤٨) فى (أ) : هدايته .

(٢٤٩) فى الأصول : قال . واخترنا ما فى (م) . من نسخة ثانية .

(٢٥٠) فى (أ) : تسخيره .

(٢٥١) فى (ب) : للتقدير .

(٢٥٢) فى (أ) : اختياراتها .

(٢٥٣) فى الأصول : فالمكان .

(٢٥٤) فى (ب) : لما عليها .

(٢٥٥) فى الأصول : فالحال .

(٢٥٦) فى الأصول : فمتى .

(٢٥٧) فى (م) : وعلتها . من نسخة ثانية .

فيقولان : ألا ندركه بالحس ؟

فتقول : لا ، فان الدرك بالحس لكيفية المحسوس ، ولا كيف ، ولأنه لابد للدرك بالحس من مكانين تتصل الحاسة من الحاس بالمحسوس .

فيقولان : وما هو ؟

فتقول : لا ماهية ، فانها اسم لما لا علم له ولا مشيئة .

فيقولان : من هو ؟

فتقول : خالق العالم لك يا ولد آدم ، ومقدر السيادة من جنسك العالم .

فيقولان : أحدث هذا العالم تولداً من نفسه ؟ أو تكونا بحكمة ؟

فتقول : ان التوليد لا ينفك عن مكانين (وجزءين)[258] وقد ذكرنا أنه لا مكان له ، وكذلك لا أجزاء ، فغير مستقيم القول[259] بالأجزاء مع الابتداء ، فلن يتصور الشيء أجزاء الا باجتماع ، والاجتماع عرض ، والعرض حدث ، والموجود بالحدث لا يتصف بالقدم ، وباجتماع الأجزاء مما يستدل على المحسوسات بالحدث ، ولأن الموجود بالتولد لا يتصور الا على مثال المولد بجسمه أو بطبعه كالمتولد من كل أصل في العالم ومما يتولد من النبات بصنع بني آدم .

ثم كان قوام المتولدات بطبائع متضادة اعتدلت بأجزاء اجتمعت ، ولن تعتدل الأجزاء الا بقاهر ، ولا الأجزاء تجتمع الا بجامع وانما في طلبه ، ولن يجز ، وأن يكون ذلك[260] القاهر والداً على مثال الولد ، فيصير محدثاً كما صار الولد ، فلم يبق الا أن يكون محدثاً بالحكم شاء فكان كما شاء .

فيقولان : ان كانت معرفة هذا المحدث على سبيل الوجوب ، فمن أين أثبت له اسم العنصر والهيولى ، وبأي وجوب سمي العلة الأولى ؟

فتقول : انه لم يزل كان شبهة عندي ، ونعم العون الشورى ، وبئس الرفيق الاعجاب بما تسمع أو ترى . ان العلة اسم لما يحدث بلا اختيار ، كالمرض سمي علة لاحداثه تغيراً في المريض لم يكن ، ولا اختيار للمريض ، والقتل علة الموت ، ولا اختيار للمقتول[261]

---

(٢٥٨) سقطت من (ب) .

(٢٥٩) في (ب) : وكذلك الاجزاء لغير مستقيم القول .

(٢٦٠) في (ب) : ولم يجز أن يكون ذلك .

(٢٦١) في الأصول : ولا اختيار للقاتل . والسياق ينفيه يريد : أن القتل هو العلة دون القاتل والمقتول .

ولا للقتل ، والقاتل لا يسمى علة ، وما لا اختيار له فمسخر لا محدث مدبر • وأما العنصر والهيولى فلا يعقل لهما فى لغتنا معنى ، فندع ما لا نعرف بما عرفنا له معنى فنقول :

انه الواحد من حيث أنه أول ، ما قبله شىء ذاتا فيكون هو ثانيا بعد موجود ، ما يماثله شىء سواه صفاتا فيصر له روحا ، لأنه[٢٦٢] واحد من حيث العدد ، فيكون جزءا •

فيقولان : انه وصف كاف ، فما الاسم الذى هو معرفة شاف ؟

فنقول : الله •

فيقولان : فما معنى « الله » ، فقد تركنا الاسم بلا معنى •

فنقول : كان فى الأصل الاله ، ولكن لينت الهمزة لكثرة الاستعمال ، ثم أدغمت اللام فى اللام فصار « الله » • والاله : المستحق للعبودية والعبادة فى لغة العرب ، وكانت العرب تسمى الأصنام آلهة ، لاعتقادهم أنها معبودة استحقاقا •

فيقولان : ولم كان هذا الاسم له ، اسم معرفة دون غيره من الأسماء ؟

فنقول : لأن أول درجات المختار فعلا أن يكون حقا عليه اختيار العبادة فعلا ، والتزام المعبودية عقدا ، فكان الأعلى فى مقابلته ما ينبىء عن استحقاق هذا الحق عليه ، وذلك اسم الله تعالى ، فدل على خلق هذا الخلق ليتحقق معناه فعلا بهم ، وبه نطق القرآن : **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »**[٢٦٣] • لكن بحق الأمر دون حق الجبر[٢٦٤] •

بهذا الاسم نطق القرآن : **« قل هو الله أحد • الله الصمد »**[٢٦٥] •

« شهد الله أنه لا اله الا هو »[٢٦٦] •

« والمؤمنون كل آمن بالله »[٢٦٧] •

« هو الله الذى لا اله الا هو »[٢٦٨] •

---

(٢٦٢) فى (ب) : لا أنه .   (٢٦٣) الذاريات : ٥٦

(٢٦٤) الفرق بين الفعل الناشىء عن الجبر والفعل الناشىء عن الأمر : ان الأول اضطرارى يفعله المجبور دون درك لحكمة ودون قدرة على التوقف بخلاف الثانى ففيه شوب اختيار بوجه ما ، وفيه درك الحكمة ، وهو مناط التشريع بخلاف الأول .

(٢٦٥) الاخلاص : ١ ، ٢   (٢٦٦) آل عمران : ١٨

(٢٦٧) البقرة : ٢٨٥   (٢٦٨) الحشر : ٢٣

وقال صلى الله عليـــه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله »[٢٦٩] .

فيقولان : كيف نعرفه موجودا بلا سبب وقد استحال فى الشاهد ذلك ؟

فنقول : انك ترى فى الشاهد الحادث عن سبب ، وكلامنا فى المحدث ، ولانك متى عرفت الوجود فى نفســـه عن سبب كان السبب موجودا قبله ، فلا يخلو ذلك الموجود عن آخر على مثال الشاهد ، فيؤدى الى ما لا يتناهى .

فيقولان : وما الذى يمنعنا عن القول به وقد لزمك فى الشاهد الآدمى عن النطفة ، والنطفة عن الآدمى ، والبيضة عن الطير ، والطير عن البيضة ، دائرة ما لها ابتداء ولا انتهاء .

فنقول : القول بالحدوث لجملة تضطرك الى القول بتناهيه الى حين حدوثه ، ولا يتناهى الا بجعل[٢٧٠] ابتداء الحدوث عن احداث محدث على عن آيات الحدث[٢٧١] ، فيكون أزليا ما له حدوث ، فيتناهى الى حين حوثه .

فيقولان : أليس لا انتهاء لنا فى العاقبة ؟ فكيف جاز الابتداء لـــا لا انتهاء له ؟ انما هو خيط له طرف ابتداء وطرف انتهاء لا يجوز غيره ، وحلقة ما لها طرف ابتداء ولا طرف انتهاء . فلما لم يكن لوجودنا انتهاء ثبت ضرورة أنه لا ابتداء له .

فنقول : ان التناهى فى الشاهد لأجزاء المحدث ، حتى كان محدودا ثابتا ، سواء أكان خيطا أم حلقة ، وهكذا القول فيمن أحدثه الله تعالى . فأما من حيث البقاء موجودا فكذلك فى الشاهد غير متناه ، فانما يتصف بالبقاء من اذا وجد بقى كذلك بلا علة تبقيـــه ، ولا يزول الا بعلة مزيلة ، فكان الزوال متناهيا وجوده[٢٧٢] بعلة مزيلة لا بكونه حدثا ،

---

(٢٦٩) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن عمر .

(٢٧٠) فى (ب) : الا لجعل .

(٢٧١) فى (ب) : على غرار آيات الحدث .

(٢٧٢) فى (أ) : وتناهى وجوده .

فكذلك فيما أحدث الله تعالى ابتداء ، (لم يدل ابتداء)[٢٧٣] وجوده على تناهيـــه ، بل بقى الى أن يوجد ما يزيله ، ولكن حكمنا[٢٧٤] له بالبقاء (لا)[٢٧٥] لعلمنا بعدم ما يزيله بدليله ، بل بدليل أوجب بقاءه كما أوجد ابتداءه •

فيقولان : فهلا امتنعت عن القول بالاحداث من الله تعالى عن عدم كما فى الشاهد ؟

فنقول : (للضرورة)[٢٧٦] ، فانى متى امتنعت عنه لم يثبت العالم الا من طريق التوليـــد من ذات القديـــم أو من شىء آخر معه قديـــم ، والأمران باطلان ضرورة على ما مر ويذكر ، ولأنه فى الشـــاهد امتنع الايجاب لا عن أصـــل لعجزنـــا عنه ، لا لأن ذلك الوجود مستحيل فى نفســـه ، كما استحال من الأعمى الرؤيـــة لعجزه ، أو باستحالة الرؤيـــة نفسهـــا • فكما استحال وجودنا بلا محدث لم يستحل لله تعالى هـــذا الوصف •

فيقولان : عرفنا هذه الجملة ، فاشرح لنا صفة الواحد شرحا تعرفه القلوب •

فنقول : ان الواحد من الحساب اسم للجزء ، فالذى هو أول من الوجود وتر لا زوج من المعدودات ، والواحد من الصفات فى الشاهد اسم للسابق ، من قولك : فلان واحد دهره ، وما الله تعالى بجزء ، فأنى يكون جزءا الا بموجود آخر معه سواه ، أو بكينونته قابلا لانضمام جزء آخر اليه بمعناه •

فالاجتماع أو احتماله آية الحدث ، ولأنه لو كان معه شىء فى الأزل لم يكن حادثا به ، فيصير قديما مثله ، فيصيران اثنين ، وفى القول بالاثنين اثبات العجز عليهما فى الانشاء والتقدير ، لأن الانشاء (من الاثنين)[٢٧٧] لا يخلو عن تعاون أو تصالح أو تغالب أو غفلة ، ولا تعاون الا عن عجز عن التفرد بالفعل ، ولا اصطلاح الا عن عجز عن الغلبة والدفع ، وفى المغالبة عجز وفساد ، وفى الغفلة عجز وجهل ، والعاجز

(٢٧٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) •
(٢٧٤) فى (أ) : ولكنا حكمنا •
(٢٧٥) سقطت من (ب) •
(٢٧٦) سقطت من (ب) •
(٢٧٧) سقطت من (ب) •

عن غلبة موجود أعجز عن ايجاد المعدوم ، فغلبة الموجود تتصور[٢٧٨] فى الشاهد مع العجز عن ايجاد المعدوم ، وكذلك العاجز عن معرفة الموجود أعجز عن ايجاد المعدوم ، اذ الجاهل بحال المعدوم أو الجاهل بحال الموجود أجهل بعواقب المعدوم ٠

ولأن الشىء الآخر مع الله تعالى لو كان تحت أمر الله حتى خلق الله تعالى العالم بأصله لم يجز أن يكون قديما ككله ، فثبت أنه واحد من حيث أنه (أول ما قبله ولا بعده شىء ذاتا فيكون شريكا له أو نظيرا ، وواحدا من حيث أنه)[٢٧٩] فرد لا يماثله شىء سواه صفاتا ، فيكون الشبيه زوجا له لا مخلوقا به ، لأن الشبيه مثل ، وما المخلوق للخالق بعدل ٠

ولهذا سمى الله تعالى قول اليهود : « عزير ابن الله » ٠ وقول النصارى : « المسيح ابن الله » شركا ، وقولا بالشفع للذات ، لأن الولد شبيه الوالد فى الصفات ، وقد بطل القول بالشبه ، فثبت أنه واحد من حيث أنه فرد ما له شبيه ، فى صفاته ، كما لا ثانى لذاته ، حتى فارق كل واحد بصفته الواحدية ، فمن دون الله لا يسمى واحدا الا لانفراده عن نظيره بحاله ، والله تعالى واحد من حيث ما له نظير ، وكذلك الله تعالى عالم من حيث لا يخفى عليه شىء ، لا من حيث أدرك بالضمير[٢٨٠] ، قادر لا من حيث لم يقاومه غيره ، بل من حيث لا يفوته ما يشاء من صغير أو كبير ، وكذلك أسماء الله تعالى ثابتة من حيث لا يجوز ألا يكون ، وغير الله يتصف بأوصاف وبأحوال تحدث بيقين ، حتى كانت الأوصاف منها أسماء لأحوال ، والله تعالى متعال عن الحال والزوال ، فزوال ما له عجز ، وحدوث ما لم يكن مما ينبغى أن يكون نقض ، والرضا بالخلل عجز أو خبل ما يجوز ذلك بالله تعالى ٠

---

(٢٧٨) فى (أ) : متصور ٠

(٢٧٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) ٠

(٢٨٠) الفرق بينهما أن علمه من حيث لا يخفى عليه شىء علم احاطة وشمول ازلا وأبدا أما العلم الناشىء عن الادراك بالضمير فصفة بنى آدم من العلماء ، ولا يتسم بالشمول ولا الاحاطة بل يتجدد بتجدد ظروف الادراك ٠

(وكيف يجـوز)[٢٨١] وكل كمـال فى الشـاهد يعرف بمخلوق بخلقه[٢٨٢] ، فكيف تستقيم القدرة على الخلق لغيره على عجز فى حق نفسه ، ولأن الحادث لابد أن يكون غيره ، فيصير قولا بالتثنية معنى ، متى وصف بالحادث ، ان لم يكن دعوى • فهذا تفسير الواحد •

فيقولان : فما القصد فى الباب ، فنأتيه ولا نتعداه •

فنقول : ان الله تعالى ما عرف الا بحجة على الحقيقة ، فلا نعرف أسماءه الا بتلك الطريقة ، ولأنه لا طريق فى الشاهد للعلم المعتاد الا الحس فى المحسوسات ، أو النظر والاستدلال بها على المغيبات ، والله تعالى غير معلوم بالحواس ، فلم يبق الا النظر والقياس • فما للقلب حس نظر كما لظاهر البصر ، وانما نظره تفكره فيما ظهر مستدلا به على ما استتر ، فنقول وبالله التوفيق :

ان اسم الله يلزمك القول بالأسماء الحسنى التى الى أمثالها فى الشاهد ينتهى الكمال ، فاستحقاق العبوديـة له على ما سواه معنى الاله ، وانه لأعلى الرتب بشهادة الحال ، وهى نحو اسم الحى القيوم الحق القهار العالم القدير الجبار ، الحكيم المتكبر العزيز الجليل المجيد •

واسم أنك عبد يلزمك القول بالأسماء الدالة على لزومك هـذه الصـفة وذلك نحو المطاع المعبود القدوس السـبوح العظيـم الموجد الحميد •

فكونك عبدا آية على أنك لست لك ، ولكن لله تعالى ، فهكذا أفعالك لا تكون لك ، ولكن لله مالك من ملك استيفاء الا لله الا بقدر ما أذن لك فى الاستيفاء لك كما فى الشاهد فى ملك غيرك ، فكذلك دلت صفة عبوديتك على أسامى الله تعالى التى ذكرناها •

وأما صفة الواحد فتضطرك الى القول بأقسام أربعة من الأسماء كما تشعب معناه أربعا : قسم دل على الهويـة نحو : هو ، فانه كناية عن غائب موجود ، والغائب عن الحواس الموجود فى الأزل هو الله تعالى ، وفيه معنى حسن وهو : التعالى عن درك الحواس حتى استحق اسم الكناية عن الغائب من غير غيبة •

---

(٢٨١) سقطت من (ب) •   (٢٨٢) فى (ب) : لخلقه •

فأما الشيء والذات والنفس فليست من أسماء الله تعالى ، فما فيها معنى حسن ، ولكن لا يقال : الله ليس بشيء ، لما فيه من نفي الوجود ، وكذلك الذات والنفس ، ولا يجوز النداء بها ، فلا يقال : يا ذات ، يا نفس ، يا شيء ، بل يقال : يا خالق كل شيء وكل ذات وكل نفس ، فانما ذكر الله تعالى نفسه لاثبات الهوية لا لبيان أنه اسم مطلق ، فانه لم يذكره الا مضافا اليه ، والاسم : ما يعرف المسمى لا ما يعرف بالمسمى .

وقسم دال على الأولية ، نحو : الأول[283] ، والقديم ، والأزلي[284] .

وقسم دل على الوحدانية ، نحو : (الواحد)[285] ، والوتر ، (والفرد)[286] ، والأحد .

وقسم دل على العلو ، وذلك باثبات جميع الأسماء الحميدة[287] الدالة على الكمال في الشاهد ، لا من الطريق الذي يكون في الشاهد بأحوال أو أسباب[288] على احتمال ، ولكن على الوجوب نفيا للنقصان ، واثباتها للجلال .

وأما صفتك بأنك ممتحن فيلزمك القول بأقسام أربعة (أخر)[289] :

قسم دل عليه وجودك عن العدم ، نحو : القادر ، والقاهر ، والخالق ، والملك[290] . فالعدم لا ينقلب وجودا الا بأعلى وجوه القهر والقدرة .

وقسم دل عليه وجودك للبقاء بأسباب ، نحو : الرزاق[291] ، والمقيت ، والمقدر ، فلا بقاء لنا بدون الرزق ، ولا اعتدال الا بالاقاتة ، وهو[292] : الاعطاء بقدر ، مأخوذ من القوت ، وهو : المقدار الذي يزجى به العمر[293] ، ولا ملك بقاء الا بتقدير مدة الحياة .

ودل البقاء للمحنة والجزاء على أنه : حكيم ، عليم ، شهيد ، حسيب ، غني ، محيط ، كريم ، رحيم ، ونحوها . اذ الصنع انما

---

(283) في (ب) : الأزلي .
(284) في (ب) : والأول .
(285) سقطت من (أ) .
(286) سقطت من (أ) .
(287) في (ب) : الأسماء الجميلة .
(288) في الأصول : من أسباب . واخترنا ما في (م) .
(289) سقطت من (أ) .
(290) في (أ) : والمالك .
(291) في (أ) : الرازق .
(292) في (ب) : وهي الاعطاء .
(293) في (أ) : به يزجى العمر .

خرج[٢٩٤] عن حد[٢٩٥] العبث الى حد الحكمة بالمحنة للجزاء ، فدل البقاء لهذه المحنة على أن الصانع حكيم ، ولا حكمة حيث لا علم ، ولا علم اذا غاب عنه شيء ولم يشهده ، أو فاته جزء ، ولا يكون علمه حسبه[٢٩٦] اذا لم يكن محيطاً ، ولا صنع للمحنة مع الصفح عن جزاء الخبيث الا عن كرم ورحمة ، ولا جزاء للمحسن من غير نفع يعود (اليه من احسانه[٢٩٧] الا عن طريق الغنى والحكمة .

ودل الجزاء)[٢٩٨] على أنه باق آخر دائم ، لأنه متى لم يبق لم يتصور منه الجزاء الباقى ، ودل على أنه ديان مالك يوم الدين يوم جزاء[٢٩٩] الاحسان بالاحسان ، والسيئة بالسيئة ، فالديان وصف شامل[٣٠٠] للعبيد كلهم .

وأما على التفصيل فجزاء الاحسان يلزمك القول بالفضل والرحمة والعفو والمغفرة والتجاوز والتوبة ، لأن الجزاء ما كان لله خالصا ، فجعله للعبيد بأن أعمل ما لم يكن فى الحقيقة الا لله على ما فسرنا : أن العبد بذاته وحركاته لله (تعالى)[٣٠١] وانه لفضل ، وكذلك الجزاء غير معيب ، والعمل معيب ، فقلما يخلو العمل عن عيب ظاهر أو سر . أدناه بالفكرة فى غير الرب (تعالى)[٣٠٢] من يملك الخطرة ، والرد بالعيب من العدل ، واذا قبل كان من الفضل .

وكذلك الجزاء أضعاف ، والعدل بالمثل ، وجزاء السيئة يلزمك القول بالعدل والحكمة ، والغضب والسخط والعزة ، لأن العدل عبارة عن الحكم بالحق بلا زيادة ولا نقصان ، بلا ظلم ولا غفران ، وفيه حكمة السياسة ، وذلك فى مجازاة العاصى بمثله معصية فى الآخرة .

فيقولان : قد ذكرت أن الله تبارك وتعالى أزلى بأسمائه ، فكيف نعرفه خالقا ولا مخلوق [هنالك] ؟

---

(٢٩٤) فى (ب) : يخرج . (٢٩٥) فى (أ) : من حد .

(٢٩٦) أى : كافيه .

(٢٩٧) أى : الى الله من احسانه الى العبد المحسن فى العمل .

(٢٩٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٢٩٩) فى (ب) : ثم جزاء . (٣٠٠) فى (أ) : اسم شامل .

(٣٠١) سقطت من (أ) . (٣٠٢) سقطت من (ب) .

فنقول : انا لا نعرف الله تعالى بأحوال تحدث ، تعالى الله عن ذلك ، ولكن سميناه خالقا على معنى القدرة على ايجاد المعدوم[٣٠٣] ، فالخالق هو الاسم الخاص الدال على هذا المعنى ، حتى قيل للكذب : خلق ، لأنه ليس له مخبر عنه سابق • وانما هو : ايجاد للحال ، أو [الخلق] عبارة عن ابتداء التقدير لأمر يريد أن يفعله الصانع على الصواب ، ولله تلك القدرة ، فتسمى بها •

واما اخبار[٣٠٤] عن الفعل ، وهو أن خلق الخلق ، فلا نجعله[٣٠٥] أزليا ، وانما نريد به ما انخلق (هـذا)[٣٠٦] العالم به حين الخلق ، كما يقال فى الشاهد : فلان مناظر ، اذا ظهرت قدرته عليها ، ولا يقال : ناظر فلانا الا اذا وجد فعل المناظرة[٣٠٧] منه حقيقة •

الا أنه فى الشاهد ما ثبتت الصفة [للمناظر] الا بظهور الفعل منه بحق ، وثبتت الصفة للصانع بالحجة قبل الخلق ، وكذلك نقول[٣٠٨] : انه متكلم لم يزل ، قال الله تعالى : **« وكلم الله موسى تكليما »**[٣٠٩] • ولا نقول[٣١٠] : كلم الله موسى لم يزل •

وكذلك الكلام فى الشاهد ، انما يكون بصوت مقدر بحروف منظومة ، خارجة عن مخارج معلومة ، تعالى الله عن الكلام بهذا الحد ، وانما نعنى بالوصف ما يدل على القدرة الخاصة التى يكون عنها الكلام المعروف[٣١١] لا عن الصوت والحروف •

وكذلك نقول : غضب الله على الكافرين • وانه فى الشاهد عبارة عن حدة تعترى الانسان من هيجان المرة[٣١٢] فتحمله على الانتقام عند

---

(٣٠٣) فى (ب) : الايجاد للمعدوم •

(٣٠٤) فى (أ) : فاما اخبار •

(٣٠٥) فى (أ) : ولا نجعله • والمراد : الا نجعل المخلوق ازليا •

(٣٠٦) سقطت من (ب) • (٣٠٧) فى (ب) : نفعل المناظرة •

(٣٠٨) فى (ب) : فكذلك نقول • (٣٠٩) النساء : ١٦٤

(٣١٠) فى (أ) : ولا يقال • وانما لا يقال ذلك لأن تكليمه لموسى قد انقطع •

(٣١١) فى (ب) : بالمعروف • ويمكن توضيح المراد فى الشاهد ولله المثل الأعلى بقولنا عن الطفل : انه ناطق ، أو متكلم ، وذلك قبل أن يتكلم ، باعتبار أن قوة الكلام فيه كامنة موجودة •

(٣١٢) المرة : القوة الغاضبة التى تكون عن هيجان الصفراء •

القدرة ، وتعالى الله عن ذلك ، فما مرة هنالك ، لكن أردنا به الانتقام بالعدل من العصاة بالمثل ، وعلى هذا المعنى أسماء الله (تعالى)[٣١٣] بلا حال ، وان كانت أسماء حقيقتها فى الشاهد من[٣١٤] (هذه)[٣١٥] الأفعال .

فيقولان : فما علينا وقد علمنا الحجج ؟

(فتقول : العمل بعلم ثبت لك بها ، فقد ذكرنا أن الله خلقك للعمل بالعلم .

فيقولان : من أين البداية ؟

فتقول : من عمل القلب ، وعمله الاعتقاد وتصديق الحجج)[٣١٦] وهو الايمان ، وانه عمل بالعلم ، فضد الايمان كفر ، وضد العلم جهل ، وابليس عالم بالله تعالى كافر به ، ويقول الله تعالى حكاية عن آل فرعون : « **وجحدوا بهـا واستيقنتهـا أنفسـهم ظلما** »[٣١٧] . والجحد والكفر واحد ، ومن أهل الكتاب من علم برسول الله صلى الله عليه وسلم بنص الكتاب وكفر به .

فالعلم فى تبدى المطلوب للقلب وتجليه ، حتى لا يبقى خفيا عليه ، والعمل فى تصديق القلب ما تبدى ، وعقده عليه ، فاذا صدق بقلبه تم ايمانه بينه وبين ربه ، غير أن الله تعالى جعل الشهادة به نطقا من الايمان ، ركنا بخطابه على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم)[٣١٨] وكتابه ، ليتم ايمانه بينه وبين خلقه ، ويتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣١٩] من اقامة حكم الله له و (عليه)[٣٢٠] بحقه . وبهذا لم تجب الشهادة الا مرة ، فانها لعلم الناس به ، وقد حصل بالمرة ، وهذه القاعدة لها[٣٢١] .

---

(٣١٣) سقطت من (ب) . والمراد من قوله : بلا حال : بلا تحول .

(٣١٤) فى (ب) : عن .

(٣١٥) سقطت من (ب) .

(٣١٦) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٣١٧) النمل : ١٤

(٣١٨) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٣١٩) فى (أ) : عليه السلام .

(٣٢٠) سقطت من (ب) .

(٣٢١) أى : علم الناس بايمانه .

وأما الاعتقاد فحق الله تعالى ، وانه ثابت أبدا ، ما يحتمل زوالا ولا حالا[٣٢٢] .

فيقولان : لله كتاب ورسول وخطاب غير دلالات العقول ؟

فتقول : نعم ، لله رسل من الملائكة المقربين ، ورسل من البشر المكرمين ، وكتب قيمة ، وصحف بينة ، فيها هدى وشفاء للصدور[٣٢٣] ، وبيان لكل شيء يحتاج العبد اليه لتمام دينه بأتم نور ، فيستغنى العبد بهداه عن رأيه الا فى معناه .

فما[٣٢٤] البيان من علام الغيوب الذى لا يخفى عليه شيء من الأصول والفصول كبيان المجتهد المستدل بدلالات العقول ، اذ ذاك[٣٢٥] يقين ، ويشوب هـذا كثير من الظنون .

فيقولان : وبأى دليل نعرف الكتاب والرسول ؟

فتقول : بآيات معجزات على ما ذكرنا فيما مضى من الفصول .

فيقولان : فما الآية القائمة للحال على هذه الدعوى ؟

فتقول : كتاب الله تعالى الذى فينا ، فهو معجزة بفصاحة النظم ، وبلاغة المعنى على ما سبق ذكره ، ويأتيك وصفه .

فيقولان : وما اسم هـذا الكتاب ؟

فتقول : جاء وقت انتقاد[٣٢٦] ما أملينا عليك من مواجب العقول على الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، ووقت جوابى لك بعد هـذا على ما نطق به الكتاب من غير تقصير فى معرفته ، ولا غلو بالرأى على مخالفته .

فالله تعالى يقول : « **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء** »[٣٢٧] . والفائز من قبل هـذا النصح ، ولم يستعمل الرأى الا فيما (لم)[٣٢٨] يجد النص .

فيقولان : (نعم ،)[٣٢٩] فما اسم الكتاب ؟

---

(٣٢٢) اى : تحولا وتغيرا .
(٣٢٣) فى (أ) : لما فى الصدور .
(٣٢٤) فى (ب) : فهذا البيان .
(٣٢٥) فى (ب) : اذ ذلك .
(٣٢٦) ضمن الانتقاد معنى العرض .
(٣٢٧) النحل : ٨٩
(٣٢٨) سقطت من (ب) .
(٣٢٩) سقطت من (ب) .

فنقول : ان الله تعالى يقول : « **انا أنزلناه قرآنا عربيا** »[٣٣٠] .

وقــال : « **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة** »[٣٣١] .

وقــال : « **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم** »[٣٣٢] .

فاسم كتابنا : القرآن ، واسم كتاب عيسى : الانجيل ، واسم كتاب موسى عليــه السلام : التوراة ، واسم كتاب داوود عليه السلام الزبور .

فيقولان : كيف الانقياد[٣٣٣] بالقرآن ؟

فنقول : بأن يتأيد القرآن وآياته بما أثبته العقل من موجباته[٣٣٤] ، فالعقل نور هاد ، والوحى ضياء كاف ، وهما حجتا الله تعالى ، وحجج الله لا تراد ولا تتضاد ، ولكن الشرع فوق العقل ، كالشمس فوق السراج على ما سبق القول فيه .

والقرآن منه آيات محكمات ، وآيات متشابهات . فالمحكم : ما جاء شاهدا (بما شهدت)[٣٣٥] به العقول من الواجبات التى لا تحتمل النسخ بحال . سمى محكما للأمن عن انتساخه ، كالبناء المحكم الذى أمن من انتقاضه ، والمتشابه : ما جاء مؤيدا للواجبات بأصله ، زاد بوصفه ، فتشابه على السامع علمه (من)[٣٣٦] حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه ، ولا سبيل الى المخالفة .

فوجب القول بالمحكم كله ، والوقوف[٣٣٧] فى حد المتشابه بعد اثبات أصله ، طلبا للتوفيق بين حجج الله تعالى . قال الله تعــالى : « **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغــاء الفتنــة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراســخون فى العــلم يقولــون آمنا به كل من عند ربنــا** »[٣٣٨] .

---

(٣٣٠) يوسف : ٢
(٣٣١) الاسراء : ٨٢
(٣٣٢) الحجر : ٨٧
(٣٣٣) فى (ب) : الانتقاد .
(٣٣٤) فى (ب) : من حياته .
(٣٣٥) سقطت من (ب) .
(٣٣٦) سقطت من (أ) .
(٣٣٧) فى (أ) : والوقف .
(٣٣٨) آل عمران : ٧

فأخبر أن من اتبع المتشابه وأوله كن من الزائغين المتبعين[٣٣٩] للفتنـــة والأباطيل ، ومن آمن بالمتشابه بأنه حق (من)[٣٤٠] الله تعالى من غير تأويل كان من الراسخين فى علم التنزيل . وانا قد بينا لك الواجبات من العلم الذى لابد منه لتتمة الايمان : معرفة الله تعـــالى بطريق الآيات ، وبه شهد القرآن . قال الله تعالى وتبارك : « **سنريهم آياتنـــا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** »[٣٤١] .

وقـــال : « **وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين** »[٣٤٢] .

وقـــال : « **وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون** »[٣٤٣] .

وقال عليـــه السلام : « من عرف نفسه عرّف ربه » .

ولأن أساس الايمان بالله تعالى : الكفر بالطاغوت قال الله تعالى : « **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** »[٣٤٤] .

وقال حكاية عن ابراهيم عليـــه السلام : « **انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض** »[٣٤٥] .

وقال تعالى : « **شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط** »[٣٤٦] .

بدأ بالنفى ، واستثنى الاثبات منه[٣٤٧] ، ولا يتصور الكفر بالطاغوت ونفى الألوهية عما سوى الله الا بالوقوف على آيات الحدث فى العالم ، فيلزمه التبرى عنه الى خالق العالم ، وقد قال الله تعالى فى ذكر أسمائه : « **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد** »[٣٤٨] .

---

(٣٣٩) فى (أ) : المبتغين .
(٣٤٠) سقطت من (ب) .
(٣٤١) فصلت : ٥٣
(٣٤٢) الأنعام : ٧٥
(٣٤٣) الذاريات : ٢١
(٣٤٤) البقرة : ٢٥٦
(٣٤٥) الأنعام : ٧٨ ، ٧٩
(٣٤٦) آل عمران : ١٨
(٣٤٧) يعنى : ان النفى نفى الالوهية مطلقا عن كل شىء بما فيه النفس واستثنى من هـــذا النفى الله ، فهو الاله وحده .
(٣٤٨) سورة الاخلاص .

وقـال : « **هو الله الذى لا اله الا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم** »[٣٤٩] .

وفى القرآن : الحميد ، المبدىء ، المعيد ، الخالق ، الفاطر ، القادر ، المقتدر ، الوكيـل ، الحسـيب ، الشهيد ، العليـم ، الرب ، القدير ، الخبير ، الخى ، القيـوم ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن . الى سائر الأسماء المذكورة . ذكر الله بها نفسه ، فاذكر الله بها مما وصفناه بجميعها ، فانها محكمات دلت عليها العقول والآيات .

واياكم والزوائد المذكورة من عند الناس مما ليس له فى القرآن أساس ، فالجهل بها لا يضلكما ، وعلمكما بها ربما يزلكما ، ومن أحسن أداء الفرائض لم يأثم بترك النوافل .

والمتشابه نحو قول الله تعالى : « **بل يداه مبسوطتان** »[٣٥٠] . « **والسموات مطويات بيمينه** »[٣٥١] . « **كل شىء هالك الا وجهه** »[٣٥٢] .

فاليد والوجه اسم حميد لذات ذى أجزاء[٣٥٣] كالجسم بل فوقه ، والعقل يثبت الاسم الحميد لذات الله تعالى ، وينفى الأجزاء ، ولهـذا لم يوصف الله[٣٥٤] تعالى بالجسم ، وبما يجانسه من الاسم ، فصارت هـذه الأسماء فى كتاب الله من المتشابه الذى لا يجب رده بأصله ، فأصله اسم حميد لذات ، وعلى هـذا أسماء الله والصفات .

ولا يجوز اثباته بوصفه ، فوصفه حدث ، والله قديم ، فيجب الايمان به ، وتفويض تأويله الى الله الخبير ، وهو القول العدل بين الغلو والتقصير .

فمن الناس من أثبت هـذه الأسماء على حقائقها ، ووصفه بالجسم قياسا على طرائقها (كما فى الشاهد)[٣٥٥] ، وانه لتقصير[٣٥٦] ، (وان

---

(٣٤٩) الحشر : ٢٢ — ٢٤ (٣٥٠) المـائدة : ٦٤
(٣٥١) الزمر : ٦٧ (٣٥٢) القصص : ٨٨
(٣٥٣) فى (ب) : ذى صفات .
(٣٥٤) فى (أ) : لم يصف عاقل الله .
(٣٥٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٣٥٦) فى (أ) : فانه لتقصير .

هؤلاء القوم لحمير ، وهم الكرامية)[357] ، فقد خالفوا موجب[358] العقول بهذا التفسير • ومنهم من حمل الاسم على المجاز ، فأول اليد بالنعمة ، وحمل الوجه على الذات طلبا للجوار ، وانه لغلو أو نفى لاسم حميد فى الشاهد ، شهد به الكتاب بلا ضرورة على كل جاحد •

والايمان بأصله بلا تفسير لوصفه عدل بينهما ، يهتدى به المقصر ، ويرجع اليه الغالى ، ويسد باب القياس عليــه ، فقد اشتبه معناه ، ولم نصــل اليــه ، فيقولان : وما نقول[359] فى قول الله تعــالى : « **وجاء ربك** »[360] • أو : « يأتي ربك يوم القيامة » ، « **يوم يكشف عن ســاق** »[361] •

فنقول : انها مؤولة بمجازها على مجيء أمر الله ، كقــول الله : « **واسأل القريــة** »[362] • أى أهلها • وكشف الساق عبارة عن شدة الأمر ، كقولك : فلان شمر ذيله فى أمر كذا • أى : جد فيه ، لأن المجيء والاتيان والساق ليست لها معانى حسنة تدل على العظمة والمحمدة ، وأسماء الله وصفاته حسنى بنص الكتاب • يقول الله تعالي : « **له الأسماء الحسنى** »[363] • كما لم نجعل الشيء والذات من أسمائه ، وان لم ينبئا عن معنى الحدوث لخلوهما عن معنى الانباء عن معنى حميد •

ومن المتشابه قول الله تعالى : « **وجوه يومئذ ناضرة • الى ربها ناظرة** »[364] • و « الى » كلمة غايــة ، وما بين العبد والرب[365] (من)[366] مسافة ، ولا لله حد فيتصور غاية ، وفى النظر ، والعيان ايقان بالذات فوق دليل الآيات ، وزيادة دليــل العــلم بالذات حميدة ، ومسافة النظر بالغاية مردودة ، فوجب اثبات أصل النظر والرؤية على نفى حدها فى الشاهد ، وتفويض تأويل الحد الى الله تعالى قولا عدلا بين قولين : (قول من)[367] نفى النظر الى الله عز وجل[368] أصلا ،

---

(٣٥٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٣٥٨) فى الأصول : خالف مواجب العقول .
(٣٥٩) فى (ب) : اضطربت العبارة هكذا : فنقف والذى نقول .
(٣٦٠) الفجر : ٢٢
(٣٦١) القلم : ٤٢
(٣٦٢) يوسف : ٨٢
(٣٦٣) طه : ٨
(٣٦٤) القيامة : ٢٢ ، ٢٣
(٣٦٥) فى (أ) : العبد وربه .
(٣٦٦) سقطت من (ب) .
(٣٦٧) سقطت من (ب) .
(٣٦٨) فى (أ) : الله تعالى .

وقول من أثبت النظر اليه بمسافة واختلاف مكانين بين العبد والرب ، تعالى الله عن الأمكنة كما تعالى عن الأزمنة .

وكذلك قولــه : **« فلمــا تجلى ربه للجبل جعلــه دكا »**(٣٦٩) . والتجلى نظير الرؤية ، فانه دليل على العيان ، ولن يكون على الحقيقة الا بزوال حجاب عن المتجلى له(٣٧٠) ، والحجاب لا يتصور الا بين مكانين ، ومسافة بين شيئين ، فيجب اثبات أصله بالنص ، وتفويض تأويل حده الى الله تعالى .

ومن المتشابه قوله : **« على العرش استوى »**(٣٧١) ، **« وســع كرسيه السموات والأرض »**(٣٧٢) .

فالكرسى اسم لمــا يجلس اليه ، والعرش لمــا يستقر عليــه ، والاستواء(٣٧٣) عليــه : الاستقرار (عليــه)(٣٧٤) ، وفيه دلالة على العلو والعظمة ، فقد وسع كرسيه السموات والأرض ، وعلا عرشه ، حتى لا تعرج الملائكة اليه الا فى يوم قدره(٣٧٥) خمسون ألف سنة(٣٧٦) ، ودلالة أنه معلــوم لقصــد العباد اليه فى حوائجهم(٣٧٧) لكن بمكان واستقرار ، وهــذا الحد دلالة على الحدث ، فوجب اثبات أصله ، على نفى حده ، وتفويض تأويل حده الى الله تعالى .

ومن المتشابه قول الله : **« وما تشاءون الا أن يشاء الله »**(٣٧٨) . مع تيقن كل حى يفعله بقدر وسعه على سبيل الملك والاختيار ، دون الاجبار ، والاختيار عن ملك هو المشيئة ، والنص بحقيقته ينادى(٣٧٩) بخروج أعمالنا تحت مشيئة الله تعالى دون مشيئة العبد ، وفيه اثبات القدرة كلها واثبات القهر لله تعالى ، ونفى العجز والاهمال والغفلة عن الأفعال(٣٨٠) . فيجب اثبات أصلها ، والقول بألا فعل لأحد بغير(٣٨١)

---

(٣٦٩) الأعراف : ١٤٣

(٣٧٠) فى (ب) : المتجلى به .

(٣٧١) طه : ٥

(٣٧٢) البقرة : ٢٥٥

(٣٧٣) فى (أ) : فالاستواء .

(٣٧٤) سقطت من (أ) .

(٣٧٥) فى (أ) : يوم كان مقداره .

(٣٧٦) فى (أ) : ألف عام .

(٣٧٧) فى (أ) : لحوائجهم .

(٣٧٨) الانسان : ٣٠

(٣٧٩) فى (ب) : يتادى .

(٣٨٠) فى (أ) : عن الأعمال .

(٣٨١) فى (ب) : بألا حد بغير مشيئة .

مشيئة الله تعالى وتقديره وحكمه من غير اثبات حده على التمام فى جانب الفاعلين من الأحياء الخارجة أفعالهم عن اختيار وعن ملك بل (على)[٣٨٢] تفويض تأويله فى الحد الى الله تعالى .

وقد سئل أبو حنيفة رحمه الله عن القدر فقال : مسألة مشكلة مبهمة لا يعرفها الا من يخبر عن الله عز وجل ، وقد انقطع الوحى ، ولكنى أقول قولا بين قولين[٣٨٣] أينما مال ملت معه كما قال جعفر الصادق (رضوان الله عليــه)[٣٨٤] : لا جبر ولا تفويض ، ولا كره ولا تسليط .

فالناس من قديم الزمان فى هــذه المسألة على قولين : قول بالجبر ، وأن الله تعالى هو الفاعل والمقدر بلا اختيار من العبيد[٣٨٥] ، وقول بأن المكلفين هم الفاعلون عن تقديرهم بلا قدر لله تعالى فيها ، فصار قول أبى حنيفة وسطا بينهما ، جامعا بين أهل الفرقة ، وســببا للهدايــة والألفة .

وفسر بعضهم بأوضح من هــذا فقال : لا فعل بغير قدر ، والفعل مضاف الى البشر ، ردا على من سلط أو أجبر . على مثال مريض لا يقوم بنفسه ، ولا يمشى لضعفه ، فيأخذ صحيح بيده ، فيقوم ويمشى الى (جنبه)[٣٨٦] حيث يريد ، فيكون مشيه مضافا اليه ، ولا يتصور بدون يدا الآخذ ، ولهذا رد (الله)[٣٨٧] احتجاج الكفرة بالمشيئة والقدر ، وكان الاحتجاج به للمتنصل عن المعاصى كفرا ، فقال تعالى حكاية عنهم : **« لو شاء الله ما أشركنا »**[٣٨٨] .

وأجاب : **« كذلك كذب الذين من قبلهم »**[٣٨٩] .

وليبين أن المشيئة ثابتة لا على حد الجبر ، ولو كانت جبرا كانت لهم حجة وعذرا قال : **« ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء »**[٣٩٠] .

وقــال : **« ولو شاء الله ما أشركوا »**[٣٩١] ، **« ولو شاء لهداكم أجمعين »**[٣٩٢] .

---

(٣٨٢) سقطت من (ب) .
(٣٨٣) هما : الغلو والتقصير .
(٣٨٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٣٨٥) فى الأصول : بالاختيار من العبيد . وهو يتنافى مع معنى الخبر .
(٣٨٦) سقطت من (ب) .
(٣٨٧) سقطت من (ب) .
(٣٨٨) الأنعام : ١٤٨
(٣٨٩) الأنعام : ١٤٨
(٣٩٠) النحل : ٩٣
(٣٩١) الأنعام : ١٠٧
(٣٩٢) النحل : ٩

وقـال : « **وما تشاءون الا أن يشاء الله** »[٣٩٣] .

فبين أنه لم يشأ هداهم وهم مشركون ، ولو شاء هداهم ما أشركوا ، ليبين أنه لا فعل دون مشيئته .

وقـال : « **وما يضل به الا الفاسقين** »[٣٩٤] ، ليعلم أن الفسوق مضاف اليهم لا لمشيئته .

ومن المتشابه قوله : « **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** »[٣٩٥] .
وقولـه : « **فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئـك الذين خسروا أنفسهم** »[٣٩٦] .

فالميزان دليـل على الحساب بالعدل ، والمساواة والقصاص ، وأنه حسن واجب فى المجازاة على السيئات ، لكن على حد لا يمكن اثباته[٣٩٧] فى حساب المعاصى والحسنات ، فيجب القول بأصله ، وتفويض تأويـل حده الى الله تعالى .

ومنه قولـه : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحيـاء عند ربهم يرزقون** »[٣٩٨] . مع عياننا بالموت بزوال أعلام الحيـاة ، فيجب الايمان بالحياة عليهم بالكرامات ، ويضدها فى العصاة ، على تفويض تأويل الحد فى الشاهد الى رب السموات[٣٩٩] .

فصارت الأقسام أنواعا أربعة : ما حسن بأصله وحده[٤٠٠] مضافا الى الله تعالى فيكون محكما يجب الاقرار به ، وما قبح بأصله مضافا الى الله تعالى فيجب نفيـه عن الله تعالى ، وطلب التأويل للاضافة باضمار ، وما حسن أصله مضافا الى الله تعالى وقبح حده ، فلا يجب رده ولا تأويله بمجازه ، ولا الايمان بأصله وحده على جوازه ، فكلاهما فى الدين فتنة ، بل يجب الايمان بأنه حق على الاجمال ، فانه من عند المولى المتعال ، والقسم الرابع : ظواهر غير محكمة يجب العمل بها على العباد بلا علم يقين واعتقاد مما اختلف فيه الأئمة من علمـاء الأمة .

---

(٣٩٣) الانسان : ٣٠ (٣٩٤) البقرة : ٢٦
(٣٩٥) الأنبياء : ٤٧ (٣٩٦) الأعراف : ٨ ، ٩
(٣٩٧) لأن الحسنات والسيئات أعراض ، والعرض لا يمكن وزنه .
(٣٩٨) آل عمران : ١٦٩
(٣٩٩) نرى أنه لا يجوز ادراج هذه الآية فى المتشابه فقد وردت السنة بتفسيرها .
(٤٠٠) فى (ب) : ما حسن أصله لحده ، وفى (أ) : بأصله بحده .

فيقولان : فهل يلزمنا بالكتاب زيادة أمر من الاعتقاد لتتمة الايمان برب العباد ؟

فتقول : نعم ، أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، يقول الله تعالى : **« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »**(401) .

وقد ذكرنا لك من قبل ما لزمك من الايمان ، بأن الدنيا خلقت للفناء ، وأنك مبتلى فيها بالطاعة لربك على أداء أمانته الى الموت ، ثم مبعوث يوم القيامة للحساب والجزاء ، وأن الجزاء هى الدار الآخرة الباقية على وفاق الأعمال ، اما ملك ونعيم ، واما نار وأنكال ، وكل ذلك فى كتاب الله تعالى .

قال الله تعالى فى فناء الدنيا : **« يوم تبدل الأرض غير الأرض »**(402) ، **« والسموات مطويات بيمينه »**(403) ، **« اذا الشمس كورت »**(404) ، **« اذا السماء انفطرت »**(405) ، **« ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى »**(406) .

فبين أنه خلقها الى أجل والحق فيه ، الى آيات كثيرة ، وبينات منيرة .

وأما فناء الأحياء فيها ففى قوله : **« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك »**(407) ، **« كل نفس ذائقة الموت »**(408) .

وأما كون العقلاء مبتلين بالكاد بأداء الأمانة ففى قوله : **« وحملها الانسان »**(409) .

وأما الخلق لذلك ففى قوله : **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »**(410) .

وأما العبادة على سبيل الابتلاء ففى قوله : **« ليبلوكم أيكم أحسن عملا »**(411) .

---

(401) البقرة : 285
(402) ابراهيم : 48
(403) الزمر : 67
(404) التكوير : 1
(405) الانفطار : 1
(406) الأحقاف : 3
(407) الرحمن : 26 ، 27
(408) آل عمران : 185
(409) الأحزاب : 72
(410) الذاريات : 56
(411) هود : 7

وأما بعثنـا يـوم القيامة فبقوله : « **ثم انـكم يـوم القيامة تبعثون** »[412] . الى آيات كثيرة للحساب بقوله : « **فسوف يحاسب حسابا يسيرا** »[413] الآيات . ثم الجزاء بقوله : « **وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت** »[414] . الى آيات فوق الاحصاء [ثم نص] على الجزاء على وفاق الأعمال ، كقوله تعـالى : « **جـزاء وفاقـا** »[415] ، وقولـه : « **هل جـزاء الاحسـان الا الاحسـان** »[416] ، وكقولـه : « **وجزاء سيئة سيئة مثلها** »[417] .
اما نعيم واما جحيم لقوله تعالى : « **وسيق الذين كفروا الى جهنـم زمرا** » ، « **وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا** »[418] ، وقـال : « **الا المتقين . يا عبادى لا خوف عليكم اليـوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة** »[419] ، وقـال : « **ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون** »[420] . (الى عدة نصوص ، وجملة فصول)[421] .

وقولنا باقيـة لقوله : « **لا يذوقون فيها الموت** »[422] .

فيقولان : ولم خلقنا مبتلين بأداء الأمانة ، وهى أعمال يعمها اسم الديانـة ، وانا على جهل بعظمها ، فكيف السبيل الى علمها ؟

فنقول : بكتاب الله ، وبيان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فالكتاب أنزل بيانا لكل شىء ، والرسول أرسل ليبين للناس ما أنزل اليهم ، وقد نطق الكتاب بكلا المفصلين ، وما ضلت أمة ممن مضى قبلنا الا باتباع آبائهم ، وفساق علماء دهورهم ، ونبذ الكتاب وراء ظهورهم .

وبالتمسك بالكتاب أوصى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عند موته فقال : « تركت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى » . وقال أبو بكر

---

(٤١٢) المؤمنون : ١٦
(٤١٣) الانشقاق : ٨
(٤١٤) الجاثية : ٢٢
(٤١٥) النبأ : ٢٦
(٤١٦) الرحمن : ٦٠
(٤١٧) الشورى : ٤٠
(٤١٨) الزمر : ٧١ ، ٧٣
(٤١٩) الزخرف : ٦٧ — ٧٠
(٤٢٠) الزخرف : ٧٤
(٤٢١) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٤٢٢) الدخان : ٥٦

الصديق رضى الله عنه : « اذا سئلتم عن شيء فلا ترووا ، ردوا الناس الى كتاب الله » . وقال عليــه السلام : « اذا روى لكم عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق فاقبلوه ، وما خالف فردوه »[٤٢٣] . وكان لعمر رضى الله عنه كتب الى العمال فيها أحكام كثيرة ، فلما بلغه اشتغال الناس بها جمعها ومحاها وقال : خفت أن أشغلكم بها عن كتاب الله .

فيقولان : كيف السبيل الى علمه ، والوقوف على حكمه ؟

فتقول : أما علمه حفظا فيسير ، وقد حفظه من الصبيان والعوام كثير ، والشأن فى عــلم التأويل والتفسير ، فما نالهما الا الموفق الكبير . فانه لا ينال الا بعلوم أربعة : (عــلم)[٤٢٤] لغة العرب ، وعلم النحو . و (علم)[٤٢٥] طرق الاستعمال ، وعلم طرق القياس الشرعى والاستدلال ؛ ليعرف ظاهر تفسيره باللغــة ، واستقامة نظمه بالنحو ، ومعانى البلاغة والاعجاز بالوقوف على طرق الاستعمال ، وغير المنصوص على حكمه من الحوادث بطرق القياس والاستدلال .

فمن فسر القرآن برأى نفســه عن هواه ضل فى مغزاه ، ومن فسر برأى استفاده من أحوال الدين رشد بيقين . قال عليــه السلام : « من فسر القرآن برأيــه فليتبوأ مقعده من النار »[٤٢٦] . أى : برأيه الثابت (له)[٤٢٧] بالطبيعة قبل الوقوف على أصل الشريعة .

والأعمال التى هى أمانة الله من أبواب الديانة بعد الايمان هى من القسم الرابع الذى يجب اقامته بالنص الذى يوجب العــلم يقينــا ، والظاهر الذى يوجب غالب الرأى .

وعليك قبل الشروع فى هــذا الباب أن تعلم أن الايمان بالله لزمنا لعاقبة مسارعة الجسم الى العمل بأمر ربه ، والكف عن نهيــه ، على ما قال الله تعــالى : **« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »**[٤٢٨] .

---

(٤٢٣) اخرجه مسلم فى مقدمة الصحيح من طريق ابن ابى ليلى عن ابى هريرة .

(٤٢٤) سقطت من (ب) .

(٤٢٥) سقطت من (ب) .

(٤٢٦) سقطت من (ب) .

(٤٢٧) اخرجه الترمذى عن ابن عباس بروايات . وفيه « من قال فى القرآن برايه فليتبوأ مقعده من النار » . وفى رواية : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » .

(٤٢٨) الذاريات : ٥٦

ولن يوجد[٤٢٩] (ذلك)[٤٣٠] من الجسم بعد الايمان الا بمقدمتين : اعتقاد السمع والطاعة لله تعـالى على كل حال على ما قال تعـالى : ((**سمعنا وأطعنا**))[٤٣١] ، وعمل القلب والسمع[٤٣٢] .

وعمل الطاعة[٤٣٣] للجسم نوعان : الكف صابرا بقدر المكنة عما يهوى الا باذن المولى ، فقد عرف ذاته عبدا لا ملك له ، والمسارعة شاكرا الى ما يدعى ، فقد عرف ربه مولى وجبت طاعته ، وان دعاه الى ما فيه منيتـه .

وعمل السمع والقلب نوعان : الرضا بأحكامه ، فقد عرفه عادلا ، والشكر على أقسامه ، وقد عرفه فيما أعطى وان قل محسنا[٤٣٤] .

فالايمان : اعتقاد أن الله مولاه وأنه عبده ، واعتقاد السمع والطاعة ، وترك ما يلزم القلب كفر ، والعقد ايمان[٤٣٥] ، وترك ما يلزم الجسـم بلا تبديل[٤٣٦] عقد فسق . والطاعة[٤٣٧] بدنا لم تكن من [أصل عقد] الايمان ، (فلا ايمان)[٤٣٨] الا بالقلب ، فانه لا يكون الا بمعرفة ، وما لسائر الجوارح معرفة بالرب . ولهذا[٤٣٩] قلنا : ان المؤمن الفاسق تام الايمان ، لكن جسمه مدنس بالعصيان[٤٤٠] ، وانه فى مشيئة الله ، ان شاء عاقبه بقدر عصيانه حكمة ، وان شاء غفر له وأدخله الجنة جزاء على ايمانه رحمة ، قال الله تعـالى : ((**ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**))[٤٤١] .

---

(٤٢٩) فى (ب) : فلن يوجد . (٤٣٠) سقطت من (ب) .

(٤٣١) البقرة : ٢٨٥

(٤٣٢) فى (أ) : عمل السمع للقلب .

(٤٣٣) فى (أ) : فعمل الطاعة .

(٤٣٤) فى الأصول : جاء عمل السمع والقلب مقدما وعمل الطاعـة للجسم مؤخرا والترتيب الذى اخترناه انسب للسياق .

(٤٣٥) فى (ب) : فالعقد ايمان .

(٤٣٦) فى (م) : تبدل عقد . والمراد من تبديل العقد : اعتقاد عدم وجوبها . (٤٣٧) فى (أ) : فالطاعة .

(٤٣٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٤٣٩) فى (ب) : ولذلك قلنا .

(٤٤٠) فى (أ) : متدنس بالعصيان .

(٤٤١) النساء : ٤٨

وانه القول العدل بين الغلو والتقصير • فمن الناس من قال : ان المعاصى كلها مغفورة مع[٤٤٢] الايمان[٤٤٣] ، وانه لتقصير ، والآيات كثيرة فى وعيد المؤمنين ، ومنهم من يقول : ان صاحب الكبيرة ليخلد فى النار[٤٤٤] ، وانه لغلو ، والآيات فرقت بين دار الكافرين ودار المؤمنين •

والعدل فى التفويض الى مشيئة الله كما نص الله تعالى كيلا يجترىء العبد على المعصية ، ولا يستوي الذين اجترحوا السيئات والذين عملوا الصالحات محيا ومماتا ، ولا ييأس العاصى من الرحمة[٤٤٥] ، ولا يستوى الكافر والمؤمن فى دار الجزاء •

فاذا اعتقدت السمع والطاعة رهبة[٤٤٦] ، وأسلمت جسمك لله تعالى رغبة[٤٤٧] تلونا عليك ما يجب الكف عنه وهو الأساس ، وهو التقوى عما نهيت عنه ، وانه باب [واحد] ، وما يجب فعله وهو البناء ، وهى الطاعة ، (وهى)[٤٤٨] أبواب • وأقسامها أربعة : عبادات ، وحدود ، وما بينهما ، وهى : كفارات ، ومعاملات ، وهى حقوق الناس •

أما العبادات فأربعة أقسام فى كتاب الله تعالى : الصلاة ، والزكاة • يقول الله تعالى : « **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** »[٤٤٩] • الى عدة آيات • والصوم ، يقول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** »[٤٥٠] • والحج ، يقول الله تعالى : « **ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا** »[٤٥١] •

وان لكل عبادة أسبابا تجب بها ، وأركانا تتأدى بها ، وشروطا لا يصح الأداء الا معها ، وسننا لا تكمل دونها ، وهن من أبواب الفقه[٤٥٢] ، وقد ذكرناها فى تصانيف الفقه ، وكتابنا هذا لتهذيب أحوال العبد لأداء ما لزمه بسمعه وطاعته ، وباب الفقه يسير ، وهذا

---

(٤٤٢) فى (ب) : على الايمان •
(٤٤٣) بهذا قال المرجئة •
(٤٤٤) وهو قول المعتزلة •
(٤٤٥) فى (ب) : عن الرحمة •
(٤٤٦) فى (أ) : رهبا •
(٤٤٧) فى (أ) : رغبا •
(٤٤٨) سقطت من (ب) •
(٤٤٩) البقرة : ٤٣
(٤٥٠) البقرة : ١٨٣
(٤٥١) آل عمران : ٩٧
(٤٥٢) فى (أ) : الفقهاء •

باب عزيز ، ففى الفقه تبحر فى العلوم[٤٥٣] ، وللنفس فيه امرة ، وفى التهذيب للبناء على السمع والطاعة عزل النفس عن الامرة الى العبادة والعبودية .

فيقولان : ففصل هــذه الأحوال ، فقد شغلت الخواطر ، وآذيت الضمائر ، ومتى قلنا : عبرنا البحر أعدتنا الى اللجة ، ورددت علينا الظن بحجة ، وفقك الله لبيان غرائب العلم ، ووفقنا لحمل ضرائبه عن فهم .

فتقول : قد ذكرنا لك أن الجسم الظاهر رعية للباطن ، وقد أسسنا الصيد الباطن فيما مضى للرب تعالى ، فعلى هــذا يؤسس الصيــد الظاهر للقلب ، لتصير الرعيــة اذا أطاعت أميرة لمولى الأمير[٤٥٤] ، فيكون العبد صفوا لله تعــالى بالظاهر والضمير ، وانه مبدأ الأمد الأقصى[٤٥٥] ، فيه ينال العبد العتق والملك والمنزلة العليــا .

فيقولان : كيف ايضاح هــذا المشكل ، وتمييز[٤٥٦] المدبر عن المقبل ؟

فتقول : ان القلب ما رأى ربه ، ولا عرف عاقبة ايمانه الا بأسباب أربعة موجبة للعلم : الحواس ، وسر القلب ، والمرآتان ، على ما مر شرحهما أولا ، ثم المسير ستة عشر منزلا .

وبيانها : أنه رأى أول ما رأى : الظئر ، ثم الأم ، ثم الأب ، ثم نفســه لملك نعيــم الدنيــا ، ثم علل النعيم[٤٥٧] ، ثم النجوم ، ثم الهيولى ، ثم المولى جل جلاله ، فكان القلب سائرا فى علمه وراء الحق حتى وصل اليه بجد عن صدق ، وحل بمناهله لثامن منازله[٤٥٨] .

---

(٤٥٣) فى (أ) : ففى الفقه بحر فى العلوم .

(٤٥٤) الباطن الروح ، وهى أمير من قبل المولى وهو الله تعالى ، والقلب مولى الروح التى هى الأمير . فاذا تحقق صيد الجسم الظاهر للقلب الذى صدق فى طاعة الروح صارت الظواهر كلها أميرة حاكمة باسم القلب ، والقلب حاكم باسم الروح ، والروح حاكم باسم الله .

(٤٥٥) كان هــذا السلوك مبدأ للأمد الأقصى لانه كله مرحلة اعداد وتصفية وتطهير ، ولم يسلك الانسان بعد منازله الى الله .

(٤٥٦) فى (ب) : وتدبير المقبل .

(٤٥٧) وهى الطبائع الأربعة .

(٤٥٨) فى (أ) : بثامن منازله .

ثم سار مثلها مع الحق حتى تمت المعرفة على الحقيقة ، واستوى باليقين [على] الطريقة[٤٥٩] بأربعة أقسام من الأسماء ، من حيث ان الحق اله واحد ، وأربعة أقسام من حيث أنه عبد ممتحن ، حتى لما تمت المعرفة أيقن به ، فتجلى الله له[٤٦٠] ، فآمن به وصفا القلب[٤٦١] لله بالايمان والتصديق .

ثم اعتقد السمع والطاعة وهو[٤٦٢] عاقبة الايمان على التحقيق[٤٦٣]، فدعا الجسم الظاهر اليها ، والنفس أمارة بخلافها ، مانعة عن طاعة القلب الا كرها ، وانها فى منع الجسم عن السمع والطاعة على مثال ظلمة الجهل المانعة عن العلم بالرب .

وكما لم تصد الروح القلب عن بحار الجهل الا بشباك[٤٦٤] النظر عن عقل[٤٦٥] بعد عدة منازل على ما مر من التفسير ، كذا لا يصيد القلب الجسم للطاعة على النفس الا بتلك الشباك[٤٦٦] فى مثل تلك المنازل ، والمسير ثمانية منازل يسير فيها بعلمه (لله تعالى على جهل بنفسه ، ولا يقف على نفسه الا عند ثامن منازله)[٤٦٧] ، وثمانية يسير فيها بالعمل لله على جهل بنفسه[٤٦٨] ، ولا يقف على نفسه الا عند ثامن منازله ، وثمانية يسير فيها بالعمل لله[٤٦٩] على علم بنفسه ، لكن بسيره مع نفسه لا يقع الظفر بها[٤٧٠] علما وعملا الا بثامن منازله .

ولن يقع بدء العمل[٤٧١] الا بأربعة أسباب موجبة كما كانت للقلب ، وهى : الخوف ، والرجاء ، ومعرفة العبودية ، والألوهية .

---

(٤٥٩) فى (ب) : الطريق . (٤٦٠) فى (أ) : كان الله تجلى له .
(٤٦١) فى (أ) : فصفا القلب . (٤٦٢) فى (ب) : وهى .
(٤٦٣) فى (أ) : عن تحقيق .
(٤٦٤) فى (أ) : بشبك النظر . والمراد بالنظر التأمل والاعتبار فى صمت . انظر (باب الصمت والفكرة) من أعمال القلوب والجوارح للمحاسبى .
(٤٦٥) فى (ب) : عن عقد .
(٤٦٦) فى (أ) : الا بذلك الشبك ونظر الجسم الظاهر يخدم نظر القلب فالحواس الجسدية تؤدى عناصر النظر الباطن للقلب .
(٤٦٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٤٦٨) فى (أ) : على جهل نفسه .
(٤٦٩) فى (أ) : بعمل لله . (٤٧٠) فى (ب) : الكفر بها .
(٤٧١) فى (ب) : برق العمل .

فالخوف سبب الكف اذا صدق لا محالة ، والرجاء سبب العمل اذا تحقق لا محالة ، والعبودية سبب التزام الطاعة لا محالة عجزا ، والألوهية سبب الاقامة شكرا[٤٧٢] ، لأن الله تعالى اله منعم بفضله ، كما أن الانسان عبد مخلوق بأصله[٤٧٣] ، فكانت الأسباب الموجبة لما على الجسم الظاهر غير الأسباب الموجبة لما على الجسم الباطن ، كما اختلف المطلوبان[٤٧٤] والمحلان ، وكما اختلفت العاقبتان .

فعاقبة العلم : مسارعة[٤٧٥] الجسم الى العمل لله بأمره ، والكف عن نهيه ، وعاقبة العمل : اصابة العبد عتقه ثم ملكه ، وبذلك مضى قدر الله وحكمه ، يفعل ما يشاء ، لا مرد لحكمه ، ولا زوال لملكه ، فكانت أسباب العلم ما أوجب زيادة بصر ، وأسباب العمل زيادة استسلام ، فهذا تفسير الأسباب .

وأما تفسير منازل العمل فأولها : الدعوة ، ثم المحافظة ، ثم الجهاد ، ثم الخلافة ، ثم الفرار ، ثم الرياضة ، ثم الاغارة[٤٧٦] ، ثم الأسر . فهذه تمام المنازل الثمانية التى سار فيها حتى وقف على نفسه .

وأما المنازل الثمانية الأخر فأولها : السكر ، ثم الصحو ، ثم الخمار ، ثم الشوق ، ثم الصبر ، ثم الرضا ، ثم الشكر ، ثم اللقاء . فهذه المنازل الثمانية (التى)[٤٧٧] سار فيها مع العلم بنفسه ، حتى صفا عمله لربه دون نفسه[٤٧٨] .

---

(٤٧٢) يعنى : لما تحقق العبد بمقام العبودية والخضوع لأحكام المولى التزم الطاعة عقدا ونية ، فاذا قام بها حل بمقام الشكر على تمكين الله له من اقامة الطاعات ، اذ بدون توفيقه وتمكينه تعالى لن تتحقق اقامتها فما من دابة فى الأرض الا هو آخذ بناصيتها ، ومن يهد الله فهو المهتد .

(٤٧٣) فى الأصول : كما هو عبد مخلوق بأصله . وأثبتنا ما يرفع الالتباس .

(٤٧٤) هما : العلم والعمل .

(٤٧٥) فى (ب) : منازعة الجسم .

(٤٧٦) فى (ب) : الاعادة .

(٤٧٧) سقطت من (أ) .

(٤٧٨) هذه المنازل تسمى فى عرف السلوك بالأحوال . وهى أحوال يمكن ادعاؤها ، والميزان الصادق هو : أن كل حال كان ثمرة لعلم أو عمل فهو صادق ، أما ما يشبه الأحوال مما يظهر على الذين أسقطوا الأعمال عن أنفسهم بأنفسهم فتسمى أحوالا شيطانية . انظر (التدبيرات الالهية ورقة ٧٠ خط ، دار الكتب المصرية) تصوف . و (روضة التعريف ٤٣٠) .

ثم لن يصفو عن خبث النفس ، ولن يصير عتيقا حتى يسلمه القدر الى الله بالموت ، فتلقمه الأرض ، ثم تعصره[٤٧٩] ، فتميز[٤٨٠] بين الخبيث منه والطيب ، فتسقط عنه حينئذ محنة العبادة ، وتزول عنه ظلمة الخبث ، فيصير حرا ، ضيفا من ضيوف الله فى قبره ، وسراجا منيرا من سرجه .

وكان هــذا العمل من الجسم لعاقبة العتق ، وصيرورته صفو الله ، ضيفا من ضيوفه ، كعمل الجسم فى الدنيا لطلب الرزق ، لعاقبة أن يصير (ذلك)[٤٨١] الرزق له صفوا[٤٨٢] ، وجزءا من أجزائه ، فقد خلق نعيم الدنيــا لهذه العاقبة وهى : أن تأكله فيصير جزءا منك ، تعلق به بقاؤك ، وخلقت أنت لعاقبة أن تأكلك الأرض فتصير أنت لك جزءا صفوا عن الرق ، نورا من أنوار[٤٨٣] الله ، ضيفا من ضيوف[٤٨٤] الله ، وتعلق (ظهور)[٤٨٥] حكمة الله فى الصنع به .

ثم انك لم تصل الى عاقبتك من دنيــاك الا بهذه المنازل : مبدئها الزراعة ، فان القوت منها على العادات ، ثم المحافظة ، ثم التربيــة ، ثم الادراك ، ثم الحصــاد ، ثم الدياس ، ثم التذريــة ، ثم الاحراز . فهذه أعمال تقع فى هــذه المنازل على بعد الرزق منك ، ولم يصل[٤٨٦] الى يدك الا بثامن منازله .

ثم احتجت بعدما وصل اليك الى ثمانية أخرى : الطحن ، والنخل ، والعجن ، والخبز ، ثم اللحم للطبخ ، ثم حوائج القدر ، ثم أبازيره ، ثم التقديم على المــائدة ، وهى حالة التخلى لك .

ثم التسليم اليك بالأكل ، ثم الهضم بطبائعك ، ثم تحول الطيب منه جزءا منك صفوا ، وزال الخبث[٤٨٧] ، وسقط عنك ، ليكون عملك على

---

(٤٧٩) فى (أ) : فتقصره . (٤٨٠) فى (ب) : فيمر .

(٤٨١) سقطت من (ب) . (٤٨٢) فى (ب) : لك صفوا .

(٤٨٣) المراد ان العبد فى هذه الحالة أصبح روحا مطهرة عن الدنس صالحا للحضرة الالهية ، اذ أن كل ما سوى الروح الالهى المنفوخ فيه ابتداء قد زال وفنى بالكلية ، ولم يبق الا هو .

(٤٨٤) فى (أ) : من ضيوفه . (٤٨٥) سقطت من (ب) .

(٤٨٦) فى (أ) : لن تصل .

(٤٨٧) فى (أ) : وزايل الخبث . وفى (ب) : وزوال الخبث .

هذا الترتيب لحظ مطلوب لك من الدنيا مع علمك بنيله(٤٨٨) من غيرك حجة عليك لعملك على هـذا الترتيب ، لاقتضـاء حظ لك مطلوب من المولى جل جلاله ، لا تناله الا لخيرك(٤٨٩) .

والمنازل الثمانية الأولى(٤٩٠) : منازل الفقهاء الموقنين ، والمنازل الثمانية الأخر(٤٩١) : منازل الفقهاء العارفين .

فيقولان : فما العلم الفاصل بين العالمين ؟

فنقول : الفقيـه الموقن : من كان تفكره فى الملكوت الظاهر بالحواس و [فى] المسموع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين . والفقيه العارف من كان قلبه مع الملكوت الباطن : [ليس مع] النار والجنة ، بل مع المولى ، قدعميت عينه(٤٩٢) عن هـذه التى خلقت للأجانب ، ودار شبهة المعارف(٤٩٣) ، وأبصر سره الباطن المعلوم له بالدليل يراه بسره رؤية الناس [له] بعد البعث .

فيقولان : فعليك بتفسير ما أجملت ، واقامة الدلالة على ما فصلت .

فنقول : ان الموقن بالله جل جلاله بمحاجة الروح ودعوتها غافل عن النفس بسكوته عن معارضة الروح لجهله أو حيرته ، فلا معرفة له

---

(٤٨٨) يعنى : الرزق . ونيلك اياه من غيرك ، أى : انك لست أصيلا فى انشائه . فقد نشأ من الأرض تسخيرا لها من الله لهذا العمل ، كما سخر أجهزتك الباطنة لعملية التصفية .

(٤٨٩) يعنى : كما قامت الحجة عليك فى ان عملك فى الزراعة ليس أصيلا فى الحصول على الرزق ، حيث كان تسخير الله للأرض هو الأصل ، فكذلك الحظ الأخروى لست أصيلا فى الحصول عليه بعملك ، وانما هو فضل وتمكين الهى .

(٤٩٠) المنازل الثمانية للموقنين هى : الدعوة ، المحافظة ، الجهاد ، الخلافة ، الفرار ، الرياضة ، الاغارة ، الأسر . وكلها متعلقة بالجهاد فى الملك الظاهر .

(٤٩١) والثمانية التى للعارفين هى : السكر ، الصحو ، الخمار ، الشوق ، الصبر ، الرضا ، الشكر ، اللقاء . وكلها جهاد فى الملكوت الباطن .

(٤٩٢) المراد بالعين عين القلب وهى البصيرة .

(٤٩٣) لما كان العارف يريد وجه الله فلا يلتفت الى الجنة ، لأنه يراها شغلا حاجبا له عن مراده ، ولا يلتفت الى النار لهذا المعنى أيضا ، فهو ماض فى طريقه الى الله ، نعمه الله أو عذبه .

الا بحس ، وما النفس بمحسوسة ، أو بما خطر بالقلب ، وما خطر به بعد من خطر (٤٩٤) .

فظن اذ سلم له جسمه أنه فرغ من نفسه ، وبقيت عليه دعوة غيره ، فأقبل على دعوة جنسه(٤٩٥) بأمر ربه كما كان أقبل عليها فى حقه ، فبذر حجج الله فى عباده ، خوفا على ذاته (من)(٤٩٦) الهلاك بعذاب الله ان كتمها(٤٩٧) ، على مثال الزارع يبذر الحب الصالح لقوته ، خوفا على نفسه الهلاك ان عدمه(٤٩٨) .

فما حمل الرجلين(٤٩٩) على العمل — والجسم يحب الراحة — الا الخوف . ثم الزارع الرفيق لا يقدم على الزراعة وقد أمسكها على نفسه لطلب العاقبة الا بعد مقدمات أربع : اختيار أطيب بذر ، وأخصب مزرع لا حزن(٥٠٠) ولا رمل ، وأوسط وقت ، لا حر ولا برد ، وأعدل حال الأرض لا يابسة ولا رطبة(٥٠١) .

فلا يبتدىء الداعى أيضا أمر الدعوة الا من أوضح حجة ، ولدى(٥٠٢) أخصب قلب عقلا ، وأوسط وقت للاستماع اليه ، لا وقت نوم ولا وقت عمل ، وأعدل حال للمستمع ، ما بقلبه فرح ملهى ، ولا غم منسى ، ثم يبذر الحجج فى القلب على أنه قاصد بها حقا لله عليه ، بتمكين من الله اياه ، ما يطلب من الناس أجرا ولا شكرا ، فقد عمل

---

(٤٩٤) لأن المعروف عن هذا النوع : أن يكون تعلقه بالملكوت الباطن ، وبالعلويات والحقائق الروحية أكثر من تعلقه بالماديات ، لأن اليقين هو : أن يشهد ما تشهده الحواس بقلبه وكأنه معاين ملموس . ويشهد له حديث حارثة : « وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا » الحديث . وحديث ابن أبزى عن حنظلة الأسدى حينما وصف حاله وهو يسمع تذكير النبى صلى الله عليه وسلم فيقول : « ويصف لنا الجنة والنار كأنا نراها رأى عين » .

(٤٩٥) أى دعوة الروح للنفس .

(٤٩٦) سقطت من (أ) .

(٤٩٧) فى (ب) : أن يختمها .

(٤٩٨) فى (أ) : اذا عدمها .

(٤٩٩) أى العالم الموقن ، والزارع .

(٥٠٠) فى (ب) : لا جرف .

(٥٠١) فى (أ) : لا يابس ولا رطب .

(٥٠٢) فى (ب) : وكذا أخصب .

لنفسه بأن قضى ما عليــه وهدى جنسه وهو منهم ، بل يحمد ربه بتمكينه من الخروج عن [عهدة] حقه الواجب بعد المنة السابقة فى ابتدائه[٥٠٣] بنعمة العلم اليــه .

ثم ينتقل الى منزل الرجاء : رجاء نبات الحجج فى قلوبهم ليهتدوا ، فالداعى غافل بحكم الهيبة والحيرة عن الجزاء ، وما لسعيــه عاقبة غير الاهتداء ، على مثال الزارع يزرع الأرض خوفا ، ثم لا يطلب من الأرض أجرا ، فقد عمل لنفســـه لعاقبة نجاته عن الهلك[٥٠٤] ، بل التزم لها شكر بأن كان مرتجاه للحال ، ومنجاه للمــآل .

ثم لينتقل الى الرجاء : رجاء أن ينبت البذر ، فلا يضيع سعيه ، فما له عاقبة[٥٠٥] غير طلب القوت بالنبات فما للزرع[٥٠٦] خيبة عنه على ما جرت العادات ، ولا أمن فربما أخلفت بآفة من الآفات ، وماله من يد على الانبات ، بل ذلك بقوى الطبائع ماله عليــها سبيل ، ولا له قبلهــا حق[٥٠٧] ، فيطالبها به (ان زرع ، وهذا هو محل الرجاء ، فكذلك الداعى ماله خيبة عن اهتداء القلوب بالحجج على ما جرت العادة ، ولا أمن فربما أخلفت بالغفلة ، وماله على الهداية يد ، فالقلوب بيد الله ، ما لعبد على الله من سبيل ، ولا له قبلها حق فيطالبه به)[٥٠٨] ، فقد عمل لنفسه ان دعا ، بل أقام راجيــا مفوضا الى الله تعالى ، حافظا اياهم عمن يلبس عليهم أمر دينهم حفظ الزارع الأرض المزروعة عما يفسد الحالة المهيئة[٥٠٩] للنبات فى العادة .

فصار المنزل الأول (من)[٥١٠] حيث سبب العمل : منزل الخوف ، ومن حيث العمل : منزل الدعوة . والمنزل الثانى من حيث العمل : منزل الرجاء ، ومن حيث العمل : منزل المحافظة .

---

(٥٠٣) فى (ب) : فى اسدائه .

(٥٠٤) فى (م) : الهلاك . من نسخة ثانية .

(٥٠٥) فى (أ) : فلا له عاقبة .

(٥٠٦) فى (ب) : من الزرع خيبة ، وفى (أ) : فما الزرع . واخترنا ما هو أوضح .

(٥٠٧) اى ما للبنات قبل قوى الطبائع حق ، بل الطبائع مسخرة من قبل المولى .

(٥٠٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٥٠٩) فى (ب) : للتهيئة .

(٥١٠) سقطت من (ب) .

فاذا ثبتت الحجج ، ولاح الاهتداء ، انتقل الى الوعظ والتذكير ، يربى الهدى النابت[٥١١] فى قلوبهم بذلك[٥١٢] ، الى جهاد فى دفع المفسدين عنهم ، فقلما يصبر عنهم المخالفون وقد تركوا طريقهم ، وظهر ذلك منهم ، وخافوهم[٥١٣] على أنفسهم لو تركوهم ، وهم عرضة للتناول[٥١٤] فى الحال لضعفهم ، على مثال الزارع اذا نبت الزرع اشتغل بالتربية والسقى ، الى جهاد فى حفظ البهائم عنه ، فقلما تصبر البهائم عن النبات المرغوب فى أكله خوفا على أنفسها أن تهلك ان لم تتناول ، وهو عرضة للتناول .

حتى اذا ثبتوا فى هداهم ، ورسخوا فى العلم ، تغلبوا على الأعداء ممتنعين بأنفسهم ، وقل قصد الأعداء[٥١٥] فيهم خوفا من ضررهم ومقابلتهم ، فقد ظهرت صلابتهم فى دينهم ، ودعوا داعيهم الى ضبط أمورهم ، والاستيلاء عليهم ، وانقادوا له مبايعين[٥١٦] على كل (جميل)[٥١٧] منهم ، فيصير خليفة الله على عباده فى أرضه ، كالزرع اذا أدرك وييبس قلت رغبة البهائم فيه لصلابته ، ودعا الزارع الى احرازه مبايعا له[٥١٨] بايفاء العاقبة[٥١٩] .

فصار المنزل الثالث من حيث سبب العمل منزل : العداوة ، ومن حيث العمل منزل : الجهاد ، والمنزل الرابع من حيث سبب العمل منزل : ظهور المنفعة ، ومن حيث العمل : منزل الخلافة .

والنفس فى هذه المنازل معه مطلق جالس فى كمين يحجبها[٥٢٠] ، تقول للعبد[٥٢١] فى منزل الدعوة : انك واحد ، والناس على خلافك ، وما الواحد بقادر على الكل الا بحيلة ، فدع (الفتوة)[٥٢٢] والقوة

---

(٥١١) فى (ب) : الهدى الثابت .
(٥١٢) فى (ب) : بذاك .
(٥١٣) فى (ب) : وخافوا على انفسهم .
(٥١٤) المراد : الصلحاء .
(٥١٥) فى (ب) : وقد قصد الاعداء .
(٥١٦) فى (أ) : متابعين .
(٥١٧) سقطت من (ب) .
(٥١٨) فى (ب) : مبايعا .
(٥١٩) فى (أ) : بايفائه العاقبة .
(٥٢٠) فى (أ) : بحججها .
(٥٢١) فى (ب) : يقول العبد .
(٥٢٢) سقطت من (أ) .

والصلابة ، وقاربهم ، فقد رخص الله تعالى ذلك حتى يأنسوا بك ، ويستمعوا اليك[٥٢٣] .

فلا يزال يقرأ رخص الله تعالى على قلبه فى مقاربة الناس حتى يميل القلب الى الناس عن الرب ، على ايمـاء أنه يصيدهم لله ، حتى اذا خذل بالميـل عن الله ، وفارقه التوفيق ، صادته الدعوة لعاقبة طلب الرئاسة لنفسه لا للهدايـة الى الله ، والحالتان متشابهتان[٥٢٤] ما يمكن التمييز (بينهما)[٥٢٥] الا باعلام ، ولا تقف عليهما الا القلوب الحيـة بالعلوم ، المبصرة بالعقول[٥٢٦] .

وعندهما ضلال العلمـاء ، ولديهما سقطة الفقهاء ، فان طرق العمل على مثال طرق العلم ، منها محكمات ، ومنها متشابهات ، وفى المتشابهات يهلك الغالى والجاهل ، وينجو الوسط .

فيقولان : فعليك البيان والبرهان ، فما الدعوة بمقبولة الا بسلطان .

فتقول : الدعوة الى الله تعالى للهداية ، ليكون عبدا[٥٢٧] أصل محكم لا يجوز تبديله ، والدعوة الى الله ليكون رأسا أصل مرخص فيه ، فالله

---

(٥٢٣) فى (ب) : ويسمعوا لك .

(٥٢٤) فى (أ) : مشتبهتان .　　　(٥٢٥) سقطت من (أ) .

(٥٢٦) يعنى : يمكن التمييـز بين الداعى لوجه الله والداعى لحظ الرئاسة بالفراسة ، فما اسر العبد سريرة الا ظهرت دلائلها . ومع الفراسة يمكن كشف الخفى بعلامات أخرى ظاهرة ، منها :

١ ــ اغضاب الداعى بمعارضته فى رايه اختبارا ، فان غضب أو اشمأز كان طالبا لحظ نفسه ، بعيـدا عن الاخلاص لله ، والا فلا .

٢ ــ العمل فى المجال الذى يعمل فيه ، ومشاركته فى دعوة الناس الى الله ، فان غضب كان راغبا فى الاحتكار ، ورغبته هذه دليل على حظ نفسه الخفى ، وعلى عدم اخلاصه لله .

٣ ــ اذا غلب على الداعى الاستئثار بطيب الطعام والمكان كان طالبا للرئاسة .

٤ ــ اذا كان المقربون اليه هم الوجهاء من القوم ولو لم يكونوا اصفياء لله ، وابعد الصالحين لعدم وجاهة مظهرهم فهو بالغ الأمد الاقصى فى طلب حظ نفسه .

(٥٢٧) فى (ب) : لاعبد أمر . تحريف . وفى (أ) : لاكون عبدا . والسياق يقتضى ما أثبتناه .

تعالى وعد الخلافة للمؤمنين ، والامارة فوق الخلافة من حيث الاسم .
والخلافة فوق الرئاسة ، وقد آتى الله آل ابراهيم ملكا عظيما ، والملك
فوق الامارة ، غير أنه رخصة ، وحد للمحارم ، ففيه طلب الحظ لنفسه .

والأصل : أن العبد لا حظ له الا ما آتاه ربه عزت قدرته ، وأعلام
الداعى الى الله للهداية : أن يعاشرهم باللين ما دام اللين فى ترك حقه ،
فاذا أدى الى ترك حق الله بلا تأويل أغلظ[٥٢٨] ، وأن يهجرهم[٥٢٩] هجرا
جميلا اذا عادوه وردوا عليــه ما داموا متأولين ، فاذا أدى الى التعنت
تصلب[٥٣٠] ، فهذه أعلام أربعة .

والعشرة باللين فى أربعة : البشر عند اللقاء ، وتقريب القول[٥٣١]
بعد البشر ، والايثار بالمــال بعد التقريب ، والعون بالنفس بعد المــال .
ليأنس ببشره اللاقى فيجلس اليه ، ويسكن بمقاربة القول قلبه ، فيستمع
له ، وتأليف النفس[٥٣٢] بالمــال فيقيم لديــه ، ويأمن بالعون فيبقى
معه ، فيتمكن عند ذلك من هدايته الى الله تعالى .

والغلظة لله فى أربعة : العبوســة مكان البشر ، والتبعيد مكان
التقريب ، والعدل مكان الايثار ، والخذلان مكان الاعانة ، ليستوحش
قلب اللاقى منه لعبوسه فيقوم عنه ، ويستوفز[٥٣٣] جسمه بمباعدة القول
فيفارقه ، وتستوحش نفسه من عدله[٥٣٤] فيهجره ويبغضه فى خذلانه ،
ولا يحوم حوله .

فيتبرأ من المداهنة[٥٣٥] فى دين الله ، غير أنه ما تجوز الغلظة[٥٣٦]
ما دام يجد تأويلا لمــا يبدو منهم ، ومحملا على الحق ، لأن الأصل

---

(٥٢٨) فى (أ) : غلظ . (٥٢٩) فى (ب) : وهجرهم .
(٥٣٠) فى (أ) : صلب .
(٥٣١) المراد بتقريب القول : تلطيف العبارة .
(٥٣٢) فى (ب) : وتألف النفس .
(٥٣٣) أستوفز : جلس منتصبا غير مطمئن .
(٥٣٤) فى (أ) : من عزله .
(٥٣٥) المداهنة هى : المجاملة باظهار خلاف ما فى النفس رغبة فى
الحصول على نفع عاجل . بعكس المداراة ، فهى لدفع الضر فى الدين .
وقد كان النبى صلى الله عليــه وسلم يدارى ولا يداهن فقال : « انا لنبش
فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم » .
(٥٣٦) فى (ب) : ما بجائز له الغلظة .

كون العباد على الفطرة ، وكون العقلاء فى أعمالهم بالحجة ، وما يستقيم ترك هـذا الأصل الا بدليل قاطع ، وبذلك نطق الكتاب : « **فبشر عبادى • الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه** »[٥٣٧] .

والهجر اذا عادوه فى أربعة : أن يهجرهم بظاهره على كف[٥٣٨] ، ويرحمهم بباطنه الى لطف ، وأن يقطع الطمع عما فى أيديهم متجملا ، وأن يلازمهم بالحجج متكلما .

فيستحيى المعادى فى اعراضه على كف[٥٣٩] مع القدرة ، فيترك أذاه ، ثم يميل اليـه قلبا بشهادة لطيف نظره[٥٤٠] بما [فى] قلبه ، فالأبصار شهود الأسرار ، فلا يبعد عنه ، ثم يأمن جانبه بانقطاع طمعه فيه ، فيقر عنده ، ثم لابد من سماع الحجة[٥٤١] اذا قر ولم يبعد ، ومال اليه قلبا ، والداعى متكلم بالحجة . فاذا سمع عدلـه استغناؤه عما فى أيدى الناس ، فما العاقل بعامل عملا لا عاقبة له ، فاذا لم يجد لعمله عاقبة فى الدنيـا لم يبق الا المولى ، وقضى بعد التعديل قلب المـائل اليه بصدقه ، وألزمه الطاعة بعد القضاء حياؤه[٥٤٢] الذى اعتراه فى كفه عن مجازاته[٥٤٣] على اقتدار .

والتصلب [فى] أربعة : قصدهم بلسانه لينفى به الهوادة فى طاعة الله تعالى ، ثم بنفسه ليثبت الجلادة فى أمر الله تعالى ، ثم بأعوانه ليكسر شوكتهم بجند الله[٥٤٤] ، ثم بالسياسة ليقيم النصرة[٥٤٥] بتوفيق الله تعـالى .

وأصول ذلك فى كتاب الله تعالى فى العشرة باللين : « **فبما رحمة من الله لنت لهم** »[٥٤٦] . وقـال : « **بالمؤمنين رؤوف رحيـم** »[٥٤٧] .

---

(٥٣٧) الزمر : ١٧ ، ١٨ ، والمراد احسن وجوهه وتفاسيره .

(٥٣٨) على كف ، اى على كف عن مجاوزة حد الهجر الى الايذاء .

(٥٣٩) فى (ب) : على الكف . (٥٤٠) فى (ب) : لطف نظره .

(٥٤١) فى (ب) : اسماع الحضار . وفى (أ) : اسماع الحجة . واخترنا ما فى (م) . من نسخة ثانية .

(٥٤٢) فى (ب) : بعد انقضاء حيائه .

(٥٤٣) فى (ب) : عن مجازاة . (٥٤٤) فى (ب) : لجند الله .

(٥٤٥) فى (ب) : لتقوم النصرة . وفى (م) : لتتم النصرة . من نسخة ثانيـة .

(٥٤٦) آل عمران : ١٥٩ (٥٤٧) التوبة : ١٢٨

وقال فى الغلظة : « **واغلظ عليــهم** »[٥٤٨] . وقــال : « **وليجدوا فيــكم غلظة** »[٥٤٩] ، « **لقد كدت تركن اليهم شيئــا قليــلا** »[٥٥٠] ، « **ودوا لو تدهن فيدهنون** »[٥٥١] .

وقال فى الهجر الجميل : « **واهجرهم هجرا جميلا** »[٥٥٢] ، « **واذا خاطبهم الجاهلــون قالوا ســلاما** »[٥٥٣] ، « **واذا مروا باللغو مروا كراما** »[٥٥٤] ، « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** »[٥٥٥] ، « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** »[٥٥٦] .

وقال فى التصلب : « **براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** »[٥٥٧] ، « **خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا** »[٥٥٨] ، « **وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله** »[٥٥٩] ، « **واقتلوهم حيث ثقفتموهم** »[٥٦٠] ، « **فاضربوا فوق الأعناق** »[٥٦١] .

وهــذه الآيات كلها نزلت بعد ظهور التعنت من الكفرة ، وما انتقم الله من أعدائه فى الدنيــا بعذاب على خلاف العادة الا بعد رسول والزام حجة ، فقال : « **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** »[٥٦٢] ، وقــال : « **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليــهم آياتنــا** »[٥٦٣] .

وكذلك ما أمر رسول الله صلى الله عليــه وسلم بالقتال الا بعد ظهور التعنت منهم وقتالهم معه ، فقال : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم** »[٥٦٤] . وهى أول آية نزلت فى القتال .

---

(٥٤٨) التوبة : ٧٣
(٥٤٩) التوبة : ١٢٣
(٥٥٠) الاسراء : ٧٤
(٥٥١) القلم : ٩
(٥٥٢) المزمل : ١٠
(٥٥٣) الفرقان : ٦٣
(٥٥٤) الفرقان : ٧٢
(٥٥٥) الأعراف : ١٩٩
(٥٥٦) آل عمران : ١٣٤
(٥٥٧) التوبة : ١ ، ٢
(٥٥٨) النساء : ٧١
(٥٥٩) آل عمران : ١٥٩
(٥٦٠) البقرة : ١٩١
(٥٦١) الأنفال : ١٢
(٥٦٢) الاسراء : ١٥
(٥٦٣) القصص : ٥٩
(٥٦٤) البقرة : ١٩٠

وعلى هـذا اجماع الأمـة فى كفار لم تبلغهم الدعـوة : أنهم لا يقاتلون الا بعد دعوة وحجة وجواب[٥٦٥] عن حجتهم ان اشتغلوا بالمحاجة ، وانما اختلفوا فى الضمان اذا قتلوا قبل الدعوة كما فى ضمان مسلم قتل قبل الهجرة .

وكذلك النبى صلى الله عليـه وسلم ما قاتل المنافقين وان ثبت كفرهم بالآية ، لأنهم كانوا متأولين للعصمة بما أظهروا من المسالمة ، وان ثبت تعنتهم فى الباطن ، وعلى هـذا جعل الله تعالى عقد الذمة خلفا عن الاسلام فى العصمة ، فكيف فى قوم[٥٦٦] متأولين مسلمين .

والمسالمة معاملة قائمة حسب قيامها من أهل[٥٦٧] الذمة ، ووراءها اتفاق على أصل الدين ، وتأويل بالقرآن المبين ، ولهذا عثمان رضى الله عنه لم يستجز قتال البغاة والخوارج ابتداء ، ولا قتلهم على رضى الله عنه جزاء[٥٦٨] لكونهم متأولين ، وانما قاتلهم دفعا عن نفسـه حين قصدوه متمنعين[٥٦٩] ، ولا ضلال فى الاسلام أكثر من ضلال الخوارج ، فقد كفروا أمام الحق ، وقاتلوه بصدق[٥٧٠] ، وفرقوا بين الأمة ، وقتلوا كثيرا من العدول .

وقد شرع الله تعالى القتل بدون ذلك : من زنى بعد احصان ، أو من قتل مسلما بغير حق ، أو قطع طريقا بالقتل لعدم التأويل ، وذلك لمعقول ضرورى ، وهو : أن المتأول طالب للحق بالحجة التى جعلت حجة فى الباب[٥٧١] ، ولكنه ضل بتقصيره أو غلوه ، والغلو لشدة العنايـة بالدين ، والتقصير بعذر شبهة فى اليقين ، فلم يجز أن يسوى بينه وبين المتعنت فى ضلاله عن الطريق ، وأحدهما تارك للحجة ، والآخر مستعمل ، بل واجب أن يرحم الضال المتأول ، ويدعى الى الطريق ببيان الخطأ عليـه ليهتـدى ، ويتصلب له لينزجر خوفـا ، فقد أيس منـهم عن اهتدائه[٥٧٢] بالحجة بعد ظهور تعنته .

---

(٥٦٥) فى (ب) : وصواب . (٥٦٦) فى (أ) : كيف فى قوم .
(٥٦٧) فى (أ) : فى اهل الذمة . (٥٦٨) فى (ب) : حدا .
(٥٦٩) فى (م) : ممتنعين . من نسخة ثانية .
(٥٧٠) فى (أ) : وقاتلوه بالصدق .
(٥٧١) فى (أ) : حجة فى الكتاب .
(٥٧٢) فى (ب) : أيس عن انتهائه .

وعلى هـذا مثـال الزائغ عن طـريق منزله على تأويـل أنه الطريق[٥٧٣] ، فانه يستحق على العالم الثابت على الطريق الدعوة اليه ، ولا يستوجب الشنعة[٥٧٤] والعقوبة عليـه ، وأما الزائغ تعنتا عبثـا أو قصدا فى فساد فيستوجب ما يزجره عنه •

وقد أجمع المسلمون على أن شهادة أهل الأهواء المتأولين المتمسكين بالاسلام مقبولة ، والمناكحة معهم جائزة ، فكيف تجوز معاداتهم على سبيل المنابذة (لهم)[٥٧٥] ، والله تعالى أثبت لهم الولاية علينا بالشهادة ، ولهم الوصلة بالمناكحة ، بل تجب موالاتهم بأصل الدين ، وتضليلهم عما زاغوا[٥٧٦] فيه عن الحق بيقين •

ثم عمل هـذا الداعى للعبادات الأربع فى هـذه الحالة وهو الغرض المطلوب من هـذا المقال يقع ليقتدى به الناس فيهتدوا بطريقه ، وقد ذكرنا أنه غافل عن نفسه ليقصد خلافها ، أو اقامة سوقه فيها[٥٧٧] •

فيتصدق ترغيبا للناس فى الاعراض عن الشهوات ، وقلة المبالاة (بالمـال ، ويصوم ترغيبا للناس فى الاعراض عن الشهوات وقلـة المبالاة)[٥٧٨] بالجسم ، ويحج ترغيبا للناس فى الهجرة الى الله تعالى ، وقلة المبالاة بالمـال ، والأهل والوطن ، ويصلى ترغيبا للناس فى عبادة المولى ، وتحريما لكل الدنيـا •

فلا غرض لهذا الداعى على ما ذكرنا غير دعوة الورى الى الهدى ، وما يرى لهم حاجبا غير المـال والوطن ، والشهوة[٥٧٩] والجاه والأهل والسكن ، يكاد يخفى خشوعا فى حاله بذاته ، والله تعالى يشهره للناس

---

(٥٧٣) اى : معتقدا أن الطريق الذى زاغ اليه هو الطريق حقا الى منزله .

(٥٧٤) فى (ب) : الشفقة . (٥٧٥) سقطت من (ب) .

(٥٧٦) فى الأصول : فيما راغوا . وما أثبتناه أوضح وأبعد عن اللبس . والمراد : ابعادهم عن الطريق الذى زاغوا اليه باثارة الشكوك فى أدلتـه حتى يتم تضليلهم عنه باقناعهم بخطئهم وردهم الى الطريق المستقيم .

(٥٧٧) فى الاصول : ليقصد خلافه ، أو اقامة سوقه فيه واخترنا ما فى (م) . من نسخة ثانية . ومعنى اقامة سوقه فيها : أن يعرض بضاعة العمل الخالص لله فى سوق العمل الخالى من هوى النفس . شبه العمل بالبضاعة ، والنفس بالسوق .

(٥٧٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٥٧٩) فى (أ) : والشهوات .

شهرة الشمس بصفاته[٥٨٠] ، ذكره رفيع ، وقوله مسموع ، وفعله متبع ، فقد أعلى للناس اقباله على الله طاعة ، مصداقا لقوله ، وأخفى على الناس حاله مع الله تعالى خشوعا لله تعالى ، وحياء من التقصير فى فعله ، قد أخرسته الفكرة فى خلوته عن الثناء ، وشغله الثنــاء عن الدعاء ، وحجبته عظمة الله تعالى عن الانبساط برفع الصوت والبصر واليد ، بل علمه بألا مكان له[٥٨١] حرم عليــه ما يشير الى المكان الا حيث أمر عملا بالأمر[٥٨٢] تصديقا ، أو حيث أذن أخذ بالرخصة تيسيرا[٥٨٣] ، قــال الله تعــالى : **« قد أفلح المؤمنــون • الذين هم فى صــلاتهم خاشعون »**[٥٨٤] .

« ادعوا ربكم تضرعا وخفيــة »[٥٨٥] .

« واغضض من صوتك »[٥٨٦] .

« ولا تجهــروا له بالقــول كجهــر بعضــكم لبعض أن تحبط أعمالكم »[٥٨٧] .

أفترى الجهر بالقول سببا للقبول ، وكان سببا لاحباط الأعمال مع الرسول صلى الله عليــه وسلم الا من حيث شرع الذكر علما كالأذان وتكبيرات الامام فى الصلوات ، والتلبية ، والتكبير فى عرفات[٥٨٨] ، والأيام المعدودات .

فسبيل العمل[٥٨٩] أن يكون ظاهرا ، وذلك فى الجهر يخاف فى كل أعماله أن يبتدع ، فيلزم نفسه اتباع ما فى الكتاب والسنن ، وان تصور وراء ذلك حسن ، ولا يتقرب الى الله تعالى بواسطة مخلوق مخافة الشرك الا من حيث أمره اقامة للطاعة ، وتعظيما للأمر ، فهذه أمارات الداعى للهداية فى معاملته مع الناس ، وطاعة لرب الناس .

---

(٥٨٠) فى (ب) : لصفاته .   (٥٨١) فى (ب) : لا مكان معه .

(٥٨٢) الأمر بالاشارة الى المكان كالتوجه الى القبلة من حيث قوله : **« فثم وجه الله »** (البقرة : ١١٥) .

(٥٨٣) كاشارة الجارية الى السماء حينما سألها النبى صلى الله عليه وسلم : « اين الله » ؟ ثم قال : « انها مؤمنة » .

(٥٨٤) المؤمنون : ١ ، ٢   (٥٨٥) الأعراف : ٥٥

(٥٨٦) لقمان : ١٩   (٥٨٧) الحجرات : ٢

(٥٨٨) فى (ب) : فى الغزوات .   (٥٨٩) فى (أ) : فسبيل العلم .

وأما علامات الداعي الى الله للرئاسة : فأن يعاشرهم باللين ما دام يترخص ترك حقـوق الله ، على تأويـل أن الترخص مباح ، ليؤلـف قلوبهم[٥٩٠] ، فاذا أدى الى ترك حقه غلظ وان وجد للترك محملا على الحق ، على تأويل أن فيـه اهانة العالم ، وفى اعزاز العالم نصرة الدين ، وأن يهجرهم هجرا جميلا ما داموا خاملين لا يعرفون ، على تأويل أنه لا ضرر منهم فى الدين •

ولعلهم اذ لم يرد عليهم سمعوا الحق وعرفوه ، فاذا ظهروا تصلب على تأويل أنهم سيفسدون فى الأرض[٥٩١] بحججهم ، وفى التصلب عليهم محافظة على الملة المستقيمة •

وعشرته باللين فى أربع : البشر عند اللقاء ليجلسوا اليه ، وتقريب القول بعد البشر ليأنسوا اليه ، ثم أخذ الهدية منهم والاجابة لدعوتهم اتباعا لرسول الله[٥٩٢] صلى الله عليـه وسـلم ، ثم الاستعانة بهم (لينتصر بهم)[٥٩٣] لدين الله امتثالا لكتاب الله[٥٩٤] تعالى •

والغلظة فى أربع : العبوسة مكان البشر ، ليستوحش قلب اللاقى فيقـوم عنه ، والتبعيد ليستوفز جسمه[٥٩٥] فيفارقه ، والظلم مكان الانصاف[٥٩٦] لتستوحش نفسـه بظلمه فيتوارى عنه ، والقهر مكان الخذلان ليخافه فيفر منه ، ليكون قبوله للحق بلا معارض[٥٩٧] أنفذ •

والهجر الجميل فى أربعة : أن يهجرهم بظاهره[٥٩٨] على غيبة[٥٩٩] ، ويعاديهم بقلبه ، الى لين بجسمه ، ليكون الهجر الظاهر مع الوقيعة فيهم بلسانه عذرا الى الله تعـالى فى التبرى عنهم ، واللين الظاهر

---

(٥٩٠) مثال ذلك مما هو واقع فى عصرنا : أن يتهاون الداعى مع من لا يقوم الى الصلاة وقد أقيمت ، أو من يتعاطى منكرا بعلمه دون نهى ، أو يتركهم على ضلالهم فى اعتباره قطب الأقطاب وغوث العباد الى غير ذلك من الألقاب المخلة بالعبودية لله •

(٥٩١) فى (أ) : سيفسدون الناس •

(٥٩٢) فى (أ) : للرسول • (٥٩٣) سقطت من (أ) •

(٥٩٤) فى (أ) : بكتاب الله •

(٥٩٥) فى (ب) : ليستوحش جسمه •

(٥٩٦) فى (أ) : الانتصاف •

(٥٩٧) فى (ب) : قبوله للحق بلا تعارض •

(٥٩٨) فى (أ) : بظاهرهم • (٥٩٩) فى (ب) : على عيبه •

بجسمه سبب مانع من نفرتهم عنه ، فلعله يصيدهم ان سكنوا اليه . ثم يتواضع لهم ويخفى الحجج[٦٠٠] عنهم ، ليكون التواضع سببا يؤلفهم ، ليصيروا له ، فيتمكن بعده من الهداية ، واخفاء الحجة (للحال)[٦٠١] الى أن يصيروا له ، حيلة مبلغة الى الغرض .

والتصلب فى أربعة : قصدهم بلسانه مجادلا[٦٠٢] قطعا للمناظرة ، وبنفسه محاربا قطعا للمعارضة على تأويل خذلان أهل الفساد ، ثم الطعن فيهم تنفيرا للناس عنهم ، ثم الاستهزاء بهم اذهابا للحشمة ، واسقاطا للقيمة ، حتى يصيروا كالشىء التافه الساقط على الطريق ، لا يعبأ (به)[٦٠٣] أحد ، ولا يسمع منهم خبرا ، ولا يرفع اليهم بصرا[٦٠٤] .

وذلك لأنه عمل بالهام نفسه ، وغرض النفس صيد جنسها[٦٠٥] ليكونوا لها لا لربه ، وانما ألهمه طريق الحق ليغره به ، ثم يجره[٦٠٦] الى باطل غفله[٦٠٧] ، فقد عجز عن غرور المحق بالباطل جهرة[٦٠٨] .

وانه على مثال : الصياد يغر الطير[٦٠٩] بالحب . ويصيده بالفخ ، ومثال الغاش من الصيارفة[٦١٠] ، يبدى الفضة ، ويخفى الرصاص ، ثم يروجه على الجاهل من الناس ، وما طريق غش النفس[٦١١] للعالم الا طرق الدين المقرونة بالرخص ، فانها حمى المحارم ، وحد المآثم ، ثم من لم يقف قبل الحد[٦١٢] خيف عليه التعدى عنه ، وبذلك جاء البيان من صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم :

« الحلال بين والحرام بين ، وبينهما أمور متشابهات » . « دع ما يريبك الى ما لا يريبك » . « ان لكل ملك حمى ، وان حمى الله محارمه ، فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

---

(٦٠٠) فى (ب) : بخفى الحجج .
(٦٠١) سقطت من (أ) .
(٦٠٢) فى (ب) : مخاذلا .
(٦٠٣) سقطت من (أ) .
(٦٠٤) فى (أ) : جاءت الأفعال : يسمع — يرفع . مبنية للمجهول .
(٦٠٥) فى (أ) : صيد جنسه .
(٦٠٦) فى (أ) : ثم ليجره .
(٦٠٧) فى (ب) : باطل عقله .
(٦٠٨) فى (ب) : جهده .
(٦٠٩) فى (ب) : يغر الصيد .
(٦١٠) فى (أ) : بين الصيارفة .
(٦١١) فى (ب) : غش الناس .
(٦١٢) فى (ب) : يخف قبل الحد .

ومثال ذلك فيما قلناه ، فقد حملته النفس على دعوة الناس الى الله لغرض الرئاسة ، والرئاسة مترخص فيها ، فكانت حد المحارم ، ففيها طلب الحظ لنفسه ، وهو أن يكون رأسهم • والأصل : ألا حظ للعبيد ، بل الكل لله الا ما جعل للعبد ، فكان حظ نفسه[٦١٣] أنه رخصة وحد[٦١٤] •

ثم دعته[٦١٥] فى معاملاته الى العشرة باللين ما دام مترخصا بترك حقوق الله[٦١٦] ، وانه لحد ، والأصل : أن حقوق الله تعالى لازمة لا يجوز تركها الا برخصة لنا •

والغلظة اذا أدى الى ترك حقه[٦١٧] ، وانه لحد ورخصة • فالأصل[٦١٨] فى حقوقه أنها مستباحة باباحة الا من حيث حجر الشرع ، وكان الطريق الواضح : فى اللين ما دام الترك لحقوقه ، والغلظة اذا أدى الى ترك حقوق الله تعالى •

ثم دعته الى الهجر الجميل وقت الخمول ، والتصلب عند الظهور[٦١٩] ، وهذا حد ورخصة • فالأصل فى الهجر الجميل ما داموا متأولين على ما قدمناه ، والتصلب اذا صاروا متعنتين ، ليكون السعى لله ، اذ (ضرر)[٦٢٠] ظهورهم وعدم الضرر بخمولهم[٦٢١] مما يعود الى الناس • والأصل : ألا حق للناس ولا عداوة ولا مسالمة لأجلهم الا بقدر ما جعل الله تعالى لهم ذلك •

ثم أمرته بالبشر فى العشرة باللين والتقريب كما أمره الله فى الباب الأول[٦٢٢] ، ثم جعلها سببا لما هو رخصة ، [وهو] أخذه الهدية منهم ، والاستعانة بهم ، ففيها الاستئثار ، والأصل المحكم هو : (الايثار ، وانما)[٦٢٣] الاستئثار رخصة فى بعض المواضع •

---

(٦١٣) فى (ب) : حظه . وفى (أ) : حظ النفس . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .

(٦١٤) فى (ب) : واحدة . وفى (أ) : وحدا .

(٦١٥) فى (ب) : ثم دعاه .

(٦١٦) فى (ب) : الحقوق لله .

(٦١٧) أى : حق العبد .

(٦١٨) فى (ب) : والأصل .

(٦١٩) يعنى عند خمول المعارضين أو ظهورهم .

(٦٢٠) سقطت من (ب) .

(٦٢١) فى (ب) : لخمولهم .

(٦٢٢) أى : الدعوة الى الله .

(٦٢٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

ثم أمرته بالغلظة والعبوسة والتبعيد كما أمره الله تعالى ، ثم جعلهما[٦٢٤] سببا لمـا هو رخصة [وهو] : الظلم والقهر ، فقد رخص الله تعالى فيهما فى حق الكافرين مجازاة وزجرا[٦٢٥] ، والأصل[٦٢٦] هو : العدل والاحسان[٦٢٧] . فالعدل أصل محكم مرضى ، فانه اسم للسيرة المرضية وضعا ، والاحسان غير واجب فى الأصـل ، ليكون الخذلان رخصة .

وأما جملة الظلم والقهر فحرامان ابتداء ما يحلان ، الا على سبيل المجازاة .

ثم أمرته[٦٢٨] بالهجر الجميل ، الى هجر بجسمه[٦٢٩] ظاهرا أو غيبة بلسانه مترخصا ، لينزجر[٦٣٠] الناس عنه ، وهـذا حد ، فالغيبة حرام فى الأصل ، وهى : الذكر بالقبيح صدقا الا بأمر على حد مخصوص ، وهو : أن يكون صاحبه أعلنه على نفسـه[٦٣١] غير مبال به . والأصل المحكم فى الهجر (الجميل)[٦٣٢] بجسمه ظاهرا الى كف ، فذلك العدل .

ثم أمرته بعداوة بقلبه[٦٣٣] الى لين بجسمه ، وهذا حد ، فالعداوة للجنس حرام فى الأصل ، ما تحل الا بموافقة الأمر على حد مخصوص ، وهو : ألا يكون للعبد فى ذلك حظ . وكان الأصل المحكم : أن يرحمهم بقلبه مع عناية بظاهره ، فمرحمة الجنس أصل ما يجوز تركه الا بأمر الله ، وما داموا متأولين فلا أمر .

ثم أمرته بالتواضع طمعا فيهم . والطمع فى الناس حرام فى الأصل ، لأنهم لله تعالى ، ما لأحد قبلهم حق ، ولا فى غير الله مطمع الا بأمر الله . وكان الأصل المحكم فى قطع الطمع عنهم مستغنيا بالله .

ثم أمرته نفسه باخفاء الحجج خوفـا من تفرقهم[٦٣٤] ، وانه

---

(٦٢٤) فى (ب) : ثم جعلها .
(٦٢٥) فى (أ) : وجزاء .
(٦٢٦) فى (أ) : فالأصل .
(٦٢٧) فى (أ) : والخذلان .
(٦٢٨) فى (أ) ، (ب) : ثم امر . واخترنا ما فى (م) من نسخة ثانية .
(٦٢٩) فى (ب) : أو بهجر جسمه .
(٦٣٠) فى (أ) : ليزجر الناس
(٦٣١) فى (ب) : أعلنه بنفسه .
(٦٣٢) سقطت من (ب) .
(٦٣٣) فى (أ) : عداوة قلبه .
(٦٣٤) فى (ب) : على تفرقهم .

لرخصة[٦٣٥] وحد ، واخفاء حجج الله حرام الا بأمر الله تعالى ، والأصل المحكم فى الابداء .

ثم أمرته (نفسه)[٦٣٦] بالصلابة بأربع : القصد لسانا كما أمر الله تعالى ، لكن ليسد باب المحاجة[٦٣٧] ، وانه لحرام ، فالله تعـالى ما بعث الرسل والكتب الا محاجا بهم وبها ، فلا يحل سده الا بأمر كسائر فروض الله ، وذلك عند ظهور التعنت ، وكان الأصل المحكم فى القصد لسانا[٦٣٨] لنفى الهوادة عن نفسه ، حتى لا يطمع فى مداهنته ، فالمداهنة فى الدين حرام أصلا ، ما تحل الا لضرورة دفعا .

ثم أمرته بالقصد بنفسه كما أمر الله تعالى ، (لئلا يظهر عجزه ، وانه حرام فى الأصل ، فالله تعالى ما)[٦٣٩] فتح أبواب المحنة ومعارضات الناس على أحد من خلقه مثل ما فتح على الأنبيـاء صلوات الله عليهم ، وقد نطق به الكتاب ، فكان سد أبواب المعارضة حراما الا ضرورة عند خوف التلف . وكان[٦٤٠] الأصـل المحكم فى القصد بنفسـه اظهارا للجلادة[٦٤١] للمعارضين ، فالتجلد[٦٤٢] لله بازاء المعارضين أصل ما يجوز تركه الا باذن ورخصة .

ثم أمرته بالطعن فيهم ليزجر الناس عنهم ، وانه لحد ، فالاقتصار على زجر الناس عن أعداء الله المتعنتين حد ، والأصل (المحكم)[٦٤٣] فى الاهلاك على ما بينا فى أصل الشريعة ، وانما يجوز الكف عنه رخصة .

فاذا ثبت العبد على هـذا الطريق وزين له طلب الرخصة أعمى عن سواء الصراط ، واعتقد ألا طريق غيره ، فسلك والقدم يتعدى الى المحارم ، والعين تقع على المـآثم ، وهو يجتهد تحفظا ، حتى اذا طال السفر وضاق الأمر قرأ : **« وما جعل عليكم فى الدين من حرج »**[٦٤٤] . فوسع فى الطريق على نفسـه (مترخصا بالآية)[٦٤٥] .

---

(٦٣٥) فى (أ) : وانه رخصة . (٦٣٦) سقطت من (أ) .

(٦٣٧) فى (أ) : ليس لسد باب المحاجة .

(٦٣٨) فى الأصول : فى الفضل لسانا ، والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٦٣٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٦٤٠) فى (ب) : فكان . (٦٤١) فى (ب) : للجدال .

(٦٤٢) فى (ب) : والتجلد . (٦٤٣) سقطت من (ب) .

(٦٤٤) الحج : ٧٨

(٦٤٥) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

فسلك بعد ذلك متعديا الى الحمى — وهو ينكره[٦٤٦] — ناسيا أو متناسيا ، ويقول : سيغفر لى بتأويلى واجتهادى ، فيضيع[٦٤٧] الحدود فعلا ، ويحسن الثناء والاستغفار قولاً ، فيلحقه الخذلان ومقت الله الموعود للذين يقولون ما لا يفعلون عند ذلك .

فيتعدى قصداً بغير تأويل ، ثم يندم ، ثم يعود ويقول : ان الله تعالى تواب رحيم ، حتى يرين[٦٤٨] على قلبه ما ارتضاه لنفسه عليه ، ثم يزين له سوء عمله فيراه حسنا ، ثم يرد بعده على أمر الحق[٦٤٩] ، ويعده هينا الى أن يحمله على الانكار تعنتا مخافة ذهاب الرئاسة[٦٥٠] ، فيفسق أو يكفر برابع منازله[٦٥١] ، على مثال اخبار اليهود والنصارى[٦٥٢] فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعلامة هذا الداعى من حيث الفعل : أن يكون مسجد محلته على مثال قصر خاصته ، ومنبر التذكير على مثال عرش مملكته ، وأصحابه المتعلمون منه على مثال جنده وحاشيته ، وأهل بلده على مثال رعيته ، والعلم (قصص)[٦٥٣] يستعذبها السامعون ، وأحلام يستغربها المتأملون ، وتأويلات الكتاب تتفزع لديها القلوب ، وتقشعر منها النفوس ، وربما أدى الى صيحات منكرة ، وحركات سمجة[٦٥٤] .

---

(٦٤٦) فى (م) : منكره . من نسخة ثانية .

(٦٤٧) فى (أ) : فيضيع .

(٦٤٨) يرين . من الران وهو الظلمة تتكاثف على القلوب من اثر الذنوب فتحجبها عن التذكر والتوبة .

(٦٤٩) أى : يعارض حجة الله بحجته ، ويهون من شأن الأمر الالهى .

(٦٥٠) كصنيع بنى اسرائيل حينما أنكروا نبوة النبى صلى الله عليه وسلم تعنتا .

(٦٥١) المنازل الأربعة هى : التعدى بغير تاويل ثم الندم ، ثم العودة أملا فى التوبة ، ثم الران على القلب وتزيين سوء العمل ، ثم الانكار وفيه الكفر .

(٦٥٢) فى (ب) : اليهودى والنصرانى . والمراد : أنهم كانوا يعلمون فى كتبهم أنه نبى حق ، ولكنهم كانوا ينكرون ذلك خوفا على رئاستهم بين قومهم ، أو خوفا على ما كانوا ينالون منهم من عطايا ومآكل .

(٦٥٣) سقطت من (ب) .

(٦٥٤) مثل هذه العلامات كلها موجود لدى الباطنية ، وأخصهم فى العصر الحديث الاسماعيلية ، انظر « دراسات اسماعيلية » للدكتور عادل

وعنده أن الحركة من اليقظة ، والصيحة من الهيبة ، وربما[٦٥٥] أدى الى البكاء ، ودمع العيون يحزن نحيبهم[٦٥٦] سماعا كبكاء المتسلين على الميت بحسن نياحة النائح ، وأما الفتوى فحيل ، والحكم مراء[٦٥٧] ، والحجة شتم وصفع ووقيعة ، والتضرع فى الدعاء بجهر الصوت ، والتخشع برفع اليد ، والتنسك بشخوص العين ، والتقرب الى الله تعالى بالجموع مكان الخلوة والخشوع (والهجرة)[٦٥٨] بالسياحة ، الى الأمكنة مكان (توجه)[٦٥٩] القلوب لرب[٦٦٠] الأمكنة ، والسياحة جهـاد الكافرين[٦٦١] .

يقول : ما لنا وللسلاح[٦٦٢] ، انما نحن أهل الصلاح ، ثم يكون بعد ذلك ربا لا ربانيا[٦٦٣] ، وآمرا لا مبلغا ، فنعوذ بالله أيها الأخ دائما من شر النفوس[٦٦٤] ، ومخالطة الجنس .

والعبادات الأربع لهذا الداعى تقع على نيـة الاحسان بطاعة الله تعالى ، لغرض أن يحبه الله ، فالله تعالى يحب المحسنين ، وانه لرخصة ، فالاحسان فعل المـالك ، والأصل ألا ملك للعبد ، الا ما ملكه الله[٦٦٥] ، ثم (يقع)[٦٦٦] بعد ما وسع الأمر على نفسـه ، وتعدى الحد فى المراءاة[٦٦٧] ، فبقدر ما تعدى الحد تعدى قصده عن الله تعـالى الى

العوا . ط . دمشق . وكذلك « عقائد الباطنية » لليمانى . نشر عزت العطار . وقد نسج على منوالهم بعض الأدعياء المحدثين ممن لا علم لهم ولا سلوك . اما الصيحات فلا أصل لها مطلقا فى السلوك الصحيح ما لم تكن من غلبة حقة . وعلامتها ان يتاثر بها السامع حالا .

(٦٥٥) فى (ب) : فربما .
(٦٥٦) فى (ب) : بحزن يخامرهم .
(٦٥٧) فى (أ) : والحكم مراد .
(٦٥٨) سقطت من (ب) .
(٦٥٩) سقطت من (أ) .
(٦٦٠) فى (أ) : القلوب لرب .
(٦٦١) فى (أ) : الكفرة .
(٦٦٢) فى (ب) : وللسلاح .
(٦٦٣) نعم ، يحدث من بعض الجهال ادعاء الربوبية فعلا بادعاء القدرة على النفع والضر ، وتهديد الجهال بذلك لابتزاز أموالهم . ومن المؤسف ان يوجد هؤلاء وتوجد لهم دولة فى عصرنا الذى ازدهر فيه العلم .
(٦٦٤) فى (أ) : النفوس .
(٦٦٥) فى (أ) : الا ما ملك ، بالبناء للمجهول .
(٦٦٦) سقطت من (ب) .
(٦٦٧) فى (ب) : المرآة .

الناس فى اقامة العبادات • فينال الويل مكان الفلاح ، ويظلم عليه بظلم المعاصى الصباح ، فيصير الى الكفر الصريح ، أو الفسق القبيح •

فمتى وقى العبد هذه الفتنة فى منزل الدعوة ، وثبت داعيا الى الله تعالى هاديا انتقل الى منزلة : المحافظة ، بسبب الرجاء ، والنفس تدعوه الى المنزل بسبب الطمع[٦٦٨] ، يقول الله تعالى : **« يدعون ربهم خوفا وطمعا »**[٦٦٩] • والطمع مرخص فيه ، والأصل المحكم هو : الرجاء ، فان الرجاء ينبعث من كرم المرجو عرفه[٦٧٠] ، الظاهر فضله ، الباعث كرمه المحتاج الى الرجاء ، فيرجوه مفوضا اليه ، فما عرف له سببا من عند نفسه • والطمع يبعث الطامع بحق عرفه[٦٧١] لنفسه ، فيبعثه على الطمع كأنه طالب بحق له ، وانه لرخصة ، فالأصل ألا حق لأحد على أحد[٦٧٢] ، ولا على الله المتعالى ، وان ثبت للعبد جزاء الأعمال فذلك من الفضل والافضال •

وان الطامع متى لم يحصل له مراده — وقد اعتقده مستحقا — سخط ، ثم رجع ، ثم أنكر ، فكان رادا للعبودية بعد ترك العبادة ، والراجى ان لم يحصل له مراده وقد اعتقد ألا حق له صبر ، فحرمان ما ليس بحق له عدل ، والعدل حق وان كان مرا ، ثم رضى فالحق مرضى ، ثم تنبه اذ رضى لسائر الحسنى اليه فسكن ، وفيه تمام العبادة بعد تمام العبودية بما صبر •

ومتى وقى العبد هذه الخصلة فى منزل المحافظة ، انتقل الى منزل الجهاد بسبب العداوة لأعداء الله نصرة لحزب الله ، والنفس تدعوه الى المصالحة ترخصا ، بقوله تعالى : **« عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل اذا اهتديتم »**[٦٧٣] •

« لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم »[٦٧٤] •

---

(٦٦٨) المراد : الطمع فى الله • • (٦٦٩) السجدة : ١٦

(٦٧٠) العرف : العطاء • بضم العين المهملة •

(٦٧١) فى (ب) : لحق عرفه •

(٦٧٢) كيف ، والله تعالى يقول : **« وفى اموالهم حق للسائل والمحروم »** (الذاريات : ١٩) ، وقد انفرد الاسلام المحمدى بهذا المبدأ وهو : تكليف الانسان بالنسبة للانسان • وكان الأجدر بالمؤلفة أن يستثنى كعادته فيقول : (الا بأمر • • •) •

(٦٧٣) المائدة : ١٠٥

(٦٧٤) الشورى : ١٥

« فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم »[٦٧٥] .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين »[٦٧٦] .

والأصل المحكم : العداوة والمنابذة ، وفي المسالمة ترحم ، والكافر ملعون مطرود الا رخصة على طريق الامهال ، لحكمة أن يتوب أو ينزجر ، أو على طريق استدراج ليستحق العذاب الأكبر ، **« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه »**[٦٧٧] الآية .

لكن قصده[٦٧٨] في الدعوة للرئاسة حمله على المسالمة ليتحقق طمعه فيهم رياسة ، ثم على المواصلة ، ثم على المداهنة ، ثم النفاق ، برابع منازله ، وانه لشر كفر .

وقصده في الدعوة للهداية يحمله على المعاداة ، فما له فيهم من حظ لنفسه فيصالحهم بسببه ، ثم على القطيعة ، ثم على المنابذة ، ثم على المقاتلة ، وانه لأتم اسلام لأمر الله ، فلا عوض للروح[٦٧٩] .

ومتى وقى العبد هذه الشبكة في منزل الجهاد انتقل الى منزل الخلافة بالتولية ، والنفس تدعوه الى الامارة بالتولي[٦٨٠] ، تقول : انك أولى الناس بهذا الأمر ، وقد تعينت لذلك ، فان تركته فسد أمر الدين ، فاطلبه وتوله ، فقد أمر الله تعالى بذلك فقال : **« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »**[٦٨١] ، **« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »**[٦٨٢] .

ومن طلب وتولى برغبة نفسه وكل اليها ، ومن وكل اليها عجز ، فما بواحد يسوس الكل الا بعون مالك الكل ، ومن عجز ضيع ، وفيه انعزال في حق الدنيا قبل أن يصير الى المولى . ومن ولي أعين ، ومن أعين نصر ، ومن نصر استولى ، وفيه الاستقامة لقناة الامامة .

---

(٦٧٥) ابراهيم : ٣٦ — (٦٧٦) الممتحنة : ٨

(٦٧٧) التوبة : ١١٤ — (٦٧٨) في الأصول : لكنه قصده .

(٦٧٩) وذلك عند ذهابها بالشهادة في سبيل الله .

(٦٨٠) مثل هذا مثل من يصدر نفسه للمشيخة دون استعداد ولا اذن الهي لحظ النفس . أما من استخلفه الله فانه يدعو الى الله بحاله ومقاله وعمله دون حظ للنفس في دعوته .

(٦٨١) الحجر : ٩٤ — (٦٨٢) الانفال : ٣٩

فاذا استولى العبد الموقن على هذه المنزلة ، وجس نبضها برؤيــة من قلبه وجد حظه فى القرب من ربه عنه غائباً ، فقد صار لمصالح غير الله مفروغا . وان كان بأمر من ربه كانت له صفوة قبلهم عندما ضاق بالناس صدرا[٦٨٣] ، واشتاق ذلك القرب سرا ، وما عاشرهم الا بالأمر ، وصبر على مثال الزارع اذا أدرك زرعه ، وأنهى ريعه ، وجد ما يحتاج اليه من الحب غائبا عنه بالتبن بعد ما كان له خالصا وان قل الزرع ، فنظر فيه فوجد ذلك البعد من عمل الأرض ، فأقبل على التبعيد بين الزرع والأرض بالحصاد ، ثم التفريق بين الحب والتبن بالدياسة ، ثم على التمييز بالتذرية ، حتى خلص الحب ، فصلح للاحراز .

فكذلك العبد الداعي ، ينظر فى حاله ، فيجد غيبة حظه فى قربه من ربه ، بسبب ميل الى أولئك المهتدين حل بقلبه ، فبقدر الميل الى من دون الله ينحجب السر عن الله ، فيقبل على حصاد ميل القلب اليهم بالفرار الى الله تعالى عن الناس ، وعن الدنيــا ، قلبا على ما قال الله تعــالى : « **ففروا الى الله** »[٦٨٤] ، وعلى ما قال النبى صلى الله عليــه وسلم : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » .

والنفس تأمره بالفرار عنهم جسما مترخصا بقول الله تعــالى : « **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** »[٦٨٥] وانه لرخصة . فالفرار[٦٨٦] عن الناس بالجسم ترك لهم على الضلالة ، وتقرير على صراط الجهالة ، وانه لحرام الا رخصة عند اليأس[٦٨٧] ، أو ضرورة لدى شدة البأس .

والأصل المحكم هو : الفرار الى الله تعالى بقلبه ومعاشرة الناس بجسمه ، ليهتدى الناس به ظاهرا ، ويخلص لربه بنصيب ربه باطنا ، ومن فر جسما بغير أمر من الله تعالى ضيق عليــه ، ومن ضيق عليــه وقد فر يطلب سعة ندم ، ومن ندم وهو محبوس لم تنفعه الندامة ، وما بعد ذلك الا القنوط ، الا من تداركه الله برحمته والعياذ بالله .

---

(٦٨٣) فالفرق بين من ولاه الله وبين من تولى بنفسه أن الأول يضيق بالناس صدرا ومع ذلك فهم يحبونه ، وهو راغب فى الميل عنهم بقلبه الى الله ، ومعاشرتهم بجسده . أما الثانى فهو يحب الناس ويميل بقلبه الى عشرتهم فيصير حظه من القرب من ربه غائبا . وسيأتى أن الخليفة يفعل ما يؤمر والأمير يفعل ما يريد .

(٦٨٤) الذاريات : ٥٠ — (٦٨٥) مريم : ٤٨

(٦٨٦) فى (ب) : والفرار . — (٦٨٧) فى (ب) : عند الناس .

ومن فر الى الله بقلبه ، وصبر لهم بجسمه ، شرح صدره ، ومن انشرح صدره أنس قلبه ، ومن أنس قلبه شكر وفاز ، والله المسئول •

ومتى وقى العبد هــذه الحيلة فى منزل الفرار اشتغل بعد السكون بالرياضة ، يروض قلبه عن الفكرة فى غير الله ، والحب لغير الله ، والرضا بغير الله ، والخوف من غير الله[٦٨٨] ، ونحوها • والنفس تأمره برياضة الجسم سياحة ، تخويفا وتبتلا وافقارا ونحوها ، وانها رخصة ، فما بجائز فى الأصل التفرد عن قومه الا لجهاد أو تفقه[٦٨٩] ، ولا بجائز تعذيب جسمه بمنع ما أباح الله تعالى له[٦٩٠] ، أو تحريم ما أحل الله تعالى ؛ فقد صام رسول الله صلى الله عليــه وسلم وأفطر ، وقام بالليل ونام ؛ وتزوج ، وأكل الطيب ، وركب الفاره ، وكان أتقى العالمين ، صلى الله عليــه وعلى آله أجمعين •

فكان الأصل المحكم طريقه ، ثم طريق الخلفاء الراشدين ، وطريق ورثته من الفقهاء المتقين ، من السلف الصالحين ، وما للعبد أن يتعداه الا مترخصا بعذر ، فاذا تعدى بغير عذر أعجب بحاله ، واذا أعجب ولى ما تولى ، وصلى النار وساءت مصيراً •

واذا راض قلبه ، وتنعم بما أحل الله تعالى له مقتديــا برسول الله صلى الله عليــه وسلم أعجبته عناية ربه ورحمته ، ففوض اليه العبد ، فتولى الله أموره ، فدخل الجنة ، وطابت نفسه •

ومتى وقى العبد هــذا الشر فى منزل الرياضة بعد العصمة[٦٩١] ومعاينة أسباب الرحمة ، صار الى منزل الاغارة على ما أوجب شوبا فى

---

(٦٨٨) انظر باب الفكرة فى « أعمال القلوب والجوارح » للمحاسبى فقد فصل فيه انواع الفكرة التى يروض بها السالك نفسه على الفكر السليم فى حال الصمت .

(٦٨٩) ممن تفرد للتفقه أبو طالب المكى ، وقد اخرج فى خلوته للعالم كتابى « قوت القلوب » و « علم القلوب » .

(٦٩٠) من ذلك ما يفعله بعض الجهلة ممن تصــدروا للمشيخة اذ يجيعون تلاميذهم من غير صوم . وهو محظور شرعا . انظر تفاصيل ذلك وأمثاله فى « العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية » ورقة ٧٢ وما بعدها .

(٦٩١) كان الأولى بالمؤلف أن يستعمل تعبير (الحفظ) بدلا من العصمة ، فالعصمة للأنبياء والحفظ لسائر الأتقياء .

المصفوة بميلة وإن قلت الى من دون الله ، أو حظوة فى مال ، أو وطن ، أو أهل وولد ، اغارة القدير على عدو أسير ، لكن بالقلب رغبته (ليصفو القلب لله)[٦٩٢] ، فهو نصيب الله تعالى (ويقضى حق الأهل والولد والناس بالجسم ، فما هو بنصيب الله)[٦٩٣] ، فيكون معهم بجسمه ، ومع الله بقلبه ، والمـال (معه)[٦٩٤] يدا ، ولغيره عقداً ، والنفس تأمره[٦٩٥] بالاغارة الظاهرة تفريقا وتبذيرا ، وانه لرخصة ، فلأهلك عليك حق ، وكذلك لولدك وللناس ، فانهم عبيد الله ، وقد نهيت عن تضييع المـال ، فلا يجوز الاعراض عن المـال وعن الناس أصلا ، يدا ولا جسما الا عن عذر ، أو بحق أمر ، وانما طلب الله تعالى منك قلبك .

وكذلك الأنبياء عليهم السلام ، عاشروا واستولدوا (وتملكوا)[٦٩٦] وأكلوا وأمسكوا ، فذلك الطريق هو الأصل المحكم ، فاذا فعل ذلك برأى نفسه تفرد ، واذا تفرد وسوس اليه ، واذا وسوس اليه غفل عن ربه ، واذا غفل أحاط به الخذلان ، واستحوذ عليـه الشيطان ، وعنده أنه تفرد للرحمن[٦٩٧] .

واذا فعل بأمر الله أحبه الناس ، فمن أحب الله بقلبه ألقى الله محبة[٦٩٨] عليـه منه ، فيحبه الناس بذلك ، واذا أحبوه اتبعوه ، واذا اتبعوه فى الله أعانه الله تعالى بالالهام ، واذا ألهم غفل عن الكل قلبا كالأنبياء عليهم السلام وقت نزول الوحى عليهم ، فصفا للرحمن ، وأيس من الشيطان ، وعند الناس انه لأهل الزمان .

---

(٦٩٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٦٩٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٦٩٤) سقطت من (أ) .
(٦٩٥) فى (ب) : تأسره .
(٦٩٦) سقطت من (ب) .
(٦٩٧) لا حجة لمن يخرجون عن أموالهم بأنفسهم دون اذن الهى بفعل ابى بكر ، فقد كانت موافقة النبى صلى الله عليـه وسلم على عمله بمثابة الاذن الالهى . والخطأ الذى يقع فيه المحدثون هو : الخروج عن المـال باذن من أحد المجاذيب أو باذن من له مصلحة نفسية فى خروجه عن المـال ونعرف حالات من هـذا القبيل .
(٦٩٨) فى (ب) : محبته .

ومتى وقى العبد هـذه الوسوسة انتقل الى منزل الأسر ، أسر القلب لله بقيود صياغتها[٦٩٩] الاحسان ، وحلقاتها المحبة ، يخاف الاطلاق عنها ، ويتمنى الوثاق بها ، والنفس تأمره بأسر الجسم عن النظر الى الدنيـا ، والتمتع بها ، وانه لرخصة ، فما خلق الله الدارين الا لنـا ، وانما تعبدنا بترك الحرام الى الحلال ، فما بجائز تحريم الحلال تمتعا الا ترخصا[٧٠٠] بجعل التحريم سببا للفراغ لله تعالى ، فاذا أسر الجسم بأمر النفس[٧٠١] وحبسه عما خلق له اشتاقه ، ثم قلق فيـه فحل القيـد[٧٠٢] وانسلخ منه ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

واذا أسر القلب لله ، وأطلق الجسم لمـا أبيح له شبع ، ثم مل (ثم أعرض)[٧٠٣] ، ثم عاد الى القلب بحكم التبعية الأصلية ، ثم ولاهما الله تعالى فكانا[٧٠٤] من المقربين .

وأما العبادات الأربع فى هـذه المنازل فتقع على حسب الغرض فى كل منزل .

أما منزل المحافظة بسبب الرجاء ، والرجاء اتصل بقلبه عن كرم ربه ، فيتصدق ترجيـة للقلب زوال محبة المـال بحكم أنه حمل زائد ، ثم يصوم ترجيـة للقلب زوال محبة النفس بمخالفته اياها ، بمنعها عن شهواتها بحكم أنها عدوه ، ثم يحج ترجية للقلب بزوال محبة الأهل والوطن بالهجرة والفرار عنهما بحكم أنهما فتنة ، ثم يصلى ترجية للقلب وصولا الى الله تعالى بالاقبال[٧٠٥] عليـه بحكم أنه الأمد الأقصى مما يناله العبد فى الدنيـا من المراتب العليـا .

---

(٦٩٩) فى (ب) : صناعها .

(٧٠٠) ليس هو تحريم ، فتحريم الحلال يساوى احلال الحرام ، وهما كفر ، وانما هو امتناع عن حلال دون تحريم .

(٧٠١) انما تأمر النفس بذلك توصلا الى خفة الجسم ، وأملا فى خرق العادات ، كما يفعل المشتغلون بالسحر ومحاولة الاتصال بالجن مما يسمى فى عرفهم رياضة ، على مثال ما كان يفعل فقراء الهند .

(٧٠٢) فى (ب) : بحل العقد .

(٧٠٣) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٧٠٤) فى (ب) : وكانا .

(٧٠٥) فى (أ) : باقبال عليـه .

ثم يتصدق فى منزل الجهاد تجردا للأعداء عن محافظة المـــال ، ثم يصوم تجردا للأعداء عن اقتضاء الشهوات ، ثم يحج تجردا للأعداء عن الأهل (والوطن)[706] ، ثم يصلى بكله للمولى .

ويتصدق فى منزل الخلافة اقامة لكفاية الولاية من عبيد الله وخلقه ، ثم يصوم اكتفاء بالبلغة فى حقه ، ثم يحج اكتفاء ببيت الله تعالى عن وطنه ، ثم يصلى اكتفاء بالمولى عن الورى والدنيـــا .

ثم يتصدق فى منزل الفرار فرارا عن الحبائل ، ثم يصوم فرارا عن الدواعى ، ثم يحج فرارا عن الموانع ، ثم يصلى اعتصاما بالمولى .

ثم يتصدق فى منزل الرياضة استحلاء لحال النجاة[707] ، ثم يصوم تحصينا للنجاة ، ثم يحج شوقا الى موضع النجاة[708] ، ثم يصلى طربا فى ثمرة النجاة ، مثنيا على ربه .

ثم يتصدق فى منزل الاغارة متشفيا ، ثم يصوم منتقما[709] ، ثم يحج مبرورا ، ثم يصلى مرحبا بلقاء الملك فقرا لديـــه .

ثم يتصدق فى منزل الأسر قاضيا به شهوته من مكارم الأخلاق[710] ، ويصوم قاضيا شهوته من حسن الأدب ، ثم يحج قاضيا شهوته من ثبت العزيمة ، ثم يصلى قاضيا شهوته من قرب المنزلة بالنجوة بعد اللقيا .

فهذا فى أول منازله رغب فى طاعة المولى بسبب الخوف ، فأمال الرجاء جسمه اليه ، ثم تجرد له ، فاكتفى به فى رابع مراتبه[711] ، ثم شعر بفساد شأنه ، من جهة الناس والدنيـــا ، فاعتصم بالله تعالى بعد

---

(٧٠٦) سقطت من (ب) .

(٧٠٧) فى (ب) : استخلاء بحال النجاة .

(٧٠٨) من حيث ان موضع الحج حرم الله الآمن ، والذى من دخله كان آمنا ، أو من حيث هو الوجهة الى الله لا البيت بعينه .

(٧٠٩) المراد من التشفى والانتقام : الميل على ما من شانه ان يشغل من الله تعالى بالامتهان والتبعيد عن القلب .

(٧١٠) يعنى : بشرط عدم ملاحظته لمكارم اخلاقه ، بل بملاحظة ما مكنه الله من طاعة للأمر بالمكارم ، وملاحظة أنه آلة الفعل والفاعل الله .

(٧١١) فى (ب) : فى اربع مراتبه . ورابع المراتب فى الفقرة كلها هى معرفة الالوهية اذا تذكرنا قوله فى بدء العمل أن المراتب : الخوف ــ الرجاء ــ معرفة العبودية ــ معرفة الالوهية .

الفرار عن الكل بصلاته ، فأثنى عليــه ، ثم قر لديــه ، فقضى الروح عندها شهوته ، وبلغ نهمته[٧١٢] ، وهى رابع مراتبه ٠

ثم تأمل فى حاله وقد صفت حالته عن الناس والدنيـا لله تعالى ، فشعر بنفســه[٧١٣] الأمارة بالسوء المعاديــة على الحقيــقة ، وهى ظاهرة لبصر القلب ، محيطة بالجسم ، وشعر بنصيب الله فيــه[٧١٤] ، وهو باطنه[٧١٥] لا يرضى به الرب الا بعد التمييز بينهما ، وكان علمه بالنفس من قبل أن علمه سماعا ، وان اعتقده تقليدا ، فكان على غفلة منه على الحقيقة مشتغلا باستخلاص نصيب الله تعالى عن الناس والدنيا فى تلك الطريقة ، والنفس متمكنة من حيلها ، وان سلبت كل قدرهــا ؛ وقد ألهمته الأمارة فى منزل الخلافة ٠

فالاسمان متقاربان ، وقد جاءت بهما الشريعة ، واذن قد بدر منه عمل الأمراء من حيث لم يشعر ، مما استصوبه[٧١٦] برأيه ، واستخلصه بحاله ، فالأمير يفعل ما يريد ، والخليفة ما يؤمر ٠

وقد ألهمه العجب فى منزل الأسر حسن الظفر[٧١٧] ، واذن قد خطر بباله حسن أعماله ، فالأمير[٧١٨] فاعل بقدرته ، وجناه العجب ؛ والخليفة فاعل[٧١٩] بقدرة موليــه ، وجناه الشكر ٠

وانه على مثال الزارع اذا أحرز بذره بعد التذرية والتمييز عن التبن وقف على الحب ، فاذا بقشور الحب وهو القشر الذى لا يصلح له محيط به ، وكان من قبلُ غافلا عنه لاختلاطه بالتبن[٧٢٠] ، وشغل قلبه للتمييز بينهما بجهد ولين ٠

فيخاف العبد فى منزل القرب من الله تعالى جلّ جلاله ، والنفس محيطة به ، وقد عــلم أنه غير صالح للمولى الا بعد الاخلاص عن نصيب النفس والهوى ، كما أخلص عن نصيب الدنيــا والورى ، فيخاف

---

(٧١٢) فى (ب) : بلغ همته ٠ (٧١٣) فى (ب) : فسعد بنفسه ٠
(٧١٤) فى (ب) : منه ٠ (٧١٥) فى (ب) : بالظن ٠
(٧١٦) فى (ب) : مما استنصر به ٠
(٧١٧) فى الأصول : بحسن الظفر ٠
(٧١٨) فى (ب) : فالامير ٠ خطأ ٠
(٧١٩) أى : أن الخليفة ملهم ، والأمير مجتهد برأيه ٠ أو المسألة تدور على الاعتقاد ٠ فالأمير يرى نفسه فاعلة والخليفة يلاحظ تمكين ربه ٠
(٧٢٠) فى (أ) : لاحاطته بالتبن ٠

حاله ، ويقصد الفرار ، فلا يجد عن الله مفرا[٧٢١] ، فيسكن ولا يجد مع النفس لدى الله[٧٢٢] مقرا ، فتعمية الحيرة عن الملكوت الظاهر لعينه[٧٢٣] ، فيجلى الله (برحمته)[٧٢٤] الملكوت الباطن لسره ، حتى يرى عيانا[٧٢٥] بعد ما كان علم ايقانا ، فيجد ذاته فى المحشر معروضا على الله الأكبر ، وهو على حالة ، والنفس محيطة بقلبه ، ونصيب النفس محيط بعمله ، فيذوب حياء من ربه بسبب نفسه ، ويشكر خشية حتى يصير بضغطة السكر على مثال الطحين .

فيتداركه الله بالستر عليه باعمائه عما أبصر من عيبه ، ونسيانه لما تذكر من خطبه ، فيصحو وقد قرب سره من النار حتى كأن اللهب يمسه ، وكأن القلب يحسه ، واذا النفس التى لا ينحو معها عن النار ممتزجة به مجاورة وان طحنت بضغطة السكر ، بعد ما كانت محيطة به فى أول[٧٢٦] الأمر فيهاب الله دون النار هيبة من علم أن النار لا تعمل الا بأمره[٧٢٧] ، فيتداركه الله تعالى بالتوفيق للتقوى عن النفس ، ونصيبها يصفو بتقواه فى حر الشهوات كما يصفو المؤمن العاصى بعد الحساب بحقيقة العذاب[٧٢٨] ، فاذا النار برد وسلام ، ومعبر وأمان .

فجازها السر ، وبدت له الجنة بنورها وزخارفها وحورها ، فاذا الرغبة متمكنة[٧٢٩] من قلبه مكان الهيبة من ربه[٧٣٠] ، عالما أنه لا ينالها

---

(٧٢١) فى (ب) : سفرا .

(٧٢٢) فى الأصول : لدين الله . وما اثبتناه أوضح وأصح .

(٧٢٣) فى (ب) : بعينيه . (٧٢٤) سقطت من (ب) .

(٧٢٥) الرؤية العيانية بعد العلم اليقينى هى : عين اليقين . الذى يلى فى الرتبة علم اليقين . والرؤية العيانية هنا فى عين اليقين ليست بصرية وانما هى بالبصيرة ، والمشهد اللاحق كله من باب التوهم على غرار ما كتبه المحاسبى فى كتاب التوهم .

(٧٢٦) أى ان النفس فى هذه المرحلة قد انعزلت وتميزت بعدما كانت محيطة بالعبد مختلطة بكل جزء منه .

(٧٢٧) هـذا هو المقام المسمى بفناء الفناء .

(٧٢٨) وهذا هو المقام المسمى بالبقاء بالله بعد الفناء وفناء الفناء .

(٧٢٩) فى (أ) : مستمكنة .

(٧٣٠) اذن نعيم الجنة على مثال شهوات النفس . فالشهوات حجاب عن اخلاص العمل والخلوص الى الله ، والنعيم حجاب عن المشاهدة والمعاينة .

أحد الا باذنه ، فيرجو الله عند ذلك من فضله لا بعمله ، واذا به بعد خمار ذلك السكر الذى كان به من جهة النفس وان فارقته بالتقوى ما يصلح مع الخمار لجوار المولى ، ودار النعمى .

فيقبل على العلاج بماء الاخلاص حتى يبرأ عنه ويقوى ، ويدخل السر دار السلام بتحية واكرام ، فيشتاق لقاء الله عند ذلك ويحل دونه هنالك ، وبعد [فهو] غير صالح للقاء .

فالغسل وان تم بماء الاخلاص فما نشفت (بعد)[٧٣١] رطوبات الغسل ، وما معها كما فى الشاهد للقاء بأهل[٧٣٢] ، فيقيـم محبوسا عن اللقـاء[٧٣٣] ونار الشوق تنشف الرطوبات ، وتصلحه اصلاح نـار التنور خمير الخباز[٧٣٤] .

وانه على مثال الزارع متى أحرز الحب ، ووقف على القشر الذى لا يصلح نصيبا له محيطا بما يصلح له أقبل عليـه بالطحن ، ثم بالعجن ، ثم بالخبز ، ثم لا يستعذبه بغير ادام ، فأقبل على طبخ اللحم بالمـاء والملح ، ثم التخلية للعيون بالآلات ، ثم التطييب للمذاق بالأباريز ، ثم التقديم على المـائدة .

فكذلك العبد بعد ما طاب لم يصلح وهو عريان للقاء الجبار ، كما لا يصلح الخبز لصاحبه وهو قفار[٧٣٥] ، فيقعده الخجل ، ويردعه عن طلب اللقاء الوجل ، ويعود الى منزل الصبر ، الصبر فى اللقاء لطلب الكسوة ، فيكسو نفسـه بالصبر لأحكامه بتأييد من الله تعالى وعون من قلبه .

ثم لا يصلح للقاء بغير حليـة ، فيحلى نفسـه بالرضا بأقسامه بتوفيق من الله تعالى وأداء من قلبه .

---

(٧٣١) سقطت من (ب) . (٧٣٢) فى (ب) : بالأهل .

(٧٣٣) فى (ب) : على اللقاء .

(٧٣٤) المراد من هـذا التمثيل : ان السالك كما راينا مر فى الوان من المراتب والمقامات فهو من أهل التلوين . وأهل التلوين لا يصلحون للقرار فى الحضرة الالهية ، فما فى الحضرة الا الصمت والسكون والهيبة « **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا** » (طه : ١٠٨) . فلابد من فترة يتمكن فيها السالك من مقامه حتى يصبح من أهل التمكين الصالحين للقيـا ، والتمكين لا يكون الا بعد الشوق واستقراره ، لا فى أول فورانه .

(٧٣٥) خبز قفار ، أى : خال من الادم .

ثم لا يصلح للقاء بغير طيب ، فيطيب نفســه بروائح الشكر لله تعالى على كل حال باكرام الله تعالى ورحمة من لدنه .

ثم جاء وقت القاء السر لربه ، ومنزلة اكرام الله تعالى عبده بالتجلى لسره ، حتى يراه بسره[٧٣٦] أينما التفت[٧٣٧] كما كان يعرفه من قبل الهه أينما كان ، كما يقع التجلى بين صاحب الطعام والمــائدة المقدمة اليــه . فهذه نهاية منازل العارفين .

وعباداته الأربع فى هــذه المنازل تقع على حسب أحواله ، فيتصدق فى منزل السكر[٧٣٨] استهانة بالدنيــا استهانة السكران بماله ، ثم يصوم عربدة على نفســه عربدة السكران على خلاف جنسه ، حتى يحل[٧٣٩] بأنسه ، ثم يحج طربا فى الوفادة ، طرب المطلق عن الحبس للولاية ، ثم يصلى متعززا فجلس لدى الملك الكبير تعزز الملك فينا بالسرير .

ثم يتصدق فى منزل الصحو معتذرا[٧٤٠] ، ويصوم مستغفرا ، ويحج هاربا ، ويصلى دائبا .

ثم يتصدق فى منزل الخمار راجيا ، ثم يصوم راغبا ، ثم يحج طالبا ، ثم يصلى واصلا .

ثم يتصدق فى منزل الشوق مسرورا ببيان آثار الخلوص ، ثم يصوم قريرا ببيــان آثار الظفر ، ثم يحج مجيبا : لبيك اللهم لبيك ، بحق الدعاء الى دار الملك ، ثم يصلى معلنا وشاكرا بالتحميد[٧٤١] والتكبير بل جعل الدار والقرب للقاء .

---

(٧٣٦) فى (أ) : حتى يراه سره .

(٧٣٧) هنا يصل السالك الى حال يحيط الله به بدلا من احاطة النفس به فى مرتبة سابقة ، فبه يرى وبه يتحرك ويعمل مؤيدا به محاطا محفوظا موفقا فى كل حركاته ، ويصبح كل حركاته وسكناته عبادة . لانها لا تخلو عن المراقبة لله المحيط به القائم عليــه . وليست الرؤية هنا بصرية ، كما يلاحظ أن هــذا المقام مما يدعيــه الادعياء والميزان هنا هو البراءة عن حظ النفس ، ويمكن اختبار المدعى هنا بمخالفته ومعارضته فان غضب كان مدعيا .

(٧٣٨) فى (ب) : فى منزل السكرة .

(٧٣٩) فى (أ) : متى يخل بأنسه . وفى (ب) : وحتى يحل بأنسه .

(٧٤٠) أى : معتذرا عن وصلته الضرورية بالدنيا .

(٧٤١) فى (م) : بالتمجيد . من نسخة ثانية .

ثم يعود الى منزل الصبر وقد ظهر له الفرق بين الرياضات والمحض من العبادات[٧٤٢] ، فقد جاز السر النار ، ورأى الجنة . واشتاق للقاء الرب عزت قدرته ، وهان عليه ما دونه . وعرف عيانا أن ما دون الله واسطة بين الله وبين العبد ، والصدقة لا تكون الا لفقير[٧٤٣] آخذ ومال مسلم ، فكانا واسطتين ، والصوم لا يكون الا بنفس يقصد قهرها بالصبر عن الشهوات ، ووقت ينتظر مجيئه تعظيما للوقت ، فكان عبادة بواسطتين ، والحج لا يكون الا ببقعة تقصد تعظيما بزيارتها ، ووقت ينتظر مجيئه تعظيما له ، فكان عبادة بواسطتين .

والصلاة عبادة لله تعالى بلا واسطة ، فكانت عبادة محضة ، ولا تكون الصلاة صلاة الا بالاخلاص[٧٤٤] لله تعالى تعظيما ، وطلاق الكل تحريما .

فقالا : أليس استقبال الكعبة فى الصلاة شرطا ، والكعبة[٧٤٥] واسطة ؟

فقال : الشرط استقبال الله تعالى تحقيقا لمعنى العبادة على مثال ما يوجد فى الشاهد من عبادة الأصنام ، وملوك الأنام ، غير أن فعل العبادة لا يكون فى الدنيا الا على سبيل المحنة ، ولن يلحق العبد محنة بالاقبال على الله تعالى ، فما لله جهة فيمتحن بطلبها ، فأبدل (الله)[٧٤٦] بجهة الكعبة تحقيقا لمعنى المحنة ، لأن الكعبة عينها شرط[٧٤٧] ، وقد حقق الله تعالى هذا المعنى بقوله للذين اشتبهت عليهم القبلة فأخطأوها : « **فأينما تولوا فثم وجه الله** »[٧٤٨] .

فقالا : وللصلوات أوقات مخصوصة ، كما للصوم والحج ، والأوقات واسطة .

قال : وقت الصلاة فى أصله ممدود ، وانما فصل للوجوب ترفيها

---

(٧٤٢) الصبر فى الرياضات معاناة للصبر ، أى انه تصبر أشق وأقل قدرا من الصبر ، أما فى حال المحض من العبادات فهو صبر جميل دون حرج فى الصدر .

(٧٤٣) فى (أ) : بفقير .

(٧٤٤) فى (ب) : باخلاص .

(٧٤٥) فى (ب) : فالكعبة .

(٧٤٦) سقطت من (ب) .

(٧٤٧) وحقيقة المحنة هنا : أن يستقبل المصلى الكعبة بجسده ، والله تعالى بقلبه .

(٧٤٨) البقرة : ١١٥

على الانسان ، ومنع فى بعضها عن الأداء ترغيما للشيطان[٧٤٩] ، فقد كررت الصلوات بتكرر تفاصيل اليوم والليلة ، ليعلم أنها غير مخصوصة بزمان ، كما لم تخص بمكان ، فأقل الحساب الذى يدور عليه العالم ظاهر الأيام والليالى ، ثم فصولها من غدوة وعشية ، ووقت التعشى من الليل الى وقت النوم ، فأما ما بعد النوم ففى حكم العدم فى حق النائم كما بعد الموت •

فعلمنا أن الصلاة هى العبادة المحضة ، فأداؤها بلا واسطة ، وسائر العبادات رياضات ، فما تأدت الا بواسطة •

وانه على مثال سير الدابة بأمر صاحبها وتحت الرائض ، كلا السيرين بالأمر ، وأحدهما للرياضة ، والآخر للخدمة بغير واسطة •

فيتصدق فى هذا المنزل صابرا على رؤية الفقير والمال فى عبادته اسلاما لأمره ، بحكم أنه عبد ، وما للعبد شىء ، ويصوم ويحج كذلك ، فاذا صلى وارتفعت الوسائط قرت عيناه •

ثم يتصدق فى منزل الرضا ويصوم ويحج راضيا بحكم الرب بحق الألوهية[٧٥٠] ، فما حكمه الا حق[٧٥١] ، والحق مرضى ، ثم يصلى وقد كحل اللقاء بعد القوة بزوال الوسائط بكرامة من الله تعالى عينيه •

ثم يتصدق فى منزل الشكر ويصوم ويحج شاكرا لله بحق الخالقية ، فما خلقه من غير حاجة الا أن جازاه ، وما للعبد شىء الا احسانا [من الله] الى العبد ، والمحسن مشكور ، ثم يصلى والله تعالى تجلى لسره عيانا كما كان علمه[٧٥٢] ايقانا ، حتى رآه السر أينما التفت الها ، كما علمه من قبل أينما انتقل الجسم الها •

ثم يتصدق بعد ذلك والله متجل لسره بلا واسطة الها فى المال والفقير ، ويصوم ويحج كذلك ، والله تعالى متجل لسره بلا واسطة ،

---

(٧٤٩) انما ذلك ثلاثة أوقات : حين طلوع الشمس الى أن ترتفع قدر رمح أو رمحين ، وعند استوائها فى كبد السماء الى أن تزول ، وعند احمرارها الى أن تغرب . وذلك لمخالفة عبدة الشمس .

(٧٥٠) فى (ب) : اللاهوتية .

(٧٥١) فى (ا) : فما لحكمه الا حق . وفى (ب) : فما حكم الا حق . واثبتنا ما هو أوضح .

(٧٥٢) فى (ب) : كما كان علما ايقانا .

على مثال من يرى الوجه بعينه بلا مرآة ، ويرى بمرآة ، فتزول عن العبد مرارة الصبر باستحلاء الرضا • ثم يحل فى تلك الحلاوة فيزول باستطابة الشكر ، ثم يلهى عن طيبة الشكر بقرة العين حال التجلى •

والنفس التى لا تصلح نصيبا للمولى بعبد معه وان غاب عن علمه ، فتلقنه فى آخر منازل السكرة ، وهو منزل الشوق الأمن بالمحبة ، فما ذنب الحبيب بمحسوب[٧٥٣] •

وفى آخر منازل الصبر وهو منزل اللقاء تلقنه الفوز ، فما بعد اللقاء مطلب ، وفيه الهلاك ، فالدار دار محنة ، واعتقاد الأمن فى دار المحنة اغترار ، والدنيا سجن ، واعتقاد الفوز فى السجن حماقة[٧٥٤] •

فلا يلتفت القلب الى تلقينه بعصمة[٧٥٥] ربه جزاء على صدق دينه ، ثم تحقق ذلك الفوز والأمن عند موته ، ويقينه بملائكة الرحمة : ألا تخف ولا تحزن ، وأبشر بالجنة التى كنت توعد •

فتنشط روحه نشطا الى دار الجزاء ، ويلتقم للحد جسمه[٧٥٦] لقما (للاصفاء)[٧٥٧] ، ثم تعصره الأرض عصرا ، للتمييز من خبثه ، لا ليعلم العبد الصالح بعصره عصر الجسم[٧٥٨] الطعام بعد الالتقام ، فيصفو بعصر الأرض عن خبثه ، ثم يعاد حيا بالروح ، مرضيا للمولى ، نورا من

---

(٧٥٣) أخطأ الأدعياء فى فهم قول بعض العارفين : لا يضر مع الحب ذنب كما لا تنفع مع البغض طاعة . فأولوها على أن المحب لله له أن يفعل ما يشاء . ثم ادعوا الحب وانطلقوا يعيثون فسادا فى الأرض وفى الأخلاق .

والحق فى هذا أنه لا يضر مع حب الله للعبد ذنب ولا تنفع مع بغض الله للعبد طاعة . والله لا يحب العبد ارتجالا بلا موازين ، بل حبه تعالى له بعد تحقيق اخلاصه وتوحيد قصده ، والذنب فى هذه الحالة من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين . وطاعة المبغوض منقوصة مدخولة ملوثة بالرياء فلا خير فيها .

(٧٥٤) وتلك منزلة الصديق رضى الله عنه اذ يقول : « لو كانت احدى قدمى فى الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر الله » .

(٧٥٥) سبق أن نبهت الى أنه كان الأجدر بالمؤلف ان يستعمل لفظ الحفظ بدلا من العصمة .

(٧٥٦) فى (أ) : ويلتقم اللحد جسمه .

(٧٥٧) سقطت من (ب) .

(٧٥٨) فى (ب) : بعصر معصر الجسم .

أنواره[٧٥٩] ، كما يصفو الطعام بعصر الجسم عن خبثه ، فيعود نصيبا للجسم ، جزءا من أجزائه •

فقال الأخ المسترشد الرفيق : كيف غلبة الهوى بعد علم المرء بهذه الطرائق[٧٦٠] من الهدى ؟

قلت : ان الهوى للنفس طبيعى بمنزلة ما تنبت الأرض بنفسها ، والهوى[٧٦١] كسبى[٧٦٢] ، بمنزلة ما قبلته الانس بفعلها ، وموات الأرض تزكو بنباتها بلا علاج فاذا أنبتناها نحن لم تصف عن ازدواج سائر الأزواج الا بهاد من الزارع[٧٦٣] فى حصد الكلأ وقلعه[٧٦٤] ، وتربية ما أنبت من زرعه •

فقال : (لقد)[٧٦٥] ألقيت الينا[٧٦٦] أسرار أمورك ، وأفضيت الينا بشطورك[٧٦٧] ، ولم نزل كنا نسمع حديث الواسطة ، وكنا نتفزع عن تسمية الرسول بها ، فكيف حقيقة الأمر فيها ؟

قلت : كل ما[٧٦٨] سوى الله مما يتقرب به الى الله تعالى بأمر الله واسطة لا شك فيه ، وانما المنكر هو القول بسقوط حق الواسطة بعد وصول العبد الى ربه • فالأصل أن رؤية الحق لغير الله شرك ،

---

(٧٥٩) سبق تفسير ذلك .   (٧٦٠) فى (أ) : بهذه الطرق .

(٧٦١) فى (ب) : والهوى .

(٧٦٢) المراد من أن الهدى كسبى انما هو من جهة الكسب الذى قال به الاشعرى ، وهو عقد النية والعزم على فعل ما يكون به الهدى وجهاد النفس عليه ، أما نفس الهدى وهو اثر العمل الناتج عن عقد النية والعزم فبتوفيق الله كما أن العمل نفسه بتمكين الله : **((من يهد الله فهو المهتد))** (الاسراء : ٩٧) ، واذا صدقت النية ، وخلت من شائبة النفس تحقق الهدى كرما من الله ، وتحقيقا للحكمة من ربط المسبب بالسبب .

(٧٦٣) فى (أ) : الزراع .

(٧٦٤) اى : ان موات الأرض يجود فيها ما تنبته دون عمل من الفلاح كالشوك والكلأ ، فاذا حاولنا أن ننبت فيها نوعا معينا اختلط بما تنبته بأصلها ، ولابد من جهاد الفلاح لتخليص ما يريد مما لا يريد وكذلك انبات الهدى فى النفس يتطلب صيانة العمل عن الآفات .

(٧٦٥) سقطت من (ب) .   (٧٦٦) فى (ب) : علينا .

(٧٦٧) فى (م) : بشقورك . من نسخة ثانية . والشقور : الحاجة .

(٧٦٨) فى (أ) : هل ما سوى الله . وفى (ب) : هل سوى . وما أثبتناه أوضح .

الا أن يكون بأمر الله فيراه العبد طاعة لله تعالى ، وتلك الطاعة لا تسقط (بمعرفة الرب ، بل تتحقق ، وانما تسقط)[٧٦٩] بسقوط الأمر ، وانما مثل الرسول مثل وزيرا لأمير فى الشاهد ، فقد أمر الناس بالرجوع اليه وطاعته ، ومثل العارف مثل النديم ، قريب من الأمير لمكانته ، وان النديم لواجب عليــه طاعة الوزير وتعظيمه طاعة للأمير ، بل عليــه أوجب من غيره[٧٧٠] .

فلزوم الطاعة بقدر العلم ، وعلمه عيان ، فكان أحق من علم غيره بالخبر ، ولهذا كان أبو بكر رضى الله عنه أطوع الناس لرسول الله صلى الله عليــه وسلم ، فقد صدقه (أبو بكر رضى الله عنه)[٧٧١] (به)[٧٧٢] لمــا جاءه بالصدق من غير مكث ، ولم يفارقه وقد أوذى ، ولم يتخلف عنه وقد هاجر ، ولم يخلف لأهله قوتا حين استقرض ماله لله تعالى .

فقال الأخ : لقد تكلمت بفصول فى الأنوار ، فما عليك لو جمعتها فى فصل واحد فعليها المدار .

قلت : قد ثبت أن الله تعالى خلق هــذه الدنيــا لهؤلاء الورى كما خلق لهم الأخرى ، ولا شك أن من خلق له الدنيــا والعقبى أفضل من الدنيــا والأخرى ، والفضل للضياء فى مقابلة الظلماء ، والأنوار ظاهرة من السماء ، وهؤلاء الورى مخلوقون من الأرض ، فلا شك أن فيها أنوارا[٧٧٣] باطنة يقف عليــها البصر الباطن من القلوب ، أضوأ من الأنوار الظاهرة التى يقف عليــها البصر الظاهر من العيون .

ثم لا شك أن الأنوار جمعت فى القبضة التى خلق منها آدم عليــه السلام ، فمنه خلق جميع هــذا العالم .

---

(٧٦٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٧٧٠) والنص القرآنى قاطع لأى شبهة . قال تعالى : ((**قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**)) (آل عمران : ٣١) ، وقال : ((**من يطع الرسول فقد أطاع الله**)) (النساء : ٨٠) . والاتباع والطاعة ليسا مقيدين بحال الحياة .

(٧٧١) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٧٧٢) سقطت من (ب) .

(٧٧٣) يمكن الاعتبار بما وهب الله الأرض من استعداد لانبات الخضرة والثمار والزهر المختلف الألوان والطعوم والمعدن واحد لادراك الأنوار الباطنة فى الأرض .

ثم أنوار السماء أربعة أنواع : نور الشمس المعروفة[٧٧٤] ينسخ كل نور ، ونور القمر دونه ولكن يكتفى به للمسير ، ثم نور النجوم المعروفة دونه ولكن يهتدى به البصير ، ثم نور النجوم التى ليست بمعروفة ما بها هداية ولا تنوير .

فكذلك أنوار القبضة على هــذه الأنوار الأربعة : نور النبوة ، ثم نور الخلافة ، ثم نور العلم ، ثم نور العقل[٧٧٥] .

طلع نور النبوة بآدم عليــه السلام ، ثم لم يزل يرتفع ظاهرا ومحجوبا بالغمام ، ومتجليــا ومكسوفا حتى بعث محمد صلى الله عليــه وسلم والشمس مكسوفة فى كبد السماء ، فتجلى بها صاحبها ، ثم لم يزل يزداد تجليا حتى كمل ، فكمل به الدين ، وتمت النعمة على المؤمنين .

ثم غربت بموته غروبا ما لها [بعده] طلوع الى يوم الدين ، وظهر بعده نور الخلافة ظهور نور الهلال تلو غروب الشمس ، لولا قربه من الشمس وتأثره بنورها ضل السارى فى مسيره ، لكنه الى ازدياد وتمام كنور الشمس ، وقد تجلى عنه الكسوف وحاجبه الى ازدياد وكمال .

فتكون العزائم بذلك السبب قوية ، والأمر بتأييده بنور الشمس سوية ، والهلال وان دق فعزيز مطلوب ، ونوره وأن دق فمنتفع به حسيب ، فقد وافق وقت نوره وقت نور الشمس ، ومدة بقائه حين حاجة الجنس ، فالهلال يزداد الى كمال ، وتجلى حاجب الشمس يزداد الى تمام ، لا فرق الا أن ذلك النور أغلب ، وان كان غيره أثقب[٧٧٦] .

وذلك التجلى أسرع ، فمداره على الساعات ، وهذا أبطأ ، فمداره على الليالى . وهــذا مثل خلافة أبى بكر رضى الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليــه وسلم .

---

(٧٧٤) فى الأصول : نور النجوم المعروفة ، وفيما بعد تحدث عن نور النبوة على انه نور الشمس . ولعله يريد بالنجوم المعروفة الذى ينسخ نورها كل نور : الشمس .

(٧٧٥) الشمس : النبوة . القمر : الخلافة . النجوم المعروفة : العلم النجوم غير المعروفة : العقل .

(٧٧٦) أثقب : أقوى واظهر .

وازداد الكمال ، فنسخ كل شريعة ، واستقامت قناة الدين بكثرة المسلمين ، وقوة المؤمنين ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وغرب نور النبوة ارتدت العرب عن الزكاة ، فاعوجت القناة ، وأقبل ظلام الكفر ، وخولف أبو بكر رضى الله عنه فى تقويمها بقتالهم حتى كاد لا يهتدى بنور النبوة لولا التقوى بأثر النبوة ، فاشتد أبو بكر رضى الله عنه وحده عليهم متأيدا بأثر نور النبوة تأيد الهلال بأثر نور الشمس .

فاستقامت القناة ، وهدى بالنور ، ثم لم يزل كان الى ازدياد حتى ذهب كافيا شافيا .

ثم سلم الى عمر رضى الله عنه القناة وهى مستقيمة ، فجد عمـر رضى الله عنه حتى طول القناة وقواها ، وتم القمر بدرا ، ما زاغ ولا طغى ، ولا ضعف ولا توانى ، حتى قتل رضى الله عنه .

وسلمت القناة الى عثمان رضى الله عنه وهى مستقيمة وقويمة ، وقمر الخلافة بدر ، فظهر النقصان فى أيامه ظهورا أخل بالاستقامة وان قل ، على مثال نقصان البدر ، فانه يوافق وقت الحاجة اليه من أول الليـل ، ولأن عثمان رضى الله عنه قعد عن تقويمها مخافة أن تتكسر ، فالاعوجاج كان ببغى طائفة من المسلمين (عليـه ، فخاف فرقة بين المسلمين)[777] فى قتالهم أو نبوة ، والله أعلم ، فصبر لهم حتى حل به القتل صبر هارون عليـه السلام فى قومه وقد عبدوا العجل .

فتسلم على رضى الله عنه القناة وبها عوج فسق ، وكانت سلمت الى أبى بكر رضى الله عنه وبها انكسار بردة ، فاشتد على رضى الله عنه لتقويمها ببأسه وسيفه وجنده ، فعجز وغرب نور الخلافة بقتله رضى الله عنه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الخلافة فى أمتى بعدى ثلاثون سنة » . وتمت الثلاثون بأيامه .

ثم صار الاهتداء بنور العلم ، فانه بمنزلة نور النجوم المعروفة ، والعلماء لا يكونون الا خواصا من الناس معلومين ، وهم الذين قد أبصروا بنور عقولهم حجج الله تعالى وآياته ، فصاروا هداة مرضيين بلا سلطنة وأمر ، كالنجوم المعروفين بعد الشمس والبدر .

والسارى بنور النجوم خائف الضلال والهلاك فى كل فصل ، فما يبلغ نور النجوم مواقع النعل ، وليؤلن الأمر بعد نور العلم الى العقل

(٧٧٧) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

بلا شرع وقد آل فتم الضلال عن الدين والاخلال ، فما العقل بلا تأييد شرع فى الأغلب الا وهو أسير لهوى ، أمير لا يشير على الهدى ، بل يشير الى طريق الهوى ، وانه بمنزلة النجوم التى ليست بمعروفة .

فالعقل مرزوق للجنس ، والجنس غير محصور ، وأكثرهم فى ضلال وغرور ، فدل هـذا التمثيل على تفاوتهم على هـذا الترتيب ، وشهدت بذلك سيرتهم الظاهرة ، وآثارهم الصادقة .

فقال الأخ : اذا غرب نور الخلافة بعد على ، فما بعدها تغالب ، أم ماذا ؟

قلت : انما هى امارة أو ملك ، فالأسامى التى تدور عليـها مصالح الدين والدنيـا أربعة : النبوة ، فانها مؤيدة بآيات من الله قاهرة ، ما يخاف فيها زيغ ، ثم الخلافة ، وانها مؤيدة بآثار أنوار من النبوة زاهرة ، ما يخشى منها ضلال ، فالخليفة لا يكون خليفة الا باستخلاف ، والمستخلف مؤتمن لا محالة ، وما مع الائتمار ضلال .

ولمـا قلنا : ان الخلافة من النبوة كالقمر من الشمس ، ونور القمر لا يكون الا من نور الشمس على قدر مقابلته اياها على ما سبق القول فيه .

ثم الامارة ، فقد أمر رسول الله صلى الله عليـه وسلم كثيرا من الصحابة ، وكما سمى الخلفاء الأربعة (الخلفاء الراشدين ، سموا)[778] أمراء المؤمنين ، غير أن الامارة من الأمر ، والأمر بالولاية ، والولاية تكون بتولية كالخلافة وبتغليب ، والمولى مؤتمر كالخليفة ، والغالب آمر (وفيه فساد الدين ، فما للعبد أمر)[779] من عنده .

ثم الملك ، فقد أخبر الله تعالى أنه آتى آل ابراهيم ملكا عظيما . وقال سليمان عليـه السلام : « **هب لى ملكا** »[780] . الا أن الملك من الملك ، والملك يكون باعطاء ويكون بأخذ ، والممنون عليـه بالاعطاء شاكر ، والمستولى بالأخذ قاهر ، وفيه ذهاب الدين .

فالقاهر هو الله تعالى . فأما مصلحة الدنيا فباقية ما لم يجىء التغالب ، ففيـه التفانى .

---

(٧٧٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٧٧٩) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .

(٧٨٠) سورة ص : ٣٥

وذهبت النبوة بوفاة الرسول الأمى صلوات الله عليه وسلامه ، والخلافة بوفاة على الرضى ، والامارة بذهاب بنى أمية ، والملك منقض بانقضاء بنى العباس ، وقد جاء التغالب أو قرب .

غير أنا سمينا ما لبنى أمية امارة لأنهم قاموا وقعدوا وفعلوا وتركوا وأثبتوا[781] مؤتمرين كالخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، وسمينا ما لبنى العباس ملكا ، فما كان فيهم من له سابقة معاوية ، ولا زهد عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنهما)[782] ، فكانوا دونهم بدرجة ، كما كانت بنو أمية دون الخلفاء الراشدين بدرجة ، رضى الله عنهم أجمعين .

وأما الدين فقد علق قوامه برهط أربعة : رهط الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، فالقلوب ما تسلم عن منام الغفلة ، ومع النوم[783] لا تسلم عن الهفوة ، وانما قامت قناة الدين بالأنبياء عليهم السلام بوحى من الله تعالى ، وتحريك من قبله بآيات ، حتى طار النوم[784] كله عن قلوبهم ، وعصموا عن الزيغ والضلال .

وكان قد خفى أثر النبوة بفترة كانت بين عيسى والرسول عليهما السلام واندرست أعلام الدين ، وغربت شمس الحق ، فقام برسول الله صلى الله عليه وسلم الحق[785] حتى تم القوام واعتدل ، ولاح وظهر بعلم يقين ، وعمل مبين ، وقول صادق ، والزام قاهر .

وانتقل[786] من بعد الرسول عليه السلام أمر الدين الى الصحابة ، وذهب سبب علم اليقين وهو الوحى من الله تعالى ، وبقى العمل والقول والالزام ، والامارة كانت للعلماء .

ثم انتقلت الامارة الى التابعين ، فذهب الالزام القاهر من العلماء لما انتقلت الامارة الى غيرهم ، وبقى القول والعمل . فكانوا يعبدون الله مخلصين ، ويفتون بالحق صادقين ، ما فى العمل ولا فى الفتوى مداهنة .

---

(781) فى (أ) : وتركوا ما اثبتوا .

(782) سقطت من (ب) .

(783) فى (ب) : ومع النور .

(784) فى (ب) : حتى طال النور كله .

(785) فى (ب) : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحق .

(786) فى (أ) : فانتقل .

ثم انتقل الأمر الى الصالحين ، فاختفت سيرة السلف المتقدمين ، وفتر الشأن الا نادرا بعد ما كان ظاهرا ، وبقى القول ما تغيرت فيهم المذاهب ، ولا تبدلت الطريق ، يعتقدون بالحجة ، ويفتون بغير علم .

ثم انتقل الأمر الى القرن الرابع ، فذهب القول أيضا الا على سبيل الندور ، وما لها من عبرة ، وصار الاسلام غريبا معنى كما بدأ غريبا دعوى ، وآل الأمر الى اتباع الرجال دون الحجة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » . وقال عليه السلام : « خير الناس رهطى الذى أنا فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب ، حتى ان الرجل يشهد قبل أن يستشهد ، ويحلف قبل أن يستحلف » . وحتى اتبع كل رهط واحدا من علماء التابعين والصالحين ، ما يستجيز مخالفة صاحب مذهبه ، وهو رجل مثله من الأمة ، ويستجيز مخالفة حجة الله القائمة عليه بخلاف عقيدته من كتاب الله أو سنة (رسول الله)[787] . وفى ذلك مخالفة صاحب مذهبه ، فان صاحب مذهبه ما استجاز اتباع واحد بعينه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل اختار قول البعض من سلفه فى حادثة ، وقول البعض فى أخرى ، على حسب ما شهدت به حجته بصحة قوله ، متمسكا بكتاب الله فى العمل بالحجة ، دون اتباع النظراء أو الآباء .

ولولا غروب آية الدين[788] عن القرن الرابع والا لبقى العمل بالحجة ، ولو بقى العمل بها لم يكن أبو حنيفة صاحب المذهب فى الاعتقادات كلها ، كما لم يكن حماد أستاذه صاحب مذهبه ، ولا على رضى الله عنه ولا عبد الله بن مسعود رضوان الله عليهما . وأهل الكوفة تلقوا[789] العلم عنهما .

وكما لم يكن لأبى يوسف ومحمد رضى الله عنهما [أن يخالفاه] وهما تلميذاه وأعلم الناس بحجته وأشدهم ورعا عن مخالفة[790] الأستاذ تعنتا ، وكيف يجوز ذلك والفتوى والقياس فتوى بغالب الرأى ، ولن

---

(٧٨٧) سقطت من (ب) .

(٧٨٨) فى (ب) : أيد الدين . والأيد : القوة .

(٧٨٩) فى (أ) : تلقنوا . (٧٩٠) فى (ب) : مخالفته .

يجوز اصابة واحد بعينه من جملة الناس على (كل)[٧٩١] الحقوق بغالب رأيه ، لأنه حينئذ يصير طريق الاصابة طريق اليقين[٧٩٢] ، وفى ذلك باطل ، حتى لا تجد الرجل[٧٩٣] اليوم من العلمــاء يتعصب لنصرة قول الخلفاء الراشدين أو يتشمر له مثل ما يتشمر لنصرة مذهب أبى حنيفة والشافعى ، ولولا اتباع هوى النفس لأخذته حميــة الدين لنصرة أقوال الصحابة • فلما لم تأخذه واستجاز الترك (والقول على)[٧٩٤] ما شهد له بصحته[٧٩٥] الحجة ، فكيف (لم)[٧٩٦] يستجز بمثله فى التابعين أو الصالحين[٧٩٧] • على هــذا أدركنا الأمة ، الا من غروب فيهم فقليل من عباده المهتدون •

فقال الأخ : لقد بلغتنا الأمد الأقصى فى علم مراتب الورى ، وقد بقى علم مراتب الزمان والمكان من الدنيا ، فقد امتحنا بأحكام متعلقة بهما ، كما امتحنا بتعلقها بالورى •

قلت : نعم ، ان الانسان خلق من قبضة مسلولة من الأرض ، وكان الفضل معلوما من حيث الصورة للوجة والرأس والصدر ، ونهاية الفضل للقلب فكان القلب لله تعالى على الخلوص ، ثم تفرقت القبضة عالمــا كثيرا ، وكان الفضل من حيث المعنى بنور النبوة ، ونور الخلافة ، ونور العلم ، ونور العقل ، على ما قلنــا • والنهاية لنور النبوة •

وكان الأنبياء عليهم السلام عبيد الله على الخلوص ، فكانت النبوة من الأنوار الأربعة كالقلب من الأعضاء الأربعة • ثم محمد صلى الله عليــه وسلم من قبضة النبوة بمنزلة القلب من الجسم على ما سبق القول فيه • وقد ظهر (ذلك)[٧٩٨] بكتابه ، فكتب الله المسماة أربعة • وقد وجب الرجوع الى القرآن ، كما وجب رجوع كل جسم الى القلب •

---

(٧٩١) سقطت من (ب) . (٧٩٢) فى (ب) : طريق النفس .

(٧٩٣) فى (ب) : حتى لا يحل لرجل .

(٧٩٤) سقطت من (ب) . (٧٩٥) فى (ب) : بصحة الحجة .

(٧٩٦) سقطت من (ب) .

(٧٩٧) اى ان العالم رضى ان يترك أقوال الصحابة تبعا لحجته ورأيه ولم يرض ان يترك أقوال الأئمة الأربعة أو احدهم اذا كانت هناك حجة تعارضها . اى : ان الناس فى القرن الرابع عرفوا الحق بالرجال ، ولم يعرفوا الرجال بالحق . ونلاحظ هنا تحرر الدبوسى ، ويبدو ذلك واضحا فى كتابه « تأسيس النظر » . (٧٩٨) سقطت من (ب) .

فكذلك الأماكن[٧٩٩] ، قد رجع فضلها الى مواضع أربعة : بيت المقدس ، والمدينـــة ، والحرم ، والكعبة •

فبيت المقدس كالرأس ، والمدينة كالوجه ، والحرم كالصدر ، والكعبة كالقلب • فكانت لله على الخلوص ، وأما سائر المساجد فلم تكن بقاعها فى الأصل على الخلوص لله تعالى ، وانما خلصت باعداد العباد اياهـــا للصلاة التى هى لله تعالى على الخلوص • والكعبة خلصت لله ، بحكم الله ، لا فعل للعبد[٨٠٠] فيها •

وكذلك الأزمان المفضلة (أجزاء)[٨٠١] أربعة : أشهر الحج بمنزلة الرأس ، ورجب كالوجه ، وشعبان كالصدر ، ورمضان كالقلب • فكان شهر الله على الخلوص ، (بحكم الله)[٨٠٢] لا باعداد الناس •

فصـــارت القلوب فى المعنى أربعـــة : قلب كل جســـم ، وقلب (جملة)[٨٠٣] العالم ، وقلب المكان ، وقلب الزمان • والعلم عليها : خلوصها لله تعالى •

وقد جمعت القلوب كلها للرسول عليـــه السلام : قلب جسمه ، وقلب جملة العالم على ما بينا : أن قلب العالم شجرة النبوة ، والنبوة قلب معانى القبضة ، وقلب الأرض ، فمكة مولده ، وقلب الزمان ، فرمضان شهر صومه •

فقال الأخ : قد كنت قلت من قبل : ان مكة رأس ، والمدينة قلب ، فكيف قد ناقضت ؟

قلت : (كلا)[٨٠٤] ، فذلك التفضيل منى على قدر المستنبط من الحكم ، وهـــذا التفضيل[٨٠٥] على الظاهر من القسم ، وقد ذكرنا : أن الظواهر غير البواطن • على أن القول الأول كان قولا باجتهاد ،

---

(٧٩٩) فى (أ) : وكذلك المكان .
(٨٠٠) فى (أ) : لا صنع للعبد .
(٨٠١) سقطت من (ب) .
(٨٠٢) سقطت من (أ) .
(٨٠٣) سقطت من (ب) .
(٨٠٤) سقطت من (ب) .
(٨٠٥) فى (ب) : وهو التفضيل .

فلا يوجب (العلم)[٨٠٦] والاعتقاد ، ولكنه مجوز[٨٠٧] ، ولا يمنع غيره[٨٠٨] .

وجملة القول فيه : أنه يجوز أن تكون هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة لحكمة أن الكعبة وان كانت بيت الله ، وقلب الأرض ، وأفضل بقعة ، فواسطة بين العبد وبين الله تعالى ، ما يصار اليها الا بأمر ، وذلك فى الحج والعمرة ، دون المجاورة . وعلى هذا التأويل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وان كانت القبور معظمة ، لأنهم عظموها حال الصلاة بغير أمر .

ولهذا كره أبو حنيفة مجاورة الكعبة ، ولم يتوطن بها أحد من الصحابة ولا من المشهورين من علماء الأمة ، ولهذا كان عمر رضى الله عنه يفرق الحجيج بعد قضاء النسك الى أوطانهم .

ويجوز أن تكون الهجرة : ألا يكون مكان أضيف الى الله تشريفا مضافا من دونه تعريفا ، ولو أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة لأضيفت اليه كما أضيفت اليه المدينة ومسجدها .

ويجوز أن تكون الهجرة لحكمة بيان فضل الايمان على المكان ، فمكة كانت أفضل بقعة ، ولزم أهلها الهجرة الى المدينة لمكان الملة .

ويجوز أن تكون الهجرة لحكمة بيان فضل المدينة باطنا ، وان كانت مكة أفضل ظاهرا ، على ما سبق القول فيه آنفا[٨٠٩] .

فقال الأخ : وعدت البشارة وأنجزت ، فما عليك لو جودت لها فصلا ، وأوجزت .

قلت : ان للآدمى من حين ينفصل عن الأم الى أن يستقر بدار الجزاء منازل أربعة : ظهر الأرض الى أن يموت ، وبطنها الى أن يبعث ، والمحشر الى أن يحاسب ، ودار الجزاء بعد الحساب .

---

(٨٠٦) سقطت من (ب) .

(٨٠٧) فى (م) : يتجوز . من نسخة ثانية .

(٨٠٨) يريد أن يقول : ان جهتى التفضيل منفكتان ، فالتفضيل هناك من جهة الباطن ، وهنا من حيث الظاهر .

(٨٠٩) وذلك فى دفاعه عن وجهتى نظره فى أن مكة كالقلب مرة والمدينة كالقلب أخرى .

فالله تعالى وعد له مرتبة الخلافة ، وهى شبيهة بالوزارة[٨١٠] على الأرض ، متى ثبت [المستخلف] على طهارة الفطرة . اما بنبوة على الحقيقة ، أو بعلم على الوراثة ، حتى كان رأى الفقيه فى الأحكام حجة بمنزلة الوحى[٨١١] . وأعلا مراتب الوزير : أن يغوص الى رأيه الأمر ، (الأمور ، الا)[٨١٢] مرتبة القرب من الأمير[٨١٣] .

ووعد له مرتبة الضيافة فى بطن الأرض حتى انتقل عن ظهرها الى مرتبة الخلافة ، ويقول[٨١٤] الله تعالى : « **تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** »[٨١٥] .

« **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون** »[٨١٦] .

ووعد لهم مرتبة الحكومة يوم الحشر على من كان على الضلالة[٨١٧] ، قال الله تعالى : « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس** »[٨١٨] .

و (الشهادة من) الشاهد على مرتبة الحكومة يوم الخصومة فى الصدر[٨١٩] مع الحاكم ، والخصوم جثى ، وقوله كقول القاضى[٨٢٠] حجة ومرضى .

ووعد لهم الملك الأبدى فى دار الجزاء من كان فى المحشر من الشهداء .

فهذا لك من الله تعالى : الخلافة وأنت حى فى الدنيا ، والضيافة

---

(٨١٠) فى (أ) : شبيهة الوزارة .
(٨١١) المراد بالفقيه : الثابت على طهارة الفطرة .
(٨١٢) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٨١٣) أما القرب المعنوى فنعم ، وأما الحسى فهو مراد المؤلف .
(٨١٤) فى (أ) : فيقول الله . (٨١٥) فصلت : ٣٠
(٨١٦) آل عمران : ١٦٩
(٨١٧) اضطربت العبارة فى (أ) هكذا : على متى كان على الضيافة .
(٨١٨) الآية من سورة البقرة : ١٤٣ ، ويشهد لكلام المؤلف سبب نزولها . (٨١٩) فى (ب) : مع الصدر .
(٨٢٠) فى (أ) : وذلك كقول القاضى .

وأنت من الموتى ، والشهادة والناس على دعوى ، والملك وملوك الأرض وأتباعهم فى لظى[٨٢١] .

وذلك كله بأربعة : ايمان القلب بالله ، واسلام الجسم لأمر الله ، وكفر القلب بالنفس ، وعصيان الجسم للنفس بحكم نهى الله . وفى الايمان نور ، وفى الاسلام سرور ، وفى الكفر [بالنفس] راحة ، وفى العصيان [لها] عزة على ما سبق القول فيه ، بل بشيئين : أن يرضى بالحكم الذى ما لغير الله فيه من خيره وأمر ، وألا يعمل طوعا الا بشرع ، عمل بدن كان أو صدر ، فتصيب بالرضا سلوة قلبك ، وبالائتمار نعمة ربك ، وان سبق عمل بغير[٨٢٢] أمر كرها بطبعك أو غيرك كان عفوا ، ولكن لا اهتداء الا بالله تعالى ، ولا ائتمار الا بتوفيق الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، اليه نرجع ، وبه نستعين ، والصلاة على محمد وآله أجمعين .

قال : هـذه مراتب العلمـاء ، فما العامة[٨٢٣] والمؤمنون ؟

قلت : ان كل واحد من المؤمنين أمين الله فى حياته ، فقد شرحنا بديـا أن الله خلق العالم كله خلقا بعد خلق ، يحمل الانسان منه أمانته وهى أوامره ونواهيه . وأصلها : معرفة الله ، وهو : النور الذى كان لأجله الصنع بماهيته[٨٢٤] . وكان ذلك بمنزلة الكنز لملوك الأرض ، وكان العبد بمنزلة الخازن للملك ، وقلبه بمنزلة خزائنه . وقد أمر الله تعالى وهو مالك الأمانة صاحب كل قلب عارف بحفظه الى أن يصيروا الى الآخرة ، مجاهدا بصدقه ، فقد خلقه فى دار الأعداء ، وضمن له النصرة على خلقه بعد ما وضعه موضعا لا تصل اليه يد أحد من الأعداء بحيلة ولا غلبة (ولا يقدر على قهره بامرة ولا طلبة)[٨٢٥] الا أن[٨٢٦] يجبن العبد فيطيعهم جبنا ، أو ينخدع بغرورهم فيساعدهم جهلا ، أو يغفل عن قدر الكنز فيضل عنه تهاونا ، أو يجهل قدر نفسـه[٨٢٧] فيرده تكبرا .

---

(٨٢١) فى (أ) : فى اللظى .
(٨٢٢) فى (ب) : وان تبقى بغير أمر .
(٨٢٣) فى (ب) : فالعامة .
(٨٢٤) فى (ب) : بمنانيه .
(٨٢٥) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٨٢٦) فى (ب) : الى أن يجبن .
(٨٢٧) فى (أ) : بقدر نفسه .

وان الجبن فى رجوع العبد الى ضعفه بالبعد عن ربه رؤيته بعينه[٨٢٨] ، وكلا ، فان الله تعالى أقرب اليه من حبل الوريد ، وأقوى بلا شك من كل العبيد[٨٢٩] ، و [فى] الانخداع فى رؤية زخارف الدنيا وطبقات الورى ، وكلا ، فما عنده من الكبر هو الخير والفوز[٨٣٠] ، وما سواه عند الأعداء غرور ، فالقسام حكيم ما يؤثر الأعداء على أوليائه بالنعيم .

وأما الطبقات من الذين لا معرفة لهم : فأعداؤه وحساده ، وما له عليهم من سلطان سلب الدين والايمان ، فلا يغترن بهم[٨٣١] اغترار التاجر فى سفره بأسلحة اللصوص وطراداتهم[٨٣٢] ودسيسهم وكلماتهم لحفظ ما عنده[٨٣٣] من الجواهر وان كانوا عساكر ، فالحفظ فى المجانبة اذا أمن المغالبة .

وأما الغفلة عن قدر الكنز ففى التدين اقتداء بالآباء ، واتباعا للنظراء[٨٣٤] ، فما الدين مما يقبل النقل ارثا ، ويصاب عادة وحسا ، وانما الوصول اليه من طريق الاستدلال بآيات الله ، والنظر فى كتبه ، فمن تدين ارثا هان عليه الدين ، فما الذى أصابه بدين يأنس به ، ولكنه دين يستوحش منه .

وأما الجهل[٨٣٥] بقدر النفس فبالغفلة عن المنعم بالنعيم ، وبقدرة النفس عن خالق القدرة[٨٣٦] ، فانه متى غفل عن خالق القدرة ولو بخطرة ، ادعت النفس الامرة ، واستعبدت الجسم ، وبدلت الاسم ، وقال : انى الاله المطاع ، والناس عبيد لى أتباع .

---

(٨٢٨) فى (ب) : رويته بعينه . (٨٢٩) فى (ب) : من كل عنيد .

(٨٣٠) فى (ب) : والفوز . والمراد بالكبر هنا : العزة .

(٨٣١) فى (ب) : يغترن لهم .

(٨٣٢) الطرادات : آلات الطرد .

(٨٣٣) فى (أ) : يحفظ ما عنده .

(٨٣٤) ومنه ما يصنعه جهال المتصوفة من استحداث وسائل للتربية ليس لها أصل فى التشريع : كقذارة الثوب مع القدرة على تنظيفه ، وكذلك الجسد ، وابتكار أوراد يلزمون بها أتباعهم ويقطعون صلتهم بالكتاب وأدعية السنة ، ولا يضمنونها أورادهم . ويجعل المريدون لهؤلاء الجهال أقوال هؤلاء الأدعياء حجة يصادمون بها حجة الكتاب والسنة .

(٨٣٥) فى (أ) : وانما الجهل .

(٨٣٦) فى (ب) : على خالق القدرة .

فاذا تنبه العبد لخالق[٨٣٧] قدرة النفس عرف قدرها ، ونهاها عن الهوى ، وخاف مقام المولى . واذا عرف الله تعالى بالنظر فى الآيات ، ولم يغتر بالزخارف والطبقات ، ولم يجبن فى الجهاد ومعه مولى العباد[٨٣٨] (عاش على ظهر الأرض خازنا أمينا معصوما مهيبا وفى بطن الأرض)[٨٣٩] مبشرا بالخلعة ، منتظرا للكرامة ، ويوم البعث محيا بالسلام ، مهنأ بالاكرام ، وفى الجنة معظما بالولاية ، وحسن العناية .

وهذه الدرجات كبيرة ، وان كانت الأولى أكبر ، يقول الله تعالى : ((**وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا**))[٨٤٠] .

وسبب هلاك الانسان بعد كل هذا الاحسان بجهلين وعلمين فى حق نفسه وربه ، وجهلين وعلمين فى حق العالم والخالق .

أما الجهلان الأولان : فجهل المرء بمولاه ، حتى اتخذ الهه هواه ، ولم يسع ــ وان علت همته ، وصفت حكمته ــ الا لاقتضاء شهوة من ملك أو مال أو رفعة[٨٤١] على علم ضرورى بارتداد كثير مما يريده ويبتغيه ، ويساس ما يرده من المكاره ويتقيه .

ثم جهل المرء بنفسه بعد العلم بمولاه ، فتسلكه النفس بهواه فى طريق هداه ، فيطلب بالدين والتقوى ما طلب الجاهل بالمولى ، فيكون الهدى[٨٤٢] مزيفا بالهوى ، والهوى منغصا[٨٤٣] بالهوى ، على يقين منه بهجس هوى الطبع بخلاف الشرع ، فدلت الارادة على المريد ، كما دل الارتداد فى الفصل الأول على العجز والخمود[٨٤٤] .

ولعمرى : ان طالب الدنيا بالدنيا خير من الطلب بالدين[٨٤٥] ، واقتضاء الشهوة بلا تقوى ألذ من المشوب بالتقوى بيقين ، والجهل بنفسه هو فوق الجهل بمولاه ، وهو غيره ، وان كان الجهل الأول[٨٤٦]

---

(٨٣٧) فى الأصول : بخالق . واخترنا ما فى (م) .
(٨٣٨) فى (ب) : مولى القياد .
(٨٣٩) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٨٤٠) الاسراء : ٢١
(٨٤١) فى (ا) : أو رفقة .
(٨٤٢) فى (أ) ، (ب) : الهوى . والسياق يقتضى ما أثبتناه .
(٨٤٣) فى (ب) : منتقضا .
(٨٤٤) فى (ب) : والجمود .
(٨٤٥) فى (م) : خير من طلب الطالب . من نسخة ثانية .
(٨٤٦) أى الجهل بالله .

كفرا كان الثانى[٨٤٧] شركا ، والشرك أفحش الكفرين ، وأقبح الأمرين .

أما العلمان المهلكان من هـذا القسم : فعلم المرء بقدرة نفسه على الخلوص ، أو قدرة الله على الخصوص ، فمن ظن القدرة لنفسه خالصة سمى نفسه الها من الآلهة ، وغالب واستعبد ، وما أطاع ولا عبد ، وذلك بنظره الى حسن تدبيره وتقديره ، وسعيه مختارا الى آموره ، فكان فى خطبه واتباع هواه فوق الجاهل بربه (وهداه ، فالجاهل بربه)[٨٤٨] جاهل شغلا بهواه ، والهوى معلوم طبعا ، فأى حركة مراد فيه تتبين هجسا ، وهـذا شغل عن قدرة الله بقدرة نفسه ، والنفس صاحبة الهوى ، وهى غائبة دون الهوى عن طبعه وحسه ، ما تعلم باستدلال عقلى أو سماع شرعى ، ومتى علمها العبد كان أطوع لها ممن جهلها بقلبه ، وانه ليرد على هـذا العلم ما يرد على صاحب الهوى ذلك الحكم .

فارتداد ما تهواه النفس الأمارة أكثر من الاصابة ، ولن يصيب شيئا ما ما لم يكن الجسم على اجابة .

ثم العـلم بالله تعـالى على الخصوص لكونه خالقا ، ولا خلق بلا قدرة ، وكون العالم مخلوقا ، ولا قدرة مع انخلاق[٨٤٩] .

فمن ادعى القدرة لله تعالى على الخصوص لم ير لنفسه فعلا ، كما لم ير للجماد أصلا ، وأضاف حدوث الأفعال الى الله تعالى اضافة الأقسام فرآه كلها حسنة ، فما فعل الله بقبيح ، فيبرأ عن الآثـام [بزعمه] ، وأتى بكل الملاهى ، وركب المناهى وهو عالم بالله غير ساهى ، والعصيان بعد العـلم فوق العصيان على جهل ، بعد حجة قائمة على قدرته بحركات اختيارية ظاهرة ، وتدبيرات عقلية باطنة[٨٥٠] ، فكانت هـذه الغفلة فوق الأولى ، فقد غفل عن ظاهر منه وفيه ، والأول عن باطن مباينه .

وأما الجهلان الآخران بعد العلم بأن الله تعالى خالق ، والعـالم مخلوق ، فالجهل بكون المضار والمنافع من الله تعالى بقدر حتى يراه

---

(٨٤٧) اى الجهل بالنفس وحقيقتها .

(٨٤٨) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .

(٨٤٩) فى (ب) : بالانخلاق .

(٨٥٠) وهذا يحدث كثيرا فى عصرنا ممن يدعون انفسهم بالمجاذيب المـأخوذين فى الله ، يكثرون من الحديث عن الله وهم يرتكبون كل الآثام بحجة انهم من أهل الحقيقة . وهو عين الضلال .

من العالم الأصغر والأكبر ، فيشتغل بالعالم دون خالقه رغبا أو رهبا فى طرائقه[851] ، فيصير كافرا جنانا ، وهو مؤمن لسانا ، يشهد على كفره فعله ، وتكذب شهادة لسانه عقده ، وانه لشر الثلاثة .

فقلبا الأولين كانا مع لسانيهما ، فكانا بالقلب واللسان مقبلين على شأنيهما وكذلك شأن كل من أحب شيئا ، فانه يعمى وهو بصير ، ويصم وهو سميع ، كما كفر هـذا وهو عارف بقلبه ، وبظاهره مطيع . وعلى هـذا الأساس عامة الناس كما قال الله تعالى : « **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ..** »[852] الآية . بلا عقد سمع وطاعة ولا ايمان بالجزاء والساعة مع قيـام الحجة على أنها من الله تعالى . وكم من طبيب مات قبل الجاهل ، وكم ممن بعيد عن الطبيب عاش دون الواصل ، وكم من حكيم وضعته دولتـه ، وسفيه رفعته دولتـه ، وربما غلا فى هـذا العالم وترك الظواهر بالطبائع ، وخالط الأطباء ، وعد نفسـه من الحكماء ، وانه باب باطن الآخرة ، سر عن علم البشر ، فيشتغل به معرفة الأكبر ، وربما أخطأ فقتل نفسـه فيما دبر ، وربما جاوز علمه بطباع نبات الأرض فيزداد ضلالا ، وربما ضل فى طريقه الأول غافلا عن ضلاله ،فيطلب شيطانا وهو فيلسوف عنده [أى عند الطلب] بخباله ، وكان كطائر فى الهواء بلا جناح وراكب فلك بلا ملاح .

والجهل الثانى : الجهل بتعلق المضار والمنافع بالطاعـة أصلا ، فيرميها رمى القذرة ، شغلا بالله ذى القدرة ، فيصير خلقه له عبثا ، والاقبال عليـه سفها ، فيكفر بالله وهو منقطع اليـه ، ويسفه ربه وهو واقف بين يديـه ، فكان شرا من صاحبه ، فانه زل وهو مع الدنيـا ، وهـذا ضل وهو مع المولى ، وذلك عمى رجوعا الى الخلائق ، وهـذا عمى يكون الى الخالق وهـذا سفه ربه ، وانه فوق من حكم قلبه .

وعلى هـذا عامة أوليـاء العزلة قبل العـلم بحقيقة الملة ، بعد آيات ظاهرة على الله تعالى على تعلق المضار والمنافع بالدنيـا والورى ، فبعضهم يقتل بعضا ويحييه ، ويحرمه ويوليـه ، وينفعه ويؤذيه ، وكذلك من النبات ما يمرضه ويشفيه ، ومن النجوم ما يضع قدره ويعليـه ،

---

(851) ومن هؤلاء المشتغلون بالسحر والأوفاق والأزياج للوصول الى الله ، ولاستنزال الأرواح ، على طريقة البونى فى شمس المعارف وغيرها .
(852) لقمان : 25

وكم من أرض تنبت قوته وتزكيه ، وكم من رسول جاءه من الناس يهديه ، وكم من بقعة تعلقت بها النجاة ، ووقت تعلق به ابتغاء المرضاة •

وأما العلمان المهلكان : فعلم الناس أحرارا ملاكا بظاهر أيديهم وأمورهم ، وأمراء ملوكا بظاهر علوهم وتدبيرهم ، فتميل اليهم لارادة طلبة أو غلبة على غفلة ، وبمعاداة بعضهم بعضا ، ومنازعتهم على الأرض طولا وعرضا ، طمعا أو حسدا ، والمائل الى عدوه راكنا اليه مرحوم ، وسائلا محروم •

ثم علم الأرض جنته بما يرى عليها ، والسماء زينته بما ينزل منها ، فيطلب موافقة النجوم بحسابه ، ومعانقة الأرض بطلابه ، على غفلة عن التقام الأرض اياه ، وهو بين الناس ملك ، وانتقام النجوم بنحوسها منه وهو فى حساب الفلك ، ولا عذر له عن الغفلة ، فالالتقام بعد الموت ظاهر ، وشهاب العداوة بين الناس نائر •

ثم هذا فوق من قبله سفها[٨٥٣] ، فالأول جعل خلقه عبثا ، وهذا جعل العالم بعضه ملكا ، وبعضه خولا ، وبعضه خدما (وبعضه ملكا •

والعلم الآخر : علمه الناس عبيدا)[٨٥٤] أرقاء لله ، وما سواهم حقا لله تعالى ، فيكف عن العمل به كأنه جماد ، فعمل العبد ملك لمولاه ، ويكف بهذه الحجة عمن سواه ، على غفلة ، عن ضروب أعمال وحركات اختيارية من العباد لا يمكنهم الكف لابتغاء مراد وغفلة عن تربى الأطفال برضاع النساء وقيام الرجال ، وقيام (النفس)[٨٥٥] بما لا يصل اليه شىء من خبره الا بمقدمات من غيره ، وبقاء الجنس من طريق ازدواج النفس بالنفس •

(ولا عذر له)[٨٥٦] فى أمور عيان (غير)[٨٥٧] مفتقرة الى بيان ، وهذا شر الجميع ، فصاحبه[٨٥٨] اغتر بالنعيم فلم يشكر ، وهذا

---

(٨٥٣) فى (ب) : تسفها .
(٨٥٤) ما بين الحاصرين سقط من (ب) .
(٨٥٥) سقطت من (ب) .
(٨٥٦) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٨٥٧) سقطت من (ب) .
(٨٥٨) فى (أ) : وصاحبه .

كفر بالنعمة وأنكر ، وانكار النعمة فوق الاقرار بها بلا شكر بدرجة ، مع ما أن الأول عاش بالناس مستأنسا بهم ، وبالأرض منتفعا بها ، وبالنجوم مهتديا بها ، وهــذا بالكف أهلك نفســه بنار الجوعة فى وحدة الوحشة .

واعــلم بأن النجاة فى تبديل الجهل كله بالعلم ، فالجهل ظلمة ، والعــلم نور ، والعــلم كله فى التجاوز عن عــلم المقصر ، والوقوف عن عــلم[٨٥٩] الغالى ، ففيــه الحكمة .

فالغالى من جاوز حد العلم ، والمقصر من لم يبلغه ، ووراء حد العلم جهل ، كما دونه ، وجهل الغالى شرهما ، فانه لا يعلم الا برجوع ، والمقصر يعلم باقبال ، والرجوع بعد السير أشق على النفس من زيادة أميال .

فنقول وبالله التوفيق : ان الواسطة من الباب الأول : أن يعلم المرء نفســه عاجزة بذاتها ، لولا طاعة الجسم اياها لمــا ارتفع[٨٦٠] له شىء من اراداتها ، فيعتقدها طاغوتا ولا يظنها الها ، فهو القادر ، فيكفر بها ولا يطيعها[٨٦١] ، بل يقهرها .

ثم يعلم حياة الجسم بها ، ولا قوة له على أداء ما حمل من الأمانة ، واقامة ما فوض اليه من أمور الخلافة دونها ، فيحسن اليها ويبرها ، فيهينها بعجزها فى ذاتها ، ويبغضها لهواها ، ويقبلها ويحسن اليها لعونها بحالها على عمل[٨٦٢] الآخرة ، فيكون الهوان أصليا ، والقبول حاليــا .

ثم العلم بالله الها ، فما بعد النفوس[٨٦٣] وقفة للتأمل الا اليــه ، فيصير مؤمنا حقا ، وماضيا على السمع والطاعة صدقا ، كما قال تعالى : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى »[٨٦٤] .

وقال عليــه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله » .

بدأ بالنفى ، ثم الاثبات ، فصار النفى أساسا للتوحيد ، والاثبات بناء قبل الأساس ، وعليه أكثر دينهم[٨٦٥] .

---

(٨٥٩) فى (أ) : على علم الغالى : وهو عكس المعنى المراد .
(٨٦٠) فى الاصول : لمــا ارتفعت . واخترنا الصحيح .
(٨٦١) فى (ب) : ولا يطغيها .
(٨٦٢) فى (ب) : على علم الآخرة .
(٨٦٣) فى (أ) : النفس .
(٨٦٤) البقرة : ٢٥٦
(٨٦٥) فى (أ) : وعليــه أكثر الناس .

ثمَ يطلب الواسطة بين علمي القدرة ، فلا يعد نفسه قادرا مطلقا كأنه اله ، ولا عاجز أصلا كأنه جماد ، بل يرى القدرة له باقدار الله تعالى اياه عليه حال فعله ، حتى لا يعمل الا وقد اقتدر ، ولا قدرة له حال الفعل الا بقدر ، فقد عرف نفسه مخلوقا ، والمخلوق عاجز ، وهو مخلوق بذاته . ثم عرفه حيا ، والحى قادر ، وانه من صفاته ، فيكون عاجزا بأصله ، قادرا حال فعله ، على ما مر بيانه فى فصله .

واياه والغفلة ، فالعمل عن اختياره دلالة على القدرة ، وانه ظاهر ، وكون الذات مخلوقا دلالة على العجز ، وانه باطن ، فيرى رب القدرة بحكم العجز ، وانه ذاتى ، ونفسه بحكم القدرة وانه حالى ، فتصير رؤية الله أصلا ، وهذا فرعا ، كما بينا فى الفصل الأول ، وللأصل دوام ، وللحال انقضاء[866] ، فيكون بقدر الوقوع .

ثم يبدل الجهلين الآخرين بعلمين : فيعلم أن أصل المنافع والمضار من الله تعالى ، منها ما علق بأسباب مسخرة ، أو بأفعال مختارين ، ومنها ما أوجب بلا واسطة من المخلوقين ، فلا يشتغل بالسبب عن المسبب ، ولا يغفل عن القادر بلا سبب لتصير الأسباب قائدة الى الله تعالى بعد ما كانت شاغلة عن الله تعالى . وقد بدل بما قلناه الجهل الثانى الى علم ، فقد أثبتنا النفع والضر للعالم من حيث كان سببا ، وما جعلناه أمرا لا فائدة فيه عبثا .

وهذه كالتجارة المربحة لا تكون عبثا ، وكان[867] الأصل فيها السلعة المرغبة ، وبها صارت الصفقة[868] مثمرة ، فيصير الرغب فى الله ، والرهب منه أصلا ، ومن العالم حالا ، فلا يحب العالم ولا يخافه لذاته ، بل لله تعالى ، فانه من آياته ، فيكون الحب فى الأصل لله الخالق ، لا للعالم المخلوق ، (وذلك)[869] كما يجب حب الكعبة لأنها بيت الله ، وحب رمضان لأنه شهر الله ، لا لأنه زمان ، ويجب حب رسول الله وطاعته لأنه رسول الله ، لا لأنه انسان ، فيصير العالم على هذا الوجه محبوبا بالله ، ومذكر حب الله ، بعد ما كان شاغلا عن حب الله ، وسببا حال الجهل للكفر بالله ، ويصير العبد بقصده معرضا عن

---

(٨٦٦) فى (أ) : وللحال تبدل .
(٨٦٧) فى (ب) : وان كان الأصل .
(٨٦٨) فى (أ) : الصفة . (٨٦٩) سقطت من (أ) .

العالم بأصله ، فالسبب لا يقصد لنفسه ، بل لاصابة البغية ، ولا يباشر الا عند الحاجة ، وكان على مثال الغواص والبحر وصدف الدر ، يركب البحر ، ويغوص فيه لا له ، بل للآلية .

ثم يطلب واسطة أخرى بين العلمين المهلكين ، فلا يجعل الناس أحرارا ملاكا على الاطلاق ، ولا مملوكين ما لهم شيء من حكم العتاق ، ولا الأرض جنة نعيم ، ولا سجنا للعذاب الأليم ، ولا السماء ربا اليه القدر ، ولا لغوا لم يعلق بها خير ولا شر ، بأن يعلم الناس فى أقسام أبدانهم مملوكين مترددين تحت الجبر كما فى الجهاد ، وفى أقسام أفعالهم مختارين كأنهم ملاك ، فلا يرى لنفسه المشيئة فهو عبد فى أصله ، ولا ينكر الخيرة ، فهو مالك فعله ، فيقف بين حرمة واطلاق للتبيين ، ولا تبين الا بنظر واستدلال عقلى أو سماع شرعى : فما له اليه اهتداء بطبعه حتى يعقل ، ولا بعقله حتى يعتدل ، ولا باعتداله حتى يستدل ، ولا يتيسر له حتى يسمع ما يدل ، فصار الوقف متبينا أصلا ، والعمل بعد الاستدلال حالا ، فلا يبدل الأصل على سبيل الخيرة الا اذا قامت الحجة ، وفيه النجاة عن مهالك اللجة[870] .

فيصير الانقطاع عن الناس أصلا ، فلا ولاية مع العبودية ، وهى ثابتة لأصله ، والاتصال فرعا ، فالولاية مع الحرية ، وهى ثابتة فى حق فعله .

فيكون مع الله بذاته ، فهو عبده وملكه ، ومع الناس بفعله ، ففيه ظهر فلكه[871] ، فيصفو لله بذاته ، ويهدى خلق الله بفعله ، فيصير للناس[872] الى زيادة الهدى بابا ، بعد ما كان حجابا .

ثم يعلم ظهر الأرض سوقا[873] للاسلام الى ربه الكريم بأدنى رأس مال فى الملك العظيم ، فلا يرضى بالسوق بعينها[874] مسكنا ، ولا بالعقل لذاته سكنا ، بل يأتيها للمسلم فيه ، ويستبطىء حلول الأجل شوقا اليه . فتصير الدنيا سوق التاجر ، بعد ما كانت سجن العابد .

---

(٨٧٠) فى (أ) : مهالك اللحجة . واللحجة : الطريق الضيق .
(٨٧١) فى (أ) : فقد ظهر فلكة .
(٨٧٢) فى (أ) : فيصير الناس .
(٨٧٣) فى (ب) : شوقا .   (٨٧٤) فى (ب) : بعينه .

ثم يعلم ما على ظهرها من النعيم أنموذجا من الخلد الكريم ، فيذوقه رغبة فى السلعة ، ولا يقنع[875] به فما به شبعة ، فيهينه لذاته فما به كفاية ، ويأخذ بحاله[876] ففيه هداية .

ثم يعلم بطن الأرض ، فهى قبره ، وظلمة دهليز الجنة ، فمن القبر يقوم الى الحشر ، فلا يعده سجنا ، فالسجن بيت العقوبة ، وهذا دهليز دار المثوبة . فيتسارع اليه للخروج عنه ، لا للمقام ، فهو فى ذاته مظلم مضيق ، وانما حسن لأنه الى الجنة طريق .

فيدخل مستورا بسلام وبشارة ، بعد ما كان يكرهه بكلام وعبارة .

ثم ينظر الى الأفلاك بنجومها نظر ابراهيم عليه السلام فى أمورها ، فيجدها دليلا على الله ، فيعرض عنها لذواتها ، فجريانها على تسخير ، (ويقبل عليها)[877] بدلالتها ، ففى دلالاتها هدى ونور ، ولا يشتغل بعلم ما تعلق بها من المقدور ، فان خفيه[878] سر عن البشر ، وجليه مقرون[879] بخطر . وان علم لم يكن بيده رد ، ولا فرار بجد ، الا بمن سخرها[880] وأدارها وقدرها ، فيتبرأ عنها الى الله تعالى ، فكان من ضل بها عن الله تعالى ، وأحبها حب من هداه مكان بغض من أغواه ، لكن حبا بالحال على نحو ما مضى من المثال فى الغذاء والدواء والمسكن الشريف ، وبيت الكنيف .

وتمام القول فى القدر : أن الناس فيه على أربعة أقسام : متبرىء عن قدر الله بقدرته وانه المتزندق ، ومتبرىء عن قدرته بقدر الله وانه لمتفسق ، ومؤمن بقدرته عن قدر الله بلا تفصيل ، وربما أمالك هذا عن سواء السبيل ، فانا نخاف أن تزين له من عباداته اذا رآها بقدرته فيعجب بها ، ويهون عليه حال المعصية اذ يجدها بقدر من الله تعالى ، فيثبت عليه ، فكان اعتقادا صحيحا لكنه غير مجبور على المهالك .

والقسم الرابع هو المؤمن بقدر الله غير منكر لقدرته عقيدة ، فارق بين الخير والشر اضافة ، قائل بأن أعمال الخير من الله ليبرأ بالافلاس عن العجب ، وأعمال الشر منى ليفطم عليها حاله فيما عصى ،

---

(٨٧٥) فى (ب) : فلا يقتنع . (٨٧٦) فى (أ) : لحاله .
(٨٧٧) ما بين الحاصرين سقط من (أ) .
(٨٧٨) فى (ب) : فان حقه . (٨٧٩) فى (ب) : وجبلية مقرونة .
(٨٨٠) من قول : وان علم . مضطرب جدا فى (ب) .

فيتدارك بالتوبة، فيكون الاعتقاد صحيحا وسطا عدلا من المسالك ، محترزا بتفرقة الاضافة عن المهالك ، كما نطق القرآن بمثله فى أقسام الخير فقال الله تعالى : **« ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك »**(٨٨١) .

فالله تعالى هو المقدر للأمرين ، والقاسم الحاكم على الحقيقة .

وكذلك قال حكاية عن ابراهيم عليه السلام : **« واذا مرضت فهو يشفين »**(٨٨٢) . ليكون اضافة المحبوب الى الله تعالى سببا لزيادة الرغبة فى طاعته ، والمحبة اياه ، واضافة المكروه الى العبد سببا لترك العبد ما كان منه من المعاصى فيتوب عنها ، فيخرج عن المكروه .

فقال : أليس الله تعالى قال حكاية عن ابراهيم عليه السلام : **« والذى يميتنى ثم يحيين »**(٨٨٣) ؟ أضاف الأمرين الى الله تعالى . وقال موسى عليه السلام : **« ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء »**(٨٨٤) .

قلت والله أعلم بتأويل كلامه : ان ابراهيم عليه السلام انما أضاف الاماتة والاحياء الى الله تعالى لأن قضاء الجسم حتم ، والآجال محدودة ، وما خلقنا الا للموت ، غير معلق وجوده بسبب من العباد كالاحياء ، فلما لم يكن الموت بسبب من العباد لم تستقم الاضافة الى العباد بلا سببهم فأما الأمراض وسائر المكاره التى يجوز سلامة الخلق عنها والابتلاء بها فى الجملة فليست من الكائنات لا محالة فى أصل الحكم ، بل الله تعالى علقها بعوارض تكون من العبد ، فصحت الاضافة الى العبد بكينونة العوارض منهم ، وان كان الله تعالى هو المقدر والقاسم .

ولأنا أضفنا اليهم المكروه ليكون سببا للانزجار عما أوقعهم فيه ليسلموا عنه ، و لاسلامة عن الموت ، بل تجب اضافته الى الله تعالى ، هدما لذاته ، وتذكيرا لعجزه .

حتى اذا آل الأمر الى القتل أضفناه الى القاتل ، لكينونته بسبب منه ، وليتزجر عن مثله بالتزام حكمه بصحة الاضافة اليه .

---

(٨٨١) النساء : ٧٩
(٨٨٢) الشعراء : ٨٠
(٨٨٣) الشعراء : ٨١
(٨٨٤) الأعراف : ١٥٥

على أنى أوجبت عليــك اضافة الأمرين الى الله تعالى ابتداء لاثبات القدر اليه ، وهو الأصل ، ثم استحسنت التفرقة فى الاضافة بعد ذلك فرارا عن العجب وهو الحال ، فلم تكن العبادة على ما عليــه الأصل خطأ ، وعلى ما عليــه الحال كانت حسنا .

فسبحانه من ملك حق باطن ، ابتلى بمعرفته كل قلب بصير ، وطريق الحق خفى بين طرفى الغلو والتقصير ، حتى عمى عنه الجاهلون ، وضل عنه العالمــان على السبيل ، ولم يعرفه من العلماء الا الوسط القليــل ، ابانة لعزته ، ولم ير الوسط الا بتوفيق منه ، وعناية من لدنه ، ابانة لرحمته .

فله الحمد على ما أرانا وهو العزيز ، وعلى ما هدانا اليــه وهو الرحيم حمدا نستحق به الثبات لديــه على السمع والطاعة . والصلاة والسلام على رسوله محمد سيد أهل الساعة ، وصاحب الشفاعة ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه أجمعين ، والتابعين والصالحين ، وعامــة المؤمنين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النصــير ، (وصلى الله على سيدنــا محمــد وآله وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين)(٨٨٥) .

« تم بحمد الله وعونه »(٨٨٦) .



---

(٨٨٥) ما بين الحاصرين لا يوجد فى (ب) .

(٨٨٦) فى (أ) : تم الكتاب بعون الله فى اليوم الرابع من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة [من الهجرة] . فى بلدة مصر .

أهم مراجع التحقيق

١ ــ القرآن الكريم •

٢ ــ العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية ــ لسيدى مصطفى البكرى الصديقى : (مخطوط) بدار الكتب المصرية ، ومنه نسخة أخرى بمكتبة الأزهر وهو موسوعة جمع فيها المؤلف أقوال السابقين المعتمدين فى النفس ودسائسها وعلاج تلك الدسائس • ويعتبر مصدرا من مصادر الدراسة النفسية الاسلامية الخالصة •

٣ ــ الحدائق ــ لابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن) : مخطوط رقم ٣٧٧ حديث بدار الكتب المصرية عليه اجازة من المؤلف • جمع فيه من معتمد السنة ما يساير الانسان فى حياته منذ ولادته الى أن يبعث من قبره ، ويعتبر أجود ما صنفه ابن الجوزى ، وخرج أحاديثه ، وضم اليها مختارات من أقوال السلف ويقع فى ثلاثة أجزاء ، وقد قمت بعون الله بتحقيقه •

٤ ــ المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح ــ للحافظ الدمياطى : مخطوط فى مجلد رقم ٤٧٨ حديث بدار الكتب المصرية • جمع فيه مؤلفه كل حديث نص الرسول صلى الله عليه وسلم فيه على ثواب عمل من الأعمال وبوبه وخرج أحاديثه ، ويعتبر أجمع ما صنف فى فضائل الأعمال • وقد وفقنى الله لتحقيقه •

٥ ــ المعتمد من المنقول فيما أوحى الى الرسول ــ لبهاء الدين حيدر بن على بن حيدر الفاسى : مخطوط رقم ٢١٠٢ بدار الكتب المصرية • جمع فيه مؤلفه كل الأحاديث التى عثر عليها معتمدة وثيقة ، ولم ينقل فيها سقيما فيما يتصل بالقرآن الكريم فى غريبه وتفسيره وأسباب نزوله وناسخه ومنسوخه • فجاء محكما فى هذا الباب ، وأباح لمن يعثر على وثيق من السنة أن يضعه فى مكانه من الكتاب • وقد قمت بتحقيقه بعون الله •

٦ ــ الزهد ــ للامام أحمد بن حنبل : جمع فيه الامام ما فى السنة من زهد النبى محمد صلى الله عليه وسلم وزهد الأنبياء ثم زهد الصحابة والتابعين حتى عصره ولكنه غير منظم ، اذ تداخلت الأسماء بعضها فى بعض ، وقد طبع منذ ثلاثين عاما • وقد قمت بحمد الله وعونه بترتيبه وتبويبه الى تراجم للزاهدين تجمع أقوال كل زاهد وكل نبى وصحابى على حدة •

٧ ــ عدة المريد الصادق ــ للعلامة أحمد زرون : ويسمى بالبدعة والسنة • محص فيه مؤلفه السلوك الاسلامى الصحيح ، ونفى عنه كل البدع ، وفصل القول فى ألوان تلك البدع التى دخلت على السلوك الصوفى وبين أسبابها وحذر منها • وقد حققه أحد تلاميذ الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود •



محتويات الكتاب

الصفحة



